في رحاب العظمة

(تأملات إيمانيه في أسماء الله الحسنى وصفاته العلى)

كتبه/

عادل بن عبدالعزيز بن أحمد الجُهني

الطبعة الثانية

١٤٤٦هـ / ٢٠٢٤م

ح عادل عبد العزيز أحمد الجهني، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجهني، عادل عبد العزيز أحمد

في رحاب العظمة

(تأملات إيمانية في أسماء الله الحسنى وصفاته العلى)

عادل عبد العزيز أحمد الجهني، الرياض، ١٤٤٤ هـ

ط١، ص ٤٧٧؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٧-٢٦٩٩-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

١- الأسماء والصفات أ. العنوان

ديوي ٢٤١ ١٤٤٤/٣٢٠١

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٣٢٠١

ردمك: ٧-٢٦٩٩-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد للهِ الملك العلّام، الكريمِ الوهّاب، ذي الفضل والطوْل والإحسان، له الأسماء الحسنى والصفات العلى التي ليس لها نظير أو شبيه أومثال، أحمده وهو أهلٌ للحمد، لا يُحصي أحدٌ ثناءً عليه، جاد على خاصّة عباده بأشرف العلوم، وهو: العلمُ به.

فدلّهم لخير معلوم، وأشرف مطلوب، وأعزّ مبذول، فتبيّن لهم السبيل، ووضح لهم الطريق، فاستنارت قلوبُهم بمعرفته، وخضعت جوارحهم لطاعته، واستكانت قلوبهم من خشيته، ولهجت ألسنتهم بذكره وشكره، ففازوا بالحياة الطيبة ودخلوا جنّة الدنيا قبل جنّة الآخرة.

والصلاة والسلام على أعلم الخلق بربِه، وأخشاهم لمولاه، وأعظمهم حبّاً لخالقه، مَنْ قام بعبادته خير قيام، وأكمل مراتب العبودية للرحمن.

أمّا بعدُ

فإنّ العلمَ بالله أشرفُ العلوم، وأعلاها قدراً، وأسماها منزلة، وأرفعها مرتبة لأنّه متعلق بالله عَزَّوَجَلَّ.

والعلم إنّما يشرُف بشرف المعلوم -ولا أشرف من العلم بالله- قال ابنُ العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: (شرفُ العلم بشرف المعلوم، والباري أشرف المعلومات،

والعلمُ بأسمائه أشرف العلوم)[١].

وقال ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والعلمُ النافع: هو ما عرّف العبد بربه، ودلّه عليه حتى عرفه، ووحّده وأنس به، واستحى من قربه، وعبده كأنه يراه)[٢].

وقال ابنُ القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أطيبُ ما في الدنيا معرفته سبحانه ومحبته، وألذُّ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته)[٣].

وعِلمُ الأسماء والصفات أقرب الطرق للعلم بالله، فهو يعرّف العبد بربه، ويُبصّره بعظيم حقه، ويدلّه على صفاته التي تفرّد بها، فيُؤمن بربٍّ عظيم، له الجمال والجلال، منعوتًا بنعوت بالكمال، مستحقًا للعبادة دون سواه.

وهذه المعرفة من أعظم ما يُنمّي الإيمانَ في القلب، ويزيد اليقين في النفس، ويعزّز الثبات على طريق الحق.

ومن عرف حال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو أعلم الخلق بربه- وكيف كان يجد اللذة في مناجاته، ويملأ التعظيم قلبه، وتسكن الخشية جوارحه، وذلك من أثر معرفته بربه والعلم به، أدرك عندها فضل هذه المعرفة، وأثر هذا العلم على العبادة والسلوك، فسعى جهده، وبذل وِسعه للزيادة منه، فالحاجة للعلم بالله ماسّة، والاضطرار إليه كبير، قال الشيخ عبدالله الغنيمان -حفظه الله-: (أعظم ما يحتاجه العِبَادُ وأشرفه هو: معرفتهم ربهم بأسمائه وصفاته، وما يجب له ويستحقه، ويُحمد ويُمجّد به، ويُثنى به عليه؛ لأنّ هذا من أفضل العبادة التي أوجبها الله عليهم)[٤].

---

(١) أحكام القرآن [٢/ ٨٠٤]
(٢) فضل علم السلف على الخلف [ص ٦٧]
(٣) الجواب الكافي [١/ ١٦٨]
(٤) [شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري:١/ ٥].

فهو أولى العلوم بالرعاية، وأجدرها بصرف الجهد والعناية، ويحتاجه الناس -خصوصًا في هذه الأزمنة- التي طغت فيها الماديات، وأصبح الهمّ الأغلب للدنيا وملاذها.

ولمّا ضعف العلم بالله وأسمائه وصفاته ضعف تعظيمه في النفوس، وتجرأ الخلق على المعصية والمخالفة، وزادت ظنون السوء به، فتَبِعات الجهل بالله وخيمة على صاحبها، فما عصى اللهَ مَنْ عصى، ولا ضلّ مَنْ ضل عن السبيل، ولا قصّر في حقه من قصّر إلا حين جهل عظمت ربه، وضعفت بصيرته عن تدبّر معاني أسمائه وصفاته.

ولمّا أهمل السائرون إلى ربهم هذا العلم -أيضًا- لم يجدوا لذة الأنس به، وفاتهم ذوق طعم وحلاوة الإيمان الناتج عن هذه المعرفة، فإنّ لهذا العلم ثمرات على صاحبها لا حصر لها، فمن أعظمها:

معرفة حق الله وقدره، والسعي في طلب مرضاته، والحرص على طاعته، فكلما كان العبد أعرف بربه كان أعظم عبوديةً له، وأخلص له في العبادة، وأبعد عن الشرك، وأكثر تعظيمًا لأوامره، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ليست حاجة الأرواح قطُّ إلى شيء أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها، ومحبته، وذكره، والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه، والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد، والله تعالى يُنزل العبد من نفسه حيث يُنزله العبد من نفسه)(١).

(١) [الكافية الشافية: ١/ ١٦-١٧].

ومن ثمرات هذا العلم: أنّه يورث صاحبَه عبادات قلبية نفْعُها كبير للنفوس، فيورثه الخشية منه، والإنابة إليه، والاخبات والخشوع له، ويسكن الحياءُ قلبَه، وتملأُ السكينةُ نفسَه، فيصير عبداً منيبًا مطيعًا.

ويورثه: عبادة التوكل، وتعلّق القلب بالله، وحسن الظنّ به، ليقينه أنّ ربَه ربٌ قادرٌ على دفع كل ضر، وهو الذي يجلبُ النفع، فلا يلتفت بقلبه لمخلوق، ولا يميل بفؤاده لغيره.

ومن ثمرات هذا العلم: ذهاب الهموم، وزوال الغموم، ليقينه بأنّ ربه سيُفرّج همّه، ويكشف كربه، ويعوّضه عمّا فاته خيرًا.

ومن ثمرات هذا العلم: أنّه يورث صاحبَه حبّ الله -والذي هو أعظم الهبات- قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكل من عرف الله أحبه، وأخلص له العبادة له ولا بد، ولم يُؤْثر عليه شيئًا من المحبوبات)(١).

فتقوى محبة الله في القلب، ويزيد الشوق إلى لقائه، والرغبة برؤيته ممّا يجعل القلب يتعلّق به وبالدار الآخرة، ويحمله هذا التعلّق على الزهد في الدنيا، وعدم الاكتراث بها.

ومن ثمرات هذا العلم: أنّ في موافقة الله في صفة من صفاته سبيل للدخول على الله من هذه الصفة، فإذا رأيتَ سعة رحمة الله اجتهدتَ أن تكون رحيمًا لتوافق ربك في هذه الصفة، وتنال ثوابها وثمراتها، وإذا رأيتَ سعةَ علم الله اجتهدتَ في تحصيل علم الشريعة الذي تدخل على الله منه، فتفوز برحمته وقربه والدنوّ منه،

(١) [إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان:١/ ٦٨].

وإذا عرفتَ أنّ الله رفيقٌ حرصتَ أن تكون رفيقًا في حياتك، هيّنًا في تعاملك مع الخلق، سهلاً في أمورك كلها لتنال بركات هذا الرفق، وهكذا في كل صفة من صفاته، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزِمامه، وأدخلته على ربه، وأدنته منه، وقرّبته من رحمته، وصيّرته محبوبا، فإنه سبحانه رحيمٌ يحب الرحماء، كريمٌ يحب الكرماء، عليمٌ يحب العلماء، قويٌ يحب المؤمن القوي، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف، حييٌ يحب أهل الحياء، جميلٌ يحب أهل الجمال)[١].

ومن ثمرات معرفة الله: الفرحُ به، وإيثاره على غيره فهو قد عرف ربًا كامل الصفات، رحيمًا رحمته وسعت كل شيء، جَميلاً كامل الجمال، وهّابًا هباته لا حصر لها، رزّاقًا قد كفى العبدَ رزقه، لطيفًا قد أحاط لطفه بحياته كلها، حليمًا قد ستر ذنوبه، عَفُوّاً قد أسدل عليه عفوه، شكوراً يُضاعف له حسناته، كريمًا به كرمًا لا حدّ له.

ومن ثمرات معرفة الله: السلامة من سوء الظنّ بالله -وحاجتنا لهذا الأمر ماسّة جِدّاً- فمن عرف الله بكمال الأسماء والصفات أدرك بعض أسرار هذه الأسماء، والحِكم من أقضيته كما سيأتي في ثنايا الحديث عن أسمائه، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأكثر الناس يظنّون بالله ظنّ السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده)[٢]. وثمرات المعرفة بالله لا يحصرها أحد.

(١) [الجواب الكافي:١/ ٤٤].
(٢) [زاد المعاد/ ٣/ ٢٠٦].

ولم يكن مقصودي من الكتابة في هذا الباب الجانب العلمي لإثبات الاسماء والصفات وأدلتها، فقد كفانا هذا أئمة أهل الشأن -جزاهم اللهُ عنّا خير الجزاء-، وإنّما قصدتُ تفيء ظلال المعاني الإيمانية النفيسة لهذه الأسماء والصفات، والتي -أحسبُ- أنّنا بحاجة ماسة إليها.

فمعرفة معاني أسماء الله الحسنى وصفاته وما تضمنته من لوازم لها أثرها في زيادة العلم به ما سيُثمر محبته، والإكثار من طاعته، والحرص على مرضاته، وهو أعظم ما ينفع النفوس في سيرها إلى الله، بل إنّ معرفة معاني الأسماء والصفات وآثارها سيكون كبيراً حتى لغير أهل الإسلام إذا بلغتهم بصورة صحيحة، لأنّهم سيعرفون الله حق المعرفة، ويُذعنون لشرعه، ويوقنون بتفرّده بالكمال الذي لا يُقاربه كمال، وعظمته التي لا تدانيها عظمة، ممّا يوجب الاعتراف باستحقاقه للتوحيد وإفراده بالعبادة، وتنزيهه عن كلِّ نقص.

وأسماء الله ليست جامدة، بل كل اسم يدل على معنى عظيم (فاسم الرحمن يدل على صفة الرحمة، والقادر يدل على صفة القدرة، والعليم يدل على صفة العلم، وهكذا الحي يدل على صفة الحياة، والقيوم يدل على صفة القيومية؛ لأن أسماء الله تعالى مشتقة ليست جامدة مشتملة على المعاني ...)(١).

وقد سلكتُ في كتابتي أموراً، منها:

- أنني ذكرتُ الأسماء الحسنى بأدلتها من الكتاب والسُنّة، وأثبتُ ما أثبته أهل التحقيق من الأسماء، وقد بلغ عددها مائة وثلاث عشر اسمًا.
- ممّا هو معلوم أنّ أسماء الله متنوّعة المعاني والدلالات، فمنها ما يدل

(١) [كتاب شرح الطحاوية للشيخ عبدالعزيز الراجحي:١/ ٢٨].

على تمجيد الله وإجلاله وظهور عظمته وقوته، ومنها ما يدل على إحسانه وجماله، ومنها ما يدل على سعة علمه وكمال خبرته، ومنها ما يدل على عظيم قدرته ونفاذ مشيئته، ومنها ما يورث الخشية منه ومراقبته، ومنها ما فيه الرقة واللطف، فمزجتُ بين أسماء العظمة والإجلال والرحمة والرجاء في الترتيب ليكون القارئُ راغبًا راهبًا، فيكون في طريقة معرفته لربه جامعًا بين الخوف والرجاء، ويجمع بين هذه المقامات في تعبّده وسيره لربه.

- أنني آثرتُ تكرير المعاني في بعض الأسماء حسب مقتضى ذلك الاسم بزيادة ما تيسر من آثاره، مُتبِّعًا بذلك طريقة القرآن الكريم الذي كرّر الأمور العظيمة لحاجة القلوب لها.
- أعدت التذكير والتأكيد على قضية التوحيد، واستحقاق إفراد الله به، فهو المقصد الأعظم من هذا العلم، فمن عرف الله حق المعرفة أيقن بأحقية إفراده بالعبادة، وابتعد كل البعد عن الشرك بجميع صوره وأشكاله.
- ركّزت على قضية تعزيز عظمة الله مع كل اسم من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنّ أكبر مصيبة حلّت بأفراد الأمّة عدم معرفتهم لربهم المعرفة الحقة - فتجرأت النفوس على معصيته، وتخلّفت عن طاعته، واستهانت بحرماته - فأردتُ من وراء هذه الكتابة تعظيم الله تعالى في النفوس حق التعظيم، وحملها على طاعته، والابتعاد عن أسباب سخطه، وتعزيز محبته في القلب.
- اجتهدت أن أكتبه بأسلوب إيماني يُوقظ جذوة الإيمان في القلب لأنّ هذا من أعظم مقاصد هذا العلم.

- سعيت لتسهيل وتقريب المعنى ليكون سهلاً لعامّة الناس، فيقرأه الأبُ على أهل بيته، والمعلمُ على طلابه، وينتفع به الخطيب في خطبه، وإمام المسجد في قراءته على جماعة مسجده.

واللهَ أسأل أن يُبارك فيه ويجعله خالصًا لوجهه، نافعًا لعباده، ذخراً لي يوم ألقاه، وأن يجعل له القبول والنفع والأثر، وأن يسخّر له من ينشره ويُترجمه.

وإنّي لعاجز أشدّ العجز عن شكر ربي لتوفيقه لي بأن أكتب عنه، وأعترفُ أنّني إنّما كتبتُ على سبيل التقريب لا غير، وسطّرتُه وأنا في غاية الحياء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فأنّى لعبد ضعيف مثلي أن يُكتب عن الله الملك العظيم، ولكنّها رغبةٌ كانت ساكنة في قلبي منذ سنوات حتى يسرّ الله إخراجها، فهو محض فضله فقط، ومنه التوفيق والعون والسداد.

وأشكر كلَّ من راجع وصوّب الكتاب ولا أملك لهم إلا الدعاء، واسأل الله -وهو الكريم الجواد المعطي- أن يجعله صدقةً جارية لي ولوالدي ولأهل بيتي وذريتي ومن دعا له، ونشره وأعان على إخراجه.

والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به، وله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطنًا لا نُحصي ثناءً عليه بل هو كما أثنى على نفسه، وهو أهل الثناء والمجد.

اللهم هذا الجهد وعليك التكلان، وهذا ما سمح به البيان وأنت المبارِك والمستعان.

كتبه الفقير إلى عفو ربه/

عادل بن عبدالعزيز بن أحمد الجهني

addeel333@gmail.com

+966504392260

(١) الله

(الله) أعظمُ الأسماء وأجملها، وأعلاها قدراً، وأشرفها مكانة، وأكثرها معنى، وأوسعها دلالة، وأجلّها صفة؛ ولجلالة هذا الاسم جاء ذكره في كتاب الله (٢٧٤٢) اثنين وأربعين وسبعمائة وألفين مرة كأكثر الأسماء ذكراً في أشرف الكتب.

- و(الله) هو: (الإله) الجامع لجميع صفات الألوهية التي تدلّ على استحقاقه للعبادة، فله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الكمال من صفات الجلال والعظمة والجمال، وله الكمال من صفات الرحمة والبِرّ والقوة والعِزّة والعلم والحكمة والحياة والكرم والمغفرة والعفو والجود ونحوها من صفات الكمال.

- و(الله) هو: (المألوه) أي: المعبود الذي تألهه القلوب محبةً وتعظيماً ورغبةً ورهبةً لكثرة إحسانه وفضله على العباد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإنّ الإله هو الذي يألهه العبادُ ذُلّاً وخوفاً ورجاء، وتعظيماً وطاعةً له)[(١)].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيُؤْله ويُعبد لأنّ له أوصاف العظمة والكبرياء، ويُؤله لأنّه المتفرّد بالقيّومية والربوبية والملك والسلطان، ويُؤله لأنّه المتفرّد بالرحمة وإيصال النعم الظاهرة والباطنة إلى جميع خلقه، ويُؤله لأنّه المحيط بكل شيء عِلماً وحُكماً وحِكمةً وإحساناً ورحمةً وقدرةً

(١) [مدارج السالكين:٣/ ٢٥٢].

وعِزّاً وقهراً، ويُؤله لأنّه المتفرّد بالغنى المطلق التام من جميع الوجوه)[1].

واسم (الله): علمٌ على الذات الإلهية الكريمة المقدسة، فلا يُسمى أحدٌ بهذا الاسم غيرُه، وهو الاسم الجامع لجميع معاني أسماء الله الحسنى، وإليه ترجع:

فاللهُ هو الرحيمُ الرحمن.

واللهُ هو الكريمُ المنّان.

واللهُ هو الكبيرُ المتعال.

واللهُ هو القويُّ المتين.

واللهُ هو السميعُ البصير.

واللهُ هو العليمُ الحكيم.

واللهُ هو الجوادُ الكريم.

واللهُ هو الودودُ الحليم.

واللهُ هو اللطيفُ الخبير.

واللهُ هو العليُّ العظيم.

واللهُ هو القريبُ المجيب...

له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، فكل اسم حسن فهو لله (وهو في غاية الحُسن، وسعة المعنى) وكل صفة حسنى فهي لله (وهي في غاية الحسن، وكمال المعنى).

(١) [فَتحُ الرَّحيمِ الملكِ العَلاَّمِ في عِلمِ العقَائِدِ وَالتَّوحيْدِ وَالأَخْلَاقِ وَالأحكامِ المُستنبَطةِ مِن القرآنِ: ٢٠].

أحـاط بخلقـه عِلمـاً وقـدرةً ورحمةً ورزقـاً ومُلْكاً وسـمعاً وبصـراً، ولا يحيطون به عِلْماً.

عظيمٌ في ذاته، جليلٌ في صفاته فكيف تتعلق القلوبُ بسواه؟!

له الكمال المطلق فلقد عجز البشر أن يُحيطوا بعشر معشار صفة من صفاته، فكيف يحيطون بها مجتمعة؟! هذا ممتنع عقلاً وشرعاً.

ولو تأمّل العبدُ في فضل ربه عليه ساعة لأيقن بكمال رحمته به، فكيف ونِعَمه عليـه بعدد أنْفاسـه، ولا تنقطـع عنه لحظة طِـوال حياته، فحمْدُه نِعمة تسـتوجب الحمد، وشُكره مِنّة تحتاج إلى شكر.

ولـو اجتمعت أقـلام البلغـاء، وفصاحـة الخطباء، وشـعر الشـعراء، وبيان الأدباء، وجُعلت لهم الأشـجار أقلامـاً، والبحر حِبرًا ومِدادًا، واسـتفرغ العلماء وسعهم في الحديث عنه منذ أن خُلقت الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها للثناء عليه، ومَدْحه بما هو أهله، لتكسـرت أقلامُهم، ونفذ حبرُهم، وفني بيانُهم، وانتهـت مفـردُات كلامهم، ولم يسـتطيعوا أن يوفّوا حق صفـة واحدة من صفاته جَلَّ وَعَلَا فكيف وأسـماؤه لا عدد لها، وصفاته لا منتهى لعظمتها، فسبحان ربنا الإله العظيم، ولا إله غيره وهو الربُّ الكريم.

أنعم فأغـدق، وخلق فأكفـى، ورزق فأوفى، وأبصر فأحـاط، ولطف فرحِم، وقَدَر فعفا، وعلا فقهر.

تقدّست أسماؤُه، وعظمت صفاتُه، فتنزّه عن المثيل والشبيه والنظير، فسبحانه من إله حكيم خبير.

اللهُ هو: المعبودُ حقًا، والمرجُّـوُ صدقًا، والملجأُ اضطراراً، والمُعَظَّمُ رغَبًا ورَهَبًا.

اللهُ هو: الـذي يثق المؤمنُ بعطائه، ويطمئن العابدُ لوعده، ويسـتأنس الذاكرُ بذكره، ويستبشر الداعي عند دعائه.

اللهُ هو: الذي تسـأله الخليقةُ حوائجها، وتضطرُ له القلوب، وتدعوه الألسنةُ، وينتظر فرجه كل مهموم ومغموم، وتتوجّه إليه النفوسُ بمطالبها.

اللهُ هو: السميع الذي لا تُشغله مسألة عن غيرها، ولا تغلطه مع كثرتها، يُحب الُملّحين، ويفرح بالتائبين، ووسع فضله العالمين.

اللهُ هـو: الاسـم الأعظم لربك، فـإذا توجهّتَ له وقلت: يا الله، تذكّر سـعة فضله وعطائه، واتِسّاع كرمه، وتَعدد نواله؛ ولا تنظر لمطالب تأخرت عنك لحكمةٍ أو لسببٍ تعلق بك أو بتقصيرك ولكن انظر لعطائه لك بلا سؤال، وفضله عليك بلا دعاء.

هداك من الضلالة فأصبحْت مسـلمـًا، وزادك فضلاً فصرْت من أهل سنة نبيه ﷺ، وأتباع خيار الأمّة من سلفها.

حبّـب إليك الإيمانَ وزيّنـه في قلبك، وكرّه إليك الكفرَ والفسـوقَ والعصيانَ وجعلك من الراشدين.

تذكّـر نعمـه عليـك في بدنك وصحتك وعافيتـك التي لـو أصابها ضعف أو غشيها مرض بِتّ شاكيًا وقد نسيتَ أو تناسيتَ عافيته لك على الدوام.

اللهُ هو: الذي سـترنا وقد عصينا، وعفا عنا وقد تعدينا، وركبنا المعاصي ولم تزل نعمه سابغة علينا.

اللهُ هـو: الـذي علّمك مـن الجهالة، فبصّـرك مصالحك، وألهمك رشـدك، وأغاثك بفضله وإحسانه.

اللهُ هـو: الـذي أغناك بعد الفقـر، وكفاك حاجتك، وحفـظ وجهك من الذلة لغيره.

أعظـم آية في كتاب الله صُـدّرت بالتعريف به، قـال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فهو الاسـمُ الأعظم له عند جمعٌ كبير من أهل العلم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب .

اللهُ: خالقُ كل شـيء، ومالكُ كلِّ شـيء، وقادرٌ على كل شـيء، له الحمدُ في الأولى والآخرة وهو الحكيمُ الخبير.

اللهُ هو: الرازقُ الكريم، والواسـعُ العليم، فلا قابِض لما بَسـط، ولا باسط لما قبض، ولا مُعطي لما منع، ولا مانع لما أعطى، بَسَـط على عباده من بركات رزقه وفضله ما كفاهم حوائجهم، واستقرت به حياتهم.

اللهُ: نـورُ السـماواتِ والأرض، فنورُ الكونِ من نوره، وبنور وجهه أشـرقت السماواتُ والأرض، وأضاء الكونُ، وصلح أمر الدنيا والآخرة.

نـوّر قلوب أوليائه بالإيمان، وأضـاء بصيرتهم بالعلم والفرقان، وعلّمهم من الجهالة، وبصّرهم من العمى، فهو عالم الغيب والشهادة وهو العزيز الحكيم.

اللهُ: هو الشكور الحليم الذي لا يضيع عمل عامل بل يضاعف الحسنة ويعفو عن السيئة كرمًا منه وفضلاً.

وهـو بكل شـيء عليم، أحاط بخلقه فـلا يغيب عنه شـيءٌ في الأرض ولا في السـماء، من غاب عن أعين الناس أو كان بينهم، ومن كان منهم مسـتخف بالليل أو سارب بالنهار، فهم في علمه سواء.

يعلم مثاقيلَ الجبال، وعددَ قطر الأمطار، وما تعاقب عليه الليل والنهار، يعلم ما كان، وما سيكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون.

ويعلم الموجودات والغائبات، والنوايا والخفيات، والممكنات والمستحيلات، والسرّ وما هو أخفى منه ممّا لم يخطر على بال، فسبحانه العليم الحكيم.

ربٌّ قديـر فلا يُعجزه شـيء في الأرض ولا في السـماء، ظهـرت قوته في خلق السـماوات والأرض فخلقهما على غير مثال سـابق، وظهر إبداعه في سائر خلقه، فلا ينظر متأمل في خلق الله إلا ويتمتم تسبيحـًا وتنزيهـًا وتعظيمـًا له.

وهو بكل شيء بصير، وبكل شيء محيط، وهو اللطيف الخبير.

يعلـم خائنة الأعين ومـا تخفي الصدور، وهـو العزيزُ الحكيـم، عزّ فحكم، وقضى فعدل.

شـديد العقاب حذّر العباد نفسه -رحمة بهم- لئلا يتعرضوا لعذابه، وبيّن أنّه إليه المصير.

سـريع الحسـاب فلكماله يحكم بين عبـاده في يوم واحد مع كثـرة أعدادهم وتنـوّع أعمالهم في إحاطة يعجز العقل عـن إدراكِ عظمتها، وظهورٍ لقوته وقدرته مع تمام عدله وسعة فضله.

وهو الغفور الرحيم فلا يُعجزه ذنب أن يغفره، ولا خطيئة أن يمحوها، ومع كثرة ذنوب العباد، فمغفرته وسعتهم جميعًا.

أحبّ المؤمنين والمتقين والصابرين والمحسنين والقانتين، ورغّب في أعمالهم الصالحة ليمتثلها العباد ويفوزون بهذا الفضل المبين.

فهذه بعض معاني هذا الاسم الشريف، وكل ما سُطّر في التعريف به من أيِّ كاتب فإنما هو للتقريب، وإلا فالله أعظم من ذلك بكثير.

ومن عرف ربه حق المعرفة فرِح وسُرّ بهذا الفضل الذي اختصه ربه به دون كثيراً من الخلائق، فالنفسُ أحوج ما تكون إلى معرفة خالقها ومعبودها، فلا سعادةً ولا نعيم لها إلا بمعرفته، ولا أُنس إلا بمحبته ولذيذ مناجاته،

فاللهم ارزقنا هذه المعرفة، وآنس قلوبنا بك وبمحبتك.

❊❊❊

(٢) الربُّ

من أسماء الله – جلّ وعزّ –: (الرب)

وقـد ورد في القرآن الكريم تسـعمائة مـرة، وعامة ماجاء ذكـره مضافًا مثل: (رب العالمين) و(رب العرش العظيم) و(رب السموات والأرض) ونحو ذلك

والربُّ هو: (السـيّدُ الذي لا شـبيه لـه، ولا مثل له في سـؤدده، والمُصلحُ أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالكُ الذي له الخلق والأمر)[١].

قال ابن الأثير: (يُطلق (الربّ) في اللغة على المالك والسيّد والمُدبّر والمُربي والمُنعِم..)[٢]. والله له الكمال من هذه الأوصاف.

مدح نفسَـه بأنّه ربُّ العالمين، وأنّه ربُّ السـماوات والأرضين وربُّ العرش العظيـم، وأثنى على ذاته العلية بأنّه ربُّ كل شـيء ومليكه، ومجّد نفسـه بأنّه ربُّ المشارق والمغارب، وأنّه ربُّ الأولين والآخرين.

وهذه الربوبية اعترف بها جميع الخلق إلا ما حصل من المكابرين الجاحدين الذين أنكروها مكابرةً مع أنهم مقرون بها في داخلهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]

والله هـو: الـربُّ الخالقُ الـرازقُ المُنعـمُ المتفضّـلُ على العبـاد، المُتّصفُ بصفـات الكمـال، المسـتحق للعبـادة، ولـذا كان أوّل أمـر في كتـاب الله هـو:

(١) [تفسير الطبري:١/ ٤٨].

(٢) [النهاية لابن الأثير:٢/ ١٧٩].

الأمر بعبادته وحده، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١] ثمّ ذكر براهين استحقاقه لهذه العبادة بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢]

وطوائف العالم كلهم يؤمنون بربوبية الله ولكنّ كثيراً منهم قد ضل ووقع في شرك الألوهية بصرف العبادة لغيره فصاروا من الكافرين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]

أمّا أهلُ الإيمان والتوحيد فقد اهتدوا بهداية ربهم وتوفيقه لهم، فهم على بصيرة من أمرهم، ويقينٍ من إيمانهم، ورسوخٍ في عقيدتهم ذلك أنّهم: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٥]

- تعرّف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده بهذا الاسم العظيم، وبيّن صفاته في آيات كثيرة من كتابه المبين، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]

فهو الربُّ الخالق المتصرف في كونه بمقتضى علمه وحكمته، فيمدُّ عبادَه بالعطايا، ويدفع عنهم البلايا، ويرعاهم بما ينفعهم طبقاً فوق طبق، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ربوبيته للعالم تتضمن تصرفه فيه، وتدبيره له، ونفاذ أمره كل وقت فيه، وكونه معه كل ساعة في شأن، يخلق ويرزق؛ ويميت ويحيي، ويخفض ويرفع؛

ويعطي ويمنع؛ ويعز ويذل، ويصرِّف الأمور بمشيئته وإرادته)[1].

- وهـو الربُّ المنعم على العباد، الذي أغدق عليهم نِعَمًا ظاهرةً وباطنةً في خاصّةِ أنفسِهم، وفي ذرياتِهم، وفي حياتِهم كلِها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦٤]

- وربوبيّتُه ربوبيّة قهر وسلطان، فله الغلبة الشاملة، والقوة الكاملة، فلا يفوته أحد، ولا يتخلّف عن أمره مخلوق، فهو: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ [ص: ٦٦]

عزّ في ربوبيته فلا يُغلب، وتمّ في قوته فلا يُهزم، ومع عزته وغلبته وقوته ونفاذ سلطانه إلا أنّه لطيف بالعباد يعفو عنهم، ولا يعاجل مُسيئهم بالعقوبة لأنه رحيم رحمن، فهو: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [النبأ: ٣٧]

- ومن مقتضيات ربوبيته: أنّه لا يكون في ملكه إلا ما شاء وأراد، ذلك أنّه - سبحانه- ربُّ هذا الكون ومالكه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]

- ومـن مقتضيات ربوبيته: قدرته على كفالة رزق عباده، وعفوه عن تقصيرهم في شكره، كما وصف حاله مع أهل سبأ: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ:١٥]

(١) [الصواعق المرسلة:٤/ ١٢٢٣].

أحاطت بركة ربوبيته بالخلق، فيُسبغ عليهم رزقه، ويُطيّب لهم حياتهم، وييسّر لهم أمورهم، ويبارك لهم في معيشتهم فـ: ﴿... تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤]

وبركته لا منتهى لها ولا انقضاء، انظر كيف بارك الأرض فأصبحت مصدراً لأرزاق العباد، وانظر كيف بارك السماء فأنزل منها ماءً مباركًا سائغًا للشاربين، وجعله مصدراً لحياة الإنس والحيوان والزروع والثمار، وانظر لبركة ربوبية على من اصطفاه من خلقه وكيف بارك فيهم وفي آثارهم.

- وهو الربُّ: الذي يلجأ إليه العباد في حوائجهم، ويضطرون إليه في ملماتهم، ويُظهرون إليه الفقر في كل شؤونهم، فلا يستغنون عن فضله وإحسانه طرفة عين.

وإذا تأملتَ دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجدتَها قد صُدّرت بهذا الاسم الكريم (ربنا) وهم أعرف الخلق به، فلِعلمهم بشرف هذا الاسم، وليقينهم بدلالته على المعاني الواسعة لزموه في دعواتهم، فهذا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يأكل من الشجرة ويوقن بخطيئته، فيُنادي ربه به ليغفر له ذنبَه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]

وهذا نوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يسأل ربه بهذا الاسم لنجاة ولده وفلذة كبده: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود:٤٥]

وهذا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقتل نفسًا بالخطأ فيسأل ربَه المغفرة ويتوسل إليه بهذا الاسم ليغفر الله له خطيئته: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦]

ويسـألـه بعد ذلك النجاة من القوم الظالميـن فيُناديه به -أيضـًا- : ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢١]

ويَردُ ماء مدين ويسقي للفتاتين ثم يمضي إلى الظل مُظهراً شدة حاجته لربه، وعظيـم فاقتـه لرحمته، فيُنـادي بهذه الكلمـات الخالدات مُصدِّرها باسـم الربّ الرحيـم المنّـان: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص:٢٢]

ولـمّـا تاقت نفسُ زوجة فرعون للجنّة سـألت ربها جواره وتوسـلـت له بهذا الاسم الشريف فنادت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم:١١].

قـال بعض أهل العلم عنه: إنّه اسـم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، فاجعل هذا الاسم في دعواتك مستحضراً عظمته وفضله وأثره.

قال الإمام ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وربوبية الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ نوعان:

ربوبية عامّة: وهي تشـمل تربية العباد بالتدبيـر وأصناف النعم والعطاء الذي تقوم به حياتهم، وهي ربوبية شاملة للخلائق أجمعين.

وربوبية خاصّة: وهي تربيته لخواص خلقه بإصلاح قلوبهم وأعمالهم)[١].

وهذه الربوبيـة الخاصة هي التي يطلبها المؤمنون، ويرنـو لبلوغها المتقون، ويطمع في الوصول إليها الصادقون، وهي شاملة لأنواع متنوّعة، من:

(١) [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ ابن سعدي: ١/ ٢٨٨].

توفيق الرب عَزَّوَجَلَّ لعبده لشرائع الإيمان، وترقيته للوصول إلى مدارج المتقين الصالحين، فتفيض على قلوبهم المعرفة الحقة لله، فيعرفُ العبدُ ربه بالعظمة والجلال، والرحمة والجمال، ويؤمنُ برب عظيم، وإله جواد كريم.

ومنها: تربيته لعبده وتوفقيه للعلم النافع، والعمل الصالح، فيهديه سبل السلام، ويُخرجه من الظلمات إلى النّور، ويُبصّره من العمى، ويُريه الأمور على حقائقها، فيُعرّفه حقيقة الآخرة وأنّها الدار التي ينبغي أن يُبذل لها كل غالٍ ونفيس، فتكون هي همّه الأعظم، وغايته الكبرى، ويُعرّفه حقيقة الدنيا وحقارتها، وأنّها لا تساوي جناح بعوضة فلا تكون هي همّه الأول، بل ينظر إليها أنّها منزلُ عبور، وميقاتٌ للتزوّد من الباقيات الصالحات، ويُربيه على الأخلاق الحسنة، والفضائل الجليلة من القِيم والآداب، فيُصبح عبداً ربانيًا يرى بنور الله، ويهتدي بهديه، فقد تولاه ربُه برعايته، وسدده وأعانه.

- ومن عرف ربه على الحقيقة ذاق طعم الإيمان، وسهلت عليه الطاعات، ولم يعدل بعبودية ربه أحداً، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ، مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامَ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً»(١).

وإذا دخل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ تأتيهم البشارة من الرب الكريم بقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ٥٨﴾ [يس:٥٨] فيوقنون بالعافية من سائر الآلام، وتكتمل لهم السلامة من الشرور كلها.

فاحرص -يا عبدالله- على زيادة المعرفة بالله لتنال حلاوة الإيمان ولذته،

(١) رواه مسلم.

وابـذل الجهـد لإدراك هذا المطلـب النفيس، فإنّه من أنفَسِـها مكانـة، ومن خير العطايا والهبات.

فيا ربنا نسألك عفوك وجودك وكرمك وإحسانك وأنت أكرم الأكرمين.

ربنا اغفر لنا ذنوبنـا وارحمنا وأنت خير الراحمين، وارزقنا جوارك في جنّات النعيم.

❋❋❋

(٣) الرحمن

تعرّف اللهُ لعباده بهذا الاسم الجليل، فقال عن نفسه الشريفة: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾ [الرحمن: ١-٤] وقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه:٥] وقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [سورة البقرة: ١٦٣] وقد ورد ذكر هذا الاسم في كتاب الله سبع وخمسين مرة.

واسم (الرحمن) خاص بالله تعالى لا يُسمى به غيره.

و(الرحمن) هو: ذو الرحمة الواسعة، وهي رحمةٌ عامّة للخلق جميعًا في الدنيا، تشمل الإنس والجنّ -مؤمنهم وكافرهم-.

وشاملة -أيضًا- لبقية خلق الله ممّا نعلم وممّا لا نعلم، فقد أحاطت رحمته بهم، واحتاجوا لها فلم يستغنوا عنها طرفة عين.

ورحمته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ واسعة كسعة عِلمه، وعِلْمُه لا منتهى له، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن ثناء ملائكته عليه: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا...﴾ [غافر:٧] وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فهي لا حدّ لها، ولا يمكن الإحاطة بها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأوسع المخلوقات عرشه، وأوسع الصفات رحمته التي وسعت كل شيء.. وكان عن صفة الرحمن الجنّة وسكانها وأعمالهم، فبرحمته خُلقت، وبرحمته عُمرت بأهلها، وبرحمته وصلوا إليها، وبرحمته طاب عيشُهم فيها...)[١].

(١) [مختصر الصواعق المرسلة:٢/ ١٢١].

- والرحمةُ المضافة إلى الله قسمان:

القسمُ الأول: صفة من صفاته الذاتية الفعلية، وإضافتها إلى الله من إضافة الصفة إلى الموصوف، وهي صفةٌ قائمةٌ به كصفة العلم والحكمة والعزّة والملك ونحوها من صفات الذات يجب إثباتها له على وجه يليق به فلا نكيّفها ولا نُعطلها ولا ننفيها أو نشبهها أو نمثّلها برحمة المخلوق، أمّا رحمته الفعلية، فهي التي تتعلق بمشيئته، فيرحم مَن يشاء من عباده وقت ما يشاء بالكيفية التي يشاؤها.

القسمُ الثاني: الرحمة المخلوقة؛ فتُضاف إلى الله من إضافة المخلوق إلى خالقه، وهي التي أنزل الله منها رحمةً واحدة فقط، فبها يتراحم الآدميون، وجعلها حتى في البهائم، فترفع الدابةُ حافرها عن وليدها حتى لا تُؤذيه، وتعطف عليه فتطعمه وتسقيه، وأبقى عنده تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عبادَه يوم القيامة، يقول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّ الله خلقَ الرَّحمةَ يومَ خلقها مائةَ رحمةٍ»(١).

وفي رواية مسلم يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِلَّـهِ مئَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ منها رَحْمَةً وَاحِدَةً بيْنَ الجنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الوَحْشُ على وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يومَ القِيَامَةِ»(٢).

وهي رحمة عظيمة يدل عليها قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كلُّ رحمةٍ طِباقُ ما بين السماءِ والأرض، فأمسَكَ عنده تسعًا وتسعين رحمةً، وأرسلَ في خلقِهِ كلِّهم رحمةً واحدةً»(٣).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

فإذا كان كلُّ ما نراه في الدنيا من رحمة الله –على سعتها– رحمة واحدة فقط فكيف بالمائة رحمة؟!

واللهُ أرحم بنا من أمهاتنا وآبائنا –فضلاً عن الخلق أجمعين– بل هو أرحم بنا من أنفسنا، أتى النَّبيَّ ﷺ رجلٌ ومعهُ صبيٌّ، فجعلَ يضمُّهُ إليهِ، فقالَ له النَّبيُّ ﷺ: «أترحمُهُ؟ قالَ: نعَم، قالَ: فاللهُ أرحَمُ بِكَ منكَ بِهِ، وَهوَ أرحمُ الرَّاحمينَ»[1].

وهذه الرحمة لا تنفك عن الخلق منذ وجودهم في الدنيا وتتصل بحياتهم كلها حتى مماتهم لتكتمل للمؤمنين كأكمل ما يكون في الآخرة حين ينالون رحمته التامّة في جنات النعيم، وهي الرحمة الخاصة التي ينالها أهل الإيمان فقط.

– وظهور آثار رحمة الله على خلقه واضحة بجلاء، فقد رحم العبادَ بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فالرسل رحمة للبشرية فعن طريقهم عرف الخلقُ ربَهم، وعرفوا ما يرضيه ليفعلوه، وما يُسخطه فيجتنبوه، ولو تُرك البشر بلا رسل لكانوا كالبهائم أو أسوأ من ذلك، وما حال الكافرين عن المتأمّل ببعيد، فكان إرسالهم (رحمة من الله).

وكذلك إنزال الكتب التي فيها بيان كل شيء، فلولاها ما عرف العبادُ شريعة ربهم وأوامره، قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩]

– ورحمةُ الله العامة: جعلت الخلائق يرحم بعضُهم بعضًا، فحنّن قلوب

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، وهو حديث صحيح.

الوالدين على أولادهم، فيعطفون عليهم ويرحمونهم ويتحملون أخطاءهم في رَحَمات لا انقطاع لها.

وكذلك ما رقق به قلوب الآدميين بعضهم على بعض، فيعفو بعضهم عن بعض، ويرحم بعضُهم بعضاً فيكون الحبُّ بينهم الذي لولاه لكان حال الكون غير ما ترى، وحال الناس غير هذا الحال، ولذا سجل التأريخ بمِداد الألم آثار ظلم الظالمين ممّن خلت قلوبُهم من الرحمة فسالت بسبب جبروتهم دماء طاهرة وهُدّمت مدن كانت عامرة.

- **ومن رحمته:** أن خلق بني آدم ذكراً وأنثى ليستمتع بعضهم ببعض، ولتتم لهم الحياة، وألّف بين قلوب الأزواج، وعطف قلوبهم على بعض، فجعل فيها الحبَّ والمودة والرحمة والعفو والصفح ليستقيم حال الأسرة، ولتُنتج الذرية، وتكون الأُلفة، ولتُؤدى عبادات ما كانت لتحصل لولا هذه الذرية التي قدّر الله وجودها.

ورَحِمَهم في تعليمهم مصالحهم من النطق والإفصاح عن مطالبهم ليحصل التفاهم بينهم، وتُقضى حوائجُهم، وتتيسر أمورهم التي تقوم بها معيشتهم، وتطيب معها حياتهم فله الحمد والمنّة.

- **ومن صور رحمة الله بهذه الأمّة:** أن رحِمهم بشريعة سمحة سهلة ميسرة، فلم يكلفهم فوق طاقتهم وما ليس بوسعهم، ولم يُثقل عليهم بشريعة فيها آصار وأغلال كما كانت على الذين من قبلهم، بل إذا تأمّلت فيها تجدها يسراً في كل جانب منها، وعبادات لا مشقة فيها ولا عنت، وواجبات لا تكليف فيها فوق الطاقة أبداً، فقد بعث لهم نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحنيفية السمحة.

ورحمهم بأن مكّنهم من العمل الصالح في الدنيا التي جعلها مكانًا لتحصيله ليكون لهم زاداً للعباد ليوم المعاد، وينالوا به أعلى الدرجات في الآخرة، فليس بينهم وبين القيام به إلا إرادة جازمة وعزيمة صادقة، وقبل ذلك توفيقًا من الرحمن.

ورحمهم باستقرار أمر الكون، فهيأ الأرض ليعيشوا عليها بطمأنينة، فلو كانت الأرض غير مستقرة وثابتة، أو كان الماء طاغ أو الجوّ لا يصلح للمعيشة فكيف ستكون حياة الناس؟!

ولكنّها الرحمة العامة التي بها طابت حياة الخلق.

ورحمهم بإنزال الغيث بعد قَنوطهم، وإحياء الأرض بعد موتها، وغوث العباد بعد بوادر الهلاك كل ذلك: (رحمة من الله) قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم: ٥٠]

- ومن رحمته بهذه الأمّة: أنّه لا يُهلكهم بهلاك عام، ولا إبادة شاملة، بل ربما أرسل المصائب في جهات ليتعّظ بقية الخلق ويفيقوا من غفلتهم، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «سَأَلْتُ رَسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الطَّاعُونِ، فأخْبَرَنِي أنَّه عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللهُ على مَن يَشَاءُ، وأنَّ اللهَ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ...»(١).

ويَبتلي اللهُ العبدَ بالمصيبة في خاصّة نفسه أو ولده أو ماله ليتوب ويستعتب، فكم من بليةٍ كانت سببًا لعودةٍ صادقة، وكم من قَدَرٍ مؤلمٍ كان سببًا لإنابةٍ نافعة،

(١) رواه البخاري.

وكم من بلاءٍ آلم العبد ولكنّه كان سـببًا لنجاته وفوزه، فهو يرحم الخلائق بالبلاء ليطهرهم من الذنوب والخطايا والآثام.

فهـذه الرَحَمات وغيرها الكثير ماهي إلا أثر من آثـار رحمته، فاللهم ارحمنا برحمتك الواسعة واجعلنا بها فائزين.

❊❊❊

(٤) الرحيم

من أسماء الله: (الرحيم) وجاء ذكره في كتاب الله مئة وثلاث وعشرين مرة.

ومعنى (الرحيم): أي: ذو الرحمة الواصلة لعباده المؤمنين، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾ [الأحزاب:٤٣]

كتبها على نفسه تفضلاً منه ومِنّة، ولم يوجبها عليه أحد، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ...﴾ [الأنعام:٥٤]

والإيمانُ الحقيقي بهذا الاسم، وهذه الصفة لربنا عَزَّوَجَلَّ يورث قلب المؤمن شدة التعلّق بربه دون سواه، وتجعله يقوم بطاعته بطمأنينة كاملة، طامعاً بنيل رحمته، وتغرس في النفوس عظمة الرجاء به لإيمانه بسعة فضله، وكمال جوده.

- أخبرنا ربنا عَزَّوَجَلَّ عن نفسه بأنّه الغفور ذو الرحمة، فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الكهف:٥٨] ليعلم العبادُ بأنّ الرحمة صفة ثابتة لربهم، فيثقون بموعوده، وتزداد محبتهم له، وطمعهم بمغفرته، فمن عرف ربه بهذه الصفة أحبّه لا محالة، وسارع لطاعته، وأفنى العمر في سبيل مرضاته، فهو الرحيم الذي يُكرم أولياءَه بتحبيب الطاعات لهم، وتزيّين الإيمان في قلوبهم، وتيسيرهم لليسرى، وتجنيبهم العسرى، وتثبيتهم على الحق، وتسخير حملة العرش للاستغفار لهم، فإذا سلكتَ طريق الصلاح، ولزمت جادة الاستقامة أحاطتَ بك الرحمات من كل جانب، وتوالتَ عليك الخيرات من كل جهة، وصار لك لسان صدق في الآخرين، فهذا شأن الرحيم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مع مَن استقام، وكمال إحسانه مع مَن استجاب،

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن خيرة خلقه الأطهار، ومن سلك سبيلهم من العُبّاد:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم:٥٠]

- وهذه الرحمة أعظم ما تكون للعبد يوم يحار في أموره وشؤونه التي تلتبس عليه، فلا يدري عن مواطن الصواب، فتأتي رحمة الله لتهديه السبيل، وتنير له الطرق، وتُبصّره بمصالحه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب:٤٣]

ويحتاجها المرءُ يوم تدلهم الخطوبُ، وتموجُ الفتنُ، وتضطربُ النفوسُ، فيثبّته اللهُ برحمته، ويربطُ على قلبه، فالفتنة لا يكاد ينفك عنها أحد، والأعداء من الإنس والجنّ لا يألون جهداً في صرف النّاس عن دينهم، ولكنّ الله يرحم عباده المؤمنين بتثبيتهم وحفظهم.

- **يحفظُ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **عبدَه المؤمن في عِقبه وعَقِب عقبه،** فيخرج من الدنيا وقلبُه كلُّه ثقة بعناية ربه لذريته، وحفظه لهم ليوقن الخلق بأثر العمل الصالح، وإن غاب صاحبُه عن دنيا النّاس.

يمُرُّ الخِضرُ مع موسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ على جدار يكاد أن ينقضّ فيُقيمه، فيتعجّب موسى من صنيعه فيُزيل الخِضرُ ما جاء في نفسه من العَجَب بأنّه لغلامين يتيمين في المدينة، وتحته كنز لهما وكان أبوهما صالحًا، فيحفظه الله لهما: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]

- **ورحمتُه** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **لم تُقتصر على الطائعين،** بل امتدّت حتى وصلت عصاةَ بني آدم الذين تعدّوا حدودَه، وخالفوا أمرَه، وتجرؤا على محارمِه،

فيعصي أحدُهم ربه بجميع أنواع المعاصي ولا يترك شاردة ولا واردة إلا ارتكبها، ولا خطيئة إلا فعلها، ويتجرأ على الذنوب مع علمه بخطورتها وشؤمها، فيقذف الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حبَّ التوبة في قلبه، فيُنيب ويندم، ويعود لربه فيقبلها الله منه لعلمه بضعفه وحاجته لرحمته، ويمهل العاصين ولا يعاجلهم في العقوبة لعلهم يتوبوا، ويمحو ذنوبهم إذا أنابوا، ذلك أنّه كثير التوبة على الخلق أجمعين فهو الربُّ الرحيم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء: ١٦]

- ولسعة رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر العبادَ بكثرة الاستغفار ليغفر لهم فقد عَلِم كثرة ذنوبهم، وأنّهم لا غنى لهم عن مغفرته، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٩]

- ومن رحمته: أنّه يقبل من عبدِه المؤمن القليل من العمل ويثيبه عليه بالكثير من الأجر، ارأيتَ رجلاً عبَدَ ربه سنوات يسيرة بل ربما أياماً معدودات ثمّ مات ليكون مآله جنّة قد جمعت كل خير يتنعّم بها أبد الآباد في عمر لا منتهى له، وبقاء سرمدي لا ينقطع، فما نسبة هذه السنوات القليلة التي عبدها هذا العابد بجانب ذلك النعيم العظيم في جنات النعيم؟

لتعرف أنّها الرحمة الجليلة من الرحيم الرحمن وليس ثَمّ إلا هي.

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْجَنَّةِ: أنْتِ رَحْمَتي، أرْحَمُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادِي»[(١)].

(١) رواه الخاري ومسلم.

وتكـون هذه الرحمة أظهر ما تكون يوم القيامة، يوم ينال المؤمنين من العطاء والرحمـات مـا لا يخطر لهم على بال، فيـرون ثواب أعمالهـم وعاقبة طاعاتهم، فيرحـم اللهُ عبـادَه المؤمنين في عرصات يوم القيامة، فيُخفّف عليهم شـدته، ويُبرّد عليهـم حرارتـه، ويُنجّيهم من أهواله حتى أنّ إبليس لسـعة رحمـة الله ذلك اليوم يتطلّـع لها رجـاء أن تُدركـه ولكن هيهات هيهـات فقد مضى الوقـت الذي تُنال بـه، وانقطعت الأسـباب الموصلة للفوز بهـا، فهي رحمة خاصـة بأهل الإيمان، فليحرص المؤمن على الإتيان بأسباب نيلها، والتي من أعظمها:

تحقيق التقوى، والإيمان بالله وآياته وكثرة الطاعات، واتّباع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧] فبقدر تحقيق هذه الأمور ينال العبدُ من رحمة ربه.

ومن أسباب نيل رحمة الله: الإيمان الصادق بالله، وهجر الذنوب والمعاصي، والمجاهـدة في سـبيله، قـال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقـرة:٢١٨] فمن أتى بهذه الأسباب نال رحمته.

ومـن أسـباب نيـل الرحمة: طاعـة الله وطاعـة رسـوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإقام الصـلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [التوبـة:٧١] وقـال تعالـى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران:١٣٢]

ورحمة الخلق من أسباب نيل رحمة الله، فمن يرحم يُرحم، والراحمون يرحمهم الرحمن.

وتُنال الرحمةَ من الله بالإحسان في عبادته وإلى عباده، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف:٥٦]

وتُنال رحمته بكثرة الاستغفار، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [النمل:٤٦]

وسماع القرآن بحضور قلب من أسباب نيل رحمة الله، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ [الأعراف:٢٠٤]

وقيام الليل، والسماحة في المعاملات المالية، وتبليغ الشريعة بعد سماعها ووعيها من أسباب نيل رحمة الله، وعيادة المريض يخوض بها العبد في الرحمة، فليحرص الناصح لنفسه على الإتيان بهذه الأسباب لينال الرحمة العظيمة من ربه، والأمل بالله كبير أن ننالها، وأن ننعم بهذا الفضل فقد آمنّا بالله ورسوله وجعلناه خير الذخائر، وامتلأت القلوب ثقة بربها وهي أرجى الأعمال.

وينبغي للعبد ألا يغترّ بسعة رحمة الله وهو لا يزال مُصّراً على الذنوب، مقيماً على الخطايا، فكما أنّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ غفور رحيم فهو شديد العقاب، ذو بطش شديد وعذاب أليم، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]

وكما أنّ المؤمن يطمع برحمته فكذلك يخشى عذابه، يقول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لو يعلَمُ المؤمِنُ ما عندَ اللهِ مِنَ العقوبَةِ، ما طَمِعَ في الجنةِ أحدٌ، ولَوْ يَعْلَمُ الكافِرُ ما

عندَ اللهِ مِنَ الرحمةِ ما قنطَ مِنَ الجنةِ أحدٌ»[1].

فاللهم لا تحرمنا خير ما عندك بسوء ما عندنا، اللهم ارحمنا برحمة من عندك تأتي على ذنوبنا كلها فتمحوها ويذهب عنّا كل أثرها.

❊❊❊

(١) رواه مسلم والترمذي واللفظ له.

(٥) الغنيُ

ورد هذا الاسم في كتاب الله ثمان عشرة مرة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥] فاللهُ لكماله استغنى عن الخلق كلهم، فلا يحتاج إلى أحد لأنّ الحاجة نقص، واللهُ منزّهٌ عنه، فله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الغنى المطلق من جميع الوجوه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت:٦]

فالغنى وصفٌ ذاتيٌ لازمٌ له، فإنّه لم يخلق الخلق ليعتزّ بهم من ذِلة، ولا ليتقوى بهم من ضعف، ولا ليستكثر بهم من قِلة، بل لكمال غناه لو اجتمعوا جميعهم على طاعته لم يزيدوا في ملكه شيئًا، ولو اجتمعوا جميعهم على معصيته لم يُنقصوا من ملكه شيئًا، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، ولن يبلغوا ضره فيضروه ذلك أنّ غناه غنًا ذاتيًا لا يحتاج معه إلى أحد.

وعندما أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العبادَ بعبادته فليس لأنّه محتاج لهذا، بل كل ذلك ابتلاء وامتحان، ولينالوا من وراء هذه العبادات أعظم الأجور، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ...﴾ [الزمر: ٧]

يقول الإمام ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا يمكن أن يكون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا غنيًا، لأنّ غناه من لوازم ذاته)[1].

(١) [تيسير الكريم الرحمن: ٩٤٨]

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكًا في الملك، ولا وليًا من الذل، وهو الغنيُّ الذي كمل بنعوته وأوصافه، المُغني لجميع مخلوقاته)[1].

ولكمال غِناه عن خلقه، قادِرٌ على أن يُذهِبَهم ويأتيَ بخلقٍ جديد، وهو أيسر ما يكون عليه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ۝١٣٣﴾ [الأنعام: ١٣٣]

- ومن كمال غناه: أنّه وسِع الخلائق بعطاياه، فيعطيهم بسؤال وبغير سؤال، ويُبدّل أحوالَ عبادٍ ما كانوا ليتحولوا عمّا هم فيه لولا فضله وإحسانه، فكم من إنسان كان فقيراً، فصار غنيًا ومقصداً لهم -هذا واحد من ملايين من البشر- وإلا فتَتَابع فضله على الخلائق كلهم كتتابع أنفاسِهم عليهم.
- ومن كمال غناه: ما يبسط على أهل دار كرامته في جنّات النعيم من اللذات المتتابعة ما يقف المرء معه متعجّبًا من هذا، فكيف يُغنيهم كلهم وهم بهذه الأعداد الهائلة؟!

وكيف يُستدامُ فضله وإحسانه عليهم وهم بهذه الكثرة الكاثرة؟!

وهو غنىً وفضل يدلّ على أنّ غناه أعظم ممّا يتصوّره عقل، أو يستحضره فِكر.

ومع غنى الله التام عن عباده فهو محسنٌ إليهم، وذلك لكمال جوده وتمام فضله.

---

(١) [الحق الواضح المبين:٤٧]

- إنّ الخلق إذا أحسن بعضهم إلى بعض، فإنّهم كثيراً ما ينتظرون رداً ممّن أحسنوا إليه عاجلاً أو آجلاً أمّا الله -وله المثل الأعلى- فهو الذي يتفضل ابتداءً بلا طلب، ويُعطي لا عن ارتقاب الشكر من العباد، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠] فسبحانه من رب غني كريم منّان.

والعباد فقرهم ذاتي لا ينفكّ عنهم، فهم فقراء إلى ربهم لا يستغنون عنه طرفة عين (فغنى الله بنفسه وعن العباد ثابت، وفقرهم إليه لازم ودائم).

فهم فقراء إلى الله في إيجادهم، فهو الذي أوجدهم وأوجد غيرهم.

وفقراء إليه في إمدادهم بجميع حوائجهم، وما تقوم به حياتهم.

وفقراء إليه في إبقائهم، فهو الذي يُبقيهم ولو شاء لذهب بهم وأتى بآخرين.

وفقراء إليه في حفظهم بجميع أنواع الحفظ؛ ومن ذلك: حفظهم في أبدانهم، وعقولهم، وأولادهم، وأموالهم، ودينهم - وهو أغلى ما يملكون-.

ومهما بلغ العبد من قوة أو وصل إليه من مرتبةٍ فإنه لا يستغني عن ربه، ويبقى فقيرًا إليه، انظر إلى الملوك، وأرباب الأموال، وأصحاب الجاه والمنزلة في أقوامهم، وكيف هو فقرهم لربهم.

تأمّله تجده فقراً لا ينفك عنهم أبداً، وأظهر ما يكون إذا أصابهم ضرٌّ أو غشيهم مرض أو نزلت بهم نازلة، فاستحْضر كيف يرغبون ويفزعون إلى ربهم، ويزول عنهم غرورهم ويتضح فقرهم كأوضح ما يكون.

- وإغناء الله لعباده نوعان:

النوع الأوّل: (الغنى العام) وذلك بكفاية حوائجهم الدنيوية العامّة، وهذا يشمل إغناء المسلم والكافر والبَر والفاجر؛ يُغنيهم بما تنتظم به حياتُهم، وتقوم به معيشتُهم، ولِتتابع هذا الفضل من الله على العباد فإنّهم يغفلون عنه، ولا يكاد يستحضره إلا المتأمّل لفضل ربه عليه في كل نَفَسٍ من أنفاسه، وفي كل شأن من شؤونه؛ وهو إغناء شامل وواسع للعباد لا يُمكن التعبير عنه.

النوع الثاني: (الغنى الخاص) وهو إغناء خواصّ خلقه بأشرف العطايا، وأحسن الأرزاق، بما يستغنون به عن كثير من ملاذ الدنيا الزائل، وهو أنواع كثيرة، منها:

- الاستغناء بالله وبفضله: فيستغني المؤمن بربه عن الخلق، ويكتفي بفضله عمّن سواه، فتراه غنيًا بما قام في قلبه من استحضار نِعَمه عليه وإن كان ظاهره الفقر، ومترفعًا عن الخلق وإن كان ذو حاجة لأنّ الله قد ملأ قلبه غنىً فاستغنى به واستكفى، ولذا كان من دعوات نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وأغنني بفضلك عمّن سواك»(١).

أيّها المؤمن: اجعل اتصالك دائمًا بالله، تطرح بين يديه كل حوائجك، وتسأله كل مطالبك، لتستغني به عن كل مخلوق، وسترى بعدها أنّك أصبحتَ عزيزاً بلا عشيرة، غنيًا من غير مال، شريفًا من غير نسب، فمن استغنى بالله لم يفتقر لمخلوق أبداً، ولئن قضى اللهُ بقيام حياة النّاس بعضهم ببعض فإنّ من أغنى اللهُ نفسَه لا يلتفت لهم بقلبه، بل ينظر إليهم أنّهم أسبابًا فقط يسوقهم الله إليه.

---

(١) رواه الترمذي.

وهــذا هو العطاء النفيس الذي يختصّ الله به من شــاء مِن خلقه، وهو غنىً لا يفقهه إلا الكُمّل من العباد، والفقهاء من الخلق الذين يرون أنّه أرفع أنواع الغنى.

- ومن الغنى الخاص: إغناء النفوس بالعلم النافع.

فيجعل اللهُ فيها حبّ العلم والانشــغال به، فتستغني به عن ملاذ الدنيا بما قام فيها من لذة العلم والمعرفة.

والعلمُ الشرعي الموروث من مشكاة الكتاب والسُنّة هو الذي يجعل القلوب تقنــع وترضى بما كتب الله لها، ويجعلها تُبصر الأمــور على حقائقها، وتعرف أنّ الدنيا لا تســاوي شيئًا فلا تنافس على شــرفها لأنّها قد أيقنت أنّ الدار الآخرة هي دار الرزق الباقي والعطاء الخالد.

لقــد بصّرهم هــذا العلم أنّ الفقر إلى الله هو عين الغنــى، فأفقر النّاس إلى الله أغناهــم به، وأذلهم له أعزّهم به، وأضعفهم بين يديه أقواهم به، فكلما أظهر العبدُ فقــره لربــه في جوانب حياته كلها زاد غنىً به، وكلما عــرف العبدُ ربَه حق المعرفة زاد فقره له لأنّه قد اســتيقن بحاجته إلى توفيقه في جميع حوائجه، وتبصيره ســبيل الهدى في جميع دروبه، ومحتاج إلى تثبيته - خصوصـًا وقت الفتن-.

- ومــن أنواع الغنى الخاص: قناعة النفس بما رُزقت، فالغنى الحقيقي هو غنى النفــس، وليس بكثرة الأموال، قال رَسُــول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْغِنى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَإِنَّمَا الْغِنى غِنى النَّفسِ»[1].

فمــن عرف هذه الحقيقة، ولزم القناعة والرضا بما آتاه الله وجد طيب الحياة، وعاش غنيـًا بفضل ربه ومولاه، وهو أمر يتطلّب مجاهدة للنفس حتى تُدركه.

(١) رواه البخاري ومسلم.

- أيّها العبدُ الموّحد: أيقن أن الغنى كل الغنى بيد ربك، وأن الفضل كل الفضل بيد مولاك، وإن جاءك الخير من بعض الخلق، فأصله من الله الذي سخّرهم لك، وأوصل الخير لك عن طريقهم رغماً عنهم.

كم تمرُّ بنا مواقف ونرى أننا نسعى سعياً حثيثاً لخدمة آخرين وأحياناً لا يشعرون بذلك؛ فمن الذي سخرّنا لهم؟

ومن الذي جعلنا كذلك لهم؟

إنّه الله الغني الحميد، وهكذا هو فعله معك ومع غيرك.

فاللهم علّق قلوبنا بك، وأغننا بفضلك عمّن سواك.

❊❊❊

(٦) الحميد

وجاء ذكر هذا الاسم في كتاب الله سبع عشرة مرة.

والله هو (الحميد) الذي له الحمد المطلق، فهو حميدٌ بذاته لِما له من كمال الذات، فلا مثيل له ولا شبيه، وحميدٌ بصفاته ونعوت جلاله، وأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، والجامعة للكمال والجمال.

ومن سلك مسلك السلف من لدن صحابة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن تبع منهجهم في فهم معاني أسماء الله وصفاته أيقن بكمال حمد الله.

والله هو (المحمودُ) لكثرة إنعامه، وسعة فضله، وإحسانه على العباد، فقد أفاض عليهم من صنوف النعم ما استوجب به الحمد، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإن لم يحمده غيره، فهو حميدٌ في نفسه)[1].

وهو: الحميد المستحق للحمد، قال الإمام الخطّابي: («والحميد» هو المحمود الذي استحق الحمد بأفعاله... فهو الذي يُحمد في الضراء والسراء، وفي الشدة والرخاء، لأنّه حكيم لا يجري في أفعاله الغلط...)[2].

وجميع المخلوقات ناطقة بحمده، فقد امتلأ الكون بالثناء عليه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٤]

(١) [جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام: ٤٤٧].

(٢) [شأن الدعاء:٧٨].

والحمد أوسع الصفات، وأعمّ المدائح، وأبلغ الدعوات.

- حَمِد نفسه بأنّه رب العالمين، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]

فهو ربُهم وسيدُهم، وخالقُهم ومالكُهم، ومربيهم بالنعم والخيرات فاستحق الحمد.

- وحَمِد نفسه -وهو أهلٌ للحمد- على تفرّده بالألوهية، وعلى امتناع ما لا يليق به من اتخاذ الولد والشريك، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝١١١﴾ [الإسراء: ١١١]

- وحَمِد نفسه على عظمته وكبريائه، وتمام ملكه، وسعة سلطانه، فهو ربُّ السماوات وربُّ الأرض ربُّ العالمين.

وتأمّل حال قلبك، وكيف تنزل السكينةُ عليه وأنت تقرأ هذه الآية في خاتمة سورة الجاثية، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾ [سورة الجاثية: ٣٦-٣٧]

أعد قراءتها بترتيل خاشع، متدبّراً كل كلمة منها لترى ربـًا حميداً، ملأ حمدُه الأرض والسماء وما بينهما، قد اتصف بالكبرياء، وتنزّه عن كلِّ نقص.

- استوجب الحمد على عباده لحميد صنائعه، وجميل آلائه، فانظر لتوالي نعمه عليهم، وعظيم فضله لديهم، فله الحمد كله ولا يستطيع العبادُ إحصاء الثناء عليه.

- ابتدأ خلْقَه بالحمد، فخلْقُه رحمة ونعمة وحكمة، ولا يقدر على هذا إلا هو، فاستحق الحمد والثناء، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١﴾ [سورة الأنعام:١]

- وختم خلْقَه بالحمد لكمال تدبيره له، وإتقان صنعه، ولطْف قدره، وعنايته بالعباد، وعدله فيهم، وفضله عليهم في كل حال، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ١﴾ [سبأ:١]

- وتحمده الخلائق كلها إذا قضى من حسابهم، ودخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٥﴾ [سورة الزمر: ٧٥]

وتأمّل قولَه تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٥﴾ [سورة الزمر: ٧٥] لترى كونًا كاملاً بأرضه وسمائه وإنسه وجنّه وملائكته وسائر خلقه قد اجتمعوا على حمده، وهو ما يفيد قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقِيلَ﴾.

- وحَمِد نفسه على إنزاله القرآن العظيم لِما احتواه من هداية وخيرات وبركات، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ١﴾ [الكهف:١]

- وحَمِد نفسه على خلقه العظيم -ومنهم الملائكة الكرام- الذين خلقهم على هيئة عظيمة لا يعلمها إلا هو، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر ١]

- وحَمِد نفسه على انتقامه من أعدائه ممّن كفر وأشرك به، وآذى رسله وأولياءه لأنّه انتقام عدل نزل بمن استحقه، فكم من ظالم تمنى الخلق وقوع العذاب عليه لاشتداد جرمه، وتأذّي الخلق منه فيُنزل الله به عذابه وانتقامه، فيحمده الخلق على ذلك، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام:٤٥]

- تُسبّح الخلائق بحمده لأنهم ما حمدوه إلا بفضله، وما شكروه إلا بمعونته.

وهو محمودٌ يوم القيامة ساعة قيام النّاس لربهم، واستجابتهم لندائه، فيحمدونه لكمال خلقه، وتمام حكمته التي ظهرت لهم كأوضح ما يكون لهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء:٥٢]

- عباداتُ العبد مِنّةٌ من الله وفضل، وهي سبيلٌ لنيل الحمد منه، ولذا جاء الأمر من الله لنبيه بصلاة الليل ليبعثه المقام المحمود الذي تحمده عليه الخلائق، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء:٧٩]

- وحَمْدُه استغرق الزمان، وامتلأ به الوجود لاستحقاقه ذلك، فقد جمع المحامد كلها وليس ذلك لأحدٍ إلا هو، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٨]

فحَمْده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (يملأ الوجود كله العالم العلوي والسفلي، ويملأ نظير الوجود من غير عدّ ولا إحصاء) قاله ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

(١) [الحق الواضح المبين: ٣٩].

ويحمدُ أهلُ الجنة ربهم الذي صدقهم وعده وأورثهم جنته، فباشـروا ثواب أعمالهم، ورأوه حاضراً بين أيديهم، فلهجت ألسـنتهم بحمده: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

ولا ينقطع حمدهم لربهم في الجنّة لشرف الحمد، وعلو مكانته، ولتذذهم به، وقـد تفضّل عليهم بهذا الفضل، وأعطاهم مالـم يُعطه كثير من العالمين، فحالهم كمـا وصـف الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة يونس: ١٠]

ولقـد أمـر -سـبحانُه- عبـادَه أن يحمـدوه في كل وقـت وآن، ففـي حمـده شـكر النعـم ودوامها وزيادتها، (فمعاقـد حفظ النعم: الحمْدُ والشـكر، وزيادتها واستقرارها بالطاعة والاعتراف بالفضل).

- ولكمـال حمـده يبتدأ النعم قبل السـؤال، ومـن غير اسـتحقاق، ويدفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها، فكم من بلية صُرِفت عن العبد بعد أن أيقن بنزولها به، وكم مِن فرج جاءه بعد أن ظنّ كل الظنّ أن لا مخرج من هذه الورطة، فسبحانه المحمودُ في كل الأحوال، وفي الضراء والسـراء، والعسر واليسر، وعلى كل قضاء.
- ولجلالة الحمد وفضله فقد بشّـر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنّ: «الحمدُ للهِ تملأُ الميـزانَ»[1]. ولعظيم أجرهـا أخبر عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنّها مع سـبحان الله: «تَملآنِ ما بين السماءِ والأرضِ»[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

وكان رسولنا ﷺ يحمد ربه إذا أصبح وأمسى فكان يقول: «أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله»(١)؛ وكذا إذا أمسى حمد ربه، متذكراً نعمه، ومعلّمًا أمّته أهمية الحمد في كل صبح ومساء.

وكان يحمد ربه إذا أوى إلى فراشه متذكّراً نعمة الطعام والشراب والإيواء ويقول: «الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لا كَافِيَ له وَلَا مُؤْوِيَ»(٢).

- والصلاة مستغرقة للحمد في افتتاحها، وفي الركوع والسجود، وفي ختامها، فيبدأ المصلي صلاته بالثناء على ربه «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك» وفي أول آية يتلوها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: آية ٢] وإذا ركع وسجد حَمِدَ الله بقول: «سبحان ربي العظيم وبحمده» «سبحان ربي الأعلى وبحمده» وإذا رفع من ركوعه قال: «سمع الله لمن حمده» وفي التشهد يقول: «إنّك حميد مجيد» وهكذا يتصل الحمد والثناء عليه من بداية صلاته حتى ختامها في استحضار لنعمته على التوفيق والهداية.

وفي سائر العبادات تجد حمد الله حاضراً لا ينقطع.

بل تجد الحمدَ في حياة المؤمنين كلها، فهو يحمد ربه عند استيقاظه، وعند تجدد النعم، وعند لبس ثوبه، وبعد الأكل والشرب، وفي ختام مجلسه، وعند العطاس ونحوها من المواطن التي يُحمد فيها الله تعالى.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

فاعـرف يا عبد الله صفات ربـك الحميد، وتدبّر معانيهـا، فمن عرفه بحمده أحبه لا محاله، فنِعَمه تغطيه، وفضله مسبلٌ عليه في كل شؤونه وأحواله.

والحمد مسـتجلبٌ الرضا من الحميـد، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إنّ الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها»(١).

ومـن عرفه حق المعرفة لم ينقطع لسـانه عن ذكره وشـكره، فهـو يرى نِعمه تتوالـى عليه، خصوصـاً إذا اسـتحضر نعمتـه عليه في دينه الـذي اصطفاه له فيزيد حمداً وشـكراً له، فهـي النعمة الحقيقة العظمى الموصلـة لأعظم نعيم وهو نعيم الجنة.

ومن تدبر في صفات ربه الحميد لم يتعلق قلبه بسواه لأنّه يرى الكمال له، ولأنّ كل نعمـة به فإنّما هي من الله تعالى وحده دون سـواه، فالحمـد لله رب العالمين، واللهم أوزعنا شكر نعمتك، ووفقنا لحمدك والثناء عليك.

❋❋❋

(١) رواه مسلم.

(٧، ٨، ٩) العالمُ، العليمُ، علَّامُ الغيوب

ورد اسم (العالم) ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم، أمّا اسم (العليم) فقد ورد ذكره مئة وسبعاً وخمسين مرة، وورد ذكر اسم (علّام الغيوب) أربع مرات.

وإذا أمعن المتأمّل النظر في صفة العلم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقف منبهراً حائراً معظِّماً لهذه الصفة الجليلة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأنّها صفةٌ لا يستطيع أن يقارب حقيقتها فضلاً عن معرفتها على ماهي عليها.

تنظر في مواقف عدة إلى تجمّعٍ بشري -كالحجِّ مثلاً- لترى هذه الأعداد الهائلة والجموع الغفيرة وقدرة الله على الإحاطة بهم، وكيف علِم أحوالهم وأعمالهم، وسمع دعواتهم على اختلاف لغاتهم، وتفنن حاجاتهم، بل وعَلِم درجات صدقهم في هذه العبادة ونيتهم فيها، وإتقانهم لها، واتّباعهم لنبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أدائها، فيعلم استحقاق كل واحد منهم للثواب اللائق به بحسب عمله ونيته، فيقف المتأمّل مُنبهراً في هذا الموقف فقط، فكيف وأنت تستحضر العالَـم كلَه بأفراده الذين لا حصر لهم ولا عدد في حساب البشر إلا على سبيل المقاربة؛ والمتباينة أحوالهم، فهذا طائع، وآخر عاصٍ، وذاك على قربة جليلة قد تقرّب بها لربه إما بجوار بيت الله يركع ويسجد أو في أقصى الأرض يتعبّدُ لربه بصلاة وذكر ودعاء، وآخر قد تقرّب بتلاوة قرآن، وغيره بإنابة وصدقة ونحوها من الطاعات.

وآخرون قد اقترفوا كثيراً من الموبِقات، وتنوّعت جرائمهم؛ ومع ذا فكلهم في علم الله سواء لا يغيب عنه عمل أي واحدٍ منهم، فجلَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من اتصف بهذا العلم، وعظُم من كانت تلك إحاطته، وليأتِ أحد بكاتب أو واصف ليصف

لنا حقيقة علم الله، أو حتى يُقاربها، فلا إله إلا هو ما عرفناه حق المعرفة، ولا قدرناه حق قدره، ونستغفره من كل تقصير في عبادتنا له.

- ينام الخلائق ويستيقظون، يمرضون ويصِحّون، يتزوجون وينجبون، يولد أطفال هنا، ويموت خلق هناك، ويُعمَّر آخرون.

يكيد هذا لذاك، ويرحم هذا غيرَه، ويظلم هذا ضعيفًا، وينتصر آخرُ لمظلوم، يفرّج هذا همّ أخيه، ويتسبب هذا بغمّ ضعيف مستضعف، وكل هؤلاء بتنوّع أعمالهم، وتباين أحوالهم، وتعدّد مشاربهم في علم الله سواء، فالمُسرُّ منهم بذنبه كالمعلِن، والمستخفُّ كالمجاهر، فسبحانه من إله عليم، وما أوسع صفة علمه.

- وعلم الله أزلي لا بداية له، ذلك أنه: (علمٌ لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان) وهو بذا قد خالف علم كل أحد مهما عظُم في نفوس البشر، فأي عالم -غير الله- لابد أن يسبق علمه جهل بهذا العلم، ولذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الإنسان: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا...﴾ [النحل: ٧٨]

وتجد البشر كلَّ يوم يكتشفون علمًا جديداً ويُعظّمون من اكتشف ذلك -وهم مُحقّون في ذلك- فقد صار علمًا حادثًا كانوا يجهلونه من قبل.

وبالمقابل فمهما بلغ المرء من علم فمآله إلى النسيان والسهو، ويضعف وينسى وتخور قواه -ومنها علمه- فأيْقن بكمال علم ربك، ونقْص ومحدودية علم غيره.

وأي علم وصل إليه البشر فإنّما هو جزءاً ممّا أذن الله به، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]

فلا تغترّ بعلم أي أحد من البشر، فإدراكه لأي علم إنّما هو بإذن الله العليم.

- وعِلْمُ الله واسعٌ كسائر سعة صفاته سبحانه، كاملٌ كمالاً مطلقًا، فهو يعلم الماضي والحاضر والمستقبل والمستحيل (وهو الذي لن يكون، ولو كان كيف يكون).

تأمّل في علمه للماضي من أحوال البشر وما حصل بين الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأممهم ممّن قصّ علينا من أخبارهم ومِمّن لم يقصص، فقد علم أمورهم وتفصيلات أحوالهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف:٧]

ولمّا سأل فرعونُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن حال الأمم السابقة بيّن له علم الله المحيط بهم جميعًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه:٥١،٥٢]

فلم يغب عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حال أحد منهم في الدنيا، وعلم مآلهم وهم في عالم البرزخ مع تباين أحولهم، واختلاف مصيرهم ما بين نعيم وعذاب في درجات مختلفة لا يعلمها إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فعلمه شامل كامل محيط.

وهذا يدل على مباينة علم الله لعلم العباد، فلو قيل لأحدنا ماذا تعلم عن الأمم السابقة لقال لك لا أعلم إلا ما قصّ عليّ القرآن والسنة، فكيف بتلك التفصيلات من حياتهم وأحوالهم عندها سيقف كل منصف صادق مع نفسه ليرى أنّ علمه لا يساوي شيئًا عند علم الله.

وهكذا يُقال في علم المستقبل فلا أحد من البشر يعلم ما سيحصل له بعد ساعة فضلاً عن يوم ولكنّ العليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يعلم مستقبلك أنت فقط، بل يعلم

مستقبل كل واحدٍ من بني البشر سواء في دنياه أو برزخه أو مآله الأخروي في عظمة تدل على كمال علم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لن تستطيع أن توفي الحديث عن صفة علم الله وأنت تستحضر الأعداد الهائلة لبني البشر، بل وغير بني البشر ممن تراهم فقط ناهيك عمّن تسمع عنهم.

تخيّل فقط أعداد من يعيشون في عصرك الذين بلغوا قريباً من ثمانية آلاف مليون، ومع ذلك يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (أحوالهم وأعمالهم وأسرارهم ونياتهم ومآلهم ومصيرهم) فكيف بمن سبقهم، وكيف بمن يأتي بعدهم، وكيف بغيرهم من الملائكة والجن، بله الحيوانات بأنواعها والجمادات بتعددها، والنباتات باختلافها فيعلم تفاصيل كل جنس وكل أحدٍ، إنّها العظمة لتلك الصفة، والجلالة لذلك العلم.

تأمّل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [سورة الأنعام: ٥٩]

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقط الذي عنده عِلمُ مفاتيح الغيب كلها، فعِلمُ الساعة لا يعلمه غيره، وعِلمُ الغيث وقطرات المطر ونفعه وضرره لا يعلمه بالتفصيل إلا هو، وعلم ظلمات الأرحام والذكورة والأنوثة والكمال لهذا الجنين ونقصانه، وسعادته وشقاوته، وعمره وأعماله وصحته ومرضه وأقداره لا يعلمه إلا هو سبحانه جل في علاه.

وعلم ما تكسبه كل نفس، وكيف اكتسبته، وأين ومتى اكتسبته.

وإخلاص كل عابد، ورياء كل عامل، ومكر كل ماكر، وصدق كل صادق، ومستقبل كل مخلوق ... في تفصيلات لهذا العلم المحيط يقف العقل معظّمًا ربه عندها وهو يتصورها حق التصوّر، فهو كما وصف علمه: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨]

ووالله لو كُلِّف أحدُنا أن يعلم حال عشرة فقط من البشر لما استطاع فكيف بهذه المليارات من البشر ممن خلق الله وممّن لم يخلق بعد.

- وهو عليم بما يصلح لعباده من الأحكام الشرعية والقدرية المناسبة لكل أمّة، فقد فاوَت بين أعمار الأمم لعلمه السابق بهم، فمنهم من جعل أعمارهم بالمئات، ومنهم ما دون ذلك حتى قضى لهذه الأمّة أن تكون بين الستين والسبعين علمًا بحالهم وبما يُصلحهم.

وفاوت بين شرائع الأمم في فروع العبادات لتمام علمه بما يصلح لكل أمّة، وكثيراً ما يختم الله آيات التشريع بالإشارة إلى صفة العلم والحكمة له كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء:٢٦]

- وهو عليم بحال كل عبد من عباده، قال الله -عن بعض خلقه- : ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣] فإذا رأيتَ ضالاً او منحرفًا فاعلم أنّ الله عليم بحاله ومآله وسبب ضلاله في علم لا تُدركه أنت ولا أهل الأرض جميعًا، فالإذعان لكمال علم الله يُسلّم العبد من الحيرة، ويُنزل السكينة على قلبه في الأقضية خصوصًا إذا كان عالم بسعة رحمة الله وكمال عدله.

- فاوت بين الخلق في الأرزاق المتنوّعة من المال والصحة والعافية والعلم ونحوها بكمال علم منه، وانظر كيف ختم آيات رزقه للعباد بصفة العلم لتُوقن من هذه القضية التي حار فيها خلق، وضلّ فيها أقوام، يقول الله في كتابه المجيد: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢﴾ [العنكبوت:٦٢]

- ومن عِلم أنّ الله قد قضى من شؤون خلقه وفرغ من هذا اطمأنت نفسه وسلّم ورضى بكل قضاء الله عليه -وإن كان مُرّاً- لعلمه أنّ الأمور قد قضيت لا سيما إذا ضُم إليها اليقين بكمال حكمة الله، وأنّه لا يُقدّر قضاء إلا بعلم، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [الحج:٧٠] وفي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»[1].

هل تخيّلت المدة؟

لقد كتب المقادير ليس قبل خلقك ولا خلق السموات والأرض والتي لا يعلم متى خلقها إلا هو، بل: «قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»[2] فسبحان ربنا العظيم العليم.

- وهو سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليم بذات الصدور، أي عليمٌ بما أخفته صدور خلقه من إيمان وكفر، وإخلاص ورياءٌ، وخير وشر، فهو عليم بـ(الخفيات

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

التي لا يُدركها علم الخلق) قاله الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

- وهـو المنفرد في علـم الهداية والضلالـة وعلم الصحـة والمرض وعلم الابتلاءات والمحن والرزايا والأفراح والسعادة ونحوها من أمور الخلق والتي هي بحر لا ساحل له.

إنّهـا صفة العلم لله الذي تعجز عن وصفه العبارات، وتتكسـر معه الأقلام، وتجـف فيه الأحبار وهـي لم تبلغ حقيقـة كنهه، ولا قاربت وصْفـه، والحديث حول هـذه الصفة لا ينقضي وتفاصيلها لا منتهى له، فاللهم ارزقنا تعظيمك حق التعظيم.

❊❊❊

(١) [شأن الدعاء:٥٧]

(١٠ ، ١١) الرازق، الرزّاق

(الـرازق والـرزّاق) اسـمان كريمـان لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دالان على سـعة رزقه، وكمال جوده، وواسـع فضله، وقد ورد اسـم (الرازق) في كتاب الله خمس مرات، وورد اسم (الرزّاق) مرة واحدة فقط.

والله هـو المتكفّل بـأرزاق العباد كلهم مؤمنهم وكافرهـم في كفاية تامّة لهم، يسوق رزقه إلى الضعيف الذي لا حيلة له كما يسوقه إلى القوي المُتكسّب.

تأمّـل في الأعـداد الهائلة التـي خلقها الله والتي لـم يخلقها بعدُ، واسـتحضر عظمته وهو يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [سورة هود: ٦]

فـرَزَق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأوليـن والآخرين وهم بأعدادٍ لا حصـر لها، ونفوسٍ لا يحيط بها إلا من خلقها سبحانه.

إنّ أحدَنـا يحمل هـمّ رزق أولاده وهـم وربما لا يتجاوز عددهـم أصابع اليد الواحدة، فكيف لو قيل له أنت مسؤول عن رزق قبيلة -فضلاً عن أمّة من الناس- لأصبـح من المحال عليه هذا، ولكن انظـر كيف تكفّل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأرزاق الخلق كلهم وهم بهذه الأعداد الهائلة.

ورِزْقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بغير عدٍّ ولا حساب، فيده ملأى سحّاء الليل والنهار؛ ومع سعة رزقه فإنّه لم ينقص من خزائن جوده شيئًا.

رَزَق الجنيـن وهـو في بطن أمّـه ولو اجتمـع الآدميون كلُّهم علـى أن يرزقوا

واحداً منهم لعجزوا، واتصل رزقُه لهم وأعدادهم بآلاف الملايين إلى مماتهم، ورِزْقه لهم متنوّع بما لا يُحصى تِعداداً ونوعاً.

ومن كماله وسعة جوده أنّه يرزق الخلق كلهم مؤمَنهم وكافرهم، بَرَّهم وفاجرهم، فانظر لرزقه للكافرين مع إقامتهم على كفرهم ومبارزتهم لربهم بأعظم ذنب وأشنعه، ومع ذا يرزقهم حتى يبلغوا آجالهم ويستكملوا حياتهم.

- وقضيةُ الرزق ليس لها ارتباط برضا الله عن عبده أو سخطه عليه؛ انظر كيف وسّع الله في رزقه على الكافرين، وضيّقه على طائفة من المؤمنين، فليست السعة دليل رضاه، وليس الضيق دليل سخطه أيضاً، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ﴾ [الفجر: ١٥-١٧]

فلا يغترّ مقيمٌ على معصية برزق الله له، ويظنّ أنّ هذا دليل رضا الله عنه، ولا يتسّخط مؤمن على تضييق الله عليه، بل كله ابتلاء وامتحان.

وقد يوسّع اللهُ الرزقَ على المؤمن، ويُضيّقه على الكافر والعاصي، فالميزان إنّما هو استقامة العبد أو انحرافه.

- ويقين القلب التام بأنّ الرازق على الحقيقة -هو الله سبحانه- يُحقق معها العبدُ صدق التوكل، لأنّ أعظم قضية أشغلت البشرية هي: قضية الرزق؛ فتعلّقت القلوب بالأشخاص والأسباب، وارتُكِبَت المناهي، وتُعُدِيت الحدود وسُفِكَت الدماء، وقُطِّعتِ الأرحام بسببها، ولذا فإنّ القرآن عند ذكر قضية الرزق يأتي بالبيان الواضح فيها بأنّ اللهَ هو الرزاق وحده دون سواه، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ

﴿أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

[الذاريات:٥٦-٥٨]

فانظر لأسلوب الحصر في هذه الآية فقدّم الضمير «هُوَ» ممّا يدل على أنّه هو الرزّاق فقط ولا أحد سواه.

ولئن كان الخلق ينفع بعضهم بعضًا فحقيقتُه أنّ الله قد جعلهم أسبابًا، فحنّن الوالدين على أولادهم، والأزواجَ على زوجاتهم، والأقرباءَ على قرابتهم، وسائر الخلق بعضهم على بعض، وسخّرهم بما تُكفى به شؤونهم؛ فلا تحمل رزق أيّ أحدٍ حتى ولو كان أقرب قريب وألصق مخلوق بك -وهو ابنك- فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول لك: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢]

- واطمئن لرزقك، فكما أنّ الموت يُدرك الخلقَ كلَهم، فكذلك رزقك تنالـه لا محالة، يقـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ»(١).

ولو تأمل الواحد منّا في هذه القضية لوجد عجبًا عجابًا؛ لقد كان كل واحدٍ منّا يحمل والداه همّه في الرزق، فإذا به يتزوج ويستقلّ ويستغني بنفسه، بل ربما يصل لدرجة أن يُنفق -إن وُفِق- على والديه لتوقن من حالك وحال غيرك أنّ الله هو الرزّاق لا الوالدين ولا غيرهم.

فلا تحمل همّ هذه القضية، فكل الأرزاق مكتوبة، ومحسوم أمرها، ففي الحديث يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نفث في رُوعِي أَنَّ نفسًا لَن تموت

(١) رواه ابن حبان، وهو في صحيح الترغيب والترهيب.

حتَّى تستكمِلَ أجلَها، وتستوعِبَ رزقَها، فاتَّقوا اللهَ، وأجمِلُوا في الطَّلَبِ، ولا يَحمِلَنَّ أحدَكم استبطاءُ الرِّزقِ أن يطلُبَه بمَعصيةِ اللهِ، فإنَّ اللهَ تعالى لا يُنالُ ما عندَه إلَّا بِطاعَتِه»(١).

- وبحسب يقين المرء بهذه القضية يكون اطمئنانه لها، وابتعاده عن الكسب الحرام، ولئن كان المرء مطالبًا بالسعي لطلب الرزق فإن القضية الأعظم هي: تعليق القلب بالله وحسن الظنّ به.

ترى أناسًا كانوا فقراء ولا يملكون من حطام الدنيا شيئًا وإذ بهم يُصبحون من أرباب الأموال، وأصحاب الثروات أو على أقل تقدير نعرف جميعًا أناسًا كانوا أصحاب كفاف فإذ بهم صاروا ميسوري الحال واستغنوا عن البشر في صورٍ كثيرة لا تُحصى.

- ويجتمع مع رزقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علمه بحال كل أحد، فرِزْقُه عن علم وحكمة، فيعلم ما هو الأنفع لهذا العبد أهو الغنى فيغنيه أم الفقر فيُفقره.

ويعلم ما هو الأصلح لهذا أهو رزق العلم فيعلمه أو الجهل فيمنعه هذا الفضل بمقتضى علمه.

وما الأنسب لهذا أهي الصحة فيعافيه أم المرض فيبتليه، فسبحان الرزاق العليم.

وانظر كيف رزْقه لسائر المخلوقات فيرزق الطيرَ في الجو حيث تغدو خماصًا وتعود بطانًا قد كفاها الله حاجتها، ورزقها بما تقوم به حياتها.

ورَزَقَ الأسماك في الماء بقدرة عجيبة لتعيش حياتها حتى تنقضي آجالها،

(١) رواه ابن ماجه بسند صحيح.

مع أنّ الصغير منها يعيش بين أسماك تلتهم كل شيء ولكنّ الله ضمن لكل واحدة رزقها في تدبير عجيب.

ورَزَق الدوابّ الكبيرة والصغيرة والحشرات والهوام وهم بأعداد لا يُحصيها إلا الله، فترى الحشرة وهي تدبُّ على الأرض لا تدري من أين تأكل ومن أين تشرب، وكيف تطعم وترتوي؟!

فسبحانه ما أوسع رزقه، وما أكثر نواله وعطاياه.

- وعندما يُذكر رِزْق الله يتبادر لكثير من الأذهان رزق الطعام والشراب وما ذاك إلا لتعلق أكثر النفوس فيها -وهو لا شك رزق عظيم وعطاء جزيل- ولكنّ حصره بهذا فقط تضييق لمعنى الرزق الكبير، فرِزْق الله واسعٌ بأصناف لا حصر لها، وهو دالٌ على عظمة صفاته وجلالة أفعاله.

فإذا أردت العيش مع هذه الصفة والمعرفة الحقيقة لها، وتحصيل أثرها في نفسك فتعرّف على معناها الواسع الذي لا منتهى له.

- استحضر رزق الله للعالمين بمعناه العام، فهو الذي قد أغنى كل محتاج، وأفاض على كل فقير، وسدّ خلة كل مضطر، وأمّن رزق كل مخلوق.

يرزقك الصحة في البدن.

ويرزقك الراحة النفسية والطمأنينة القلبية.

ويرزقك الأنس بالناس والأهل.

ويرزقك النوم لتستريح.

ويرزقك العلم لتُبْصر مصالحك.

ويرزقك العمل لتكفي نفسك.

ويرزقك الهداية لمصالح نفسك الدنيوية.

انظر الى رزقك في النَفَس الذي يتردد في داخلك والذي به قُوام حياتك، وإلى صحتك التي لا تشعر بها إلا عند المرض؛ من الذي رزقك إيّاها على الدوام؟

ووهبك إيّاها بلا سؤال؟

إننا لا نشـعر بها لتوالي فضل الله علينا بها، ومفـردات هذه الأرزاق المتوالية المغفول عن شكرها لا حصر لها.

يرزقك أعظم رزق، وهو: الهداية للإسلام

فيجعلك مسلماً ومليارات البشر غيرك -أكثر منك مالاً، وأقوى منك بدنًا، وأصـحّ منك جسـداً، ووصلوا لمختر عـات دنيوية لم تصل لعُشـرِها- ومع ذلك هداك الله وأضلهم، وقرّبك وأبعدهم.

هـذا الرزق الذي لو أفنيت عمرك كله لتشـكره ما أديت عشـر معشـاره، فبه أنقذك الله من النار ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾ [ال عمران: ١٠٣]

- ومن الرزق النفيس: رِزق القلوب بالحقائق الإيمانية والمواهب الربانية، فيرزق القلوب الإيمان بربهـا وحبه واللذة بمناجاته، ويرزقها حب نبيها ﷺ وحبّ التأسـي به والشـوق إليه، ويرزقها حـب الطاعات، وانشراح الصدر لها، وحب مراضيه وتقديمها على حظوظ النفس.

- يرزقك أشـرف عطيـة وأكرم نعمة، وهو: العلم به وبشـرعه؛ وهو أعظم رزق بعد الإسلام، وهو من الرزق الذي يصطفي له الله الصفوة من خلقه، فيرزقك حبه واللذة بهذه المحبة.

- يرزقك حب نفع العباد وبذل المعروف لهم، ويصطفيك للدعوة بأن يجعلك من خلفاء رسله -عليهم الصلاة والسلام- فتبلِّغ رسالة ربك، ولذا ينبغي للداعي بالرزق أن يلحظ هذا المعنى الشريف، فيسأل ربه الرزق النافع للقلوب، والهادي للأفئدة.

- يرزقك -الرازق سبحانه-: حبَّ الإحسان للناس بجميع أنواعه لتنفع خلقه، وتحسن إلى نفسك بهذا العمل.

- ويمتدُّ رزقه لأهل السعادة من عباده بدخول الجنّة والفوز بنعيمها الدائم في دار كرامته ومستقر رحمته بأرزاق متتابعة كاملة يقف المتأمّل عندها حائراً مع سعة ذلك الرزق، قال سبحانه -عن رزقه هذا-: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٥٤] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق:١١] فهو أحسن الرزق وأكمله وأوفاه.

وهذا هو الرزق التامُّ -لمن عقل- فرزْق الدنيا مهما كثر وطال به العهد، ففيه من المنغصّات ما فيه، وهو في النهاية منقطع ومضمحل، أما رزق الآخرة فهو الأعظم شأنًا، والأكمل حالاً، والأبقى زمانًا.

فلذا إذا دعوتَ الله بالرزق فاستحضر كل معاني الرزق ولا تحصره بمال أو بأمور الدنيا الفانية.

وإذا عرفت أنّ رزقك في السماء فاحرص على أن لا يزال لك عمل صالح يصعد في كل حين، واحذر من أن يصعد لك عمل سيء، فلا تُقابل نِعمه بالكفران.

- ربُـك «خير الرازقيـن» فهو خير من رزق، وأوفى مـن أعطى، وأكمل من وهـب، وبعضنا يحصـر رزقه في أمنياته ولا ينظر لرزق ربه له في هباته من غير مسألة.

استحضر أرزاقه عليك المتتابعة في يومك هذا فقط، فهل تستطيع أن تحصيها وتُؤدي شكرها، فكيف بأرزاقه عليك في أسبوعك وشهرك وسنتك وكم عددها في سنوات عمرك؟!

- ربُك «خير الرازقين» باعتبار نفع هذا الرزق لك، وشدة احتياجك إليه.

وكثيـرون لا يُدركـون هذا المعنـى، فيطمـع في رزق معيّن من مـال ووظيفة ومنصـب وزوجـة وولد ولا يدري فلعـلّ فيه عطبه وهلاكه، ولكنّـه إن آمن أنّ الله «خير الرازقين» رضي وقنع وشكر.

ربُك «خير الرازقين» فإذا أنفقت في سبيل الله وأحسنت إلى عباده كافأك برزق منـه، وأخلف عليك بخير، وعوّضك وأفـاض عليك من جوده وكرمه، فمن أنفق أنفـقَ اللهُ عليـه، ومن جاد جاد اللهُ عليـه، فلا تمنع ما أوجـب اللهُ عليك من الزكاة والنفقـات الواجبة، ولا تبخـل بفضل مالك خوفـًا من الفقـر والفاقة، فالله وعدك بالخَلَف وهو لا يُخلف الميعاد.

فاللهم ارزقنا من واسع فضلك يا كريم.

❋❋❋

(١٢) الخبير

من أسماء الله: الخبير.

وورد هذا الاسم في القرآن الكريم خمسًا وأربعين مرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (الخبير هو: الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها)[١].

والخبير بمعنى العليم -أيضًا- ولكن فيه زيادة معنى، وهو: (إدراك المعلوم على حقيقته)[٢].

قال الغزالي: (.. وهو بمعنى العليم، لكن العليم إذا أُضيف إلى الخفايا الباطنة سُمي خبرة، وسُمي صاحبها خبيرًا)[٣].

وقال الإمام الخطابي: (فهو العالم بكنه الشيء، المُطّلع على حقيقته)[٤].

- دق علمه ولطف حتى أدرك السرائر وما أخفى، فلا يعزب عنه شيء من أحوال الكون كله، يعلم ما يُسرّ من الأقوال، وما يُهمس من الأصوات، وعِلْمُه بما دق كعِلْمِه بما ظهر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك:١٣].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ

(١) [الصواعق المرسلة:٢/ ٢٩٤]
(٢) [لفروق اللغوية:٩٣]
(٣) [المقصد الأسنى:٦٣]
(٤) [شأن الدعاء:٣٦]

بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ [الرعد:١٠] فكلهم سواء عند الله.

فالله خبيرٌ بمسارقة النظر للحرام، ومحاولة إخفائه عن الحاضرين، فلو كان العبد في عتمة الليل وظلمته، أو في الأماكن التي يظنّ أنه خال فيها ساعة أوصد عليه الأبواب، وتخفّى عن أعين النّاس، واعتقد أنّه لا يراه أحد، فربُه مطلّع عليه خبير بعمله.

وقد جاء وصفُ الله في كتابه بأنه: حكيمٌ خبيرٌ، وعليمٌ خبيرٌ، ولطيفٌ خبيرٌ، وخبيرٌ بصير.

فعِلْمه عن خبرة تامة أحاطت بكل موجود، وببصر نافذٍ لا يخفى عليه شيءٌ من أمور العباد.

وخبرة قد أحاطت بالعباد لُطْفًا ورحمةً، وعنايةً ورعاية.

وخبرة بحكمة بالغة في تدبير شؤونهم، وإتقانٍ لأمورهم، وعدل لكل قضاء يقضيه عليهم، فسبحان من جمع هذه الصفات على هذا الكمال.

- ولمّا وصف نفسه بذكر بعض آياته الدالة على عظمته كخلق السماوات والأرض، واستوائه على العرش، قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان:٥٩] ذلك أنّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هو الخبير بنفسه، ولا يحيط أحدٌ بكنه ذاته، وحقيقة صفاته وعظمته إلا هو.
- والله خبيرٌ بما يُصلحُ عباده فما يُقدّره عليهم من فقر وغنى، وشدة ورخاء، وصحة وأسقام ونحوها ممّا يجري على العباد فكلها بتقدير عليم خبير، فهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم، وبذا يبطل عند العاقل حال المتسخّط على القدر، فالخبير سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يُقدّر أمراً عبثًا، ولا يكون في أقداره

ظلم أو جَوْر -حاشاه سبحانه- بل أقداره وأقضيته بعلم كامل بمصالح العباد، والتي هي دائرة بين العدل والفضل (فضلاً في الإحسان، وعدلاً في العقاب والجزاء).

- ولمّا أنكر الجاهلون قدرة ربهم في تدبير أمر خلقه، وإحاطة علمه بهم -وذلك لجهلهم بربهم- جاء الجواب من العليم الخبير عن سعة علمه، وتمام إحاطته بالعوالم العلوية والسفلية والأقدار العامة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: ١٤]

فعلمه كامل بهذا الدليل العقلي الواضح، فكيف لا يعلم وهو الخالق العليم بتفاصيل ما خلق؟!

- تتعاقب الأممُ على الأرض فتتباين أعمالُهم، وتتفاوت أحوالُهم، فيكون هذا عاص، وذاك طائع، وهذا يُحسن وآخر يُسيء، وهذا ظالم وذاك مظلوم، فيحيط الخبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذه الأحوال كلها -إحاطة علم وخبرة- ويجازي كل عامل بحسب عمله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ١٧﴾ [سورة الإسراء: ١٧]

- ويُسجّل لنا القرآن جملةً من وصايا لقمان لابنه، وممّا جاء فيها قوله تعالى -حكاية عنه-: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ١٦﴾ [لقمان:١٦].

فما تفعله في لحظة ضعف منك من معصية وقد غاب ذهنُك عن مراقبة الله، أيقن باطّلاعه عليك، وإحاطته بك، فهذه المظلمة التي اكتسبتها ولو كانت داخل صخرة صمّاء لا قدرة لبشر أن يراها إلا أنّها عند الله ظاهرة،

ولخبرته بيّنة، ومهما غابت عن أنظار البشر في السماوات أو في الأرض، فالله يأتي بها ولا ينقص منها شيئًا، فسبحان الله القدير الخبير.

- يغيب عن سائر البشر علمهم بما يحدث لهم بعد ساعة -فضلاً عن بقية عمرهم- فكم من حبيب غاب عنه حبيبه وبعد ساعة أو أقل منها بلغه نبأ وفاته، فبالله عليك لو علِم هذا المحبُّ أنّه سيفقد حبيبه بعد دقائق أو أنّ نظرته التي نظر بها إليه هي آخر النظرات تُرى كيف سيكون حاله وشعوره؟!

ولكن تأمّل علم العليم الخبير بما يحدث لعباده من أمور الغيب كلها التي لا يعلمها إلا هو، فالله وحده هو الذي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان:٣٤]

فهو عليمٌ خبيرٌ بأجل كل نفس، ونهاية كل مخلوق، بل بما هو أقل من ذلك، فهو عليمٌ بسقوط الجزء الصغير من ورق الشجر ونحوه، يعلم موضع سقوطها، وكيف سقطت، وأين تحملها الرياح، قال الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩]

ويعلم سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ما يلج في الأرض من بذْر الأرض، وقطْر المطر، وبما يخرج منها، وما يعرج في السماء من أرواح وأعمال وأوامر صاعدة ونازلة في علم محيط وخبرة يعجز عن وصفها أحد.

- وإذا قضى العبدُ حياته وانتهى أجلُه حفظ له الخبير سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عمله ليجازيه عليه، وليوقن أنّه لم يظلمه بشيء، فمن شأنه وصفاته أنّه ليس

بظلّام للعبيد، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١١﴾ [هود:١١١] فيقدم العباد على ربهم ليُوفيهم أعمالهم، ولا تكون النجاة يومئذ إلا لأصحاب القلوب السليمة الطاهرة النقية، فمن آمن بهذا حقيقة الإيمان راقب باطنة ليقينه باطّلاع الله عليه، فهو يخشى أن يرى اللهُ منه ما يُسخطه، أو يوجب عليه نقمته، فتجده يجتهد في صلاح قلبه، فنَظَرُ الله إلى القلوب، وإحاطته بالبواطن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كإحاطته بالظواهر.

لقد قرأ هذا العابد الناسك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٩﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩] فعمل لصلاح قلبه، وارتجف فؤاده يوم قرأ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠﴾ [العاديات:١٠] فأيْقن أنّ الأمر يحتاج إلى صدق في معاملة الخالق، ومراقبة الباطن والنيّات والسرائر، فاعْمل -أيها الناصح لنفسك- على صلاحها وطهارتها.

- ومن معاني الخبير: (أنّه يُوصل لعباده الخير، ويصرف عنهم الشر بطرق خفية) فكم من رزق وصلك من حيث لا تشعر، وكم من خير حصلت عليه بما لا تحتسب أو تظنّ، وكم من عطاء ظننت أنّه سيفوتك فكانت رحمة الله أوسع من ظنك.

أرزاق وخيرات تصلنا ونتعجب كيف حصلنا عليها وكيف خصّنا الله بها، ولكن عندما نُدرك معنى الخبير بهذا المعنى، وانّه يرزق بطرق خفية، فإننا نثق بعطائه وفضله.

فاللهم فوّضنا كل أمورنا إليك، فأحسن عاقبتنا فيها، وأنت اللطيف الخبير.

(١٣) العظيم

ومن أسماء الله (العظيم) وورد ذكر هذا الاسم في كتاب الله في تسع آيات، منها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [سورة البقرة:٢٥٥]

واللهُ عظيمُ الشأن، جليلُ القدر، فطرَ القلوب على تعظيمه وإجلاله؛ وعَظَمةُ الله لا يقوم لها شيء، فهو: (أجلُّ وأكبرُ وأعلى وأعظمُ وأكملُ من كل شيء) قاله ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

قال الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (العظمةُ صفة من صفات الله تعالى لا يقوم لها الخلق)[٢].

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (العظيم هو: الذي جاوز قدْرُه تعالى حدود العقول، حتى لا تتصوّر الإحاطة بكنهه وحقيقته)[٣].

والله هو العظيم: (الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد والبهاء الذي تُحبه القلوب، وتُعظّمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء -وإن جلّت في الصفة- فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم) قاله الشيخ ابن سعدي[٤].

---

(١) [مجموع الفتاوى:٦/ ٧٢]

(٢) [الحجة في بيان المحجة:١/ ١٤١]

(٣) [النهاية في غريب الحديث:٣/ ٢٩٥]

(٤) [الحق الواضح المبين:٢٦-٢٧]

- ومعاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان:

أحدهما: أنّه موصوف بكل صفة كمال وعظمة، وله من ذلك الكمال والعظمة أكملها وأوسعها، فهو:

عظيمٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وعظيمٌ في علمه ومشيئته ونفاذ أمره.

وعظيمٌ في رحمته ومغفرته.

وعظيمٌ في قدْرته وقوته وانتقامه.

وعظيمٌ في لطفه وعفوه.

وعظيمٌ في عزِّته وحكمته.

وعظيمٌ في عطائه وإحسانه.

وعظيمٌ في حكمته وتدبير شؤون خلقه.

وعظيمٌ في كرمه وجوده ... فله العظمة المطلقة.

وهو أعظم من كلِّ شيء، وأعلى من كلِّ شيء، وأجلُّ ممّا يظنّ الظانون، أو يتوهم المتوهمون.

ما آمن عبدٌ بربه حقّاً، وعرف صفاته الكاملة إلا أيقن أنّه إله عظيم، وربٌ كريم ليس كمثله شيء في عظمته وجلاله وسلطانه، ولا يستحق العبادة أحد سواه.

وكُلُّ صفةِ عظمةٍ فاللهُ متصفٌ بها، وله من تلك العظمةِ أكملُها.

وعظمته ليس لها بداية أو حدّ، فالبشر - كل البشر - عظمتهم تأتي بعد ضعف، وتنتهي إلى عجز أمّا الله فعظمته أزلية، فهو عظيم ازلاً وأبداً.

ومظاهر عظمته في خلقه لا حصر لها.

- تأمّل في خلقه للسماوات والأرض، وكيف خلقهما وما فيهما بهذه العظمة والقوة، ومع عظمتها وسعتها «إلا أنهما في كفّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصغر من الخردلة في يد أحدنا»[(١)].

ومع قوتهما وثقل ما فيهما فإنّه لا يؤده ولا يثقله ولا يُعجزه حفظهما فهو العلي العظيم.

ولئن اغترّ بعضُ الخلق بخلْقهم وعظمتهم إلا أنّهم لا يُساوون شيئًا أمام عظمة وخلق السموات والأرض، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر:٥٧]

ومن كمال عظمته تكاد السموات -مع عِظم خلقهنّ- أن يتشققنّ من خشيته لعلوّ قدْره، وكذلك الملائكةُ يُعظّمون ربهم ويُسبحونه إجلالاً وتنزيهًا عن كل باطل يُنسب إليه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى:٥]

قال ابن جرير الطبري: (تكاد السموات يتشققن من فوق الأرضين من عظمة الرحمن وجلاله)[(٢)].

---

(١) [ذكره الطبري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

(٢) [تفسير سورة الشورى]

وعظمتـه ظاهرة في ما خلق في البر والبحر، وظاهرة في خلق الانسـان والجانّ والملائكة.

ومـن عظمته: أنّـه لا يفوته أحد ممّن عصـاه مهما بلغ في القـوة، ومهما اغترّ بجنده.

وتظهر عظمته في الآخرة بتغيير معالم الأرض والسموات وأحوال الكون.

وتظهـر عظمتـه في جمعه للخلائـق كلهم فلا يقـدر أحد منهـم أن يفوته مع كثرتهم، ولو تصوّرت هذا حق التصوّر لأذعنت لعظمته.

وتظهـر عظمته في حسـابه للخلائق، وقدرته على جزائهـم على أعمالهم مع تنوّعها.

وتظهر عظمته في خلق الجنّة وكثرة نعيمها وسعته وتنوّعه ودوامه الأبدي.

وتظهـر عظمته في خلق النّار وعظمة خلقهـا ودوام عذابها...ومظاهر عظمته لا حصر لها.

النوع الثاني من معاني عظمته تعالى: أنه لا يستحق أحد أن يُعظّم كما يُعظّم الله.

والعناية بهذه القضية من أعظم الأمور، فتعظيم غير الله كتعظيم الله قد يُوصل صاحبَه إلى الشرك وكبائر الذنوب، فالتعظيم المطلق لا يكون إلا الله.

والمؤمنون يُعظّمون ربهم لِما قام في قلوبهم من العلم به، فيُؤمنون بكل صفة مـن صفاته ويثبتونها لـه من غير تحريف عـن معناها الحقيقي بمعـان لا تليق به، ويعتقدون عظمتها وعدم مشابهتها لصفات المخلوقين.

ويُتبع هذا تعظيم شرعه، وعند ورود أوامره، فأوامر الله حقها أن تُعظّم، وأن يُؤديَها العبدُ على وجه الإجلال، ويسعى لإدراك الإنس فيها، ومن تأمّل في سير العلماء والعبّاد وجد صوراً عجيبة في الاستجابة التامّة لربهم وتعظيم أوامره.

ويُعظّمونه عندما تدعوهم النفسُ الأمّارةُ بالسوء لمعصيته فلا يتساهلون بالجراءة عليها، فهم يُؤمنون أنّ الآمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عظيم وهو عزيزٌ ذو انتقام.

ويُعظّمونه عند تسبيحه، وحمده والثناء عليه، فتجد الإجلال والخشية التي ملأت جوارحهم عند لهج اللسان بذكره.

وتعظيمهم لربهم -تعظيم حُبٍّ وإجلال- وهذا أمرٌ عجيب، فهو مع عظمته وقوته محبوبًا لأوليائه، وهذه العظمة تورث الاخبات له، والخضوع لكبريائه، والخوف منه، وامتلاء القلب بخشيته، والذُل بين يديه، وانشغال اللسان بذكره، وشكره والثناء عليه، وقيام الجوارح بالعبودية الحقة له، فأيُّ عظمةٍ أعظمُ من هذا؟!

وهو العظيم الحليم، فلا تستعظم ذنبًا أن يغفره إذا صدقت في توبتك، أو تستعظم همّا لا يفرّجه عنك، فهذا من ظنّ السوء بالله.

فاللهُ هو العظيم الذي بيده تفريج كل همّ وغمّ، فكلمات الفرج والتيسير من لدنه وحده، ففي الحديث يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «كلماتُ الفرجِ : لا إلهَ إلا اللهُ الحليمُ الكريمُ لا إلهَ إلا اللهُ العليُّ العظيمُ، لا إلهَ إلا اللهُ ربُّ السمواتِ السبعِ، وربُّ العرشِ الكريمِ»[١] .

---

(١) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير وهو حديث حسن

ومن تعظيم الله: تعظيم كتابه.

وتعظيمه يكون بالإيمان به، والاعتقاد أنّه كلام الله تكلّم به حقيقة، ومن تعظيمه العمل به، والتحاكم إليه، والعناية بمعرفة معانيه، وتلاوته وعدم هجره، وتعظيمه عند سماعه وعدم الانشغال عنه.

ومن تعظيم الله: تعظيم نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيم سُنّته.

وذلك بالإيمان به، ومعرفة مكانته، واعتقاد أنّه خير خلق الله، وأنّه خاتم أنبيائه ورسله، وتوقيره وتعزيره، وتعظيم سنته وأقواله وأفعاله، والعمل بها ونشرها.

- إذا كاد لك أهلُ الأرض، واجتمعت عليك قوى الشر جميعًا، فعلّقتَ قلبك بالله، وفوّضتَ أمرك إليك، فأيقن أنّك لُذتَ بعظيم، وآويتَ إلى ركن شديد؛ حمايتُه لك تصرف عنك كيدهم ومكرهم، فقد كاد الظالمون على مرّ التاريخ لأولياء الله ورسله من النبيين -عليهم الصلاة والسلام- ومن تبعهم من الصادقين، فكانت العاقبة لأهل الإيمان لأنّهم توكلوا على الله وهو ربّ العرش العظيم، فعظِّم الله كما ينبغي يزول من قلبك تعظيم البشر.

اللهم ارزقنا تعظيمك وإجلالك الإجلال والتعظيم الذي يليق بك، وارزقنا خشيتك واملأ قلوبنا بحبك يا ذا الجلال والإكرام.

❊❊❊

(١٤) اللطيف

ما أعظم وقْع هذا الاسم على النفس، وما أجمل أثره عليها، وكم تعظم معه أمنيات، وتحيا معه آمال كادت أن تموت، تتعلق القلوبُ المؤمنة بربها إذا سمعته، وتستبشر خيراً عند وروده عليها، فلطْف الله بعباده لا منتهى له، فقد أحاط بهم في حياتهم كلِها.

وقد ورد ذكر هذا الاسم الجليل لربنا في كتابه سبع مرات.

فاللطيف هو: البَرُّ بعباده، الذي يلطفُ بهم من حيث لا يشعرون، ويوُصل إليهم منافعهم من حيث لا يحتسبون، ويُحسنُ إليهم ببِرّه وإحسانه بطرق خفية لا تخطر لهم على بال.

وهو اللطيف: (الذي يريد بعباده الخير واليسر)

تفضّل على عباده بتعدّد العطايا، وكثرة النوال والخيرات.

أعطاهم فوق الكفاية، وكلّفهم دون الطاقة، وسهّل لهم الوصول إلى دار الكرامة لطفاً بهم ورحمة.

لو عَلِم العبد ما يُدبّر له اللطيف سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الغيب لذاب قلبُه شوقاً إلى لقائه، ولأيقن بعظيم فضل ربه عليه وإحسانه؛ فكم من بلية دفعها عنه وهو لا يعلم، وكم من مصيبة كفّ عنه شرها وهو لم يشعر.

- يمرض المريض فييأس الأطباء من علاجه فيشفيه الله ويعافيه ومن حوله في ذهول.

كان لي قريب قد حصل له حادثٌ قبل أكثر من ثلاثين سنة فبُترت ساقُه، ودخل في غيبوبة، وقال لنا الطبيب الذي يعالجه سأقرصه من مكان فإن تحرك، فالأمل في حياته ممكن وإلا فاسألوا له الرحمة والمغفرة فستكون حياته شبه ميؤوس منها، فقرصه قرصاً شديداً ولكنّك كأنما تقرص ميّتاً، فخرجنا من عنده ونحن ننتظر اتصالهم حتى ينزعوا عنه الأجهزة ويُدفن، فإذا به بعد أيام يسترد العافية شيئاً فشيئاً، ويكبر ويعود لحياته الطبيعية، ويتزوج ويُرزق بأولاد وبنات زوّج أكبرهم قبل أشهر وفرح به.

وآخر من أحبابنا وأصدقائنا قضى اللهُ عليه بحادث سير، ودخلنا عليه العناية المركّزة أنا وصديق لي فلمّا رأيناه بكينا عليه بلا شعور من شدة الحال التي كان عليها، فخرجنا من عنده وإذا بالمدير المناوب -وكان سيء التقدير للأمور- فقال لنا: (مثل هذه الحالات غالباً لا يمضي عليها أربعٌ وعشرون ساعة إلا وقد مات) فزادنا -والله- حزناً، فإذا به يتعافى بعد أيام وينشط ويعود لحياته وكأنّه لم يُمسّ بأذى؛ فأيقن بلطف اللطيف بك وأنت في أحلك الظروف التي تمرُّ بها.

- يلطف الله بعبده بأن يخلقه من أبوين مسلِمَين فلا يعرف كفراً ولا شركاً، أو يلطف به بعد ذلك فيشرح صدره للإسلام بعد أن كافراً.
- ويلطف بعبده بأن يهديه لطاعته ويُحبّب له الإيمان وشرائع الإسلام، ويوفقه لفعلها فتكون العبادات يسيرة وسهلة عليه.
- ويلطف بعبده بأن يحميه من الوقوع في المعصية، فيُبغّضها له أو يصرفه عنها بعد انعقاد أسبابها.

- ويلطـف بعبـده بأن يهيـئ له صحبـة صالحة تُعينـه على فعـل مراضيه، والإكثار من محابّه.
- ويلطف بعبده بأن ينشـأ في بيئة تُحب العلم وتُجلّ أهله، فينشـأ محبًا له شغوفًا به.
- ومن لطفه بعبده أن يهيئ له عملاً صالحًا يبقى له صدقة جارية بعد مماته، فيوفقه لغرس زرع أو حفر بئر أو يبني مسجداً أو دارَ علمٍ يُنهل من معينها أو يوفقه لتعليم علم فيرثه طلبة ينشـرونه فينتفع به زمنًا طويلاً أو ييسر له أدوات التأليف فيُخلِّف بعده كتبًا تنتفع بها الأمّة.
- ويلطف بعبده بأن يرزقه القناعة، فلا يُشغل باله بحطام الدنيا الفاني ليلتفت لمعالي الأمور من العلم النافع ونشر الخير لينال شرف الدنيا والآخرة.
- ويلطـف بعبده بأن يرزقه زوجةً صالحةً تُسـاعده على أمور الحياة وتعينه على طاعة ربه وعلى تقديم ما ينفع أمته.
- ويلطـف بعبده بأن يرزقه أبناء بررة تقرّ بهم عينه، وتفرح بهم نفسُـه وهو يراهم عباداً صالحين.

ولو فاتك ما فاتك من هذه الألطاف فقد عوّضك ألطافًا غيرها، فأنت الآن في عافيـة بدن وغيرك طريح فراش مرض، وأنت الآن في عافية اجتماع بأهلك وغيرك مشـرّد، وأنت الآن طليق وغيرك سـجين، وأنت آمن وغيرك خائف، ولو لم تُرزق كثيـراً من هـذه الألطاف كلها فأنت مسـلم وغيرك كافـر، ووالله لا أعظم من هذا اللُطْف، فاحمد الله عليه وعلى ألطافه عليك التي لا حصر لها.

ومن لطْف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعباده أن يُقدّر لهم أرزاقهم بطرق خفية وبما هو أنفع لمصالحهم لا حسب مرادهم الذي ربما كان فيه هلاكهم.

- كم من مصدر رزقٍ لوظيفة تمنيّتَ أنّها تكون من نصيبك، فحال بينك وبينها قدر الله، فحمدت ربك بعد زمنٍ أنّك صُرفت عنها.
- وكم من تجارة وددتَ أنّك واصلت فيها فإذا بعد فترة يأتيك رزق من غيرها أضعاف أضعاف ما كنتَ تُؤمّل، ويحصل انهيار عام في تلك التجارة التي حزنت لفواتها.
- وكم من فتاة تمنيتها زوجة لك، وحزنت لفواتها، وإذا بك بعد فترة حمدت الله على ما قضى من صرفك عنها، وكذا يحصل لكثير من الفتيات من تمني زوج بعينه، فإذا هي بعد زواجها من غيره تحمد الله على لطفه بها وتقديره هذا الزوج الذي ارتبطت به.

أحداثٌ كثيرةٌ في حياتنا جميعًا جاءت خلاف ما نتمنى، فإذا العِوَضُ من الله أعظم، والخير منه أجلُّ وأكثر، وربما لا يرى البعض منّا هذا العوِض ولكنّ الأمل باللطيف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرجى، وحسن الثواب عنده في الآخرة أوفى.

- **ومن لطفه بعبده المؤمن أن يعافيه من البلاء الذي يضعف سيره إليه،** ويحفظه من نزعات الشيطان بسوء ظنه بمولاه، فيقوّي قلبه ويحيطه برعايته ليُواصل في طاعة ربه حتى يلقاه.
- **ومن لطفه بعبده إخفاء أجله عنه** لئلا تتعكر عليه حياته، فيعيش بالأمل حتى يُدركه الأجل.
- **ومن لطفه أن يُنسي عبده التائب ذنوبه لئلا يتنغّص عليه عيشه.**

وألطاف الله بخلقه لا منتهى لها ولا يستطيع أحدٌ إحصاءها، ولو استعرض العبد لُطْف الله به في نعمه الظاهرة لفنيت الأعمار ولم نُدرك لها عدّاً، والخلق في هذه الألطاف متفاوتون.

ومن معاني (اللطيف): (أنّه الذي دق علمه ولطُف حتى علم بالسرائر، واطّلع على مكنونات الصدور والضمائر، فهو عليم بالأمور الخفية والتي هي في غاية الخفاء واللطف).

فإذا عرفتَ هذا فلا يرى الله في قلبك إلا كل ثقة، ولا يسكن فيه إلا كل رضى عنه وعن أقداره.

يتلو المؤمن هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [سورة الشورى: ١٩]

فيطمئن لرزقه، وتوقن نفسُه بحصول الخير ووصوله لها، فلا يحمل همّ رزق، ولا تتكدر له معيشة، فقد آمن وأيقن بلطف الله به -خصوصاً إذا فهم معنى الرزق الواسع- فلا يحصره بمال أو زوجة أو ولد، ويزداد يقيناً وهو يرى رزق ربه المتنوّع، وألطافه عليه وعلى غيره تتوالى بعدد أنفاسه.

تمرُّ بيوسفَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ابتلاءاتٌ عظيمةٌ من:

حسد نفوس

وكيد إخوة

ورمي ببئر

وفتنة امرأة

وألم سجن

وفتنة ملك

وحرمان من حنان والديْن

ومع ذلك يرى لطف الله به في حياته كلها فيلهج بهذا الثناء: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف:١٠٠]

فعلّق قلبك باللطيف، وأمّل معه كل خير، وتحلى بهذه الصفة الشريفة، وتخلّق بخُلق اللطف المنيف، فكن مع الخلق لطيف المعشر، حسن التعامل، أديب الألفاظ ليسعد من حولك بك، ويُحبون مجالستك، ويأنسون بلقائك، فالفظُّ الغليظ منبوذ، والجافي لا يطيقه أحد.

فاللهم ارزقنا رحمةً من عندك تُغنينا بها عمّن سواك، ولطفًا من لدنك يُطَمئِنُ قلوبنا، وعافية من خزائن جودك ننال بها سعادة الدارين .

***

(١٥) التوّاب

لقد علم اللهُ ضعف عباده، وغلبت شهواتهم عليهم، وتسلّط الشيطان على كثير منهم، وأنّ الذنب لا يكاد ينفك عن كثير منهم، والعودة إليه بين الفينة والأخرى هو دأبهم، ففتح لهم بابَ التوبة وجعله عريضًا يسع كل الداخلين، يقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ اللهَ جعلَ بالمغرْب بابًا، عرْضُهُ مسيرةُ سبعينَ عامًا للتوبَةِ لا يُغْلَقُ؛ ما لم تَطْلُعِ الشمسُ مِنْ قِبَلِه»(١).

- يُسرفُ العبد على نفسه، فلا يدع ذنبًا إلا فعله، ولا خطيئةً إلا ارتكبها، فتأتيه ساعةُ ندم بعد هذا الإسراف وتلك الخطيئات، فيُريد الإقبال على ربه فيقبل الله إنابته، ويمشي الهوينا ناحية ربه فيأتيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هرولة، ويصبُّ عليه الرَحَمات صبًا، وذلك لجودة وكرمه وتمام رحمته.

والتوبة هي: الرجوع من الذنب، والأوبة إلى الحق، وهي منزلة شريفة ينزلها العبد طيلة حياته كلها لشدة حاجته إليها حتى يلقى الله، فهي كما قال ابن القيم: (أوّل منازل السائرين وأوسطها وآخرها)(٢).

وقد كان نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كثير التوبة والاستغفار في حياته كلها حتى أنّ الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا يعدّون له في المجلس الواحد: «ربِّ اغفر لي وتبّ عليّ أكثر من مئة مرة»(٣).

---

(١) رواه ابن ماجه وحسّنه الألباني.

(٢) [انظر منزلة التوبة من كتاب مدارج السالكين]

(٣) رواه أبو داود

وكان آخر ما نزل عليه آيات الاستغفار والتوبة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [سورة النصر] ليعلم العباد بأهميتها وشدة الحاجة لها.

(والله توّاب): أي كثير التوبة على العباد.

يقبل رجوعهم من المعصية إلى الطاعة، وإنابتهم إليه، وندمهم بين يديه مهما نكثوا التوبة وأخلّوا بها.

هل تستطيع أن تُحصي عدد من أذنب وتاب من بني آدم؟! يستحيلُ هذا.

وهل بإمكانك عدّ الذنوب التي غفرها للعباد؟! هذا محال أبدًا.

فملايينٌ من البشر كفروا بربهم ثمّ تابوا فقبل اللهُ توبتهم ومحا جرَمهم ذلك.

وملايينٌ من أهل البدع قد ضلوا السبيل، فاستبان لهم بعد ذلك طريق الحق وشرح الله صدورهم للهدى، فتركوا ضلالهم، وهجروا بدعهم، وجعل التوّاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قلوبهم حُبّ السنة وأهلها.

وأعدادٌ لا حصر لهم قتلوا أنفسًا لا يعلمها إلا الله، فندموا وتابوا، وقبِل الله توبتهم وعفا عن هذه الخطيئة الشنيعة منهم.

وكثيرون ارتكبوا جريمة الزنى والسرقة والغش، وغيرُهم أكلوا مال اليتامى، وآخرون طففوا الميزان، وأبناء عقّوا آباءهم، وجمعٌ من الخلق قطعوا أرحامهم، وأزواجٌ ظلموا زوجاتهم، وجيرانٌ آذوا جيرانهم في سلسلة من الذنوب والمعاصي لا يعلمها إلا من أحاط بعباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولكن بعد زمن يتوب القاتل، ويندم

أشدّ الندم الزاني، ويبرّ العاق، ويصل القاطع، ويُقلع شارب الخمر وغيرهم من أصحاب المعاصي فيعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحوالهم، ويُحيط بتوبتهم ولا يخفى عليه إخلاصهم فيها، فيتوب على من استحق التوبة منهم، ويزيده توفيقًا وتسديداً، ويعين من ضعف ليتوب، ويُمهل من لا زال متردّداً لعله يعزم على التوبة، ذلك لأنّه توّاب رحيم.

ومن رحمته بالتائبين الصادقين أنّهم إذا ما صدقوا وأخلصوا في توبتهم بدّل اللهُ سيئاتهم حسنات، ولو عفا فقط عن التائبين مع كثرة ذنوبهم لكان هذا منه إحسانًا ورحمة، ولكن انظر لإحسانه عليهم، فهو ليس فقط يغفرها لهم ويعفو عنهم بل يُبدّلُ سيئاتهم حسنات، فأيُّ رحمةٍ أعظم من هذه الرحمة؟!

وأي جود أوسع من هذا الجود؟!

فهذا ربكم التوّاب الرحيم.

وتوبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عباده محفوفتين بفضلين منه:

فضل التوفيق للتوبة أولاً، فيُحبّب للعبد التوبة والإنابة، ويجعل في قلبه حبَّ الطاعة بعد إن كان نافراً منها.

فتجده قد سابق للمسجد بعد أن كان لا يعرف له طريقًا.

ويصير القرآنُ جليسه بعد أن هجره زمنًا طويلاً.

ويُحبّ مواطن العلم بعد أن كان نافراً منها.

ويصير أقرب النّاس دمعة بعد أن كان قاسي القلب.

فمن الذي حببّه بهذه الفضائل؟

ومن الذي سهلها له؟ إنّه الله التوّاب الرحيم.

وثاني أنواع الفضل من الله على التائبين: قبولها منهم.

فيقبل منهم التوبة مهما عظمت ذنوبهم، ومهما زادوا فيها وأسرفوا؛ فصار فضْله سابقًا ولا حقًا، فلله الحمد والمنّة لا نُحصي ثناء عليه.

تكون بين الرجل وأخيه خصومة، فيندمُ الأوّل ويأتي أخاه تائبًا نادمًا طالبًا العفو فيأبى عليه.

هذا مُخطئٌ واحد فقط لم تطاوعه نفسه أن يعْفوَ عنه أمّا الله فلسعة رحمته، وعظيم توبته على العباد يعفو ويتوب على الملايين من الخلق في رحمة عظيمة وفضل كبير، فسبحانه مِن إلهٍ توّاب.

والله لا يخذل من أقبل عليه، ورغِب في التوبة والإنابة إليه، فلا تظنّ بربك إلا خيراً، فالله يُقرّب المعرضين عنه فكيف بالمقبلين عليه!!

وتوبة الله على العباد واسعة، ولسعتها مظاهر، منها: أنّهم ينقضونها كثيراً، فيتوب العبدُ، ويعاهد الله على ذلك ثمّ ينقضها ويعود للذنب المرة بعد الأخرى، ومع ذا فإنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقبلها منهم مهما تابوا ورجعوا إلى ربهم، وذلك لسعة توبته، ورحمته بهم، وعلمه بضعفهم، وحاجتهم لعفوه ومغفرته.

ومن مظاهر سعة توبته على العباد: توفيقه للتائبين وتسديدهم وإعانتهم على فعل ما يُرضيه وإلهامهم مصالحهم، وهداية قلوبهم، ورزقهم آثار توبتهم من تيسير أمورهم، ورزقهم القناعة والحياة الطيبة.

ومن مظاهر سـعة توبته على العباد: فرحته بتوبة عبده (وهو فرح إحسـان وبِرّ ولطف، لا فرح محتاج إلى توبة عبده) كما قاله ابن القيم.

فأي رحمة أوسع من هذه الرحمة؟!

فالعبـدُ هو الجاني والمتعدي على المحارم ولكنّ الله يفرح بتوبته وما ذاك إلا لكمال فضله على عباده.

ومن مظاهر سـعة توبتـه على العباد، وكمـال رحمته: محبتـه للتائبين؛ وهنا يقـف المرء متعجّبًا من هـذه المحبة، فمع كثرة ذنوب المذنبيـن، وتعديهم على حرماتـه إلا أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق توبته عليهم وقبولها منهـم، يحبهم ويقرّبهم منه، وهـي محبة حقيقة تليق به، فاقْبِل أيّها المذنب على ربك قبل فوات الأوان واغتنم هذا الفضل منه.

ومن مظاهر سـعة توبته على العبـاد: رزق عباده التائبين الجنّة وإنزالهم أعلى المنازل في دار كرامته، ومسـتقر رحمته، فقد جعلهـا اللهُ دار التائبين المنيبين، فما أوسع كرمه، وكمال جوده.

ومظاهـر سـعة توبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علـى عباده لا منتهـى لها، فمـا أعظم صفة التوّاب، وما ألطف صنيعه بالعباد.

والتوبـة وغفران الذنـوب محض حق الله وحده فقط، فـلا يجوز الاعتقاد أنّ لأحدٍ قبول توبة العباد كما يظنّه كثير من أهل الضلال من أحبار ورهبان النصارى واليهود بما يُسـمونه زوراً وبهتانـًا (صكوك الغفران) أو ما يفعله غلاة الصوفية مع المريدين لهم، فكل هذا من الضلال البيّن الواضح.

واسم «التوّابّ» من الأسماء التي يُتوسل بها عند الدعاء فهو من مظانّ أسباب الإجابـة، وقد كان هذا منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [البقرة:١٢٨] فالزم غرز التوبة، واثبت على طريق التائبين ففيه عِزُّ الدنيا وشرف الآخرة.

اللهم ارزقنا التوبة النصوح وتقبلها منّا يا توّاب يا رحيم، اللهم اشرح صدورنا لها وحبّبها لنفوسنا.

❊❊❊

(١٦) الودود

تعـرّف اللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لعباده بأوصاف عديدة، وأسـماء كلها حسـنى تحمل معاني لها أثرها على النفوس والسلوك، فمنها: ما يُورث الخوف والخشية والرهبة كالقهّـار والقوي والجبّـار والعزيز ذو الانتقـام ليعلم العبادُ أنّ ربَهم قويٌ شـديد فيخشون عذابه وانتقامه، ويحذرون سخطه.

ومنهـا: ما يحصل معها الرقة والخشـية، وتذرف عنـده الدمعة، ويزيد معه الطمع بفضل الله، وهي أسـماء إن لامست القلوبَ حقـًا رأَتْ ربـًا رحيمـًا لطيفـًا عَفّـواً كريمـًا، تفيء معه النفوس لربها، وتُقبـل عليه، وتجعله إلاهها ومعبودها، وتتعلّـق به وتتخلّص من رق العبودية لسـواه، ومن هذه الأسـماء التي لها أثرها على النفس -كبقية الأسـماء-: اسم (الودود) وقد ورد ذكره في كتاب الله مرتين فقط.

(والـودود في حـق الله، له معنيـان: الأول: أنّه بمعنـى وادٌّ، أي الـذي: يُحبُّ أولياءَه، وعبادَه الصالحين.

الثاني: أنّه بمعنى مودود، أي: المحبوب من عباده لاستحقاقه لأعلى درجات الحبّ)(١).

فاللهُ من رحمته وسعة فضله يُحبُّ عبادَه الصالحين -مع أنّه المتفضّل عليهم بصلاحهـم- ويجعل في قلوبهـم محبته -التي هي أعلـى المواهب والأعطيات- ويتـودّد لأوليائه بأنواع المـودة من تحبيب الإيمان لهم، وتزيينـه في قلوبهم، ومن

(١) [انظر جلاء الأفهام لابن القيم:٤٤٧]

الإنعـام عليهم بأنواع النعم، ومن سـترهم ومغفرة ذنوبهم، فلم تزل عطاياه عليهم تترى لا تنقطع، فصار الفضل منه محيطًا بالعباد من كل جانب وفي كلِّ حال.

- أحـبّ الصالحين من عبـاده فأحبَّ: الصابريـن، والصادقين، والمتقين، والمتطهريـن، والتوابيـن، والمحسـنين، والمتوكليـن، والمقسـطين ونحوهـم مـن أهـل الطاعـات، وأخبرنـا بهذا لنسـعى أن نتحلـى بهذه الصفات ونفوز بأعظم الهبات، وهي: محبته.

ومحبتـه ومودته -كبقية صفاته- لا نكيّفها ولا نمثّلها ولا ننفيها بل هي محبة ومـودة لائقة بـه، وهي ثابتة بنصوص الكتاب والسُـنّة، ولا يجوز تأويلها وصرفها عـن ظاهرها، قال الله عنهـا: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤] وقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هـود:٩٠] وقـال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج:١٤] قال ابن جرير: («ودودٌ» ذو محبة لمن أناب وتاب إليه يودّه ويحبه)(١).

وقـال أعرف الخلق به صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يومَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ هذه الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللهُ علَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ ورَسولَه، ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسولُهُ..»(٢).

- والله مـودوداً محبوبـًا من عبـاده الصالحين يحبونه حُبّـًا عظيمـًا، وهذا الحبُّ -والذي دونه بـذل الغالي والنفيس لبلوغه- درجة رفيعة، ومنقبة شـريفة من بلغها فقد بلغ الخير كله، ونال أسـاس الفضل وأعلاه، ومن حاز عليها فقد ربح البيع مع مولاه، وطابت له حياته، وكمل إيمانه.

(١) [تفسير الطبري:١٥/ ٤٥٦]

(٢) رواه البخاري

- وحُبّ الله من أوجب الواجبات، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والقلب إنّما خُلق لأجل حب الله تعالى)[1].

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله، والتقرّب إليه بما يُحبه)[2].

وحبّ الله انفرد عن حبّ الخلق بأنّه: (حُبٌّ من جنس حبِّ العبادة المقرون بالذلة والخضوع والافتقار والطاعة المطلقة -حبّاً لا يشابه أي حبٍّ آخر-.. بل يُحبه العابد حُبّ العابدِ لربه، والمخلوقِ لخالقه، حباً مقروناً بالخشية.. وانفرد عن حبّ الخلق أنّه لا يُحبّ شيئاً مثله معه، ولا تبقى مثقال ذرة من هذا الحبّ إلا صرفها لله وحده، فلا يُحب أحداً غير الله عَزَّوَجَلَّ مثله في النوع وكذلك في الكمية) قاله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكما أنّه ليس كمثله شيء، فليس كمحبته محبة)[4].

وحبّ الله والسعي لإدراكه هو ما كان عليه سادات الخلق، والكُمّل من البشر، فاجتَهدتَ لبلوغه أنفس، وأُفنيتَ في سبيل الوصول إليه أعمار.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (وليس ما يستحق أن يكون هو المحبوب لذاته، المراد لذاته، المطلوب لذاته، المعبود لذاته، إلا: الله)[5].

(١) [مجموع الفتاوى: ١/ ١٣٤]
(٢) [مجموع الفتاوى:٢٨/ ٣٢]
(٣) [موسوعة الأسماء الحسنى:٤٩٢]
(٤) [الفوائد:١٨٣]
(٥) [درء تعارض العقل والنقل: ٥/ ١٦٩]

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَيْسَ فِي الْوُجُود مَا يُحب لذاته ويُحمدُ لذاته إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ، وكل مَا يُحبُّ سواهُ فَإِن كَانَت محبته تابعة لمحبته سُبْحَانَهُ بِحَيْثُ يُحبُّ لأَجله فمحبته صَحِيحَة وَإِلَّا فَهِيَ محبَّة بَاطِلَة وَهَذَا هُوَ حَقِيقَة الإلهية، فَإِن الإِلَه الْحق هُوَ الَّذِي يُحب لذاته، ويُحمدُ لذاته فَكيف إِذا انضاف إِلَى ذَلِك إحسانه وإنعامه وحلمه وتجاوزه وعفوه وبرّه وَرَحمته..)[١].

أحبّه أولياؤُه لِما له من صفات الكمال والجلال والجمال، يقول الحسن البصري: (من عرف ربه أحبه)[٢].

وأحبوه لعظيم إحسانه عليهم، فهم يرون أنّ كلَّ نعمة هم فيها إنّما هي من ربهم إمّا منه مباشرة كهدايتهم وحفظهم في دينهم وصحتهم وسائر نعمه التي تحيط بهم، وإمّا أنّه سخّر لهم عبادَه ليقوموا بخدمتهم وقضاء حوائجهم فرجعت جميع المنن له وحده دون سواه.

ومودةُ الله ومحبته ألذّ ما في الدنيا، وإنّما يجدها العبدُ كلما أخلص في الطاعات، وسعى في تطهير قلبه من الشرك والأخلاق الرديئة، وجاهد في إرضاء ربه.

ومن كمال رحمة الله بعباده أنّه يتودد لهم مع كمال غناه عنهم وفقرهم وحاجتهم إليه، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ليس العجب من مملوك يتذلل لله، ولا يملّ خدمته مع حاجته وفقره فذلك هو الأصل إنّما العجبُ من مالك يتحبّبُ إلى مملوكه بصنوف إنعامه ويتوّدد إليه بأنواع إحسانه مع غناه عنه)[٣].

---

(١) [الفوائد:١٨٣]

(٢) [مختصر منهاج القاصدين:٣٣٢]

(٣) [الفوائد:٣٥]

ولقد جعل اللهُ لنيل محبته أسبابًا، من أعظمها:

بذل المجهود في زيادة معرفته، ومطالعة القلب لأسـمائه وصفاته، فمن عرف الله حق المعرفة أحبّه لا محالة، فهو سيرى ربًا عظيمًا جليلاً لطيفًا رؤوفًا رحيمًا ودوداً محسنًا جميلاً كامل الأوصاف كثير العطايا لا يستحق أحدٌ أن يُحبّ كحبه، وكيف يستحق ذلك أو يدانيه ويقاربه وكل نعمة هو فيها من الله، وكل خير هو منه، وكل عطية هو وليها؟!

فيُحبّ ربَه لكمال صفاته وكثرة إحسانه.

ومن أسـبابها: اتّباع رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حق الاتِّباع، فهو أعظم سبيل لنيل محبته، قال الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران:٣١]

ومن أسـباب نيل محبته: التقرّب إليـه بالإكثار من النوافل بعد أداء الفريضة، ففي الحديث يقول تعالى: «وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ ...»(١).

وتأمـل قوله تعالى: «حتَّى أُحِبَّهُ» لترى كـم تحته من المعاني الجليلة والعطاء والفضل الذي لا يوازيه فضل وعطاء.

ومن أسـباب نيل محبته: تـلاوة القرآن بتدبّر وتأمّل وحضـور قلب؛ فالقرآنُ الكريم يُعرّف العباد بربهم وأسمائه وصفاته وجميل أفعاله، وفضله ونعمه عليهم، وما أعدّ لأوليائه في جنّته ما يجعل القارئ يُحبه حبًا عظيمًا.

---

(١) رواه البخاري

ومن أسباب نيل محبته: كثرة ذكره؛ فذكْر الله مع حضور القلب له أثره العجيب في تقوية محبته في القلب، ففي الحديث القدسي يقول اللهُ تعالى: (وأنا معهُ إذا ذَكَرَنِي ...)[١].

فيجد الذاكرُ ساعة ذكره لذة وأنس لا نظير له.

وأمّا الخلوة به وقت النزول الإلهي، ومناجاته بالدعاء، وإظهار الفاقة له، وشدة الحاجة لفضله فهي لحظات يُعجز عن التعبير عنها لشرف حال أصحابها، وسعة عطايا الرحمن لهم، ووجدان لذة المناجاة فيها، ولقد أدرك الصادقون هذه اللذة يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم أجد من العبادة شيئًا أشدّ من لذة الصلاة في جوف الليل».

لقد وجدوا فيها من الأنس ما جعلهم يتعجّبون من تفريط النّاس فيها، قال طاووس بن كيسان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عجبتُ للناس كيف ينامون ساعة السَحَر».

وقال بعضهم: «ما ظننتُ أنّ أحداً ينام وقت السَحَر».

ولمحبة الله ثمرات جليلة يجدها المُحب لربه -الواحدة منها تعدل الدنيا بأسرها- فمن هذه الثمرات:

الاستبشار برحمة الله له عندما يرى العبدُ نفسه مطيعًا لربه، محبًا لمرضاة الله، قد شرح صدره لفعل الخير، وحبّبه إليه، وجعله أيسر ما يكون، فهذا من دلائل الرحمة والمحبة من الله، يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّ الله قسَم بينكم أخلاقَكم كما قسم بينكم أرزاقَكم، وإنّ الله يُعطِي المالَ من يحبُّ ومن لا يحبُّ، ولا يُعطِي

(١) رواه البخاري.

الإيمـانَ إلا من يحبُّ، وإذا أحـبَّ الله عبدًا أعطاه الإيمـانَ»[1]، ويرى بعضهم أنّه موقوف على ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن ثمراتها : وجدان حلاوة الإيمان؛ يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلَاوَةَ الإيمَانِ، أنْ يَكونَ اللهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُمَا...»[2].

فحبُّ الله ورسوله أعظم المنن وخير العطايا، ويجد معه العبد الصالح حلاوة الإيمان والتي هي أجلّ ما في الدنيا.

وبحبِّ الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذوق العبد طعم الإيمان -الذي نحن بحاجة إليه- يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ، مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامَ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً»[3].

ومـن ثمراتهـا: النجـاة من النّـار؛ فالله إذا أحـبَّ عبدَه لـم يُعذّبه بنـاره، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «واللهِ لا يُلقِي اللهُ حبيبَه في النارِ»[4].

ومـن ثمراتهـا: الحماية من فتن الدنيا وشـهواتها وملاذها الفانيـة، فإنّ الله إذا أحبَّ عبدَه حماه من الدنيا وشهواته، وتجده زاهداً فيها لِما استقرّ في قلبه من حتمية زوالها، وأنّها لا تستحق الالتفات لها -فضلاً عن التعلّق فيها- يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إذا أحبَّ اللهُ عبدًا حماه الدنيا كما يظلُّ أحدُكم يحمِي سقيمَه الماءَ»[5].

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه مسلم
(٤) رواه أحمد وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة
(٥) رواه الترمذي.

ومن ثمراتها: التوفيق لحُسن الخاتمة، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إذا أحبَّ اللهُ عَبدًا عسَّلَه. قالوا: ما عسَّلَه يا رسولَ اللهِ؟ قال: يُوفِّقُ لهُ عملًا صالحًا بين يدَي أجلِه حتَّى يرضَى عنهُ جيرانُه أو قال: مَن حولَه»[1].

وغيرها من الثمرات التي لا حصر لها.

وقيل من معاني (الوَدُود): المتودّد إلى أوليائه بالمغفرة.

وهذا معنى بديع فيه من الدلالة على سعة رحمته، وكمال مودته ما فيه، فمع غناه الكامل سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن العباد إلا أنّه يتودّدُ لهم بالمغفرة، وترادف النعم، وكثرة الستر والإحسان ونحوها؛ فما أعظم فضله على عباده، وما أوسع إحسانه عليهم.

فاللهم لا تحرمنا خير ما عندك بسوء ما عندنا، اللهم اجعلنا من أوليائك وأحبابك المُخلَصين.

❋❋❋

(١) صحيح الترغيب.

(١٧ ، ١٨) القوي، المتين

ومن أسـماء الله: القوي، وورد ذكر هذا الاسـم في كتاب الله تسع مرات، قال الله -تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦﴾ [هود:٦٦]

والمعنـى في حـق الله أنّه هو: (الذي لا يغلبه غالـب، ولا يرد قضاءه رادٌّ، ينفذ أمره، ويمضي قضاؤه في خلقه، شديدٌ عقابه لمن كفر بآياته، وجحد حججه)(١).

قال الزجّاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (القوي هو: الكامل القدرة على الشيء)(٢).

وقـوة الله ليس فيها عجـز في حال من الأحوال، فله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القوة الكاملة، والتي لا منتهى لها، ولا يمكن لبشـر أن يتصوّرها على الحقيقة، فقوةُ الله صفة من صفاته، وصفاته لا يحيط بها أحد.

ومن أسـمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: المتين، وورد هذا الاسـم في كتـاب الله مرة واحدة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٨]

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: («المتين» هو: الشديدُ القوي الذي لا تنقطع قوته، ولا تلحقه في أفعاله مشقة)(٣).

(وهـو يفيد في حق الله سـبحانه: التناهـي في القوة والقدرة) قاله أبو اسـحاق الزجّاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤).

---

(١) [تفسير الطبري:١١/ ٢٣٣]

(٢) [تفسير أسماء الله الحسنى:٥٨]

(٣) [شأن الدعاء الخطابي:٧٧]

(٤) [المقصد الأسنى:٨١]

وقوةُ الله قوة مطلقة لا حدّ لها ولا منتهى، فهي كما وصف بها نفسه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود:٦٦] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج:٧٤] فحصر القوة فيه بأقوى أنواع الحصر بتقديم الضمير «هو» وتعريف الاسم ﴿ٱلْقَوِيُّ﴾ وبالجملة الإسمية الدالة على ثبوت هذه القوة؛ وأكدها في الآية الثانية بنون التوكيد، وباللام في قوله: ﴿لَقَوِيٌّ﴾.

أمّا قوةُ غيره فهي مؤقتة، فكم من قويٍّ ضعفت قوته، فكل قوة -غير قوة الله- سبقها ضعف ويلحقها عجز ويعتريها فيما بين ذلك الوهن والفتور.

وقوتُه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فوق كل قوة، بل جميع القوى تتصاغر أمام قوته، وتتضاءل عندها.

وقوتُه صفة ذاتية له، فهو لا يحتاج لأعوان أو شركاء، بخلاف قوة غيره فهي مستمدة من الأعوان، فلا يُفاخِر أحدٌ بقوته، فإنّها مهما كانت فهي محدودة ومضمحلة.

وقوةُ الله ظاهره في كل ذرة من كونه، تُبصرها في خلقه للمخلوقات العظيمة التي نراها والتي لا نراها.

- انظر في خلْقه للسموات وما فيها من أجرام عظيمة كالشمس والقمر والكواكب التي لا يعرف عِظم خلقها إلا الله تعالى، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧] ومعنى ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ أي: (بقوة) قاله ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.
- وتأمّل في قوته في إمساك السماوات والأرض أن تزولا، فهي مستقرة بقوته، ثابتة بأمره.

- وانظر لقوته في خلق الجبال، وكيف هي راسية ثابتة شامخة في قوة عجيبة، ورسوخ استقرت به الأرض.
- وتأمل قوته في إمساك البحار وأمره لها أن لا تُغرق النّاس بل جعل لها حداً معيّناً في مدِّها وجزرها.
- وانظر لقوته في الرياح العاتية وكيف يسيّرها كيف شاء وبقوة كبيرة وبأنواع متعددة.
- وأنظر للأمواج العالية كيف تظهر فيها قوة الله وقدرته عليها.

وقوة الله ظهرت في عقوباته للأمم المتجبّرة على مرّ التاريخ، فقد أهلك أقواماً آثار قوتهم باقية ليومنا هذا ليُستدل بها على قوة القوي المتين سبحانه.

فأين قوة عاد إرم ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد؟

وأين قوة ثمود الذين قطّعوا الجبال الصِلابّ ونحتوا الصخر بالواد؟

وأين قوة فرعون ذي الأوتاد وجنوده الذين اعتزّ بهم، وأممٌ لا يعلمهم إلا الله.

لقد أفنتهم قوة الله المتناهية، ودمرتهم جنوده المطيعة لأمره، فأصبحوا لا ترى لهم باقية.

وأهلكهم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بجنود له طائعة، فأرسل على عاد رياحاً عاتية، وصاح جبريل بقوم ثمود فأرداهم بالهاوية، وأغرق فرعونَ وجندَه ببحره فصاروا لمن خلفهم آية باقية، وعبرة لأولي البصائر العاقلة.

قال اللهُ -مذكّراً عباده بفعله بمن طغى وتجبّر، ومبيّناً قوته في إهلاكهم-:

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ

﴿مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

[غافر: ٢١-٢٢]

- وقوته وانتصاره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأوليائه باقية بقاء الليل والنهار، فيُحارِب دين الله وشرعه أقزام من الخلق فيظنون -بظهورهم المخادِع لهم، وما مكنّهم الله من القوة المؤقتة- أنّهم قادرون على إطفاء نور الله فيأتيهم (الله القوي) من حيث لا يحتسبون، ويغلبهم بأضعف جند من جنده، وبما لا يخطر لهم على بال لأنّه قد كتب وقضى ليغلبنّ هو ورسله فهو القوي العزيز.

ولو سبرتَ التاريخ وجدتَ هذا واضحًا، ورأيتَ قوة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في نصر أوليائه مع قلة عددهم، وكثرة أعدائهم، وتوفر قوتهم المادية إلا أنّ الغلبة كانت لأوليائه ذلك أنّ الله قوي عزيز.

- وقوته العظيمة تظهر في الآخرة وذلك بما يُحدثه من تغيرات في الكون من: إضعاف السماء بعد قوتها، وتشققها بعد صلابتها، وتغيّر أحوالها.

وإضعاف قوة الشمس وتكويرها، وهي التي قد بلغت من الضخامة ما بلغت إلا أنّها أمام قوة الله وقدرته لا تساوي شيئًا، وهي جُرم صغير أمام بقية الكواكب ولكنّها تفنى كلها وتضعف قوتها أمام قوة الله القوي العزيز.

وقوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تظهر في نسف الجبال، وتسييرها حتى تصير بعد صلابتها كالعهن المنفوش، فتراها ضعيفة هشة أمام قوة الله العظيمة.

- وتظهر قوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآخرة يوم يبعث الخلائق وقد مزقهم البلى، وتحللت أجسادهم ولم يبق لهم أثر، وتفرّقوا ولكنّ قوة الله العظيمة تجمعهم في صيحة واحدة فيقومون لربهم خاضعين ذليلين خاشعة أبصارهم، وعلى ركبهم جاثين لا يتكلم منهم أحد قد استسلموا لقوة ربهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٨] قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿هَمْسًا﴾ (هو صوت نقل الأقدام لأرض المحشر)[١].

- ومن مظاهر قوة الله: ما جعله في النّار من قوة حارقة قد بلغت من قوة العذاب أقصاها، ومن شدة الآلام أفظعها، فيراها الكافرون يوم القيامة ويتيقنوا أنّهم واقعون فيها، وأنّه لا مفر لهم منها، وتصل الحقائق لقلوبهم، وأنّ القوة لله جميعًا، وأنّه شديد العقاب، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿...وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧] فيشاهدون تلك القوة الحارقة لها والتي لا منتهى لها وهي تُحيط بالعتاة والعصاة والجبابرة، ولا يستطيع أحدهم دفع العذاب عنه، وتصل الحقائق لقلوبهم وهم يُعيشون حسرات التفريط، وسوء المآل، فيا ويل تلك النفوس المغرورة الطاغية التي تكبّرت على أمر ربها -أجارنا اللهُ من حالها-.

(١) [تفسير الطبري: سورة طه].

فهذه بعض مظاهر قوة الله الدالة على عظمته وقوته .

- وكلما زاد يقين العبد بهذه القوة، ونصرة الله له على قوى الشر كلها توكل عليه وتبرأ من حوله وقوته وكان هجيراه دومًا وأبداً : «لا حول ولا قوة إلا بالله» لعلمه بقوة أثرها في دفع كل شر وجلب كل خير.
- وإذا خالط قلب المؤمن المعنى الحقيقي لقوة الله اطمأن لها وسكنت نفسُه بها لعلمه أنّه يأوي إلى ركن قوي شديد، فلا يخاف عدواً، ولا يخش ظالمًا، ولا يهاب أحداً إلا الله، فقد عرف عظمة قوة ربه، فتصغر أمام ناظريه كل قوة، ولذا سجل التاريخ ثبات الصادقين أمام كل قوى الشر.

وتظهر هذه القوة للمؤمن في ثباته وتحمّله الصعاب في سبيل الله، فيقتحم معالي الأمور بحكمة.

- وقوة الله لا ظلم فيها ولا انتقام كما هي عند كثير من الأقوياء من البشر، فكم من قوي من البشر طغى وبغى وجعل هذه القوة في غير موضعها أمّا قوة الله فهي في موضعها اللائق بها وهي أكمل ما يكون.
- والقوةُ في دين الله وشرعه من مدائح الأنبياء والصالحين من بعدهم، وممّا أحبه الله من عباده المؤمنين، فقد أمر سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يحيى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بأخذ الكتاب بقوة فاستجاب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وأتمر بأمر ربه فأثنى عليه في كتابه إلى يوم الدين.

وأخبرنا نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيما رواه مسلم: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»[1] لتطمع النفوس بمحبة الله وتفعل الأسباب التي

(١) رواه مسلم.

توصلهـا للقوة في الدين لأنّها هي القوة الحقيقية، فكم من صحيح جسـد لا يقوى على أداء فرض واحد، وكم من ضعيف جسد يبقى طول ليله قائمًا بين يدي ربه.

فاعرف شـرف هـذه القوة، واحـرص أن تكون مـن أهلها واسـأل ربك هذا الفضل.

اللهم إنّا نسألك القوة في دينك، وأعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

***

(١٩) العَفُوّ

اللهُ عَفُوٌّ كريمٌ؛ فمن أسمائه: (العَفُوّ)

وورد ذكر هذا الاسم في كتاب الله خمس مرات، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ [المجادلة:٢]

والعفْوَ في اللغة: الترك.

(وعفـو الله عن عباده: هـو صفحه عنهم، وترك مجازاتهـم على ذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها تفضلاً منه وإحسانًا)(١).

فاللهُ عَفوٌّ كثيرُ الصفح، فهو الذي يسـتر على المذنبين التائبين، فلا يفضحهم بذنوبهم في الدنيا، ولا يعاقبهم عليها في الآخرة.

- وعَفُـو الله يكـون عامًا بدفـع العقوبات المنعقـدة أسـبابها، والمقتضية لقطع النعم عنهم لكثرة ذنوب العباد، وإقامتهم عليها صباح مساء إلا أنّه يعافيهم ويرزقهم، ويبسط لهم الدنيا، فيهنأون في معيشتهم، ويُمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبات لعلهم يتوبـوا ويُنيبوا إلى ربهم، فخيرُه إليهم نازل، وشرُهم إليه صاعد.

لقد قـرأ المؤمنـون قـولَ ربهـم: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡ﴾ [النسـاء:٩٩] فطمعت نفوسُهم في عفوه، ورجوا كمال مغفرته ليقينهم بسعة رحمته، وكثرة عفوه عن العباد، فهو: ﴿ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥]

---

(١) [انظر تفسير الطبري:٥/ ٧٤، شأن الدعاء للخطابي:٩٠].

فالعفو صفة لازمة له، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٩] وكلما أتى العبدُ الأسبابَ التي ينال بها عفوه من كثرة الاستغفار والتوبة وكثرة الأعمال الصالحة نال من عفوه وكرامته ما تقرّ به عينُه، فإنّ ربه كما وصف نفسه بقوله: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الشورى:٢٥،٢٦]

- وعفوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس عن عجز- كما يحصل كثيراً من الخلق، وإنّما هو رحمةٌ بالعباد وإحسانٌ إليهم.

- ومن كَرِمِ الله تعالى: أنّ محوه للذنوب محوٌّ عام، فيمحوها من صحف الملائكة فلا يبقى لها أثر، ويمحوها من قلوب المذنبين فلا تُعكّر عليهم حياتهم بعد توبتهم، ويمحو أثرها من حياة العبد إذا صدق في توبته، فلا يكون للذنوب أثرٌ في تثبيطه وحرمانه من شرف الطاعة، والمضي قُدمًا في حياته الدنيوية.

- ومن سعة عفو الله: أنّ من عفا عنه في الدنيا لا يُؤاخذه في الآخرة، فهو أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة، ومن عاقبه بذنبه في الدنيا لم يكرر عليه العقوبة في الآخرة، فهو أرحم من تكرير العقوبة.

- ومن تأمّل ثناء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عفو ربه، بقوله: «اللهمَّ إنك عفوٌّ تُحبُّ العفوَ فاعفُ عنِّي»(١) عَلِمَ سعة عفو الله، وجميل إحسانه على العباد، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع غناه عنهم، واستحقاق الكثير منهم للعقوبة إلا أنّ العفو إليه أحبّ من عقوبتهم، وعافيته لهم أوسع من مجازاتهم

---

(١) راوه الترمذي

على ذنوبهم، وما ذاك إلا لكمال رحمته، وسعة عفوه وجوده، فمن عرف ربـًا بهذه الصفات أحبه لا محالة، وتعلّق قلبُه به ولاريب.

- ولـولا كمال عفوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما تـرك على الأرض من دابـة تدبُّ، ولا نفسٌ تطْرف، ذلك أنّ من شأن العباد كثرة الذنوب والخطايا ولكنّ ربهم عفوٌّ غفور.

يتضجر أحدُنا من الأقدار المؤلمة التي ربما كانت كفّارات، وتنبيهات للعبد، ومـا علِم أنّ ما عفا الله عنه أعظـمُ وأكثر، ذلك أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عفوٌّ غفور، قال الله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]

- ومن آثار عفو الله تتابع الخيرات على عبده، قال بعض السـلف: «إذا عفا الله عنك أتتك حوائجك من غير مسألة»

ومن مقتضيات اسـمه العفو: أن يعفو اللهُ عمّن عفـا عن إخوانه، وأن يتجاوز عمّن تجاوز عنهم، ومَنْ سـامحهم سـامحه، فإنّ الجزاء من جنس العمل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى:٤٠] فهو يقابل عفو العباد بعفو أكبر وأوسع.

ومـن جميل ما يُروى من دعاء: «اللهـم إنّك أمرتنا أن نعفو عمّن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا فاعفُ أنت عنّا».

وسؤال الله العفو والعافية من الأدعية التي كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلزمها على الدوام لشـرفها، وحاجة العبد لها، يقول ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «لم يكن رسـولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعُ هؤلاء الكلماتِ حينَ يمسـي وحينَ يصبحُ اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرةِ، اللَّهمَّ إنِّي أسـألُكَ العفوَ والعافيةَ في ديني ودنيايَ وأَهلي

ومالي، اللَّهمَّ استُر عوراتي وآمِن روعاتي، اللَّهمَّ احفَظني من بين يديَّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومِن فوقي وأعوذُ بعظمتِك أن أُغتالَ مِن تحتي»[١].

فالزمه في صبحك ومسائك، فلعلك تصادف ساعة إجابة تسعد معها سعادة لا تشقى بعدها أبداً.

- وينبغي للعبد ألا يتكلّ على عفوّ الله مع إقامته على معصيته، فإنّ هذا من الغرور، ومن تلبيس الشيطان، بل عليه أن يبتعد عن الذنوب والمعاصي، ويحذر من آثارها، ومن العقوبات التي توعّد اللهُ بها من عصاه، فإنّ الله غيّب عفوه عن عباده ليحذروه وليكونوا بين الرجاء والخوف، وعليه بتجديد التوبة على الدوام مهما أذنب، وَلْيُتْبع السيئة الحسنة تمحوها، وليرجو عفو الله ومغفرته.

اللهم اعف عنّا وتجاوزنا عن خطيئاتنا واجعلنا من عبادك الصالحين.

❋❋❋

(١) رواه أبوداود

(٢٠) العزيز

(العزيز) اسم من أسماء الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ورد ذكره في اثنتين وتسعين موضعًا في كتاب الله، ممّا يدلّ على عظمة هذا الاسم، وسعة معانيه، وحاجة النفوس لِتأمّله والعيش معه.

ومعنى العزيز في حق الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: (المنيع الذي لا يُنال ولا يُغالب)[(١)].

الذي: (ذلّ لعزته كل عزيز)[(٢)].

وهو: (العزيز في انتقامه فلا يقدر أحدٌ أن يدفعه عنه)[(٣)] فـ(قد عزّ كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا يُنال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه)[(٤)].

وهو (الذي له العِزّة التامّة، ومن تمام عِزّته براءته من كل سوء وشر وعيب)[(٥)].

- امتدح ذاته العلية بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٢﴾ [الشعراء: ١٢٢] ليعلم العبادُ عظمة ربهم وعِزّته وقهره وغلبته لكل شيء، ولْيَعتزّ كل مؤمن بمولاه، ويفرح بهذا الشرف المنيف، ويُوقن أنّه يعبدُ ربًا جليلاً، وغيره يعبدُ صنمًا ذليلاً، ويتوجّه لوثن قد صنعه بيده.

والمؤمنُ قد علّق قلبه بالله القوي العزيز الذي بيده تدابير الأمور، وغيره

---

(١) [تفسير القرطبي: ٢/ ١٣١]
(٢) [تفسير الأسماء الحسنى: ٤٣].
(٣) [تفسير الطبري: ٩/ ٩٣١]
(٤) [تفسير ابن كثير: ٨/ ٨].
(٥) [شفاء العليل: ١/ ١٨٠]

قد علّقه بقليل الحيلة، ضعيف التدبير.

- والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لـه العِـزّة بأنواعها كلها: (فله عِزَّة القهـر والغلبة، وعِزَّة القوة والقدرة، وعِزَّة الغنى والامتناع)

فالمخلوقـات كلُّهـا مقهـورة خاضعـة لإرادته، فكل مـا في الكـون قد أذعن واستسلم له، ولا يستطيع أحدٌ منهم أن يفوتوه، ومع عزِّته وقوته وقهره إلا أنّه غفور رحيـم ليعلم الخلق أنّ مغفرته ورحمته لهم عـن عِزّة وقدرة لا عن ضعف وعجز، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ [ص:٦٦]

ذلت له المخلوقات كلها فعزّ وقهرها، وأتمرت بأمره طوْعـًا وكرْهـًا.

يتكبّرُ بعضُ الخلق، ويعتزّ بقوته الظاهرة زمنـًا فيُصيبه المرض، فيبقى ضعيفـًا مقهوراً ذليلاً لا يملك دفع هذا المرض عنه ولو اجتمع حوله أطباء الدنيا كلهم.

ويمضـي بعـضُ الجبابرة في غيّه متكبّراً، ويسـير في دنياه سـادراً وكأنّه مخلّداً وباقيـًا، فيأتيه الموتُ فجأة، فيصير أضعف ما يكون، وأذل ما يُرى.

فأين ذهبت تلك القوة؟

ولماذا تخلى عنه من حوله؟

وكيف أيقنوا جميعهم بهوانه وقهر الله له؟

إنّهـا عِـزّة الله في قهره، وغلبته لهم، ونفـاذ أمره وإرادته فيهـم، والتي لا يقف أمامها أحد.

- وعِزّتُه عَزَّوَجَلَّ بحكمة وعدل فلا ظلم فيها ولا جوْر، فهو لا يُنزل عذابه إلا علـى من عصى وظلم وتجبّر، وآذى وتعدّى علـى العباد، فيكون انتقامه

في موطنـه اللائق به، فيقع بعتاة مجرمين استـحقوا هـذا العذاب ليكونوا عبرة لغيرهم، ولذا جاء اقتران اسـمه العزيز باسـمه الحكيم في نحو ستة وأربعين موضعـًا لتأكيد هذا الأمر.

- وهو عزيزٌ في هباته يهب ما يشـاء، لمن شـاء، متى شاء، كيف شاء بدون منازعـة أو اعتـراض، فكم مـن مخلوق تمنّـى أموراً فلـم تتحقق له لأنّ المالك لكل أمر هو الله، وهو العزيز الوهّاب.

- ويُقدّر اللهُ لبعض الخلق رزقـًا فيحسـده آخرون، ويرون عدم اسـتحقاقه ذلـك -بحسـب عقولهم القاصرة- ومـا علموا أنّ هذه الأمور بحسـب تقديـر العزيز الوهّاب؛ فهـا هي قريشٌ تعترض على هبة النبوة لرسـولنا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكيف أنّه خُصّ بها من بينهم، فجاء الجواب من الله، وأنّ خزائن كل شـيء بيده، وهو العزيز الوهّاب، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩﴾ [ص:٩]

- والله بيده العِزّة يضعها حيث شاء، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: ٢٦]

فبعزته وقهره ينفُذُ حكمه في عباده، وأقضيته تمضي فيهم، فيُعزّ من يشاء ويُذلّ من يشاء، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين.

- وهـبَ العـزّة للمؤمنيـن دون غيرهـم، فقـال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ [المنافقـون:٨] فـلا تُطلـب العزة إلا ممّن يملكها -وهو الله- قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ

ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] فمن أحبّ أن يكون عزيزاً فليلزم عتبة العبودية، والذلة بين يدي مولاه، وليكن عبداً مُطيعًا لربه، فبقدر طاعته ينال هذه العزّة، وانظر لحال الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ وكيف أعزّهم اللهُ، وانظر لحال الصحابةَ -رضوان الله عليهم- وكيف كانوا أذلة فأعزّهم العزيز ورفع منزلتهم، وصارت الأمّةُ تترضّى عليهم منذ مئات السنين، وأبقى لهم ذكراً حسنًا في العالمين، فمن تبعهم في سلامة العقيدة، وحُسن الأثر نال من العِزَّة بقدر هذا الاتِّباع.

(وعِزّةُ كل أحد بقدر علو رتبته في الدين)[1].

وتأمّل في حال العصاة الذين ارتكبوا ما نهاهم عنه ربُهم، وخالفوا أمره كيف أذلهم في الدنيا، وصاروا يُذكرون بأسوأ الذكر، وخاب سعيهم وباؤوا بالخسران المبين.

- وله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ العِزّة في تقليب القلوب وتغييرها، فمن آمن بذلك علّق قلبه به، ولم يلتفت لسواه أو يركن لنفسه، ولقد كان من دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بعِزَّتِك، لا إلهَ إلّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الذي لا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»[2].
- وأعزّ الله كتابه، فقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾ [فصلت: ٤١] فلا يستطيع أحدٌ أن يُبطله أو يُحرّفه، لأنّه كتابٌ عزيز منيع، ويُعزّ من اتّبعه واتصل به، فمن رام العزّة فعليه باتّباع القرآن، ففيه عزّ الدنيا والآخرة.

(١) [شرح الأسماء (ص ١٩٦) نقلاً عن كتاب النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى: ١/ ١٤٠]
(٢) رواه مسلم.

- وله سبحانه (عِزّة القوة) فقد أهلك أممًا عاتية، كانت لهم الصَوْلة، ونفاذ الأمر في الدنيا حتى قال بعضهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فجاء الجواب من الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن قوم فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر:٤١،٤٢]

- وأعزّ الله نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع اجتماع قوى الكفر كلها عليه، فقد خرج عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من مكةَ مهاجِراً طريداً وما هي إلا سنوات معدودات حتى عاد فاتحًا منتصراً لأنّ ربه قويٌّ عزيز قد وهبه العِزَّة، وجعل الذلة والصَغَار لمن عاداه وعادى دينه القويم.

- وبعزّته وقوته غلب اليهود يوم حاولوا قتل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧،١٥٨]

- وبعزته وقوته غلب الأحزاب لمّا تحزّبوا على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب:٢٥]

- وقد يقضي الله بالغلبة الظاهرة للكافرين فتكون فتنة للخلق، وربما غرّت أُناسًا فركنوا إليهم، وظنّوا أنّ العزة لا تأتي إلا من قِبلهم، وكل هذا جهلاً بأمر الله تعالى، فإنّه ما ركن أحدٌ للكافرين فعزّ، ولا تقوّى بهم مخلوق إلا خاب وذلّ، ولذا أوضحت الآيات حال من ركنوا إلى الكافرين طالبين

منهم العزّة فلم ينالوا إلا الخزي والبوار، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩]

وطمْأن اللهُ عباده المؤمنين ببقاء العزة لهم إذا كانوا كما أراد اللهُ، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس:٦٥] فاثْبت على دينك وإن أرجف المرجفون وتهوّك المتهوكون، واعتزّ بدينك واستقامتك على شرع ربك فهو مصدر العِزّة الحقيقي، وكن عزيزاً باتّباعك سُنّة سيد المرسلين في هديك وسمتك، واستغن عن النّاس تكن عزيزاً بينهم، واصبِر على كل مظلمة فإنّها لا تزيدك عند الله إلا رفعة، واعف عمّن ظلمك فما زاد اللهُ عبداً بعفو إلا عِزّاً، واسأل ربك العزّة لك ولأمتك، واجعل لك أثراً في الآخرين.

- وله (عزة الامتناع) فهو عزيز الجناب أن يكيد له أحد، أو ينفعه أحد، أو يضره أحد، ففي الحديث القدسي يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «يا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»[(١)].

فهو عزيز بذاته قد استغنى عن العباد.

وعِزّة الامتناع هذه لا يشاركه فيها مشارك، فلا يحتاج سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأحد من خلقه، أمّا البشر كلهم، فمهما بلغت قوة أحدهم ونفوذ سلطانهم إلا أنّ عزتهم ناقصة فلا يستغني أي واحد منهم عن معين، ولا يملكون دفع الضر عن أنفسهم استقلالاً، وأعظم الخلق قدراً ربما أذله أصغر الخلق خِلقة.

---

(١) رواه مسلم

وكـم من إنسـان كان عِزيزاً منيعـًا فأصبح ذليلاً مُهانـًا، لأنّ العِزّة الكاملة لله وحده.

فاللهـم بعزك وذلنا، وغناك وفقرنا، وعلمك وجهلنا، وقوتك وضعفنا، أعزّنا بطاعتك ولا تذلنا بمعصيتك.

اللهم اجعلنا أعزنا في الدنيا وأعلى درجاتنا عندك وأنت القوي العزيز.

❋❋❋

(٢١ ، ٢٢) الحَكَم، الحَكِيم

من أسماء (الحكم) وقد ورد في كتاب الله مرة واحدة، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:١١٤]

وورد في السنة في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّ الله هو الحكم..»(١).

فاللهُ هو الحَكَم؛ الذي له الحُكْم المطلق بين العباد سواءً كان حُكمًا كَوْنيّا قدريًا، أو دينيًّا شرعيًا، أو حكمًا جزائيًا في الثواب والعقاب.

وأحكامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلها كاملة شاملة عادلة، قال تعالى -عن نفسه الشريفة-: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأعراف:٨٧]

وحُكْمه نافذ في خلقه في الدارين، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القصص: ٧٠]

فالحكم القدري الكوني ماضٍ على العباد لا يتبدّل ولا يتغيّر، وهو حكمٌ دائرٌ بين الفضل والعدل.

والحُكْم الديني الشرعي له وحده دون سواه لا يُشاركه فيه أحد، فلا مُشرّع غيره، ولا حاكم سواه، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف:٤٠] وقال مُنكراً على من حكم بغير حكمه أو رضي بغير حكمه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة:٥٠] فكلُ من حكم بحكمٍ مخالف لحكم الله، فحكمه باطل لا اعتبار له.

(١) رواه أبو داود

وحُكْمه الجزائي شامل لأحكامه في الدنيا بما قضى من أحكام، ويكون أظهر ما يكون يوم القيامة، فهو الحاكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، ويُجازهم على أعمالهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧﴾ [الأنعام: ٥٧]

وحُكْم الله نافذ، وإرادته ماضية سواء في أموره الشرعية أو الكونية، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ [المائدة:١] فليس لأحد أن يُراجع الله في حكمه كما يُراجع الناس بعضُهم بعضًا في أحكامهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤١﴾ [الرعد:٤١]

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (حكيم) وقد ورَد هذا الاسم في أربع وتسعين موضعًا من كتاب الله للدلالة على كمال حكمة الله وعظمة شأنها.

وأفعالُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلها محكمةٌ، فلا يأمر أمراً كونيًا ولا شرعيًا إلا لحكمة، وهي حكمة بالغة في خلْقه وصُنعه، وفي قضائه وقدره، وفي دينه وشرعه وجزائه، لا يدخل في تدبيره خلل، ولا يتطرق لأفعاله خطأ، فهو لا يفعل شيئًا عبثًا، أو لغير معنى أو مصلحة، فلا يتوجّه إليه سؤال لكمال علمه، ولا يلحق حكمته مقال لتمام عدله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والحكمةُ تَتضمَّنُ كمالَ الإرادةِ والعدلِ والرَّحمةِ والإحسانِ والجُودِ والبِرِّ، ووضْع الأشياءِ في مَواضِعِها على أحسَنِ وُجوهِها، وتَتضمَّنُ إرسالَ الرُّسلِ، وإثباتَ الثَّوابِ والعِقابِ)[1].

---

(١) [الرسالة التبوكية:٦٩]

وهـو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيم عزيـز؛ عزّ فأحكـم، وقضى فعدل، فعزّتـه عن تمام قـدرة، وحكمته عن كمال علـم، ولذا يأتي كثيراً ذكر الحكمـة مقرونة بغيرها من صفات الكمـال كالعليم والعزيز والحميد وغيرها لبيان كمالها، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف:٨٤] فهو: الحكيم في تدبير خلقه وشرعه، العليم بمصالحهم وما يُصلحهم.

وهـو: ﴿الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨] فحكمته بخبـرة كاملة بظواهر الأمور وبواطنها.

وهـو: ﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشـورى: ٥١] فهو متعالٍ عـن صفات النقص، والخطأ في أقضيته وأحكامه.

- حكمـة الله تعالى تاهت معها عقول أقوام، وضلـت معها أفهام لأنّ تلك العقول اغترّت بعقلها المحدود، وحاولت إدراك دقائق الحكمة فضلّت وانحرفت؛ وإلا فمن عرف كمال الله -وأنّه ليس كمثله شيء، ولا تُقاس صفاتـه بصفات عباده، أو أقداره بعقول خلقه- أيقن أنّ حكمته عن علمٍ واسـع، وعدلٍ تام؛ فسلك معها مسلك التسليم، والإيمان الكامل بكمال عدله، فاطمَئنّ لكل أقضيته وأقداره.

والتسـليم وعدم الخوض في تفاصيل الحكمـة في الأوامر والنواهي من أظهر صفات المؤمن وكمال إيمانه، فما عرفه المؤمن من الحكمة حمد الله عليه، ومالم يعرفه استسـلم، فبعـض الأحكام لا تُـدرك حقيقتها العقـول إدراكًا كاملاً وربما كانـت معرفة تفاصيلها أضـرّ لها، ولذا كان الاستسـلام لأحـكام الله وأقداره من سـمات أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان يربيهم على ذلـك، واتِّباع نهجهم

وطريقتهم في تلقي الأمور هو الأسلم نهجًا، والأصوب عقلاً.

وتفاصيل حكمةِ الله يستحيل أن يدرك كنهها وحقيقتها أحد، فيُعبِّر عنها كاتب، أو يصفها مقال، أو تُحيط بها عبارة، ومن يكتب فيها فإنّما يكتب للتقريب لا غير، وإلا فأنّى لعقل قاصر يُؤمن إيمانًا تام بضعف قواه كلها في سائر جوارحه ثمّ يطمع أن يصل لتفاصيل هذه الحكمة، ولكنّ غرور بعض النفوس يأبى إلا منازعة الله فيها مع اعترافه بضعفه ومحدودية قدرته.

ومن طلبها ليزداد إيمانًا بربه، راغبًا في معرفة بعض الحِكم من وراء أحكامه -مع يقينه بعدم إدراكها كاملة- ففعله محمودٌ، لأنّه إذا ظهر له بعض أسرارها ازداد طمأنينة وإيمانًا، وتبيّن له كمال رحمة ربه، وتمام عدله، وسعة علمه.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنّ مبنى العبودية والإيمان بالله، وكتبه، ورسله على التسليم، وعدم الخوض في تفاصيل الحكمة في الأوامر، والنواهي، والشرائع، ولهذا لم يحكِ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن أمّة نبي صَدَّقت نبيها، وآمنت بما جاء به، أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به، ونهاها عنه، ولو فعَلَت ذلك لَمَا كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت، وسَلَّمت، وأذعنت، وما عَرَفت من الحكمة عَرَفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها، وإيمانها واستسلامها على معرفته، ولا جعلت طلبه من شأنها)[1].

ومن تأمّل في شريعة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وجدها شريعة تامّة كاملة في كل جانب من جوانبها، وفي كل جزء من أجزائها.

(١) [الصواعق المرسلة:٤/ ١٥٦٠-١٥٦١]

وكل حُكْم شرعي شرعه الحكيم سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فهو موافق للعقل السليم، والفطرة القويمة في براهينَ توحيدٍ ناصعة، وأحكامٍ شرعية واضحة لا لبس فيها ولا غموض.

أحكامٌ تشفي القلوب المتعطشة لمعرفة الحق، وإنصافٌ شاملٌ لا لبس فيه ولا غموض.

تأمّلها في باب العقائد تجد عقيدة واضحة مطمئنة تأمر النفوس بالتوجّه لإلهٍ واحدٍ كاملٍ لا يستحق العبادة سواه لكماله الذاتي، وكمال صفاته، وكمال أفعاله، أمّا عبادة من دونه فبطلان ذلك يُدركه كل مَن أدنى له مُسكة عقل، ويسفّهها الولدان الصغار قبل الكبار.

وتأمّلها في أبواب الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات وأحكام الأسرة والآداب ونحوها لترى كمالاً لا مثيل له، وتماماً لا نقص فيه.

عبادات تسمو بالروح، وتطهّر البدن في أبواب الطهارة والصلاة، وتكافل في أحكام المال من وجوب النفقة والزكاة، وترغيب في الإحسان للفقراء والمحتاجين، وأحكاماً تخصّ الأسرة وحفظ الأعراض والأنساب، وبناء مجتمع متكامل في العلاقات الحسنة من الإحسان للقرابة والجار وابن السبيل، ورعاية لحقوق العامة، وإصلاح علاقة بين الحاكم والمحكومين في شريعة تامّة لا يملك أمامها كل منصف إلا الإذعان، والاعتراف بكمالها، وأنّها من لدن حكيم عليم خبير.

وتأمّل حكمته في قدره وقضائه في قضية الهداية والضلالة تجد كمالاً فيما قضى، وعدلاً فيما حكم، فهو قد بيّن السبيل للعالمين، وجعل في العقول خاصية معرفةِ الحق والباطل، وقدرة لاتخاذ القرار، وبصّر النفوس لمعرفة ما ينفعها

وإدراك ما يضرها لا يُنكر هذا إلا مكابر أو جاحد.

وجعـل في الخلق مؤمنًا وكافـراً لتعرف الخليقة شـؤم الكفر وضلال فاعله، وسفاهة عقله فتحذره وتجتنبه.

وجعل في الناس مهتدٍ وضالاً ليُدرك الناس فضل الهداية، وسـفاهة الضلالة، فيسعى العاقل لسلوك طريق المهتدين، ويتجنّب طرق الضالين.

ومن حكمته أنّه تاب على أقوام وأضل آخرين بعلم وحكمة لأنّه توّاب حكيم، فكـم رأينا وسـمعنا عن عتاة مجرمين كانـوا كفّاراً أو منحرفيـن، فتاب الله عليهم فصاروا أئمة هدى ومصابيح دجى، والتاريخ وواقع الناس مليء بهذه النماذج.

ومـن حكمتـه أنّه قضى بخلـق الدنيا مُكـدّرة مليئة بالغصـص حتى لا تركن النفـوس لهـا ولا تتعلق بها، بل يكـون تعلقها في الدار الآخـرة، ولتوقن بقدرة الله على خلق الأضداد وحكمته في تباين خلقه.

ومن تأمّل أقضيته التي ظاهرها ألم وجد في باطنها خيراً كثيراً.

يمـرض المرء فيكون مرضه سـبباً لبعـده عن الغرور الذي كان متلبسـاً به، ونسـي معه ضعفه، ويرى قلة حيلته عند هذا البلاء، ويتذكر معه فضل العافية التي كان عليها زمنًا طويلاً.

وتصيب المرءَ مصيبةٌ في نفسـه أو أهله أو ماله فتكون سـبباً لإفاقته من سكرة الهوى، ولحظة الضياع التي ربما كانت سـترديه في الهاوية، فهي أقدارٌ مُليئة بآلام ولكنّ عاقبتها خير للعبد، فلذا كثيراً ما تأتي الحكمة مقرونة بحمده، فما من قضاء يقضيه إلا ويحمده عليه الخلائق -ولو بعد حين-.

- إذا ادّلَهمّت بك الخطوب، وطال بلاؤك، وضاقت عليك الأرض بما رحُبت، وظننت بالله الظنونا، فثق بالله العليم الحكيم فما تأخرت مطالبك إلا لحكمة يعلمها وتجهلها، ولعل في تأخيرها خير كثير لك.

طال زمان صبر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على فقد فلذة كبده يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ومع ذلك لم يتزعزع يقينُه، ولم ييأس من روْح ربِه لإيمانه العميق بتمام حكمة الله في كلِّ تأخير، وهو الأعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى باختيار الزمان الأنسب للفرج، فيكون وقوعه في أحسنها وأكملها، قال الله تعالى -في بيان كمال صبر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، واستسلامه لحكمة ربه-: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف:٨٣]

- وكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **كله حكمة**، ففيه من الأحكام والإرشادات ما يدل على كمالها، وأنّه من لدن حكيم عليم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [يونس:١] فما قرأ القرآنَ مؤمنٌ إلا اهتدى، وما تبعه مسترشدٌ إلا تبصّر واطمأن.

- **وبعثته** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **للرسل من تمام الحكمة والرحمة بالعباد**، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الشورى: ٣].

- وعلى العبد أن يسأل ربه أن يوفقه للحكمة وأن يرزقه الإصابة في أقواله وأفعاله، فإنه من يُؤتى الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا .

اللهم ارزقنا الحكمة والإيمان التامّ بشرعك والطمأنينة بحكمك.

***

(٢٣) الصمد

(الصمد): اسمٌ كريم من أسماء الله، وقد ورد ذكره في كتاب الله مرة واحدة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص:٢]

ومعنى الصمد: أنّه السيّد الذي تصمد وتتوجّه له الخلائق لكمال خيره وعطائه، وكثرة إحسانه وجوده، فتضطر له الأبدان لقضاء حوائجها كلها، وتفتقر له النفوس لفضله الذي لا غنى لهم عنه طرفة عين.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى الصمد: (هو: السيد الذي يُصمد إليه، الذي ليس فوقه أحد؛ والعرب كذلك تسمي أشرافها)[١].

قال الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الصمد: ومعناه المصمود بالحوائج، أي: المقصود)[٢].

فانظر لهذا العالم الفسيح، ولهؤلاء الخلق الذين لا يحصيهم إلا من خلقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكيف أنّهم كلهم يحتاجون إلى ربهم في حوائجهم كلها، فيتوجّهون إليه ويصمدون نحوه، وحوائج الخلق -كما هو معلوم- لا تنتهي، بل لا ينتهي أحدُهم من حاجة إلا ويضطر لِما بعدها فيقضيها لهم الله، فتَتَابع إحسانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم لا ينقطع.

وصمود الخلق له في صغائر حوائجهم قبل كبارها، ومهما عظمت مكانة المرء فهو مضطر لمولاه، فقير لفضله، محتاج لإحسانه.

---

(١) [تفسير لطبري:٤٢/ ١٩٤]

(٢) [المنهاج في شعب الإيمان للحليمي:١/ ١٠٢]

ومن معاني (الصمد):

(أنّه السيدُ الذي كمُل في سؤدده.

والشريفُ الذي قد كمُل في شرفه.

والحليمُ الذي قد كمُل في حلمه.

والعليمُ الذي قد كمُل في علمه.

والحكيمُ الذي قد كمُل في حكمته.

والعظيمُ الذي قد كمُل في عظمته.

والغنيُ الذي قد كمُل في غناه) وهو مأثور عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فهو الذي قد كمُل بجميع أنواع الشرف والسؤدد؛ كمُل في ذاته وصفاته وأفعاله؛ وكمالُه وكمال صفاته لا منتهى له، وعظمته فوق كُلِّ عظمة، وإحسانه فوق كل إحسان.

ومن معاني: (الصمد) الذي (لا جوف له) فقد (تنزّه وتقدّس وتعالى عن صفات المخلوقين كأكل الطعام ونحوه، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن ذلك علواً كبيراً) قاله العلامّة الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ(١).

ولذا ردّ اللهُ على النصارى بماذكر من وصف حاجة عيسى وأمّه للطعام والشراب ممّا يدل على بطلان ألوهيتهما، فالربُّ الحقُ لا يأكل ولا يشرب، إذ الأكل حاجة، والربُّ منزّه عن الحاجة، ومن أكل احتاج لإخراج ما في جوفه، والإله الحق يُنزّه عن ذلك أعظم تنزيه، فلو عقِلوا لأيقنوا ببطلان ألوهيتهما،

(١) [أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:١/ ٤٧٥]

ووحّدوا اللهَ الغني الصمد، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة:٧٥]

ومن معاني الصمود النفيسة ما أشار إليها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (صمود القلوب إليه بالرغبة والرهبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف الحميدة)(١).

وهو معنى لطيف فيه الإشارة لحاجة القلوب للتوجّه لربها، والعيش مع صفاته الحميدة التي تملأ القلب طمأنينةً وثقةً وأنسًا وراحة.

وصمدية الله فيها إثبات الكمال المطلق له.

فهو الصمدُ الذي لم يحتج إلى خالق، فهو الأوّل الذي ليس قبله شيء، وهو الْمبْتَدِئ وإليه المنتهى.

وهو الصمدُ الذي لم يحتج للزوجة ولا للولد.

وهو الصمدُ الأحد الذي لا يحتاج لشريك أو وزير أو مُعين أو نصير.

وهو الصمدُ الذي لم يحتج للطعام ولا للشراب.

وهو الصمدُ الكامل في حياته، فلا تأخذه سِنة ولا نوم.

وهذه المعرفة لهذا الاسم الجليل تُثمر: التعلّق بالله وحده، فلا تتوجّه القلوب إلا إليه وحده في طلب الحاجات، فربٌّ بهذه الأوصاف العظيمة ينبغي أن يُتوجه إليه دون سواه.

---

(١) [مختصر الصواعق المرسلة:١٦٣]

وكلما قصدت ربك في حوائجك كلها استغنيت به عمّن سواه، وأفاض عليك من عطاياه ما يُغنيك، فلا تلتفت لغيره بقلبك، ولْيَسلم لسانُك من سؤال الخلق.

لا تضِقْ ذرعًا بهمِّك أو بمرضك أو بدَيْنك؛ فاللهُ الصمدُ جَلَّ جَلَالُهُ إذا التجأتَ إليه لن يخذلك ولن يضيّعك، فقط اصْدُق في لُجوئك إليه، وأنزل حاجتك به، واعلم أنّ انتظار الفرج عبادة، ودوام الحال محال، والليالي حُبلى بالعجائب، والغيبُ مستور، وإنّ مع العسر يسرًا، وكلما كان العبدُ صادقًا في اعتماده على الله (الصمد) واثقًا به، حَسَنَ التوكل عليه كانت الإعانة منه أتمّ.

وإن تأخرت مطالبك فأيقن أنّها لحكمة لا تعلمها، فكل قضاء الله خير.

ولأنّ هذا الاسم الشريف معانيه عظيمة المعاني، جليلة القدر، فقد أحبّه بعضُ الصحابة -رضوان الله عليهم- فكان حبُه له سببًا في الفوز بحبِّ الله له، فمن ثمرات المعرفة لهذا الاسم الشريف: معرفة عظمة الله الموصلة لمحبته، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «سلوه: لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه، فقال: لأنّها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أخبروه أن الله يحبه»[(١)].

واسم: (الصَّمَد) لم يأتِ ذكره إلا في موطن واحد وذلك في سورة الإخلاص التي أخلصها الله لنفسه وحده، فلم يذكر فيها شيئًا من أمر الدنيا والآخرة، بل عند التأمّل يجد العبدُ فيها معاني خاصّة انفردت بها فـ(الأحد والصَّمَد) فيه الدلالة على أحدية الذات الجامعة لأوصاف الكمال المطلق، وبأنّه لم يلد ولم يُولد فلا شبيه ولا مثيل.

(١) رواه البخاري ومسلم

و(الصمد) من الأسـماء الذي كلما تأمّلتَه وجدتَ القلب قد اطمأن وخضع، وخشـع لرب عظيم، وصـدق في اللجوء إليه، ولهذا اسـتُحِبَّ للعبـد أن يقرأ هذه السورة في مواطن عديدة، منها:

* في الركعة الأخيرة من الوتر.
* دبر الصلوات.
* في الركعة الثانية من ركعتي سنة الفجر وسنة المغرب.
* في الركعة الثانية من ركعتي الطواف.
* عند النوم.

كل ذلـك ليتردد هذا المعنى على القلب فيزداد معه تعظيم الله، ويمتلأ القلب إجلالاً له وحبـًا.

واسم الصمد من الأسماء التي يُتوسل بها في الدعاء، فعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» فَقَالَ: «لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ»[(١)].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثمّ على العبد أن يتخلق بأخلاق السـيادة والسادة حتى يكون مصمودًا وبابه مقصودًا)[(٢)].

فيكـون مقصودًا من الناس لقضاء حوائجهم، وسـببًا لئن ينتفع المؤمنون من علمه ورأيه ومعونته، فاجعل لك -يا عبد الله- نصيبـًا من اسم الله الصمد، واحمد

(١) أخرجه أبوداود وأحمد وهو حديث صحيح.
(٢) [مختصر النهج الأسنى: ٣٣٦]

الله على هذا الاصطفاء، فعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أحبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعَهُمْ لِلنَّاسِ»[1].

اللهم فقّهنا في أسمائك، واجعل حبك يسكن شغاف قلوبنا.

❋❋❋

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني

(٢٤ ، ٢٥) الكريم، الأكرم

(الكريمُ، والأكرمُ) اسمان من أسماء الله تعالى.

وقد ورد ذكر اسم: (الكريم) في القرآن الكريم ثلاث مرات، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النمل:٤٠] واللهُ كريم بذاته، وصفاته، وأفعاله، فالكَرَمُ صفةٌ ثابتة له.

وكرمه أنفع الكرم وأحسنه وأفضله وأكمله وأوفاه، فهو كاملٌ في ابتدائه وامتداده وانتهائه.

انظر في كثرة إحسانه على العباد، فعطاؤهُ سابغٌ عليهم منذ وجودهم نُطفٌ في بطون أمّهاتِهم، ويتواصل عليهم تواصلًا لا ينقطع عنهم طيلة حياتهم حتى تنتهي أعمارهم ويخرجون من الدنيا، ويمتدّ كرمه لأوليائه في الدار الآخرة في ثواب تامّ وافر لا ينقطع ولا ينفد لاتصاله ودوامه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [النحل:٩٦]

ويقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الحديث القدسي: «أعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ»[١].

واللهُ (كريم) كثير الخير والإحسان، إذا أعطى أجزل، وزاد على منتهى الرجاء، وإذا أكرم أكفى وأقنع النفوس بما وهب، فخيره وعطاؤه لا انقطاع له، وهو أنفع العطاء وأكمله وأتمّه وأحسنه.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وهو الوافي في كرمه؛ فإنّه إذا وعَدَ أوفى بوعده بخلاف غيره ممن يحول بينه وبين وعده حائل أو مانع.

وهو المُكرِمُ حقًا، فمن أكرمه اللهُ صار مُكرَمًا -ولو كان وضيعًا بين النّاس- ومن لم يُكرمه صار ذليلاً مُهانًا -ولو كان ذا مكانة وعشيرة-.

تأمّل في حال من أكرمهم الله كيف نالوا الرفعة والمكانة في الدارين، وبالمقابل تفكّر فيمن أهانهم كيف صاروا أذلاء صاغرين، ولا يُذكرون إلا بسوء وشر لتعلم أنّه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨﴾ [الحج:١٨]

له عُلُوّ الشأن في كرمه، يعطي ما يشاء، لمن يشاء، كيف يشاء، ومتى شاء، فسبحان من هذا شأنه، وهذا عطاؤه وفضله.

يرزق العبدَ بلا سؤال، ويُوهَب له من الخير بما لا يخطر على بال، فكم من عطاء جاءك بلا سبب، وكم من خير رُزقته بلا طلب.

واسم الله تعالى: (الكريم) من الأسماء الذي إذا قرأه المؤمن استبشر وفرِح بتوالي الخيرات عليه ليقينه أنّه لا كرم يُقاربُ كرم ربه، ولا إنعام يرقى إلى إنعامه، ولا عطاء يوازي عطاءه.

ومع سعة كرمه فإنّه لا ينفد عطاؤه، ولا تنتهي خزائنه مهما امتدّ وكثر، فسبحان من هذه صفته وذاك شأنه.

وكَرَمُ الله جَلَّجَلَالُهُ لاحدّ له ولا عدّ، وهو متنوّع.

فمن كَرَمِه: أنّه يبدأ النعم قبل الاستحقاق.

ومـن كَرَمِه: أنّه يُعطـي لا لِعوض، ويرزق بلا انتظار مقابـل، فلغناه لم يحتج لشكر أحد.

ومـن كَرَمِه: أنّـه لا يحتاج في كرمه لوسـيلة حتى يُكرم عبده بـل كرمه ابتداءً وتفضّلاً.

ومن كَرَمِه: أنّه يُثنّي في العطاء، ويُتابِع فيه بلا انقطاع.

ومـن كَرَمِه: عفـوه عمّن تجنّى، وتعدى الحدود، وخالـف الأمر، فمع قدرته ونفاذ أمره في العباد كلهم إلا أنّه يعفو عنهم كَرَمًا منه وجوداً.

ومـن كَرَمِه: إكرامـه لأهل الطاعة بالحياة الطيبة فيعيشـون حياة السـعداء في الدنيا، وينالون الراحة والطمأنينة فيها.

ومن كَرَمِه: أنّـه وعد من اتقاه بالرزق، والنجاة من المضائق، وتفريج الهموم والغموم، وتيسـير الأمور ووفّـى بذلك كله، ولا تنظر لبعـض مواقف من حياتك فيهـا ضيق وهمّ وحـرج، فهي لا تعدو فترات بسـيطة بجانب حيـاة كاملة ممتلئة بالسلامة في البدن والمال والولد.

وانظر لكرمه ووفائه بوعده لمن سلك طريق العلم كيف علّمه.

ولمن سلك طريق الرزق كيف رزقه.

ولمن سلك سبيل الدعوة كيف رأى ثمرات دعوته.

ومن كَرَمِه: أنّه يعطي الخلق كلهم كافرهم ومؤمنهم، مَن أحسـن منهم ومَن أسـاء، مَن سأل ومن لم يسْأل وهذا لسعة كرمه وجوده، فلا يُبالي من أعطى، وكم أعطى؟!

أمّا الخلق كلهم إلا النزر اليسير منهم -وليس على الدوام- لا يُعطي من أساء إليه بل ربما حرمه حاجته، ومنعه حقه تبكيتًا له وعقوبة ونكالاً، ولكن انظر لكرم الله كيف يُعطي الكفّار مع كفرهم، وينعم على الظلمة مع ظلمهم، ويسبل الخير لمن آذاه وآذى أولياءه وما ذاك إلا لأنّ الكرم صفة ثابتة له، فهو الكريم صاحب العطاء الذي لا حدود له.

ومن كَرَمِه: أن يُضاعف الحسنات -حتى وإن كانت قليلة- ويعظّمها -وإن كانت صغيره- انظر كيف يُنمّي الصدقة لتعظم وتكبر حتى تصير كالجبل العظيم، ويذكر العبدُ الذكر اليسير فيتضاعف له الأجر، ويكون له شأن في ميزان الحسنات كرمًا منه ومنّة وفضلاً وإحسانًا.

فهل عرفت عظمة ربك وأنت تدعوه «يا كريم»؟

ربُك الكريم لو نظرت لتعداد نعمه عليك لأحببته، تأمّل في صحتك التي أمدك بها، وبعضنا لا ينظر للصحة إلا عند المرض، وينسى الصحة التي ينعم بها طيلة حياته.

ربُك الكريم قد أمدّك بالمال وقد كنتَ فقيراً، وتأمّل في رزقك اليومي فأنت تأكل وتشرب وتهنأ بلا مُنغِصّات.

ربُك الكريم وهبك نعمةً لا تعدلها نعمةٌ، ومنّةً لا تدانيها منّةٌ، وهي: نعمةُ الإسلام والهداية إلى ما ارتضى من الأديان، فهل استحضرت كرمه عليك بها ونعمته لديك.

ربُك الكريم قد وهبك الزوجة والولد وربما الحفيد، فأي عطاء أعظم من هذا؟!

إنّ الواحد منّا -والله- لو تفكّر في هذا الأمر متأمّلاً في حاله قبل أن يتزوج ويُولد له لأوجب له هذا التفكّر والتأمّل وجوب الشكر الدائم للمولى.

لقد كنت وحيداً -أيّها الزوج- لا زوجة لك ولا ولد، وإذ بالأبناء بين يديك وربما الأحفاد، ترى هذه النعمة تغدو وتروح تحت نظرك فهلّا عرفت فضل هذه النعمة وشكرت الواهب الكريم عليها.

ولئن حُرم المرء الزوجة أو الولد فليتفكر في باقي النعم من ربه الكريم التي لا حصر لها.

وهو (الأكرمُ) سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: (الذي لا يوازي كرمه كرم، ولا يُعادله نظير)

واسم (الأكرم) لم يرد في القرآن إلا مرة واحدة معرّفًا بالألف واللام ليدل على كمال صفة الكرم له، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣﴾ [العلق:٣]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الأكرم) الذي فيه كل خير وكل كمال، فله كل كمال وصْفًا، ومن كل خير فِعْلاً، فهو (الأكرم) في ذاته وصفاته وأفعاله)(١).

فكرمه هو الأوسع كثرة، والأشرف مكانةً، والأعلى قدراً.

يعصيه العصاة كل يوم فيُعطيهم ويُنعم عليهم، ويُذنب المذنبون صباح مساء ومع ذا يجود عليهم بعطائه الذي لا ينقطع عنهم.

فمن الذي دعاه -وإن كان قائمًا على معصية- فلم يستجب له؟!

ومن الذي سأله -وإن تعدى حدوده- فلم يُعطه؟!

(فالخيرُ كلُه بيده، والعطاء كلُه منه، والنِعمُ كلُها هو مُوليها)

---

(١) [مفتاح دار السعادة:١/ ٣٤٢]

تعرّف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده بهذه الصفة الجليلة في أوّل آيات أنزلها على نبي هذا الأمّة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق:٣] وفيها إشارة لكثرة عطائه وكرمه لهذه الأمّة، وأنّها ستنال من عطائه ما لم تنله أمّة من الأمم، وفي الحديث يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إنَّكم تُتمُّونَ سَبعينَ أُمَّةً، أنتُمْ خَيرُها وأَكْرمُها علَى اللهِ»(١).

ووصف الله القرآنَ (بالكريم) وذلك لعظمة أوصافه وكثرتها، فالقرآنُ كثير الخير، غزيرُ العلم، يُخرج المتأمّل له من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويهدي العباد إلى مراضي الرحمن في الأعمال والأخلاق، ويدلّهم للتي هي أقوّم في كل شيء، فكَرَمه وخيراته لا منتهى لها.

ووصف العرشَ (بالكريم) والعرشُ هو: أكبر المخلوقات وأعظمها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ۝١١٦﴾ [المؤمنون: ١١٦]

قال ابن كثير: (ووصفه بأنّه كريم أي: حسن المنظر بهيُّ الشكل)(٢).

ووصفه بالكريم لأنه: (مستوفٍ فضائل جنسه) قاله ابن عاشور(٣).

ووصف ثوابه (بالكريم) فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ [الأنفال:٤] وذلك لكثرة عطائه لأهل الجنة والذي لا ينقطع عنهم طرفة عين، وكريم لطيبه وشرفه الذي لا يُسأم منه لحُسنه وتنوّعه.

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) [تفسير ابن كثير]

(٣) [التحرير والتنوير: تفسير سورة المؤمنون]

فـاللهُ كريم، وكتابُهُ كريم، وعرشُـهُ كريم، وعطاؤهُ واسـعٌ كريـم، فما أعظمَ ربَنا، وما أجلَّ صفةَ الكرم له، فاعرف سعة كرم ربك الكريم الأكرم، وكثرة فضله وجوده لتُحبه ولتعرف فضله عليك.

فاللهم ارزقنا من واسع كرمك وجودك ما تُغنينا به عمّن سواك.

***

(٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨) الغفور، الغفّار، الغافر

ورد اسـم: (الغفور) في القرآن الكريم إحدى وتسعين مرة ليعلم قارئُ كتاب الله سعة رحمة ربه، فيسألها كلما مرّ عليها، وهذا من ثمرات كثرة الاتصال بكتاب الله، وقراءته بتأمّل.

وأمّا اسْـمه (الغفّار) فقـد جاء في خمس آيات، وجاء ذكر اسـم (الغافر) مرة واحدة فقط.

وأصل مادة الغفْر: السـتْر والتغطية (والغفّـار) صيغة مبالغة من كثرة المغفرة وسعتها.

واللهُ يُغطي ذنوب المذنبين، ويُسدل عليهم ستره، ومع كثرة ذنوبهم إلا أنّه لم يزل بالعفو معروفًا، وبالغفران والصفح موصوفًا، فلا يكشـف أمر عبده للخلق، ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تُشهره في عيون العباد.

وأسـماؤه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (الغفور، والغافـر، والغفّار) تدلّ على سـعة مغفرته، وكثـرة سـتره، وعَظيـم إحسـانه علـى المذنبيـن، فكيف يكـون عطـاؤه للتائبين والمحسنين؟!

وقـد أثنـى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى علـى ذاتـه العلية بأنّـه الغفـور والغفّار، بل أمـر نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُبلّـغ هـذا ويعلنـه علـى المـلأ، وفي هذا دلالـة ظاهـرة على حبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للمغفـرة ورحمته بالعباد، فقـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحجر: ٤٩]

وانظر كيف جاء اسم: (الغفور) في كثير من الآيات معرّفًا بالألِف واللام الدالة على الاستغراق لتُؤمن بسعة هذه المغفرة وشمولها، وتوقن برب كريم غفور رحيم لا يُعجزه ذنبٌ أن يغفره، ولا خطيئةٌ أن يمحوها، فهو ذو المغفرة الكثيرة، والرحمة الواسعة الجليلة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]

فالمغفرةُ صفةٌ ثابتة لله، وهي من الصفات الذاتية الفعلية له، فهو غفور بذاته، ويغفر لعباده متى شاء، قال -جلّ شأنه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء:١٠٦] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧]

- والمغفرةُ حقٌ خالصٌ لله تعالى، فلا يملكها لا ملَكٌ مقرّب، ولا نبيٌ مرسل، بل تجدهم يسألونها ربهم لحاجتهم لها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥]

- ومغفرته متعلقة بمشيئته وحده دون سواه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ [الفتح:١٤]

- وتأمّل هذا النداء الرباني اللطيف المليء بالرحمة لتعرف سعة مغفرة ربك، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَني وَرَجَوْتَني غَفَرْتُ لَك عَلى مَا كَانَ منك وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَني، غَفَرْتُ لَكَ ولا أُبالي..»[١].

(١) رواه الترمذي وصحّحه اللألباني.

- نادى ربُنا الغفور الغفّار المسرفين على أنفسهم، والمكثرين من الذنوب والخطايا بأرق الأسماء فقال: (يا عبادي) فكم تحت هذا النداء من لُطْفٍ خفي، ورحمةٍ ومودةٍ، وتحفيزٍ للإجابة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر:٥٣] فما أوسع هذه الرحمة الشاملة، والمغفرة الكبيرة التي تسع ذنوب العباد جميعًا مهما كثرت وعظمت.

ومن تمام مغفرة الله وسعة جوده: أنّه ينزل إلى السماء الدنيا -نزولاً يليق بجلاله- ليغفر للمستغفرين، ويتوب على التائبين، ويُجيب دعوات الداعين.

ولسعة هذا العطاء فإنّه يكون ذلك منه كل ليلة، فما أوسع جوده، وما أكثر فضله، ولكن أين المتعرّضون لهذه الرحمات؟!

فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ، أَوْ ثُلُثَاهُ، يَنْزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ»[(١)].

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

واللهُ لا يُعجزه ذنب أن يغفره، ولا معصية أن يتجاوز عنها، فمع كثرة ذنوب المذنبين، وتراكم معصية العاصين، فإنّه يغفر ذنوبهم جميعًا، وهذا -لعمر الله- أمر عظيم جليل لا يقدر عليه إلا اللهُ الكريم.

---

(١) رواه مسلم.

وإذا أردتَ أن تعـرف عظمة هذه المغفرة من الله فانظر لعدد المذنبين، ولعدد ذنوبهـم في كل لحظة منذ بـدأ اللهُ الخليقة إلى آخر آدمي منهم، ومع ذا فالله يغفرها لهم ويسترهم ويعفو عنهم.

ومغفـرةُ الله لعباده عن قوة لا عن عجز، بل هي تفضّل ورحمة، ففي الحديث القدسـي يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «يا عبادي، إِنكُـمْ تُخْطِئونَ بالليلِ والنهـارِ وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعًا، فاستغفروني أغفرْ لكم...»[1].

ومن كمال جوده وسعة مغفرته: أنّه هو الذي يدعو لهذه المغفرة مع كمال غناه عن العباد، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢١].

فخلـق جنّته وزيّنها لعباده ثم دعاهم لها، ويسّـر لهـم الوصول لها، وهيّأ لهم الأسـباب لبلوغهـا، وجعلها كأكمل ما تكـون داراً، وأعظم ما تكـون منزلاً، فهل رأيتَ مثل هذه المغفرة والرحمة والكرم؟!

وجعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مغفرته سـببًا لبلوغها، فإذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ حمدوا الله علـى هـذه النعمة، وأيقنوا أنّ دخولهـم إنّما كان بفضـل الله لأنّه غفور رحيم، فلـولا رحمته ومغفرته ما دخلها أحـد: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤﴾ [سورة فاطر: ٣٤]

والله خيـر الغافرين ذلك أنّ مغفرة غيره كثيراً ما تكون لمصلحة الغافر كحب الثنـاء، وطلب المنزلـة والرفعة عند الآدميين، أمّا مغفـرةُ الله فهي عن كمال ذات، وليست لطلب عِوض أو غرض، بل هي محض فضل وكرم.

---

(١) رواه مسلم.

والمغفرة احتاجها سادات الخلق من الأنبياء والمرسلين، وهم أعبدُّ الخلق لربهم، وأعظم من أطاع وأناب ولكنّهم لعلمهم بعظيم حق الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ سألوها ربهم، فسجّل القرآن دعواتهم بطلب المغفرة ليعلم الخلق أجمعين أهميتها وحاجتهم إليها.

واحتاجها العُبّاد في سائر عباداتهم، فاحتاجها المصلي بعد صلاته، والحاجُّ بعد انقضاء حجه، وقائمُ الليل في محراب تعبّده، فمع شرف هذه العبادات إلا أنّ المصلي يختم صلاته بالاستغفار ثلاثـًا، والحاجُّ بعد إفاضته من عرفات بعد ذلك الوقوف الشريف يستغفر ربه عند المشعر الحرام، وأهل قيام الليل بعد أن شرفهم الله بالوقوف بين يديه إلا أنّهم يختمون مناجاتهم لربهم بالاستغفار، وما ذاك إلا لعظمة الله، وعظيم حقه، فمهما عبَدَ العابدُ فيبقى مقصّراً فيها، ولِما يعتري العبادة -في العادة- من نقص وخلل، فجعل سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ علاج ذلك الاستغفار، رحمة بالعباد.

والله يُحبُّ عبدَه المستغفر على الدوام، ولذا مدح الله أنبياءَه بهذا الفعل منهم.

ومن تأمّل في دعوات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وجد التنوّع في طلب المغفرة، وكثرة الاستغفار، فليتأسَ العبدُ بنبيه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وليكن كثير الاستغفار على الدوام.

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ ... فَمَنِ الَّذِي يَدْعُو وَيَرْجُو الْمُجْرِمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا ... فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا ... وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمُ

اللهم اغفر لنا ذنوبنا كلها، دقها وجِلها، صغيرها وكبيرها، أوّلها وآخرها، اللهم عاملنا بفضلك وإحسانك، وجودك وكرمك وفضلك يا ذا الفضل والجود والكرم.

***

(٢٩ ، ٣٠) الواحد، الأحد

من أسماء الله: (الواحد، الأحد)

وجاء ذكر اسم (الواحد) في القرآن الكريم في اثنتين وعشرين آية، أمّا اسمه (الأحد) فورد ذكره مرة فقط.

والواحدُ: (هو الفردُ الذي لا نظير له ولا مثيل) قاله الزجّاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

فهو واحدٌ في ذاته لا ندَّ له ولا مثيل، وواحدٌ في أسمائه التي لا مثيل له فيها، وقد جمعت كل حسن، وواحدٌ في صفاته التي لا شبيه له فيها، فلا يماثله أحد فيما يختصُّ به، وواحدٌ في أفعاله لا شريك له (فتوّحد بجميع الكمالات التي لا يُشاركه فيها مُشارك).

وهو واحدٌ في ربوبيته فلا ربّ سواه، وواحدٌ في ألوهيته فلا معبود بحق إلا هو.

والأحدُ، هو: (الفرد الذي لم يزل وحده، ولم يكن معه آخر) قاله الإمام الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢].

تفرّد بكل كمال، ومجد، وجلال، وجمال، وحمد، وحكمة، ورحمة وغيرها من صفات الكمال.

ولعظمته فقد استأثر الله بهذا الوصف فلا يُقال لغيره (أحد).

(فالأحد) ينقطع معه العدد فلا يُقال أحد اثنان ثلاث، فكان اسم (الأَحَد)

(١) [اشتقاق الأسماء:٩٠]
(٢) [شأن الدعاء:٥٦/ النهاية:١/ ٣٥]

خاص بالله وحده، بخلاف الواحد.

و(الأَحَدُ) في النفي أعمّ، فإذا قيل ليس في الدار أحد فهو نفي وجود، والله أحد ليس له مثيل أو شبيه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: ١] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ٦٥﴾ [مريم:٦٥]

وأحديةُ الله أحديةٌ مطلقة، فلا تذهب بعقلك أو تتصوّر أو تظنّ أنّك ستُدرك حقيقة ذات الله أو حقيقة صفاته لأنّ كل كمال يخطر ببالك، فالله أكمل منه، بل لا يدانيه أو يقرب منه، وكل تصوّرٍ يتصوّره عقلك له، فالله أعظم منه، ويكفيك أن تتفكّر في آياته ومخلوقاته، ومعاني أسمائه وصفاته، وتتأمّل في بعض حِكم أفعاله لتحظى ببعض معاني العظمة التي يستحقها.

وضع دائماً بين ناظريك، ونصب عينك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى:١١] وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم:٢٧] فكل وصفِ كمال فهو لله -وله من ذلك الكمال أكمله- بما لا يستطيع أحدٌ إدراك كنهه وحقيقته.

فالله هو الواحدُ الأَحَدُ في ذاته المقدّسة، بائن عن خلقه، مستوٍ على عرشه، ليس له صاحبة، ولم يتخذ ولداً، وليس له شريك في الملك، ولا مُعين ولا ظهير، ولا ولي من الذل.

وهو الواحدُ الأَحَدُ بأوّليته المطلقة في الوجود، فهو أوّل بلا ابتداء، ففي الحديث يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كانَ اللهُ ولَمْ يَكُنْ شيءٌ قَبْلَهُ»[1] وفي رواية: «كانَ اللهُ

(١) رواه البخاري

ولَمْ يَكُنْ شَيءٌ غَيْرُهُ»(١).

وهو الواحدُ الأَحَدُ المتفرّد في صمديته، وقصد الخلائق جميعها إيّاه في حوائجهم كلها، فهو المقصود في كل ملمة، والملجأ في كل حاجة مهمّة، والمستعان والمُستغاث في كل نائبة ومدلهمّة.

وهو الواحدُ الأَحَدُ المتفرّد في كمال علمه الجليل قد باين علم العالمِين وأنفرد بعلمه المطلق، فهو عليمٌ بكل شيء لا يعزب عنه من العلوم شيء -لا الحاضر ولا الماضي ولا المستقبل ولا المستحيل- يعلم مثاقيل البحار، وعدد قطر الأمطار، ويعلم ما أسرّ العبد وما أظهر وأبطن بل تأمل كمال علمه بقوله: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه:٧] لترى تحتها قدرة في العلم لا مثيل لها، فالسرُ ما أخفاه العبد، والأخفى مالم يخطر له على بال ومع ذلك فاللهُ يعلمه.

وهو الواحدُ الأَحَدُ المتفرّد في حكمته، فله كمال الحكمة وأسرارها وتفاصيلها، وكم يجهل العباد الحكمة من وراء بعض الأقضية المحيّرة لهم، والأقدار التي لا تستوعبها عقولهم وبعد زمانٍ تظهر بعض علل تلك الأحكام الإلهية، والأقدار الكونية للمتأملين، وما غاب عنهم أضعاف ما أدركوه.

وهو الواحدُ الأَحَدُ المتفرّد في رحمته الواسعة التي يقف عندها العبد حائراً في جوانب كثيرة منها، فيرى رحمته للظالم، ولطفه بالجبّار، ورزقه للمتغطرس وما استحضر أنّها رحمته العامة التي اقتضتها مشيئته ليمتعّه قليلاً فإذا أخذه لم يفلته.

وهو الواحدُ الأَحَدُ المتفرّد في صبره وحلمه على من آذاه وآذى أولياءه وآذى عباده وعذّبهم، وكيف يمهله ولا يعاجله بالعقوبة -صبراً وحكمة- يجهلها الكثير

---

(١) رواه البخاري.

من الخلق، ولكن من تأمّل في عواقب من انتقم منهم يجد انتقامًا عظيمًا، وعذابًا أليمًا يحل بهم.

وصَبْرُ الله على الظلمة فيه إشارة لعجز البشر، وأنّ ربهم الجبّار هو الذي يأخذ لهم حقوقهم، فتتعلق قلوبُهم به، ويرضون بِقَدَرِه لعلمهم بتمام حكمته، فكم في تأخر نزول العقوبة بالظالمين من مصالح تظهر للعباد بعد حين، ومن الحِكم التي أشار لها القرآن في إمهال الله للظلمة هو زيادة الإثم حتى ينالون من العذاب أشده، ومن الألم أفظعه فتشفى قلوب المؤمنين منهم، ومن الحِكم زيادة أجر الصابرين...وغيرها من الحِكم.

وهو الواحدُ الأَحَدُ المتفرّد في سعة سمعه بالمسْموعات، وبصره بالمبصَرَات، وإحاطته بكل شيء، فهو قد أحاط بالمسموعات كلها لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يُشغله صوت عن صوت، ولا حاجة عن حاجة في سعة سمع وبصر لا تصفها عبارة.

وهو الواحدُ الأَحَدُ المتفرّد في رزقه للمخلوقات كلها وقدرته على ذلك، وكفايته لهم، وإغنائه إياهم ليُوقن الخلق بربٍّ كريم، رازق عظيم قد كفى الخلق في معايشهم وتكفّل في حياتهم.

وهو الواحدُ الأَحَدُ المتفرّد في قدرته على كل شيء، وهي القدرة الكاملة المطلقة الشاملة التي عمّت الخلائق، فلا يُعجزه شيء، ولا يخرج عن قدرته أحد، فسبحانه من رب عظيم وإله جليل قد استحق العبادة واتّصف بالأحدية والصمدية.

هذه بعض معاني الأحدية لله، والكمال المطلق له لتوقن -أيّها المؤمن- أنك تعبد ربًا كريمًا، وتنتسب بصفة العبودية تشريفًا لرب جليل.

ومن آمن بربٍ له هذا الكمال المطلق في صفاته توجّه له بالعبادة بإخلاص ومحبة، فيستريح ويطمئن لأنّه أسلم وجهه وقلبه لله وحده، وصار عبداً لله الإله العظيم، الجليل الكبير، الذي له الصفات العلى، والسؤدد الذي لا منتهى له، فعندما يدعوه يتذكّر عظمته، وعندما يسجد ويركع له، ويقوم بين يديه يتذكّر جلالته وكبريائه وأحديته وتفرّده، وعندما يسأله يتذكّر كرمه وفضله، وعندما تهمّ نفسه بمعصيته يتذكّر سمعه وبصره وإحاطته به.

تتعجب من عقل كل مشرك وكافر، كيف عبَدَ غير الله؟!

وكيف يتذلل لبشر وأصنام هم أحقر ما يكونون؟!

وكيف يتوجّه بدعائه وطلباته لمربوبين مثله مخلوقين، بل هم أدنى وأحقر منه كمن يعبد حيوانًا، أوصورةً أو صنمًا، وتراه يعيش في وحشة وهمّ وغمّ ونكد لأنّ معرفة الله حق المعرفة سِرُّ السعادة، ولذة النفس، وسلوان الفؤاد، وجنّة الدنيا المعجّلة التي من دخلها تهيء لجوار الرحمن في جنّات النعيم.

قال بعضُ العلماء: أنّ اسم الله (الأَحَدُ) هو اسم الله الأعظم، فيدعو به المؤمن متذكّراً قدرة ربه على استجابة دعائه، وتفريج كربه وهمّه؛ سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً يقول: «اللَّهمَّ إني أسألُكَ بأني أَشْهَدُ أنَّكَ أنْتَ اللهُ، لا إلهَ إلا أنتَ، الأَحَدُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكن له كُفُوا أحَدٌ» فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «والذي نفسي بيده لقد سأل اللهَ باسمه الأَعظَمِ، الذي إذا دُعِيَ به أجابَ، وإِذَا سُئِلَ بِهِ أعْطَى»[١].

فاللهم ارزقنا معرفتك حق المعرفة وإجلالك حق الإجلال.

(١) رواه ابن ماجه وهو حديث صحيح.

(٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) الملِك، والمالك، والمليك

من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (الملِك، والمالك، والمليك)

فاسم: (الملك) ورد ذكره خمس مرات في القرآن الكريم، وأمّا اسم (المليك) فقد ورد ذكره مرة واحدة فقط، وأمّا اسم (المالك) فجاء مرتين مضافًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهذه الأسماء تدل على ملكه التام المطلق، فالله هو الملكُ الحقُّ المبينُ.

فهو: (المَلِك الذي لا مُلْك فوقه، ولا شيء إلا دونه)[1].

وهو (المَلِكُ): النافذُ أمره في ملكه، فالعالَمُ العلوي والسفلي تحت ملكه وقدرته وأمره وقضائه، فهو: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف:٨٥]

قَدَرُه في العباد نافذ، وقضاؤه عليهم ماض، ولا يكون في مُلْكِه إلا ما يريد.

وهو (الملِكُ) الذي له التدبير الكامل لشؤون خلقه، وتصريف الأمور بيده فلا يخرج عنها شيء.

و مُلْكُ الله لخلقه، مُلْك عالِم عليم بكل جليل وحقير، ومشَاهَد وغائب في إحاطة بالغة، ورحمة عامة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ [الحشر:٢٢،٢٣]

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هو المالك لجميع الأشياء، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة)[2].

---

(١) [تفسير الطبري:٢٨/ ٣٦]

(٢) [تفسير سورة الحشر]

وهو ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ الذي تنزّه من كل نقص، فكل آفة تُصيب ملوك الدنيا فالله منزّه عنها، فهو: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر:٢٢]

ومن عرف ربه بصفة المُلْك لم يخفْ مخلوقًا، ولم يخش بشراً ليقينه أنّ نواصي العباد بيده، وليس لأحد الخروج عن مُلْكه وسلطانه، فكيف يخافهم؟!

وتجده قد علّق قلبه بالله -فقط- خوفًا ورجاءً وخشيةً ومهابةً، ولاذ به، وصار هو مفزعه عند الشدائد والنوائب، واستعاذ به ولجأ إليه في كل أمر.

وإثبات صفة المُلْك لله تستلزم إثبات سائر صفات الكمال له؛ إذ من المحال ثبوت الملك التام لمن ليس له حياة ولا قدرة و لا علم بشؤون ملكه، ولا إرادة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا فعل اختياري يقوم به.

فـ(حقيقة الملك: إنما تتم بالعطاء والمنع، والإكرام والإهانة، والإثابة والعقوبة، والغضب والرضا، والتولية والعزل، وإعزاز من يليق به العزّ، وإذلال من يليق به الذل...فهو المتُصرّفُ في الممالك كلها وحده؛ تصرّف مَلِكٍ قادر قاهر، عادلٍ رحيم، تام الملك؛ لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يُعارضه فيه مُعارض، فتصرّفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان، والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرفه عن ذلك)[1].

- ومُلْك الله ظاهر في أحكامه القدرية، فما شاء اللهُ كان ومالم يشأ لم يكن، فهو القاهرُ والقادرُ، والباسط والقابض، والمحيي والمميت، والمذل والمعز.

(١) [بتصرف من كلام ابن القيم/ طريق الهجرتين:١١٥- ١١٦]

تأمّل في نفاذ ملكه وكيف يُعزُ من يشاء ويُذلُ من يشاء، يرفعُ الوضيع، ويخفضُ الرفيع، يُغني الفقير، ويُفقر الغني، و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣]

- ويظهر مُلْكَه في شرعه: فهو الذي يشرّع للعباد التشريعات المحكمة من العقائد الواضحة، والأحكام الكاملة، والآداب الشاملة.

ويقضي بالأحكام التي تصلح للعباد، فأوامره كلها عدل وحكمة ونفع للعباد، وبها صلاح الدنيا، فتنتظم بها حياة الخلائق، وتستقيم بها شؤونهم، وتُحفظ بها حقوقهم.

- لقد عَلِم المؤمنون بعظمة هذا الاسم الكريم، فرضوا بشرعه، وآمنوا أنّ التشريع ليس إلا لربهم فأتمروا بأمره استجابة له، وأيقنوا أنّ الجزاء لا يملكه أحدٌ غيره فلم ينازعوه في حُكمه وملكه.

- ومن تمام ملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ترتيب العقوبة والجزاء على أحكامه، فوعَدَ أهلَ الطاعة بالجنّة والحياة الطيبة في الدارين، وتوعّد من عصاه بالعذاب والنكال، فأذعن المؤمنون لعظمة ربهم وقدرته، وعرفوا قدْر أنفسهم، وأنّهم عبيدٌ أذلاء بين يدي ربٍ مِلك عظيم، فعبدوه وخضعوا له، وآمنوا بقدرته على الجزاء.

- ولقد أنكر اللهُ على من صرف العبادة لغيره (وهو المَلِك) فأين ذهبت عقول المشركين؟!

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٦] فهؤلاء المعبودين من دون الله لا يملكون مثقال ذرة، فكيف يُعبدون؟!

ولا يملكون نفعًا لأنفسـهم أو لغيرهم، ولا يدفعون عنهم شراً، ولا يكشفون ضراً، فأين عقول عابديها؟!

ونزّه نفسه عن جهل الجاهلين الذين لم يفقهوا عن الله أمره، وظنّوا أنّهم إنّما خُلِقـوا بلا غاية أو مقصـدٍ، وهو ما تأباه حكمتـه البالغة -فالله مَلِـكٌ عليمٌ، وربٌّ حكيمٌ- لا يخلق شـيئًا في كونه عبثـًا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة المؤمنون: ١١٦]

- ملـوك الدنيا كلهم ملكهم قاصرٌ -زمانـًا ومكانًا وأمراً ونهيًا- يعتريهم ما يعتري البشر من النقص، فيمرضون ويتألمون، ويجوعون ويعطشون، يحتاجون لغيرهم فهم ضعفاء مثلهم أمّا الله فهو الغني الحميد.

ملَـكَ الأرضَ ملـوكـًا لا حصـر لهـم ولا عدد، كانـت الجمـوع تهاب ذكر أسمائهم، ويخافون سـطوة أفعالهم، وكانوا آمرين ناهين مالِكين متصرّفين كيف شـاءوا، فقبـض أرواحهم ملكُ المـوت -الذي هو عبـدٌ من عبـاد الله- فأرداهم صرعى، وألقاهم هلكى، فأصبحوا خبراً من أخبار الناس، وحديثًا من أحاديثهم.

فأين الجبّابرة من ملوك الأرض؟

وأين الآمرون الناهون ممن كانت لهم السطوة وكان لهم الأمر النافذ الذي لا يُـرد، لقد مضوا كما مضى من قبلهم، ويمضي مـن بعدهم ليوقن العباد أنّ المُلْك الحق المطلق الكامل لله فقط، وأنّ ملوك الأرض إنّما ملكوا بأمر الله، ويُنزع الملك منهم بأمره -أيضـًا- فهو المَلِكُ الذي بيده ملكوت كل شيء، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة آل عمران: ٢٦]

وأظهر ما يكون مُلْكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوم القيامة؛ يوم يفصل بين العباد، ويقضي بين الأنام، فالكلُ بين يديه في ذلك اليوم خاضعون، والجميع عنده ذليلون، قد خضعت رقابهم للملك العلاّم، وذلت أنوفهم للربِّ العزيز الجبّار.

استحضر ذلة ملوك الدنيا وقد خضعوا لربهم، واعتراهم الذل في ذلك اليوم، كلُ واحد منتظرٌ جزاء عمله، فأين هي أملاكهم وجنودهم؟

وأين الذين وَدُّوا لهم ملكهم في الدنيا، وعزّزوا سطوتهم فيها؟

لقد ذهبت الرسوم، وطارت الألقاب، وانتهت الأسماء الظاهرة، وتبيّن لهم معنى المُلْك القاصر، فصاروا هم وبقية الخلق سواسيه، وغدوا وعامّة النّاس في درجة واحدة.

ولذا إذا قرأتَ في كل ركعة قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: آية ٤] تذكّر ذلك المُلْك العظيم لله، والتفرّد المطلق له، وظهور عظمته، واستحضر يوم ينادي الملك العلاّم سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦] فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه بنفسه جل في علاه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: ١٦]

- ويظهر مُلْكه في قبض السموات والأرض -وهي العظيمة في خلقتها- يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيامَة، وَيَطْوِي السَّماءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟»(١).

ويقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يَطْوِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ السَّماوَاتِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ يَطْوِي

(١) رواه البخاري

الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»[١].

هذا ربُنا الملك المالك العظيم، فاستحْضِر عظمته، واعرف قدْره، ولْيَخشعْ قلبُك إجلالاً له، واملأه محبةً له، ولا يفتر لسانُك من الثناء عليه، إذ اصطفاك على العالمين، ووفقك لتعرفه وتعبده وتسجد له، فاجعل جوارحك تخشع له، وعينك تدمع من خشيته، فلا أطيب عيشاً في الدنيا من معرفته، ولا آنس للعبد من مناجاته، والتأمّل في أسمائه وصفاته، فاللهم زدنا علماً في هذا الباب وأنت الجواد الكريم.

❊❊❊

(١) رواه مسلم

﴿ (٣٤) السميع ﴾

من أسماء الله: (السميع) وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم خمسًا وأربعين مرة.

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (السميع: بمعنى السامع، إلا أنّه أبلغ في الصفة، وبناء فعيل: بناء المبالغة كقولهم: عليم من عالم، وقدير من قادر، وهو الذي يسمع والنجوى سواء عنده الجهر والخفوت والنطق والسكوت...)(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهو الذي: قد استوى في سمعه سِرّ القول وجهره)(٢).

والمعنى في سمْعِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكون على معنيين:

الأوَّل: سمْعُه لجميع الأصْوات الظَّاهرة والباطنة، الخفيَّة والجليَّة، وإحاطته التَّامَّة بها.

الثَّاني: سمْعُ الإجابة للسَّائلين والدَّاعين والعابِدين، فيُجيبُهم ويُثيبهم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: ٣٩]؛ أي: مجيب الدُّعاء.

- وصفةُ السمع لله صفةٌ ثابتة له تليق به سبحانه، فسمْعهُ ليس كسمع البشر كما أنّ ذاته ليست كذواتهم.
- يسمع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأصواتَ كلها باختلاف لغاتِها، وتباين حاجتها، وتنوّع ألفاظها، وتفنن طلباتها؛ فلا يُشغله سمعٌ عن سمع، ولا تزدحم

(١) [شأن الدعاء:٩]
(٢) [طريق الهجرتين:٨٢١]

عليه الأصوات، ولا تُغلطه كثرتها، الخفيّ منها والجهر عنده سيان، والسرّ والعلانية عنده سواء؛ يجتمع الملايين في صعيد عرفات فتلهج ألسنتهم بالدعوات، وترتفع لربهم المطالب والحاجات، وكل واحد منهم قد كثرت مسائله، ونفسُه قد امتلأت بالأمنيات، فتتنوّع مطالبهم، وتتباين حوائجهم، وقد اختلفت لغاتهم، وتمايز حالهم من الصدق والإخلاص، فيسمع الله دعواتهم كلها وكأنها دعاء رجل واحد لعظمة سمعه، وكمال إحاطته، وسعة علمه بإخلاصهم، واستحقاقهم للإجابة، وأيُّ الدعوات أنفع لصاحبها فيحققها له، وأيّها منعها أولى له، فسبحان السميع العليم، هذا موقفٌ واحد من ملايين المواقف للبشر، وكلها في سمع الله وعلمه وإحاطته كحديث رجل واحد وذلك لكمال سمعه وسعة علمه.

- المرء منّا لو تحدّث عنده اثنان لقال لأحدهم اسكت حتى أنصت للآخر، ولكن انظر لسمع الله تعالى وكيف قد أحاط بخلقه، فاعْرف عظمة ربك السميع، واعترف بعجزك وضعفك.

- سمع صوت عبدِه يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في قاع البحر وظلماته، فلم يخفَ عليه حاله، ولم يغب عنه ما ألمّ به من ضيق، فسمع نداءه في تلك الظلمات وهو ينادي: ﴿...لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [سورة الأنبياء: ٨٧]

- وتأتي المجادِلة شاكيةً أمرها لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ولم يخطر ببالها أن يُنزل اللهُ في شأنها آياتٍ تُتلى إلى يوم القيامة، ولكنّه الإعلام من الله لجميع عبادِه أنّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يسمع شِكايتهم، ومطلّع على أحوالهم وهمومهم،

فلا يُشغله عن شأن عبده شيء لكمال سمعه، وقربه من عباده، وتمام رعايته لهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [سورة المجادلة:١] وتأمّل كيف جاء ذكر لفظ الجلالة (الله) في هذه الآية أربع مرات ليطمئن المؤمن بلطْف الله بعبده وعنايته بشأنه.

- وفي أشرف بناء على وجه الأرض، لأعظم عِمارة قام بها بشرٌ، يرفعُ إبراهيمُ وإسماعيلُ القواعدَ من البيت، فيسألان ربَهما القبول لعملهما ولا يجدان أعظم من هذين الاسمين: (السميع العليم) فيتوسلان لله بهما لعلمهما بسعة سمعه، وإحاطة علمه بكل عمل، وإجابته للسائلين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾ [سورة البقرة: ١٢٧] فما أوسع سمعه، وما أقرب إجابته لمن صدق في دعائه.

- إن تأخّر رزقك في إنجاب الولد، وتاقت نفسُك لرؤية الذرية، وتألم قلبُك من الوحدة، ناجِ ربك، وناده باسم: (السميع المجيب) ليَمُنّ عليك بما تمنيت، ولا يقف طلبك على الذرية فقط بل ليمتدّ إلى طلب صلاحها فهو المقصد النفيس من وجودها.

- يدخل زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على مريم فيجد كرامةً الله لها برزقها من غير حول منها ولا قوة، فيطمع بفضل ربه (السميع المجيب) الذي لم يزل على عباده محسنًا، فيناديه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨] فيهبه اللهُ يحيى مصدِّقًا بكلمةٍ من الله وسيدًا وحصوراً ونبيًا من الصالحين.

- ويُثْنِـي إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على ربِّه (السَّـميع المجيـب) فقد وهب له على الكبـر الولد ويجعله خيـر ولد، ولو تأملتَ في هذا لـرزق لوجدته عَجبًا عُجابًـا، فقد حُرمُ إبراهيـم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذرية فترة طويلة حتـى بلغ الكِبر، وضعفـت قوته وقرب الموت منه، فإذا بالبشـرى بهـذا الرزق ولكن أي رزقٍ كان، وأي ذريةٍ هي؟!

لقد رُزق بعد هذا الحرمان بذرية كانوا هم الأنبياء في بني البشـر، فجعلها الله في عقبـه وولده وولـد ولده حتى خُتمت بسـيدهم محمد صلى الله وسـلم عليهم أجمعين.

فمهمـا تأخرت أمنياتك فلعلهـا تأتيك -وإن أبطأت كأكمـل ما يكون- قال تعالى -حاكيًا شـكر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وثنـاءه على ربه-: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]

- وإن أحاطت بك الفتنة، وخِفت من الوقوع في الحرام، وزيّن لك الشيطانُ الشهوات، وضعفت نفسك أمام المغريات، فالجأ لربك الرحيم، وأظهر لـه ضعفـك، واعتـرف بعجزك، فربـك لطيف سـميع يُنجّيـك من هذه المهالك، ويحفظك من كل سوء.

- أيقن يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بحاجته لربـه، واضطراره لمولاه، فاسـتغاث به، وناداه بهذه الكلمات الخالـدات: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف: ٣٣-٣٤] فأغاثه ربُه ونجّاه، وحفظه من كل مكروه وحماه.

- ويمضي موسى وهارون عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ إلى فرعون، فيخافا بطشه وانتقامه، فيبثان هذا لربهما: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥﴾ [سورة طه:٤٥] فيُطمئنهما بحفظه ورعايته: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [سورة طه:٤٦] فأي قوة وبطش كانت أعظم من قوة وبطش فرعون في ذلك الزمان؟!

وأي ضعف كان عليه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حتى أنّه طلب وزيراً ومعيناً له، ولكن عندما ارتفعت دعواته سمعها (السميع) فقوّاه ونصره.

فاطمئن أيها الداعي، فربك قريب سميع مجيب، يسمع دعواتك الصادقة في مطالبك كلها خصوصاً أشرفها وهو: (طلب الهداية) فيستجيب للصادقين في طلبها ولمن سلك سبيلها.

- أيقن -أيها المؤمن- أنّ ربك سميعٌ لك في كلِّ أحوالك، فكن راجياً عند عباداتك، طامعاً في فضله وإحسانه، فإذا قمتَ مصليّاً بين يديه تأمّل قربه منك وأنت واقفاً تتلو كتابَه، أو راكعاً تُسبّحه وتُعظّمه، أو ساجداً تسأله وتدعوه.

وإذا زيّنت صوتك بتلاوة كتابه، وفرّغت وقتك لقراءة آياته، فافرح بهذا الفضل والتوفيق، فما استمع اللهُ لأحدٍ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ كاستماعه لنبي يقرأ القرآن، فأي شرف أعظم من هذا الشرف لتالي القرآن!

- يسمع دعاءك وأنت تناجيه بصوتٍ خافت، وقلبٍ حاضر، وعينٍ دامعة، وفؤادٍ وجلّ، ويعلم حاجتك -وإن لم تُفصح بها- فأحسن الظنّ به، وإن لم ترَ أمامك إجابة حاضرة، فلعلها أُخِّرت في الوقت الأنفع لك.

- يرى ويسمع لطفك مع الخلق، وأدبك مع والديك وطلبك لمرضاتهم، وسعيك في خدمتهم.

- يسمع جهرك بالحق، وصدعك به، ودلالتك على الخير، ونشرك للمعروف، ونصحك للخلق سراً وجهاراً، وهو عليم سميع بإرشادك لأعمال البِّر؛ كل ذلك وغيره يسمعه، ويعلمه السميع العليم، فاطمئن لأعمالك وأخلص فيها، وأيقن أنّها لن تضيع عليك ابداً.

- بكاؤُك ودقائق مطالبك قد أحاط بها، فهو عليم بكل حوائجك، فيقضيها لك -وإن تأخرت- لأنّه سميعٌ عليم، فحقق إيمانك، وكن عظيم الثقة به، فإنّه لا تخفى عليه خافية، وهو قريب ممن دعاه وسأله.

- تمرّ بنا أحداث، وتغشانا هموم وغموم، فنوقن أن لا ملجأ من الله إلا إليه فنرفع شكايتنا إلى الله فيسمعها (السميع) ويفرّج عنّا كل همّ. فهو قريبٌ ممن دعاه وسأله.

- إن هممت بغيبة أو نميمة، أو نزغك شيطانُك أن تتهم بريئًا، أو تمضي بفتنة فاعلم أنّ الله سميعًا لأقوالك، عليمًا بمكرك، فاحذر السقْطة من اللسان فربما تهوي بك في النّار سبعين خريفًا.

- توّعد الشيطانُ بني آدم بأن يغويهم ويقعد لهم كل سبل الخير، ويسعى في إفساد العبادات عليهم، ويوسوس لهم في شؤونهم كلها حتى يُنكّد عليهم حياتهم، فيأمر اللهُ عبادَه بأن يستعيذوا بالله منه فإنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الملجأ والملاذ، وهو السميع العليم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٦]

- يكيدُ الأعداء لدين الله، فالحربُ بين الحق والباطل في سجال لا ينتهي، وهي باقية بقاء الليل والنهار -سُنّةً قضاها الله تعالى في كونه- فيظلُ جمعهم بوراً، ومكرهم غروراً فقد كتب الله لهذا الدين البقاء، وقضى بالنصرة لأوليائه، وليس في صدور الأعداء إلا الكِبر والظنون الفاسدة، فلذا أمر اللهُ رسولَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه الإعراض عنهم والاستعاذة بربهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [سورة غافر: ٥٦]

فتأمّل في عظمة وسعة سمع ربك لتوقن أنّك تعبد ربـاً عظيمًا له الصفات العلى، والكمال المطلق.

فاللهم يا سميع يا عليم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا .

اللهم -وأنت السميع العليم- بصّرنا السبيل، ودلّنا الطريق، وخذ بنواصينا لكل ما يُرضيك عنّا يا رحيم.

***

(٣٥) البصير

مـن دلائـل وحدانية الله تفـرّده بالكمال في الصفات التي دلت عليها أسـماؤه الحسنى، وصفاته العلى، ومن هذه الأسماء: (البصير) وقد ورد ذكر هذا الاسم في كتاب الله اثنين وأربعين مرة.

وصفـة البصر مـن صفات الكمال، فالمتصف به أكمل -ولا شـك- ممّن لا يتصف بها، قال تعالـى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد:١٦]

وبصـرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قـد باين بصـر المخلوقين، فبصر المخلـوق محدود وقصيـر، ومآله إلى الضعف والزوال، أمّا اللهُ فهو البصير الذي أحاط بصره بجميع المُبْصَرات والمرئيات، فبصرُه نافذ، وقدرته في الإحاطة عظيمة، يرى أفعال العباد كلهم مع كثرتها وكثرتهم، وتباينها واختلافها.

فمن كان منهم في بَرٍ فسـيح، أو عُباب بحـر عميق، أو تحت أطباق الأرض، أو في فضاء سـماء عالية، أو تحت سـفوح جبال شـاهقة فجميعهم لا يخفى عليه أمرهم، ولا يغيب عنه شيءٌ من حالهم.

الظلامُ والضياء عنده سواء، والمرئيات عنده واحدة، فلا تغلطه كثرة الصور، ولا يُحجب عن علمه حال أحد، فمهما أخفى العبدُ من شأنه، فعمله ظاهر للخبير، وحاله حاضرة بين يدي البصير، فسبحانه من إله قدير، وجل جلاله من ربٍّ عليم.

تأمّـل في أعـداد من خلق مـن الآدميين، فإنّه يرى سـبحانه مبيتهـم ومقيلهم،

وذهابهم ومجيئهم، وحركاتهم وسكونهم، وأين ذهبوا، ولماذا ذهبوا، وما هم صانعون.

وتأمل في ما خلق في الأرض من جبال وهضاب وسهول ووديان وما يحصل فيها من شؤون مما لا يحيط به أحدٌ إلا الله تعالى، فهو يرى ما فيها من مجيء وذهاب آدمين، وانتشار حيوانات، وعدد أحجار، وتنوّع تضاريس، ونزول مطر، وغير ذلك ممّا يكون فيها.

ويرى ما يكون في البحر من أحوال متنوّعة من ركوب آدميين، وما يحصل منهم، وما يعيش على سواحلها، وداخل أعماقها من مخلوقات لا يعلم عددها وأنواعها وحياتها وولادتها وموتها إلا من خلقها سبحانه.

وتأمّل فيما خلق من النبات والأشجار فإنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم وقت ابتداء خلْقها وحياتها، ويرى سريان المياه في أغصانها وعروقها،ويعلم وقت نضوج ثمارها، وذبولها ومكان تساقط ورقها، وموتها وفناءها.

ويرى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحيوانات باختلاف أصنافها، وهو عليم بأفعالها ومآلها؛ يرى الطيرَ وهي صافّات تُسبّحُ ربها بالغدو والآصال، ويرى دبيبَ النملة السوداء على الصخرة الصماء في ظلمة الليل، ويرى سريان القوت في أعضائها، ويسمع دبيب مشيها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك، فسبحان مَن أبصر كل شيء، وجلّ عن المثيل من تحيّرت العقول في عظمته، وسعة متعلقات صفاته، وكمال عظمته ولطْفه، وتعالى عن الشريك من يستوي عنده الغيب والشهادة، والحاضر والغائب، فهو يرى خيانات الأعين وتقلبات الأجفان.

ويرى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أهل العبادات والطاعات:

يراك أيّها الراكع الساجد وأنت تعبده وتدعوه.

ويراك أيّها التالي وأنت تتلذذ بتلاوة كتابه وتحمده على هذا الاصطفاء.

يراك وأنت ذاكرٌ له قد خلوت به وأنِسْتَ نفسُك بذكره، وتلذّذ قلبُك بمناجاته.

يراك أيّها الصائم وقد بلغ التعب منك مبلغه، وآثرت مراضيه، وصبرت لأجل ما عنده من العطايا.

يراك وأنت حاجّ ومعتمر، ولا يخفى عليه طوافك وسعيك، وقد أحاط بخفقان قلبك وهو فرح بهذا الاصطفاء، ويسمع دعواتك وأنت ترفعها من هذه الأماكن المباركة رجاء إجابتها، ويعلم بحال وقوفك ومبيتك في محل الرحمات، وتقلّبك في هذه الطاعات.

يرى صدقك وأنت تدعوه، وترجو إجابة الدعوات، ويعلم بضعفك وخشيتك وخضوعك وذلتك بين يديه ... وغيرها من القربات .

يرى هذه الطاعات منك فافرح بها وزد منها، فهي نعم الزاد.

ربُك البصير يراك -أيّها المُحسنُ المتصدق- ويعلم بحالك وقد أنفقت مالك في سبيل مرضاته، ونفعت عباده، فيحفظ لك ذلك الصنيع، ويضاعف لك المثوبة.

ربك البصير يراك أيّها الساعي سعيًا حثيثًا في خدمة والديك أو ذوي رحمك ترجو نوال عملك وثوابه، فقد سعيت لردِّ الواجب فكنت خير بار، وأحسنت لرَحِمك فصرت أنصح واصل، فافرح بهذا المعروف.

ربُـك البصير يرى جهدك -أيّها الداعي- في سـبيل إنقـاذ الناس من ظلمات الكفـر، ومن حمأة الذنوب وشـؤم المعصية، يراك وأنت تبـذل من وقتك ومالك وجهـدك وفكرك لنفع عباده، فيحفظ لك عملك وسـيجازيك عليه أعظم الجزاء، فاطمئن لصنيعك.

ربُك البصير يراك أيّها المشـفقُ على الضعيف والمحسـن للمسـكين، وقد امتـلأ قلبُك رحمة بهم فسـعيت لنفعهم، فيرحمك بمثل هـذه الأعمال المباركة، فافرح بهذا الاصطفاء.

ربُـك البصير يرى إحسـانك -حتـى للحيوان- فيثيبك عليـه لأنّه رب رحيم شكور «تمرُّ زانيةٌ بكلب يلهث فتحملها الشفقة على الإحسان إليه، فيشكر اللهُ لها صنيعها ويغفر لها ذنوبها ويدخلها الجنة»(١).

هـذه الأعمال ونحوهـا الكثير الكثير يراها الله، ويُعينُ عليها، ويُسـدّد أهلها، وتسطّر الآيات الكريمات صورها لتُبشّر أهل هذه الأعمال الصالحة ومثيلاتها بأنّ الله لا يخفى شيء منها لتطمئنّ قلوبُ المؤمنين الموحدين، وأنّ سعيهم لن يضيع عليهـم، فربهم جواد كريم، وهو بهم وبحالهم بصير، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١]

- وتأمّل في هذه الآية فهي تعم كل شيء، صغيراً كان أو كبيراً، جليلاً كان أو حقيراً لتوقن -أيّها المؤمن العابد- أنّ عملك الصالح ربُك به بصير، وهو

---

(١) رواه البخاري.

محفوظ لـك عنـده، يقـول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة:١١٠]

ومن علم أنّ ربه به بصير، وبعمله خبير، سعى لإتقان العبادة، وتقرّب لربه بها على أحسن وجه ليعظم أجره فيها، ولذا أرشد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته لهذا المعنى المهم وذلك عندما سُئل عن الإحسان، فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه -وهو مقام المشاهدة- فإن لم تكن تراه فإنّه يراك - وهذا مقام المراقبة -»[(١)].

وقد أشار القرآن لهذا المعنى كثيراً، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء ٢١٨-٢١٩]

وكلما استحضر العابدُ نظر الله إليه أثناء عبادته أتقن تلك العبادة، وهذا ثمرة من ثمرات المراقبة والإيمان بهذا الاسم الجليل؛ فهو يخشى أن يتقرّب لربه بعبادة لا روح فيها ولا حضور قلب؛ فعزِّز في قلبك معاني هذا الاسم الجليل لتُؤدي عبادةً كاملةً صالحةً تنال بركتها ويعظم لك أجورها.

وتقوية الإيمان باسم الله -البصير- يورث العبد الحياء من ربه، فكيف يتجرأ على معصيته، أو يُقيم على ما يُسخطه عليه وهو يوقن باطّلاع الله عليه؟!

ولذا يأتي التهديد والوعيد من الله (البصير) لمن يُلحدون في آياته، ويتعدون حدوده، ويتجرؤون على محارمه، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت ٤٠]

(١) رواه مسلم.

فليحـذر العبـدُ من غضب ربـه وعقابه، وَلْيُوقِـنْ أنّ الله لا يخفى عليه شـيءٌ فيبتعد عن سخطه وانتقامه.

ومهمـا اسـتخفى العاصي عن أنظار النّـاس فإنّ الله يراه، وهـو بصير بعمله، محيط بشؤونه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء:١٠٨]

فأين سيعصيه وهو مطّلع عليه في أي مكان كان؟!

وكلما قوي إيمان العبد بهذا الاسم العظيم نفعه إيمانه به؛ فابتَعَد عن الذنب، وإن ضعف ووقع فيه دعاه الخوف من اطّلاع ربه لتجديد التوبة وإخلاص الإنابة.

ولـولا رحمـة الله بنا وسـتره علينـا لهلكنـا لضعف النفـوس أمـام الذنوب والمعاصي والشهوات.

ومـن معاني البصير: (العليـم بأحوال العباد، الخبيـر بمصالحهم) فهو بصير بمـن يصلـح حاله الغِنَى فيغنيه وبمن يفسـد حاله ذلك فيُضيّق عليـه، فأيقن أنّه ما ضيّق عليك إلا رحمـة بك، يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧]

وهـو عليمٌ بِمَن يسـتحقُّ الهدايـة فيهديه ويوفقـه بفضله ومنّته وييسـرها له، وعليـمٌ بمَّن لا يسـتحقُّها فيُضله بعدله وحكمته، قـال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [التغابن: ٢]

قـال ابن كثيـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والله بصيـر بالعبـاد؛ أي: هو عليم بمَن يسـتحقّ الهداية ممَّن يسـتحقّ الضلالة، وهو الَّذي لا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون، وما

ذاك إلاَّ لحكمته ورحمته)[1].

وهو بصير بخفيات الأمور، وبالمستور والمنظور، وخبير بالنوايا ودرجات الصادقين، فـ ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٣] فلا يـرى في قلبـك إلا الإخلاص، وابتغاء وجهـه في كل عمل تعملـه، ولا يطلّع على قلبك إلا ويرى فيه محبة المؤمنين، وتمنّي الخير لهم، فالله عليم بذات الصدور.

هـذا بعض معاني هذا الاسـم العظيم وبعض آثاره وثمـرات العلم به، فاللهم اشملنا برحمتك واغفر لنا كل زلل وتقصير.

❋❋❋

(١) [تفسير سورة التغابن لابن كثير]

(٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨) الأعَلى، العليّ، المُتعَالي

اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو العليُّ الأعلى المتعالي عن كل نقص.

وقد ورد ذكر اسم الله (العلي) ثمانية مرات، وذُكر اسم (الأعلى) مرتين، وأما اسم (المتعال) فورد مرة واحدة فقط.

واللهُ لـه العُلُـوّ المطلق بجميع أنـواع العلو: (فلـه عُلُوّ الذات، وعُلُـوّ القدْر والصفات، و عُلُوّ القهر والغلبة)

قال ابن سـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هو الذي له العُلُـوّ المطلق من جميع الوجوه: عُلُوّ الـذات، وعُلُـوّ القدر والصفـات، وعُلُوّ القهـر، فهو الذي على العرش اسـتوى، وعلـى الملـك احتوى، وبجميـع صفات العظمـة والكبرياء والجـلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى)[١].

فهو عالٍ (بذاته) فوق عباده، بائن من خلقه، مستوٍ على عرشـه، استواءً يليق بجلاله لا يخفى عليه شيء من أمر خليقته.

قـال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ...﴾ [الأعـراف:٥٤] وقـال سـبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]

قـال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأنه فوق جميع العالـم عال عليه بجميع أنواع العلو ذاتا وقهرا وعظمة)[٢].

---

(١) [تفسير السعدي:٥/ ٤٨٧]

(٢) [الصواعق المرسلة: ٤ / ١٢٧٨]

وعُلُـوّه (بذاته) ثابتًا ثبوتـًا لا مرية فيه، دلت عليه نصوص الكتاب والسُـنّة، ودلّ عليه العقل السـليم، والنفوسُ تشعر بذلك عند دعائه والحاجة إليه، والفطرة السـوية تُؤيّـد ذلك، فاللهُ لا يكـون إلا في العلُوّ، ويُنـزّه عمّا دون ذلـك، ومع عُلُوّه وفوقيتـه إلا أنّـه قريبًا من عباده، قد أحـاط بهم علمـًا وقدرةً، فهـو عليٌ في قربه، قريبٌ مع عُلُوّه لا يخفى عليه شـيء من أمـور العباد، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسـة إلا هو سادسـهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا وهو معهم أينما كانوا.

وله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عُلُوّ (القدْر والصفات)

قال ابن القيم: (العلي الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص)[١].

فصفاتُه عظيمة لا يقدرها حق قدرها إلا هو.

وهو عليٌ في نفوس أوليائه، فقد امتلأت قلوبُهم حبًا وتعظيمـًا وخشية له.

فقـد أيقنوا بعظمة أوصافه، وكماله المطلق، فتوجّهـوا بأعمالهم إليه وحده، وأخلصوا له العبادة، وصرفوها له دون سواه.

فيُعظّمونـه حـال العبادة له فتبـدوا عليهم السـكينة والخشـوع والخضوع عند أدائها، فيخشع المصلي القانت وهو واقفٌ بين يديه، وكذلك الحاجّ والمعتمر الحق عند أداء المناسك تراه معظّمـًا ربه جَلَّجَلَالُهُ، مُقدِّراً هذه المقامات العلية للعبادات.

وتجـد التقدير منهـم والتعظيم له عنـد ورود أوامره فيسـارعون لأدائها حُبّـًا وإجلالاً لمن أمر بها .

(١) [شفاء العليل: ١/ ١٨٠]

وتجد التعظيم له عند ذكره، فيستحضرون تنزيهه عند التسبيح، وتذكّر النعم عند الحمْد، ويُكبّرونه في قلوبهم قبل التكبير والتهليل بألسنتهم وهكذا في سائر الأذكار، فيقولونها بقلوب حاضرة معْظِّمة لربها.

ويُجلّونه عند ورود النهي أو عندما تدعوهم نفوسُهم الأمّارة بالسوء بمعصيته، فيتذكّرون سطوته وقوته، وانتقامه وشدة عذابه، فيبتعدون عنها.

ويستغفرونه في كلِّ وقت وحين لعلمهم بتواتر فضله عليهم، وأنّهم لن يوفوا شكر نِعَمه، وتمام فضله إلا بحمده، وكثرة الاستغفار على تقصيرهم.

وهكذا في حياتهم كلها ترى منهم التقدير والتعظيم والإجلال لربهم فهو العليُّ القدير في نفوسهم .

ومن عرف ربه بعلُوّ القدْر لم يعظّم أحداً مثله (فهو يُنزّه قلبه أن يساكن سواه، أو يطمئن لغيره، فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان، وسجدت تحت العرش، وأبدانهم في فرشهم...) قاله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

والله هو الإله العليّ الأعلى المتعالي عن جميع النقائص والعيوب المنافية لألوهيته وربوبيته.

فهو متعالٍ في أحديته عن الشريك والمثيل والند والنظير.

ومتعالٍ عن الحاجة للظهير والمُعين والولي والنصير.

ومتعالٍ في عظمته عن الشفيع دون إذن منه.

ومتعالٍ في صمديته عن الصاحبة والولد وأن يكون له كُفُواً أحد.

---

(١) [طريق الهجرتين:٤٤٩]

ومتعالٍ في كمال حياته وقيّوميته عن السِّنَةِ والنوم والتعب.

ومتعالٍ عن العبث في خلقه وشرعه لكمال حكمته.

ومتعالٍ عن الضعف لكمال قوته.

ومتعالٍ عن ظلم العباد لكمال عدله.

ومتعالٍ عن الغفلة والنسيان والعزوب لكمال علمه.

ومتعالٍ عن ترك الخلق سدىً دون غاية أو أمر.

ومتعالٍ في كمال غناه، فهو يُطْعِمُ وَلا يُطْعَم، ويرزُق ولا يُرزَق، وهو على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء فـ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى:١١]

فكل قدْرٍ وعُلُوٍّ في كلِّ شأن، فالله متصف به، وله من ذلك الكمال أكمله وأعلاه.

وعُلُوّ الله عُلُوّاً مطلقاً، أمّا عُلُوّ غيره فعُلُوّاً ناقصاً (زمانًا، ونوعًا، وحالاً) فمن علا وارتفع في علم ما انخفض في آخر أمّا الله فعلوه مطلقاً في علمه الكامل الشامل.

ومن علا في زمن شبابه بقوته ونشاطه ضعف في شيبته أمّا الله فقوته دائمة باقية.

ومن علا في ملكه، وصارت لأوامره نفوذاً فهي مؤقتة ثمّ تضعف وتضمحل أو يُذل بعد ذلك... وهكذا في كل نوع يعلوه بشر.

فالعُلُوّ المطلق من جميع الوجوه، وفي كل الأحوال لله عَزَّوَجَلَّ دون سواه، فإنّ

الله تعالـى هو العليُّ الذي لا أعلى منه، ولا يُعلى عليه، ولا يدانيه أحدٌ من خلقه في عُلوّه.

فعُلوّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُلوّ عموم ملك وكمال سلطان، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤﴾ [سورة الشورى: ٤]

وعُلـوّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُلوّ قوة مطلقة، وقُـدرة لا نظير لها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [سورة البقرة:٢٥٥]

وعُلـوّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُلوّ نفاذ أوامـر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾ [سورة سبأ: ٢٣]

وعُلـوّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُلـوٌّ بسـعة علم، وكمـال إحاطة، قـال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾ [سورة الرعد: ٩]

وعُلـوّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحـق بيّـن، وظهور لا يخفـى، وإحسـانٍ وتدبير لا خلل فيـه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [سورة الحج: ٦٢]

وعـلا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن كلِّ عيب ونقص، فهو منـزّهٌ عن كل النقائص، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [سورة الصافات: ١٨١ - ١٨٢]

قـال ابـن كثيـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في تفسـير هـذه الآيـة: (ينزّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفسـه الكريمة، ويقدّسها ويبرئها عمّا يقوله الظالمون المكذبون المعتدون)[١].

(١) [تفسير سورة الصافات].

وله علو: (القهر)

فقد قهر جميعَ الخلائق بقوته وسلطانه، فما شاء في كونه وعلى عباده كان، لا يمانعه فيه ممانع، ومالم يشأ ولو اجتمع العالم كله لم يكن.

تجّبرت أممٌ فقهرها وأبادها، فصارت خبراً بعد عين، وأثراً بعد ذات، وتغطْرس أفرادٌ فقصم ظهورهم فصاروا أذلاء، وكانوا للناس آية، فسبحان العليّ القهّار.

والله يحب المعالي من الأمور ويكره سفسافها، فإذا عرفتَ هذا فلْتعلُ همتك ولتكن عالي الآمال والأهداف، والمقصد والغاية، ترنو للملكوت الأعلى، وتتطلّع نفسُك لِما عند الله من المنازل العالية، والخيرات الباقية، وتسمو بهمّتك فلا تلتفت للدنيا، ولا تعلّق قلبك بها، فهي لا تستحق أن تلتفت لها -فضلاً أن تكون هي أكبر الهموم- ولو أنزلنا الدنيا المنزلة اللائقة بها، ووضعنا الأمور على حقيقتها لكان حالنا غير هذا الحال.

ولتكن غايتك العظمى جنّة النعيم فهي الدار التي تستحق منّا الجهد والعمل، وكلما زادت كرامة المؤمن عند ربه كلما علا شأنه وارتفعت درجته فيها.

علّق قلبك بالعليِّ الأعلى وكن غني القلب به، عزيز النفس عن الذِلةِ للخلق، فالخير كل الخير إنّما يأتيك من ربِّ السماء، وأيقن أنّ من تُعلِّق قلبك بهم نواصيهم بيد الله،فلا يلتفت قلبك إليهم.

تذكّر أنّ أعمالك ترتفع إليه إلى الله العليّ الكريم كأحسن ما يكون، وأوفر ما يُدّخر -إذا كانت صالحة وقصدت بها وجهَه- وتسبيحاتك وذكرك له دويٌّ كدوي النحل حول عرشه تذكّر بك.

حسناتك الباقية محفوظة عنده.

إحسانك في عبادة الله، وإلى خلقه لا يضيّعه عليك.

صبرك على البلاء، وانتظارك لفرجه من أعظم أسباب رفع الضرّ والبلاء عنك.

أنينك يسمعه من فوق سبع سماوات، فهو العليم بشكواك، فأحسن الظنّ به، وأيقن بنزول رحماته إليك.

وقيل في معنى المتعالي أنّه: (الرَّفيع القدر، المُستعلِي على كلّ شيءٍ بقدْره وقوته)[1].

ومن معانيه أيضًا: (المتنزِّه عن صفات المخلوقين، المتعالي عمّا يقول المشركون)[2].

فهو قد جلّ عن إفك المفترين، وتنزّه عن وساوس المتحيّرين، فلا يبلغ معرفة حقيقة كنه ذاته أحدٌ من البشر.

كمُل في ذاته، وتم في صفاته، وعلا في أفعاله وأقداره، فتعالى عن أوهام المتوهمين، وجلّ وعز على عقول المتفكرين؛ وسبيل المؤمنين في هذا: الإيمانُ التام بكمال الله تعالى، وأنّ له كل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله، وتنزيهه عن كل صفة نقص، والاعتقاد أنّه ليس له شبيه أو مثيل أو نظير، وإثبات ما أثبته لنفسه بدون تعطيل أو تشبيه أو تمثيل أو تكييف، فإنّه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فاللهم ارزقنا معرفتك حق المعرفة، وإجلالك حق الإجلال، وتعظيمك حق التعظيم.

---

(١) [انظر تفسير سورة الرعد للطبري]

(٢) [زاد المسير: تفسير سورة الرعد]

(٣٩) الحيّ

من أسماء الله: (الحيُّ) وورد ذكره في كتاب الله خمس مرات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة:٢٥٥] وورد في السُّنّة في دعائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث)[(١)].

و﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هما الاسمان الجامعان لمعاني الأسماء الحسنى.

فاسم الحيّ: هو الجامعُ لكمال الأوصاف كالسمع والبصر والعلم والحياة وغيرها من صفات الكمال الذاتي، فحياةُ الله كاملة وهي مستلزمة لجميع صفات الكمال.

واسم القيّوم: هو الجامع لكمال الأفعال كالخلقِ والرزق والإحياء والإماتة والتدبير ونحوها من صفات الأفعال والتي اتصف بكمالها الله سبحانه.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذين الاسمين: (فهما جامعان لكمال الأوصاف والأفعال، فكمال الأوصاف في الحي، وكمال الأفعال في القيوم لأنّ معنى الحي: ذو الحياة الكاملة، ويدل على ذلك (أل) التي تفيد الاستغراق، وكمال الحياة من حيث الوجود والعدم، ومن حيث الكمال والنقص، فحياته من حيث الوجود والعدم: أزلية أبدية، لم يزل ولا يزال حيًا؛ ومن حيث الكمال والنقص: كاملة من جميع أوصاف الكمال: فعلْمه كامل؛ وقدرته كاملة؛ وسمعه، وبصره، وسائر صفاته كاملة...)[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) [تفسير آية الكرسي للشيخ ابن عثيمين]

وتأمّل كيف عرّف أهلُ السنة والجماعة اسم الله (الحيّ) لتعلم سلامة منهجهم في هذا الشأن الذي ظلت فيه أفهام، وتاهت فيه عقول، ولتوقن بصحة عقيدتهم، واتّباعهم لآثار السلف الصالح، فقالوا في معنى اسم (الحيُ) هو: (الذي له الحياةُ الكاملةُ التي لم يسبقها عدم، ولا يلحقها زوال، وهي حياة مستلزمة لكمال الصفات من: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر ونحوها من صفات الكمال)[(١)].

فهذا التعريف الكامل والشامل لصفة الحياة لله تعالى يوضح ويجلّي كمال حياة الله تعالى التي لا تشابهها حياة أحد؛ فحياة أيّ أحد في الوجود غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مسبوقة بعدم، ومُستَمَدة من غيرها، ويلحقها زوال بعد وجودها، ويعتريها نقص وعيوب كثيرة من مرض وألم ومنغصّات أمّا حياة الرحمن -جلّ وعزّ- فهي حياةٌ كاملةٌ من كل الوجوه، فله الحياة الذاتية التي لم تُستمد من مصدر آخر، وهي الحياة الباقية الدائمة التي ليس لها انقطاع ولا زوال، السالمة من كل عيب، وبذا يعرف المسلم كمال ربه من كل وجه، ونقص غيره من كل وجه، فيتعلق القلب به، ويشعر بالطمأنينة والعِزّة والكرامة وهو يعبد هذا الإله العظيم والرب الكريم.

وحياةُ الله حياةٌ أزلية وأبدية.

والأزلُّ هو: دوام الوجود في الماضي.

والأبدُّ هو: دوام الوجود في المستقبل.

فهو أوّلُ قبل شيء، وآخرُ بعد كل شيء.

---

(١) [انظر التعليق على القواعد المثلى للشيخ عبدالرحمن البراك:١٩]

ولكمال حياته وقيّوميته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدبّر أمر الخلائق في العالم العلوي، والعالم السفلي، ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض، يُحيي ويُميت، ويُعزّ ويُذل، ويُثيب ويُعاقب، وينصر ويخذل.

يخلق في كل لحظة ما لا يحصى من نبات وحيوان وإنسان، ويتكفّل بتدبير معاشهم، ويقدّر لهم أقواتهم، ويسوق إليهم أرزاقهم، وتحت أمره بقاؤهم وفناؤهم، وفي كل لحظة يموت بأمر الله ما لا يحصى من الأحياء، فسبحانه كل يوم هو في شأن.

وحياتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يعتريها نقصٌ من سِنة أو نوم أو تعب أومرض ونحوها من صفات النقص، وتأمّل معي هذا الحديث قال أبو مُوسَى الأَشْعَرِيّ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعٍ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَرْفَعُ الْقِسْطَ [وهو العدل] وَيَخْفِضُهُ، وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ»[1].

كيف ينام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتدبير العالم بيده؟!

وكيف ينام وأمر الكون تحت سلطانه؟!

وكيف ينام وملكوت كلِّ شيء تحت إرادته؟!

وكيف يُتصوَّرُ جريانُ النوم عليه، ولا قيامَ للسماواتِ والأرضِ إلا به، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر: ٤١]

(والحيُّ) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو واهب الحياة للخلق، فالحياةُ لا يملكها أحد غير واهبها، ولا يسلبها أحد غير معطيها.

---

(١) رواه مسلم.

والحيـاةُ سِـرٌ لا يعلمه إلا الله، فلا يملـك أحدٌ أن يُحدثها في غيره، فسـبحان الذي: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [الحديد:٢]

وقـد ذكر الله اسـم (الحـيّ) في موطنين من كتابـه وذلك بعدما ذكـر ألوهيته واسـتحقاقه للعبـادة، فلا يكون الإله الحق إلا حيًّا كامـل الصفات، لا يموت ولا يغيـب وإلا فلا يسـتحق أن يكـون إلهـًا، ولذا أنكر سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ علـى من عبد غيره مـن الآلهة الصمّ التي لا تعقل ولا تسـمع ولا ترى، فقال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف١٩٤-١٩٥]

ولو فكّر الكافر والمشرك -أدنى تفكير- لأيقين أنّ الذي يفعله من عبادة هذه الآلهة سـفه ليس بعده سفه، وضلال ليس أسوأ منه ضلال، فالعبادة هي غاية الذل والطاعة والاسـتجابة للمعبود، وهذه الآلهة لا تسـتحق شيئًا من ذلك، وهي أدنى مِن أن يُتوجه لها، وأحقر مِن أن تُعبد، فأيُّ سـفاهة أعظم من سـفاهة من يعبد من كان غائبـًا ثم يكون غير موجود، وهـو ضعيف وحقير ذليل محتاج لغيره؛ إنّ هذا لهـو الضلال المبين، ولذا قال تَعَالَـىٰ -في تقرير هذه الحقيقة: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]

- واللهُ هـو الحـي الباقـي الدائم الذي لا يمـوت، ولا يلحقه فنـاء، فالجنُّ والإنس يموتون، وكل شـيء هالك إلا وجهه، ولا يسـتحق أحد أن يُؤلَّه ويُعبَـدَ ويُحـبَ الحبّ المطلـق إلا الله، فهو الباقـي سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الوارث للأرض ومن عليها، وإذا كان ما سـواه هالـكـًا فعبادة الهالك باطلة، قال

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص: ٨٨]

- التوكل عبادة قلبية محضة لا يصلح إلا أن تكون لمن اتصف بصفة الحياة الكاملة -وهو: (الله) فإنّه هو الحافظُ وغيره محفوظ، وهو الرازقُ وغيره مرزوق -يرزق عبده من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب- أكفى عباده كل همّ، وحماهم من كل شر بلطفه ورعايته، فلذا جاء الأمر بالتوكل عليه دون سواه، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٨]

- واسم (الْحَيُّ القيوم) قال عنه جمعٌ من أهل العلم هو: اسمُ الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، وينبغي أن يستحضر معه الداعي كمال حياة الله وكمال صفاته، فالحيُّ سميع وبصير، والحيُّ قريب ومجيب، والحيُّ لطيف ومحيط، والحيُّ قادر وأمره نافذ، فاستحضار هذه المعاني في القلب وأنت تسأل الله من أعظم أسباب حضور القلب، ومن أرجى أسباب الإجابة.

- ستُبعث كل الخليقة يوم القيامة، وتخضع وتذل بين يدي الحي القيوم.

استحضر مشهد تلك الجموع وهي تزحف لأرض المحشر وقد خرجت من قبورها وعليها الذلة والخضوع لرب العالمين، وقد بان استسلام الخلائق للجبّار القادر، وعنت الوجوه للإله القاهر، وذل له كل عزيز، وسيق الجميع حيث شاء الله العظيم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [طه: ١١١] فسبحان الله القوي العزيز الذي جمعهم وأحاط بهم.

- ومن كمال ربنا (الحَيّ) أنّه يَهبُ أهلَ الجَنَّةِ الحياةَ الدائمةَ الباقيةَ التي لا تفنى ولا تبيدُ، ولا مثيل لها في الدنيا، قال سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤] (أَيْ: الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ الْحَقُّ الَّتِي لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْقِضَاءَ، بَلْ هِيَ مُسْتَمِرَّةٌ أَبَدَ الْآبَادِ)(١).

ويقفُ المرء -والله- متعجباً في تعجّب لا ينتهي، وتفكير لا يمكن تصوّره، وهو يتذكر حياة أهل الجنّة والنار، والخلود الذي لا انتهاء له ولا انقضاء، وربما زال عجبه بعض الشيء عندما يؤمن أنّ الواهب لهذه الحياة هو الله الحيّ القيوم القادر على كل شيء، الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يناجي ربَه بهذا الاسم العظيم، فقد روى مسلمٌ عن ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُول: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ؛ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَاإِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»(٢).

وهنا تنبيه مهم، وهو: أنّ حياة أهل الجنّة والنّار دائمةٌ بإدامة اللهِ لها، لا أنَّ الدوامَ وَصْفٌ لازمٌ لها لذاتِها، بخلافِ حياةِ الرَّبِّ تعَالَى فحياته صفة ذاتية له، كما هو في سائر صفاتِهِ، فصفاتُ الخالقِ كما يَليقُ به، وصفاتُ المخلوقِ كما يليق به، وكل حي سوى (الحَيّ سبحانه) ليست حياته بذاته، إنما هو بسبب إمداد الله له بالحياة.

فاللهم يا حي يا قيوم نسألك الفقه في أسمائك، اللهم إنّا نسألك الحياة الطيبة والنعيم الذي لا يحول ولا يزول في جنات الخلود.

---

(١) [تفسير سورة العنكبوت ابن كثير]

(٢) رواه مسلم.

(٤٠) القيّوم

ومن أسماء الله: القيّوم، وورد هذا الاسم ثلاث مرات في كتاب الله، منها قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١ ﴾ [طه:١١١]

وهو: القائمُ بنفسه لكمال غناه، فلا يحتاج في قيامه لأحد، والمقيم لغيره، فلا قيام لأحدٍ إلا به.

قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ... ﴾ [الرعد:٣٣]

قال ابن جرير: (القيّم بحفظ كلّ شيءٍ ورزقه، وتصريفه فيما شاء وأحبّ، مِنْ تغييرٍ وتبديل، وزيادة ونقص)(١).

قال القرطبي: ((القيّوم) أي: القائم بتدبير أمر ما خلق)(٢).

وهو: (القائم الذي لا يزول) (والقيّم على كلِّ شيء بالرعاية له) قالهما الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣).

قال ابن القيم: (وأمّا (القيّوم) فهو: متضمن كمال غناه، وكمال قدرته فإنّه القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يُقيمه بوجه من الوجوه وهذا من كمال غناه بنفسه عمّا سواه، وهو المُقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته وهذا من كمال قدرته وعزته)(٤).

---

(١) [تفسير آية ٢ سورة آل عمران للإمام الطبري]

(٢) [تفسير القرطبي]

(٣) [شأن الدعاء:٤٥]

(٤) [بدائع الفوائد:٢/ ٤١٠]

قد تولّى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمور العباد في معاشهم، ودفع الشرور عنهم، فكل من في الوجود محتاج لرعايته وحفظه ورزقه، ولا يُتصوّر قيام شيء ولا وجوده ولا دوامه إلا به.

ويعظم إيمانك بالله وأنت تتأمّل هذه الصفة الجليلة له وقيامه على مخلوقاته وهم بهذه الأعداد الهائلة.

أنشأهم من عدم، وخلقهم في أحسن تقويم، وأمدهم بما يحتاجونه وبما تقوم بها حياتهم، فالخلق لا تنفك حاجتهم للطعام والشراب والزوجة والولد ويحتاجون للطبيب والصانع ونحوهم فأمدهم الله بهذا ونحوه وأنعم عليهم به وتفضّل بتسخيره.

- قام على كل نفس فأمدّها بالصحة والعافية، وصرف عنها ما يُعكّر عليها صفو حياتها، وقام على نفوس المرضى فجعل فيها الصبر والرضا، ورزقها العافية بعد المرض.
- وقام على كل نفس فعلّمها ما ينفعها، فهذا علّمه علم الشريعة، وذاك علّمه علم الطب، وثالث علّمه علم الصناعة وهكذا في رعاية تامة للخلق ليكتمل أمر الكون.
- وقام على كل نفس فجعل في قلبها الرحمة، وأسكن في قلبها العطف، وجعل في حياتها الرفق، فقامت على ذلك ساق الحياة على أكمل ما يكون، واستقرت شؤون الأسر كأحسن ما ترى.
- وقام على النفوس فهداها، ووفقها واجتباها، وحبّب إليها الإيمان وزيّنه في قلوب أوليائه، حماها من الفتن، ودفع عنها الشرور في رعاية تامة، وحفظ كريم.

- وقـام على أحوال أهل القبور فحفـظ آثارهم، وحفظ أعمالهم فلا يضيّع منها شـيء، ومهما امتدّ بقاء الأموات في قبورهم فربهم قائم عليهم وهو بهم خبير.
- ويقوم على النفوس يوم القيامة فلا يفوته أحد، فيحاسـبهم على القطمير والنقيـر وما دون ذلك، فهو قائم على كل نفس ومجازيها بعملها لكمال علمه، وقدرته على جزائها.
- ويقـوم على أهل الجنة فيمدهم بالنعم التـي لا انقطاع لها ولا انتهاء ولا زوال، فسبحانه من إله عظيم قيّوم كامل الملك والصفات.
- تأمّل كيف قام على أمر كونه، فقامت بأمره السـماوات ولا يستطيع أحدٌ في الوجود إقامتها سـواه، وقام على أمر الأرض وما فيها من جبال وأنهار ورياح، قـال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ...﴾ [الروم:٢٥]

وقـام علـى أمر البحـار فجعلها مسـتقرة هادئـة، ولو أذن لهـا لأغرقت أهل الأرض، وتذكّر تغيّر أحوالها أهوال يوم القيامة لتوقن بعظمة الله وقدرته.

- إن قيّومية الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على هذا الكون وما فيه من كائنات جعلته يسير بهـذا النظام المتقن، والترتيب الدقيق، فالأفلاك تدور في مدار محدد منذ خلقهـا الله وإلـى يوم القيامة لا تحيد عنـه ولا تميد، قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: ٤٠]
- وقيّوميته عَزَّوَجَلَّ مسـتمرة دائمة باقيـة؛ فكما أنّه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ حي لا يموت

فهو جَلَّجَلَالُهُ لا تنقطع قيوميّته ولا تنتهي، ولا يغفل عن مخلوقاته طرفة عين، وما استقام أمر الكون إلا بقيوميّته.

- وقيام الدنيا والآخرة على العدل والقسط فلا تظنّ أنّ قضاءه بلا حكمة، أو أنّ أمر تدبير شؤون العباد بدون علم، فهذا من الجهل العظيم بالله.
- وهذان الاسمان الكريمان: (الحيُّ والقيوم) لهما الشأن الأجلّ والمكانة العظمى في تحصيل كلِّ خير، ودفع كلِّ شر، وقد علّم رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمتَه أن يتوسلوا إلى ربهم ويسألوه بهما كل صباح ومساء، فالدعاء بهما من أسباب الحفظ والرعاية، فعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال لفاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: «ما يمنعُك أن تسمَعي ما أُوصيكِ به؟ أن تقولي إذا أصبحْتِ و إذا أمسَيتِ: يا حيُّ يا قيُّومُ برحمتِك أستغيثُ، أَصلِحْ لي شأني كلَّه، و لا تَكِلْني إلى نفسي طرفةَ عَيْنٍ»[(١)].

وجعل صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الاستغفار والتوسل باسم الحي القيوم من أسباب المغفرة، ففي حديث بِلاَل بن يَسَارِ بن زَيْدٍ مَوْلَى النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قال: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُنِيهِ عن جَدِّي أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ قالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ له وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْف»[(٢)].

ولأنّ الحياة لا تنفك من المصاعب، ولن تكون كلها كما يريد العبدُ، بل لا بد فيها من آلام ومنغصات، ويلقى المرء فيها ابتلاءات، وتمرُّ به كربات -فهذه سُنّة الله التي جرت بها الأقلام- وليس للعبد المؤمن في ذلك كله إلا الالتجاء إلى

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى

(٢) رواه أبوداود.

ربه العظيم القدير، والتوكل على الله وحده، والاعتماد عليه في كل نازلة وعند كل أمر، فهو قد أيقن بقيوميّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلم يفتقر لأحدٍ سواه، وقطع التعلّق بالمخلوقين، وله التدبير وحده لا شريك له، فعلّمنا نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كيف نستغيث بالله عند المُلّمات بهذين الاسمين الشريفين، فعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان سول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نزل به همّ أو غمّ قال: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»[1].

فهذه بعض معاني اسم الله (القيّوم) وبعض آثاره، فافقه هذه المعاني وتعبّد لله به، فهو اسمٌ عظيم قد جعله طائفة من أهل العلم -كما تقدّم- مع اسم الله (الحيّ) الاسم الأعظم لله الذي تكون به إجابة الدعاء؛ فادعُ ربك به، وألظّ به في مسألتك، وتوسّل به فهو من أعظم أسباب الإجابة.

اللهم يا حي يا قيّوم برحمتك نستغيث أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، اللهم ارض عنّا وأغننا بفضلك عمّن سواك.

❊❊❊

---

(١) رواه الحاكم

(٤١) الأوّلُ

ومن أسماء الله الثابتة في الكتاب والسُنّة اسم: (الأوّل).

وجاء ذكره في كتاب الله مرة واحدة فقط، في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ [الحديد:٣]

وأعظم من عرّف الأمّة معنى هذا الاسم هو رسولُها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حيث قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الأوّلُ فليسَ قَبْلَكَ شيءٌ..»(١).

وأوّلِيَّتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بلا ابتداء، وآخريته بِلا انتهاء.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كان الله ولم يكن شيءٌ غيرُه»(٢) وفي رواية: «ولم يكن شيءٌ قبله»(٣).

فالله له الأولية المطلقة، والعظمة التي لا منتهى لها، جمع كل كمال، وباين خلقه بصفات لا مثيل ولا نظير ولا شبيه لها، فهو أوّل قبل كل شيء، وآخر بعد كل شيء، وظاهر فلا شيء فوقه، وباطن فلا شيء دونه، وهي صفات لا تجتمع إلا له عَزَّوَجَلَّ.

ولعلنا نتفيء ظلال هذا الاسم الشريف.

قال ابن جرير: (هو (الأول) قبل كل شيء بغير حد، و(الآخر) بعد كل

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.

شـيء بغيـر نهاية، وإنمـا قيل ذلك كذلك، لأنه كان ولا شـيء موجوداً سـواه، وهو كائن بعد فناء الأشياء كلها، كما قال جل ثناؤه ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: آية ٨٨])[1].

وقال البيهقي: (الأوّلُ) هو: (الذي لا ابتداء لوجوده)[2].

وقال الخطابي: ((الأوّلُ) هو: السابق للأشياء كلها، الكائن الذي لم يزل قبل وجود الخلق، فاستحق الأوّلية إذ كان موجوداً ولا شيء قبله ولا معه)[3].

وقال ابن القيم: (فأوليَّة الله سـابقة على أوليَّةِ كل ما سـواه، وآخريَّته ثابتةٌ بعد آخرِيَّة كلِّ ما سواه، فأوّليَّتُه سَبْقُه لكل شيء، وآخريَّتُه بقاؤه بعد كلِّ شيء)[4].

فكل موجود في الكون له أوليّة يسبقها عدم، وله فناء ينتهي به إلا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فأوليّته أزلية، وآخريّته أبدية، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ٤٢﴾ [النجم:٤٢]

قال ابن أبي العز في شـرح الطحاوية: (والعلم بثبوت هذين الوصفين -الأوّل والآخـر- مسـتقرٌّ في الفطر، فإنّ الموجـودات لا بد أن تنتهي إلـى واجب الوجود لذاته قطعًا للتسلسل)[5].

واسـم الله: (الأوّل) يـدلُّ باللـزوم على الحيـاة والقيوميّة، والسـمع والبصر والعلم، والمشـيئة والقـدرة والعلو والغنـى والعظمة، فمن فقه هـذا المعنى حاز علمًا كبيراً يُعرّفه بربه.

---

(١) [تفسير سورة الحديد]
(٢) [الاعتقاد:٦٣]
(٣) [شأن الدعاء:٨٧]
(٤) [طريق الهجرتين:٢٤]
(٥) [شرح الطحاوية:٧٥]

وأوليّةُ الله المطلقة تدلّ على تقدّمه على غيره تقدّمًا مطلقًا في كل وصف كمال، وهذا معنى الكمال في الذات والصفات في مقابل العجز والقصور لغيره من المخلوقات، فلا يدانيه ولا يساويه أحد من خلقه لأنّه سبحانَه منفردٌ بذاته ووصفه وفعله، فالأوّلية وصف لله وحده وليست لأحدٍ سواه.

وهو الأوّل والآخر الذي أحاطت أوّليته وآخريته بالأوائل والأواخر، فما من أوّل إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده، فالأوّل قِدمه، والآخر دوامُه وبقاؤه؛ فسَبَق كل شيء بأوليّته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، فهو الأوّل في آخريته، والآخر في أوليّته، فلم يكتسب وصفًا كان مفقوداً أو كمالاً لم يكن موجوداً كما هو حال غيره، بل كماله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أزلي وبقاؤُه أبدي[١].

ومن عرف الله بهذا الوصف أسند له كل فضل هو فيه، واعترف بكل مِنّة يعيشها، فاللهُ هو المبتدئ بالنعم بلا سبب ولا وسيلة، فكلُّ نعمة ابتداؤها من الله، وكل إحسان أساسه من الله، فلله الفضل في إسلامك حيث اصطفاك له وأنت في عالم الذر، وفي القضاء الأوّل عنده، وهذا أوّل فضل وأعظمه عليك.

وله الأوّليّة في الحفظ حين خلقك نطفة، وحفظك وأنت في بطن أمّك تتقلّب في ظلمات ثلاث حتى خرجت للدنيا، ولم يزل حفظه لك حتى تلقاه.

وله الأوّليّة في الرعاية لك في طفولتك، والإحسان إليك برزقك، وتحنين والديك عليك، وجعل في قلوبهم المحبة لك.

وله الأوّليّة في بدأ التعليم، والهداية لمصالحك الدنيوية والتوفيق لكل خير ودفع الشرور عنك.

---

(١) [طريق الهجرتين:٢٤]

ولـه الأوّليّة في الرزق، فكم من خلقٍ هم أشـدُّ منك قـوة، وأذكى منك عقلاً، وأكثر منك نشاطًا إلا أنّ الله جعل رزقك أكثر منهم، وخصّك بالخيرات دونهم.

فالأوّليّـة في كل نعمـة أنت فيهـا إنّما هي من الله، ولو اجتمـع الخلق على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد تفضّل به عليك وكتبه.

إذا عرفـتَ هذا فعليـك بالاعتراف بفضل الله عليك، وليمتلئ القلبُ شـكراً وعرفانًا له.

ومـن كان هـذا شـأنه حقيقٌ علـى النفوس ألا تتعلـق بأحدٍ غيره، وأن يُسـند الفضل له وحده.

ولكمـال غناه لم يحتـج في أوليّته لأحد، فهو غنيٌ في بقائـه عن كلِّ أحد، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿... وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥]

والمعرفة بهذه المعاني لاسم -الأوّل- لها آثار على النفس، فمن آثارها:

اكتسـابك الهمّـة العالية في محبة الأوّلية في الخير، والأسـبقية في التزام الأمر، والحـرص علـى المزيد مـن العمل الصالح، قـال تعالى في وصف سـادة الخلق: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنـون:٦١] وقـال عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠]

وعليك بتقديم محبة الله على كلِّ محبة، فما أحسـن إليك أحد كإحسـان الله إليك، وإحسـانه شـامل للأوّلية والفضل والإسـباغ والإتمام، وكل إحسان يصلُ إليك من البشر فأصْلُه من الله فهو الذي حنّن قلوبهم عليك، وسخرهم لك.

ومن آثارها: سمو مطالبك بأن تكون عالية ترنو بها للمراتب السامية ببذل الأسباب لبلوغها، وهذه لا تُنال إلا بطاعته، ولزوم عتبة العبودية، والانطراح الصادق بين يديه وسؤاله بإخلاص وفقر.

ومن آثارها: معرفة ما يستحق أن يُؤثر على غيره، والتي من أهمها: إيثار مرضاته على مرضاة كل أحد، وحقه على جميع الحقوق، وتقديم محبته على كلِّ محبوب، ومنها: معرفة حقيقة الدنيا والآخرة، فمن عرفهما آثر الآخرة الباقية على الدنيا الفانية، وآثر مراضيه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على مراضي غيره، فهذا الإيثار هو شأن العقلاء الذين لم يغتروا بدار الغرور بل كان همّهم الآخرة ونعيمها فعملوا لها.

فاللهم فقهّنا بأسمائك وصفاتك، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تُؤْثر علينا، وأرضنا وارض عنّا، اللهم أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء اقض عنّا الدين وأغننا من الفقر.

❊❊❊

(٤٢) الآخر

وجـاء ذكره في كتـاب الله مرة واحدة، وكان من ثناء رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ربه: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، والآخر فليس بعدك شيء»(١).

فالله (هو: «الآخر» بعد كلِّ شيء بغير نهاية..وهو الكائن بعد فناء الأشياء كلها)(٢).

وهو (الآخر) (الباقي بعد فناء الخلق)(٣).

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: آية ٨٨]

قال البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ: (الآخر: هو الذي لا انتهاء لوجوده)(٤).

ومـا أجمل كلمة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (سـبق كل شـيء بأوليّتـه، وبقي بعد كل شيء بآخريته)(٥).

فأوليّته لا ابتداء لها، وبقاؤه بقاءً واجبًا سرمديًا لا انتهاء له.

والله هو (الآخر): الذي ترجع إليه الأمور والحاجات والمطالب.

خلق الخلْق فأحصاهم عدداً، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً، لا يسبقه أحد، ولا يتخلّـف عن أمره مخلـوق، وبين يديه اجتماعهم كما بدأ خلقـه أوّل مرة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ٨﴾ [سورة العلق: ٨]

---

(١) رواه مسلم.
(٢) [تفسير الطبري:٢٧/ ١٢٤]
(٣) [شأن الدعاء:٨٨]
(٤) [الاعتقاد:٦٣]
(٥) [مدارج السالكين:٣/ ١١٣]

فهو الذي إليه المآب، وتنتهي إليه العلوم والأقضية، وكل أمور الدنيا والآخرة تعـود إليه، في عظمـةٍ لا منتهى لها، وقـوةٍ في القدرة على ذلك قـد بلغت أقصاها، وإحاطةٍ قد شملت كل شيء، وأتت على كل حي.

وهـو الذي جعل لأهل الجنّة الدوام والبقاء، وهذا من العطاء الذي لا يدركه الشكر، ولذا كان تسبيح أهل الجنّة الحمد.

- من آمن بربه (الآخر) تعلّق قلبُه به، فأيقن أنّ الأمور كلها إليه، وبيده مقاليد كل شيء، وخزائن كل شيء في ملْكه، فكل الأمنيّات والمطالب لا يهبها إلا الله، ولئن فاته شـيءٌ ممّا يُحب فإنّه يُؤمّلُ من ربه العِوض، فمآلات الأمور كلها إليه، ورحمته قد سبقت غضبه -وهي أوسع ممّا يظنّ الظانّون- فآمن -يا عبدالله- بالتيسير بعد العسر، والفرج بعد الكرب، والسعة بعد الضيق، فهو الذي قضى أنّ مع العسر يسراً، وأنّ الشدة يعقبها انفراج.
- ومن آمن بربه (الآخر) -حق الإيمان- لم يتعلّق بالأسـباب الظاهرة ولم يركن إليها، بل يكون تعلّقه بربه الذي بيده إمضاء الأسباب أو إبطالها.

ركن قومُ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى النّار فكان سعيهم خائبًا، وكانت إرادة الله وأمره فوق إرادتهم، وكيده أعظم من كيدهم لأنّ الله هو الآمر الناهي.

وركن أصحابُ موسـى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى الأسـباب الظاهـرة فأيقنوا بإدراك العدوّ وخافوا الغرق، ولكنّ موسـى -النبيُّ العالم بصفات ربه- وأنّ كلَّ الأمور ترجع إليه أيقن بالنجاة، وحصول الفرج، وأنّ ربه سـيهديه، ففلق الله له البحر، فكان كل فِرق طريق كالطود العظيم.

وظنّ أعداءُ نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّهم هالكوه، فنجّاه منهم وأغشى أعينهم فهم لا يُبصرون، فحفْظه لأوليائه بسبب وبدون سبب، يقول ابن القيم: (وعبوديته باسمه الآخر تقتضي عدم ركون العبد، ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنّها تنعدم لا محالة وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم الباقي بعدها، فالتعلّق بها تعلّق بعدم وينقضي، والتعلّق بالآخر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تعلّق بالحي الذي لا يموت ولا يزول)[(١)].

- و المؤمنُ المُخلصُ لربه لا يتوجّه بالعمل إلا لربه الآخر، فالأعمال والنوايا لا تُصرف إلا له لأنّه هو الباقي، فاللهُ أنيسُ المخلِصين، وهو المقصد في طلب الثواب للعابدين، فلا غاية للصادق إلا رضاه -فكما انتهت إليه الأواخر، وكان هو بعد كل آخر- فكذلك اجعل نهايتك إليه، فهو المستحق للعبادة، وهو الأوفى في الإثابة.

وقال السعدي: ((والآخر): يدل على أنه هو الغاية، والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بتألهها ورغبتها، ورهبتها وجميع مطالبها)[(٢)].

- ومن آمن بربه (الآخر) جعله المرجع والمنتهى في الحبِّ والتعظيم والإجلال، فلا يُعظِّم أحداً كتعظيم ربه، ولا يُجلُّ أحداً كإجلال خالقه، ولا يُحبُّ أحداً كحب مولاه -فهو صاحب الفضل عليه- فقد أيقن هذا المؤمن أنّ ربه قد بلغ الغاية في العظمة فعظّمه -وعسى أن يُقارب- وأيقن بفضله عليه في كل شيء فأحبّه حبّاً عظيماً، وامتلأ قلبُه شوقاً إلى لقائه، وهذا أنفع أمر للقلوب، وحاجتها له فوق كلِّ حاجة.

---

(١) [طريق الهجرتين:٢٥]

(٢) [الحق الواضح المبين:٢٥]

ولقد كان نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يناجي ربَه بأذكار عظيمات، ويختم يومه بدعوات جامعـات تتضمن اعترافـه بربوبية ربه للسـموات والأرض، وملكه لكلِّ شـيء، ويُثنـي عليه بأوليّته التـي لا ابتداء لها، وآخريته التي لا انتهـاء لها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كانَ رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُنَا إِذَا أَخذ أحدُنا مضجعه أَنْ يقولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّـموَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيم، رَبَّنَا وَرَبَّ كلِّ شـيءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بكَ مِن شَرِّ كُلِّ شيءٍ أَنْتَ آخِذٌ بنَاصِيَتِه، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فليسَ قَبْلَكَ شـيءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فليسَ بَعْدَكَ شـيءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فليسَ فَوْقَكَ شـيءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فليسَ دُونَكَ شيءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ»[1].

فمعرفة اسـمه الآخر موجـب للتوجّه إليه، وتفويض الأمـور إليه، وإخلاص الحبّ والقصد له والثقة به.

فاللهم ارزقنا حُسن التعبّد لك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى كما ينبغي لجلال ووجهك وعظيم سلطانك.

***

(١) رواه مسلم.

(٤٣) الظاهر

من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ (الظاهر).

وجاء ذكره في كتاب الله مرة واحدة، وأعلم من فسّره رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقكَ شيء..»[١].

فهو: (الظاهر على كل شيء، وهو العالي فوق كلِّ شيء، فلا شيء أعلى منه)[٢].

فهو ظاهرٌ عالٍ على كل شيء، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن لوازم اسمه (الظاهر) أن لا يكون فوقه شيء)[٣].

فاللهُ عالٍ على خلقه بذاته، مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله لا نمثّله ولا نكيّفه، ولا نعطله، ولا نشبهه، ظهوراً لا يخفى معه عليه شيء من أمور خلقه، يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض، قد آمن المؤمن بهذا إيمانًا مطلقًا، فتوجَّه إليه بكليّته، وجمعَ قلبه عليه، وصار له إلاهًا يتوجّه إليه، وربًا يقصده في عبادته، وصمداً يصمد إليه في حوائجه، وملجأً يلجأ إليه في دعواته، ويفرّ إليه كل وقت، فاستقامت له عبوديته، ولم يعلّق قلبَه بسواه؛ بخلاف من لا يدري أين ربه فإنّه ضائع مشتت القلب، فليس لقَلبِه قِبْلَةٌ يتوجّه إليها، ولا معبود يقصده فصار في دياجير الظلمات.

---

(١) رواه مسلم

(٢) [تفسير سورة الحديد للطبري]

(٣) [مدارج السالكين:١/ ٣١]

ومن معاني (الظاهر): (أنّه القاهرُ الغالب)[1].

فاللهُ قد غلب كل معاند، وقصم كل جبّار ظالم، فهو ربٌّ قديرٌ قاهر، وظهوره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ظهوراً عامـًا ،وغلبته غلبة كاملة.

ومن معاني (الظاهر): (أنّه الظاهر بحججه الباهرة، وبراهينه النيّرة، وبشواهد أعلامه الدالة على ثبوت ربوبيته، وصحة وحدانيته)[2].

فأظهر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وجوده بالأدلة العقلية والكونية، وما فطر النفوس على وحدانيته والاعتراف به، وخلق كل الكائنات والموجودات لتظهر آثار قدرته فيها.

أبان بحججه الواضحة على كماله المطلق، واستحقاقه للعبادة دون سواه، فهو الخالق الرازق المحيي المميت، له كمال السمع والبصر وسائر الصفات بخلاف الآلهة التي تُعبدُ من دون الله فهي ناقصة من كل وجه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾

[سبأ:٢٢-٢٣]

فمن كان له الكمال المطلق استحق العبادة الخالصة، واستحق التعظيم المطلق، والحبّ المطلق، والإجلال المطلق، وتوجّهت القلوب له بكليّتها، وأذعنت له النفوس وذلت بين يديه.

- أقام الحجج الواضحة على صدق رسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بتأييدهم ونصرتهم

(١) [انظر تفسير سورة الحديد للبغوي].

(٢) [انظر زاد المسير لابن الجوزي/ تفسير سورة الحديد]

على أعدائهم، فصار دين رسله ظاهراً، وغلبتهم على أعدائهم قاهرة.

- وأقام الحجج بظهور أوليائه الصالحين على أعدائهم، فمن قرأ التاريخ رأى كيف نصر الله أئمة الهدى على من عاداهم وكاد لهم، فصار ذكرهم حسنًا بين العالمين، وأظهر الحق الذي قالوا به، وما خبر نصرة إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل ونصرة شيخ الإسلام وظهور الحق الذي ناصروه عن دارس التاريخ ببعيد.

- وأظهر الحق في النفوس، فتجد المرءَ يشعر بأنّ هذا حق، ويرى الظالم بأنّ ما عليه ظلماً وجوراً ولكنّه يستكبر ويستنكف، ولذا قضى الله على الكافرين والظالمين بالعذاب لظهور الحق في أنفسهم ولكنّهم جحدوه فاستحقوا العذاب، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة النمل: ١٤] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مسليًا نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمّن كذّبوه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام،٣٣]

وكل ذلك من معاني وآثار اسمه: (الظاهر).

فمن أعطى هذا الاسم حقه، وتفقه فيه، وعرف أسراره، وجد حلاوة الإيمان، وعظّم الله حق التعظيم، فيا لله كم جهلت النفوس حقيقته وكم فاتها من معانيه.

فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وارنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

❊❊❊

(٤٤) الباطنُ

ومن أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اسم: (الباطن)

وجاء ذكره في كتاب الله مرة واحدة، وأعلم من فسّره وبيّن معناه –كما تقدّم باسم الظاهر– هو رسولُ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «وأنت الباطنُ فليسَ دونكَ شيء...»[(١)].

فهو الباطن القريب، قال ابنُ جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في تعريفه: (وهو: الباطن لجميع الأشياء فلا شيء أقرب إلى شيء منه)[(٢)].

ولا أخفيك – أيّها القارئ الكريم– أنّي وقفتُ كثيراً أمام هذا التعريف لابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ لمعنى هذه الصفة، أُعيدُ قراءته لأرى بلاغته؛ فتأمّله وكرِّر قراءته لترى عمق معناه.

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (أقرب إلى كلِّ شيء من كلِّ شيء) فهل يخفى على من كان هذا شأنه أيّ شيء؟!

ومع قربه هذا فهو عالٍ على عرشه، بائن من خلقه لا تواري منه سماء سماء، ولا أرض أرضًا.

وعندما تجتمع هذه الصفات العظيمة في وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم العبدُ حينها عظمة الله المطلقة، فهو قريبٌ في علوه، وعليٌ في دنوّه، وأوّل قبل كل شيء،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) [تفسير سورة ق للطبري]

وآخر بعد كل شيء، واجتماع هذه الصفات فيه (وإن لم يتصف بها غيره فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا وهذا كما يعجز أن يكون هو الأول والآخر والظاهر والباطن) قاله شيخ الاسلام[(١)].

فإذا علم المؤمن هذا أيقن حينها أنّه عاجزٌ عن إدراك كنه هذه الصفات، فسلِم من الوقوع في المحذور من ردٍّ أو إنكار صفةٍ ثابتةٍ لله، أو تكييفها بعقله، أو تمثيلها بشيء، أو تشبيهها، فالله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ويطمئنّ القلب مع التسليم فإنّه كما قرر علماء الملة في أنّه: (لا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام)[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها أن يُوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تحريف، ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، فإنه قد عُلِم بالشرع مع العقل أنّ الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله)[(٣)].

وقيل في معنى الباطن: العارف ببواطن الأمور وظواهرها.

(فهو سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ المطّلع على السرائر والضمائر والخبايا والخفيات، ودقائق الأشياء) قاله ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)].

وقيل في معنى الباطن: (هو: المحتجبُ عن خلقه، فلا يُرى في الدنيا، ولا يُدرك

(١) [مجموع الفتاوى:١٦/ ٤٢٤].
(٢) [انظر العقيدة الطحاوية: ١٣٧]
(٣) [شرح العقيدة الأصفهانية:٤١]
(٤) [تفسير الأسماء الحسنى:٧١].

في الآخرة)[1]. فلئن كان المؤمنون يرون ربهم في الآخرة إلا أنّهم لا يُدركون حقيقته، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعظم وأجلّ من أن يُحيط به أحد[2].

والإيمان باسم الله (الباطن) يدلُّ على قربه وهو أنواع، فمنه القرب العام بعلمه وإحاطته.

وهناك قرب خاصٌّ خصّ اللهُ به عابديه وسائليه، وهو ثمرة من ثمار التعبّد باسمه (الباطن) وهو: قرب الحفظ والرعاية وتحقيق المطالب، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فَهَذَا قُرْبُهُ مِنْ دَاعِيهِ وسائله.

وهناك قرب لأهل المقامات العالية، وهو: قرب النصر والتأييد والمعونة يناله أهل العبادات التي يُحبها الله كالإحسان، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف:٥٦] ومثلهم التائبين والمستغفرين، قال تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ [هود:٦١] ونحوهم من أهل المقامات العالية في الدين.

ومن القرب الخاص: قربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الساجدين، ففي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[3].

وهو كذلك قريب من أهل الخلوة به في جوف الليل، يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»[4].

---

(١) [موسوعة فقه القلوب للتويجري:٢٧٥]

(٢) [انظر شرح العقيدة الطحاوية للشيخ عبدالرحمن البراك:١١٢-١١٨]

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

فهذا قرب خَاصٌّ غَيْر قُرْب الإحَاطَة وقُرْبِ البُطُون.

والإيمان باسم الله (الباطن): يستشعر معه المؤمن معية الله له، وحفظه ورعايته له وعنايته به ما يُسكب معه في القلب الطمأنينة والراحة والأمان في حياته كلها.

والإيمــان باسـم الله (الباطن): يحقـق معه العبد مراقبة الله لـه في كل حركاته وسكناته، مما يورث خشية الله وتقواه في السر والعلن، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]

فسـبحان ربنا العظيم الذي له الصفات العلى والأسماء الحسنى، وتعالى عن الشريك والمثيل والنظير والشبيه.

ويـا سـعادة عبد عرف ربه، وآمـن بكماله وجلاله، وركن إليـه، وأحبه وعلم حقه.

فاللهـم ارزقنا معرفتك حـق المعرفة، وإجلالك وإجلال أمـرك ونهيك كما ينبغي، ومتعّنا بطاعتك يا أرحم الراحمين.

❊❊❊

(٤٥ ، ٤٦) القُدُّوسُ، السُبُّوحُ

ومن أسماء الله الثابتة: القُدُّوسُ والسُبُّوحُ.

وجاء ذكر القدوس في آيتين من كتاب الله، قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ...﴾ [الحشر:٢٣]

وجاء اسم السبوح في السُنّة فقط.

ومعنى اسم: (القُدُّوسُ) في حق الله تعالى: (الطاهر من العيوب) قاله البيهقي[(١)].

قال ابن كثير: ((القدوس) المنزّه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال)[(٢)].

فهو: (المنزّه من كل شر ونقص وعيب)[(٣)].

عرفت الملائكةُ الكرامُ كمال صفات ربهم فوصفوا تقديسهم له كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠] قال ابن جرير: (أي نَنسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس)[(٤)].

فـ(القُدُّوسُ) جَلَّجَلَالُهُ (هو: المُطهَّر من كل ما لا يليق بالخالق)[(٥)].

ومعنى (السُبُّوحُ): المنزّه عن كل سوء وعيب، وعمّا لا يليق به ممّا يُضيفه إليه المشركون، فهو المبرأ من النقائص.

---

(١) [الاعتقاد:٥]

(٢) [تفسير ابن كثير:/ ٣٦٣]

(٣) [شفاء العليل:٢/ ٥١٠]

(٤) [تفسير سورة البقرة للطبري]

(٥) [مسلم بشرح النووي:٤/ ٢٠٤-٢٠٥]

والفرق بين السُّبُّوح والقُدُّوس:

أنّ التسبيح تنزيه الله، وتبرئته ممّا أضافه إليه المشركون من النقائص، ومن أشنعها: صرف العبادة لغيره.

والتقديس نسبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى ما هو من صفاته من الطهارة والكمال.

وقال بعضهم: التَّسبيح بمعنى: التَّنزيه، والتَّقديس: تطهيرٌ مع التَّعظيم، فهو طاهرٌ من كل عيبٍ، ومُنَزَّهٌ عن كل نقصٍ وما يُستقبح.

فالله عَزَّوَجَلَّ لكماله منزّهٌ عن كلِّ نقص في أسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله وأقداره، فصفاته كلها صفات كمال، وأسماؤه كلها حسنى، وقوله الحق، وخبره الصدق، وفعله منزّه عن الخطأ والنسيان، وأقداره تدور بين العدل والفضل.

يُسبّح له من في السماوات والأرض بمختلف اللغات، وأنواع الأصوات، حتى قال بعضُهم: (إنّ صرير السقف، وصرير الباب من التسبيح)[1].

- ولعظمة هذين الاسمين كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولهما في ركوعه وسجوده، فكان يقول فيهما: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائكةِ والروح»[2].

فهو قدوسٌ في خلْقه، منزّهٌ عن أن يخلق شيئًا عبثًا، فخلْقُه للمخلوقات -وإن صغُرت في نظر الناظر- لحكمة لا تدركها العقول.

وهو منزّه عمّا يصفه الجاهلون من النقص فقد وصفته اليهودَ -لعنهم الله- بالبخل والتعب -تعالى الله عن قولهم- فأخزاهم وقضى عليهم بما وصفوه به -ظُلمًا- فجعلهم بخلاء شحيحين بكل شيء، وعَاقبهم بإلقاء العداوة بينهم إلى يوم القيامة.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير، سورة الإسراء: آية ٤٤.

(٢) رواه مسلم.

وهو منزّه عمّا يصفه به أهل الشرك من نسبة الصاحبة أو الولد أو الشريك له -تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً- قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾ [المؤمنون: ٩١]

وهو الذي قد تنزّه عن كل صفة نقص مع ثبوت كمال ضدها.

فهو منزّهٌ عن الموت والفناء والنوم والسِنَة وله الحياة المطلقة الكاملة.

وهو منزّهٌ عن الجهل والنسيان والغفلة وله كمال العلم.

وهو منزّهٌ عن العجز والتعب وله كمال القوة والقدرة.

وهو منزّهٌ عن العبث في خلْق الخلق أو إيجادهم بلا غاية لكمال حكمته.

وهو منزّهٌ عن الفقر لكمال غناه.

وهو منزّهٌ عن البخل لكمال كرمه وسعة جوده وكثرة عطائه، فسبحان من كمُل في كل كمال، وتنزّه عن كل نقص.

وهو منزّهٌ عن كل صفات الحَدَث التي يتصف بها المخلوق، فهو لم يزل خالقًا عليمًا رازقًا قديراً بصيراً سميعًا إلى غيرها من صفات الكمال،

فمن معاني (القُدُّوسُ): (الطاهِرُ عن الحوادث).

فهو خالقٌ قبل وجود الخلق، فإنّه لم يكتسب صفة الخلق بعد خلقهم، بل لم يزلْ خالق أزلاً وأبداً.

وهو رازقٌ قبل رزقه للعباد، فإنّه لم يكتسب صفة الرزق بعد رزقهم، بل هورازقٌ أزلاً وأبداً.

وهو غفور قبل وجود المذنبين، فلم يكتسب صفة المغفرة بعد مغفرة ذنوبهم، بل هو غفور أزلاً وأبداً.

وهو العليم بكل معاني العلم وأعلى مما نتصوَّرُه أو نظنّه.

وهو الحي الذي له الحياة الكاملة وأعظم مما يتصوّره العقل لصفة الحياة، وهكذا في كل صفة كمال، فاللهُ متصف بها قبل وجود مقتضياتها وآثارها، وله من ذلك الكمال أكمله.

- أعظمُ قضية في الوجود هي: قضية التوحيد وتنزيه الله عن الشريك والمثيل؛ فإذا وحّد العبدُ ربَه ونزّهه عن النقص سَلِم وعوفي، ونجا من أعظم المهالك، أمّا إذا وقع في الشرك فقد وقع في أشنع الذنوب، وأعظم أنواع والظلم، ولم ينفعه أي عمل، وكان في الآخرة من الخاسرين، ولذا كان أعظم بنو آدم ذنبًا هم المشركون، ومنهم: النصارى فهم من أشنع الناس جرمًا، وأضلهم منهجًا، فقد نسبوا لله الزوجة والولد، وجعلوا له شريكًا -تعالى اللهُ عن قولهم- فأقوال النصارى اليوم واعتقاداتهم كلها باطلة وهي من اختلاق قساوستهم، وتبعهم على ذلك الهمج الرعاع منهم، وإلا فالحق أبلج، وهو أوضح من الشمس في رائعة النهار.

- أمّا مشركو العرب فقد جعلوا الملائكة بنات الله -تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً- ونسبوا له اتخاذ الولد ظلمًا وجهلاً، ولشناعة قولهم يكاد الكون يخرب ويتغيّر ناموسه، فعظّمت هذه المخلوقات قولهم وهي جامدة، وخشعت إجلالاً لربها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [سورة مريم:٨٨-٩٥].

أمّا أهل التوحيد فقدّروا ربهم حق قدره، وقدّسوه وسبّحوه وعظّموه ونزّهوه عن كل نقص، فمدح سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ سادتَهم (وهم الرسل) لسلامة ما قالوه، فقال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]

وسلك سبيلهم (أهلُ الإيمان الحق والتوحيد الخالص) فهم يُقدّسون ربهم، ويُنزّهونه عن كل نقص، ويعتقدون اعتقاداً جازماً بوحدانيّته، فلكماله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهم يقرأون دومًا سورة الإخلاص: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [سورة الإخلاص] ونحوها من السور والآيات المقررة للتوحيد، ويؤمنون ويعتقدون ما دلّت عليه من التنزيه المطلق لربهم.

والملائكةُ تُسبّحه وتُقدّسه لأنّهم قد عرفوا عظمته وجلاله، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٦] بل لا ينقطع ثناؤهم لربهم، ويُداومون على تقديسه، ويسبحون ربهم ليلاً ونهاراً لا يفترون، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠]

عَظمت طهارة جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ظاهراً وباطنًا، فسمّاه الله بروحِ القُدُس فهو أعرف الملائكة بالله، وأعظمُهم تسبيحًا وتنزيهًا وعبادة له.

والصالحون من الجنّ نزّهوا ربهم عن الشرك وعمّا لا يليق به، فقد عرفوا عظمته، وأنّه ليس له مثيل أو شبيه أو نظير، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ

جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ [الجن: ٣]

بل الكونُ كله بأرضه وسمائه وما فيهما يُنزّهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كل نقص، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]

فسبّحته وقدّسته الجبالُ الرواسي والحجارةُ، وخشعت له على صلابتها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]

وسبّحه وقدّسه الرعد بحمده، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد:١٣]

وسبّحه الطير، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور:٤١]

وتسبحه الدوابُّ والهوام، أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأنْبِيَاءِ، فأمَرَ بقَرْيَةِ النَّمْلِ، فَأُحْرِقَتْ، فأوْحَى اللهُ إلَيْهِ: أنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ»(١).

وسبّحه الحصى والحجر، فصار كل من في الوجود له مسبّحًا خاضعًا خاشعًا لله، وملأ تسبيحه كل مكان وزمان وبكل لسان ولا ينقطع تسبيحهم صباح مساء لاستحقاقه لذلك.

---

(١) رواه أبو داود.

- ويقدّسه عبادُه عن فعل السوء أو خلق الشر، فالشر ليس إلى الله، ففي ثناء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ربه: «والشرّ ليس إليك»[(١)].
ففعْله وقضاؤه كله خير.

- وأعظم ما قدّس اللهُ به نفسه من الألفاظ كلمة: سبحان الله، وهي: (كلمة أحبّ الله أن يُذكر بها) كما هو منقول عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فنزّه سبحانه نفسه بها، وذكرها كثيراً في كتابه ليتأس بها العباد، وحثّ النّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قولها في مواضع كثيرة ليعيش المؤمن مع هذا التسبيح والتنزيه طيلة حياته.

- وكان هديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عجيبًا معها، جاء في صحيح الترغيب من حديث ربيعة بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: كنتُ أخدم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهاري، فإذا كان الليل أويتُ إلى باب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبِتُّ عنده، فلا أزال أسمعه يقول: «سبحان الله، سبحان الله، سبحان ربي، حتى أملّ أو تغلبني عيني فأنام»[(٢)].

- والتسبيح له لذة من بلغها فقد بلغ الخير، ولذا جعل اللهُ أهلَ الجنة يُلهمون التسبيح كما يُلهمون النَفَس، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس:١٠]

- ومن معاني القُدُّوس: (المبارك) قاله قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الطبراني وهو في صحيح الترغيب.

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مباركٌ؛ يُبارِكُ المكان والزمان والأشخاص، وإذا أنزل بركته على شيء كانت الخيرات والرحمات تُحيط به.

انظر لبركته على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وكيف هي آثار دعوتهم في أقوامهم، ونجاة أتباعهم، وهلاك عدوّهم؛ وأعظمُ الخلق بركة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي نال الخلق من بركة دعوته ما لا يمكن حصره من معرفة الله تعالى ومعرفة فضائل الأعمال الصالحة التي يتقربون فيها لربهم، وببركة دعوته مُكِّن لأمّته فسادت الأمم، وبركته على أمّته لا يجمعها مقالٌ بأبي هو وأمّي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

والله يُبارِكُ الأماكن الفاضلة، وبركته ظاهرة فيها، فانظر لبركته في مكة والمدينة وأرض الشام، وكيف جعل الطاعات تُضاعفُ فيها، والبركة فيها ظاهرة في مآكلها ومشاربها.

ومن بركته: بركته على الأزمنة الفاضلة، كرمضان وعشر ذي الحجة ويوم الجمعة وساعات السَحَر ونحوها من الأزمنة، فتتضاعف فيها الحسنات، وينال العابد فيه أجور عظيمة في أزمنة يسيرة (بركة من الرحمن) وزيادة فضل منه.

فاللهم نسألك بركة من عندك تأتي على أمورنا كلها وحياتنا كلها وذرياتنا كلهم وعَقبِنا يا رحمن يا رحيم.

اللهم آمنّا بك ونزّهناك عن كل نقص، وسبّحناك بكرةً وعشيًا، فاللهم طهّر قلوبنا من النفاق والشك، ومن كل خلق مذموم، وطهّر جوارحنا من كل خطيئة، واغفر لنا وأنت أرحم الراحمين.

***

(٤٧) السلام

من أسماء الله: (السلام)

وورد ذكـره في كتاب الله مرة واحدة، قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ...﴾ [الحشر:٢٣]

ويقول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إنَّ الله هو السَّلَامُ»[١].

فهو: سلامٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

يقـول ابـن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: (فهو سـلامٌ في أسـمائه، وسـلامٌ في ذاتـه فتنزّه عن كل نقص وعيب، وسـلامٌ في أوصافه من مشـابهة صفات المخلوقين، وسـلامٌ في أفعاله وشـرعه وقدَرِه، فأفعاله سـالمة من الظلم وخلاف الحكمة وهي بين العدل والفضل، وهو سلامٌ في شرعه فشريعته ميسرة، وأوامره لا مشقة فيها ولا عنت، بل كلها صلاح وسلام للعباد والبلاد.

وهو سـلامٌ في حكمه وحسـابه للعباد، فالخلق سـالمون من ظلمه، فقد تنزّه عن الظلم وحرّمه على نفسـه، فلم يحتج لظلمهم أو تعذيبهم بلا موجب للعذاب (وهو) الذي سلِمت حياته من الموت والسِّنة والنوم والتغيّر.

وكذلك قيّوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب.

وعِلمُهُ سلامٌ من عزوب شيء عنه أو عرض نسيان أو حاجة إلى تذكّر وتفكّر.

وإرادتُه سلامٌ من خروجها عن الحكمة والمصلحة.

---

(١) رواه البخاري.

وكلماتُه سلامٌ من الكذب والظلم بل تمّت كلماته صدقًا وعدلاً.

وغناهُ سـلامٌ من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كل ما سـواه محتاج إليه وهو غني عن كل ما سواه.

وملْكه سلامٌ من منازِع فيه أو مشارك أو معاون مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه.

وإلاهيته سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو.

وحلْمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه، وكذلك عذابه وانتقامه وشـدة بطشـه وسرعة عقابه سـلام من أن يكون ظلمـًا أو تشّفيـًا أو غلظة أو قسوة...وقضاؤه سلام من العبث والجور والظلم...)[1].

- وهـو: (السـلام) الذي جعل الكون سـالمـًا من الآفـات في الجملة، فهو مستقرٌ صالحٌ للمعيشة، ولئن أصاب جهةً منه اضطراب أو كارثة فهي لا تُذكر أمام استقراره الاستقرار العام.

وكلُّ سـلامة في الديـن أو الدنيـا فإنّها من الله عَزَّوَجَلَّ فهو الـذي يقي عباده كل أنواع الأذى والشـرور، فحقٌ على القلبِ أن يمتلئ شـكرًا وثنـاءً على ربه الكريم الذي يُحسـن إليه، ويسلّمه من كلِّ شرٍ وسوء في كلِ وقتٍ وحين، وكم من سلامة أحاطت بالعبد طيلة حياته، ونجى بفضل ربه وتسليمه له وهو لم يشعر بها.

- وهو: (السلام) ويهدي من اتّبع هداه سبل السلام، ويشرح صدره للإسلام، ويهديه لأعمال البرِّ لأنّه رغِب وبادر باتبّاع الهدى، فجزاه الله أن سلّمه من الهوى، واتّباع الباطل، ومن سخطه وعذابه، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ يَهۡدِی

(١) [انظر أحكام أهل الذمة:١/ ٤١٤، وبدائع الفوائد:٢/ ٥٠].

بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة:١٦]

- وهو: (السـلام) الذي يقي عبدَه الفتن ويُسلّمه منها، فكم من فتنة تُحيط بالنّاس، فتأتي الحماية والحفظ من الله لهذا العبد الصالح الذي سلِم قلبُه من فساد الاعتقاد، وسلمت جوارحه من الآثام، فيُجازيه الله بالسلامة التامّة.

ولقد عرف المرسلون عليهم الصلاة والسلام عظمة ربهم، فَقَدَرُوه حق قدره، وسَلِمت قلوبهم وأعمالهم وأقوالهم، فأبقى لهم الثناء الحسن والذكر الجميل في العالمين، وسلّم عليهم في الآخرين، فقال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات: ٧٩] وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات: ١٠٩] وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الصافات: ١٢٠] وهذا من دلائل وحدانيته فقد ثبّت لهم هذا الثناء في العالمين، وجعله باق لهم بقاء الليل والنهار.

- وهو (السلام) الذي دعا عبادَه إلى دار السلام، وبيّن لهم صفاتها لتتوق نفوسهم إليها، وليجتهدوا لبلوغها، قال اللهُ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥]

وقال تعالى -مُبشّراً أولياءه بها-: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام: ١٢٧]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٥ – ٥٨] فدار الجنّة سالمة من كل شر، وجامعة لكل

خير، يسلم أهلُها من الموت والمرض، ومن المنغصِّات والمكدّرات ومن كل سوء، وتسلم أجسادُهم من الآفات، وقُوَّتُهم من الضعف، وعقُولهم من الخَرَف، ونفوسُهم من آلامها وغمومها وأحزانها، وفوق هذا يناديهم ربهم بالسلام، وينالون منه السلام، ويسلَمون من سخطه وغضبه عليهم، فهم في أمان وسلام، وتحيتهم فيها سلام، فاللهم ارزقنا دار السلام وارضَ عنّا وسلّمنا من كل شر.

- وهو (السلام) الذي يُسلِّم أوليائه في أصعب المواقف التي تكون في حياة الإنسان، وهي: (يوم ولادته ويوم موته ويوم يبعث حيًا) فـ(أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر عظيم)[1].

فيُكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كل مؤمن ومؤمنة فيها، وينال السلامة من شدتها ويكون في عافية تامة عندها، قال الله تعالى -عن يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم:١٥] وقال عن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم:٣٣] فأكرمهما اللهُ في هذه الساعات، والكرامةُ نائلة كل مؤمن ومؤمنة مستقيمًا على شرع ربه، فالملائكة تسلّم على عباده الصالحين عند قبض الأرواح، وتطمئنهم بأنّ السلامةَ مصاحبة لهم هذه اللحظات، قال الله تعالى - عن حال المؤمن في هذه ساعة الاحتضار- ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾

(١) [انظر تفسير سورة مريم للطبري]

[النحل:٣٢] فينالون السلامة من كلِّ شرٍّ، والنجاة من كل عذاب.

- وإذا سلم العبدُ من الشبه سَلِم من جميع المُهلِكات وكان في سلامة تامّة منها. وإذا سلِم من الشهوات عاش الحياة الطيبة، وكان له الذكر الحسن. وإذا حافظ على أمر ربه، وأدّى ما أوجب الله عليه سلِم من الانتكاسة والضلالة بعد الهدى.

وإذا كان متبِّعًا ما عليه سلف الأمّة في أعظم أمور الدين (وهي: العقيدة) سلِم من الانحراف، وكان على جادة الصواب.

وإذا جاهد نفسه، وراقب ربَه سلمتَ جوارحه من الآثام والخطيئات.

وكل عبد سلِم قلبُه من الغش والحقد والحسد وإرادة الشر لغيره ناله من العطايا والخيرات بقدر هذه السلامة، فإنّ الجزاء من جنس العمل، فمن سلم منه المسلمون، وأمنه النّاس كان خيرهم، وفاز بفضائل هذه الخيرية، ففي الحديث الصحيح يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(١).

فاللهم احفظنا من كل شر، واجعل السلامة سبيلنا في كل شأن، وبصّرنا بمعان هذا الاسم الشريف .

❊❊❊

(١) رواه مسلم

(٤٨) المؤمنُ

من أسماء الله: (المؤمن) وقد ورد ذكره في كتاب الله مرة واحدة.

وكم في هذا الاسم الشـريف من معانٍ جليلة، وآثار عظيمة على النفس، فمعه تنزل السكينة والطمأنينة على القلب، ويشعر من أحاط ببعض معانيه بالأمن المطلق التام، فدلالته لها الأثر الكبير في نفوس المؤمنين، ذلك أنّ الله هو الركن الآمن الذي إليه يأوون في كل حين، ولهذا الاسم معان جليلة ذكرها أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ:

فمن معاني اسم (المؤمنُ): المُصدِّق.

وهــذا التصديـق أنواع: فمــن معانيه: المصدِّق رسـلـه بإظهارهــم ونصرتهم ونجاتهم وإهلاك أعدائهم ممّا يقوي الايمان بصدق وعده لهم، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ:

﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩﴾ [الأنبياء: ٩]

فمــن عرف هذا حق المعرفة آمن بهم، واعتقد صدقهم وأمانتهم وقيامهم بما أمرهــم الله بــه، وهذا الاعتقاد يورثــه محبتهم وتعظيمهم، وهو مــن أعظم ثمرات تصديق المرسلين.

ويُصدّق رسـلـه -أيضًا- إذا سأل الأمم عن تبليغ الرسالة، فيُصدِّقهم بقيامهم بذلك، وتظهر الحقائق للجميع بأظهر صورها لتصديق الله لها.

وميّـز اللهُ هذه الأمّة بشـهادتها على الأمم السـابقة، وصدّق شـهادتها، وهذا شرف رفيع لها.

ومن أنواع التصديق: أنّه صدَق أولياءه المؤمنين بتمكينهم في الأرض كما وعدهم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النور:٥٥]

وقال عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «بشِّرْ هذهِ الأُمَّةَ بالتيسيرِ، والسناءِ والرِّفعةِ بالدِّين، والتَّمكينِ في البلادِ والنصرِ، فمن عمِل منهم بعملِ الآخرةِ للدُّنيا، فليس لهُ في الآخرةِ من نصيبٍ»[1].

- ومن معانيه: أنّه المُصدِّق عباده المؤمنين فيُصدّقهم بإيمانهم، ويقبله منهم، ويُثيبهم عليه، وهذا التصديق هو أحوج أمر يحتاجه العبد، وهو سبيل النجاة يوم القيامة.
- ومن معاني اسم (المؤمن): أنّه يصْدُقُ عبادَه وعدَه، ويفي بما ضمنه لهم من الثواب في الآخرة، فاللهُ أعظم وأجلّ من أن يفعل خلاف ما وعد به عباده لأنّه غير محتاج لذلك، فلم يُوجب عليه أحد أن يُكرم أولياءه أو يمنعه أحد من تعذيب أعدائه لكمال ملكه، ونفاذ أمره ولكنّه حَكَمٌ عدل يُكرم من أطاعه، ويُذلُّ من عصاه.

وإذا كان المرءُ إذا عمل عند رجل أمين معروف بالوفاء وأداء حق غيره اطمئن لجزاء عمله فكيف الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وله المثل الأعلى؟!

والمؤمنُ يتعامل مع ربه من حين أن يعي ويُدرك فيعبده ويطيعه، فإذا بلغ

(١) أخرجه أحمد.

وزاد فقهًا بنصوص الشريعة، وأفنى عمره في طاعته، وآثر مراضيه، زاد ثقة بوعده لأنّه قد صدّق تصديقًا جازمًا بالجزاء والثواب، وتبيّن له من نصوص الوحيين ما يدل على وفاء الله بوعده، ولذا ذكر الله عطاءه لعباده بألفاظ متعددة كلها تدل على الصدق في الوعد، والوفاء فيما قال، فمن ذلك أنّه: سمى ما وعد به أهلَ طاعته جزاءًا.

وسماه أجراً.

وسماه ثوابًا.

وسماه قرضًا.

وسماه عطاًء.

وسماه رزقًا كريمًا، وفضلاً عظيمًا .. وغير ذلك من الألفاظ التي تُطمئن العامل ليثق ثقةً تامّة بموعود ربه الصادق في وعده، الوافي في جزائه.

وتأتي النصوص من الوحيين للتأكيد على هذه القضية ليزداد المؤمنون إيمانًا بهذا الموعود، ويطمئنون لمعاملة اللهَ لهم، فلا يخافون من ضياع حسناتهم، وسائر طاعتهم، ولا يخشون فوات أجرها، قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾ [طه:١١٢] فسيجدونها كاملةً موفورة قد ضاعفها لهم، وسيرون من ثواب العمل ما لا يخطر لهم على بال، قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عن ثناء أهل الجنّة على ربهم: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزمر:٧٤] وتعزيز هذه القضية في النفس وزيادة الإيمان بها تجعل العبد يُسارع ويُسابق لطاعة ربه

ومولاه بنفس منشرحة، وطمأنينة تامّة، وهذا ما كان عليه المُصدِّقون بوعد ربهم من السابقين ومن تبعهم فعملوا بمقتضى هذا التصديق ففازوا فوزاً عظيماً.

- ومن معاني هذا الاسم: (أنّه الذي أمِنَ خلقه من أن يظلمهم) قاله ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فكل من لا يستحق عذاب الله فهو في أمن من عذابه، فلا يخاف عبدٌ أن يناله عذاب الله وقد كان مقيماً على طاعة ربه مجتنباً معاصيه (لا يكون هذا أبداً) فاللهُ ليس بظلّام للعبيد، ولا يُحتاج للظلم -لكمال عدله- وقد حرّمه على نفسه، وما قامت السموات والأرض إلا بالعدل والقسط، وهو لا يظلم مثقال ذرة وما فوقها.

- وهو: المؤمِّنُ عباده المؤمنين التأمين الشامل لمراحل حياتهم كلها، فيُؤمّنهم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من عذابه وبأسه في الدنيا فلا ينالهم هلاك عام أو عذاب دائم، وإن أصابهم كرب أو ضيق أو شدة أو تسلّط عليهم عدو فإنّما هو تكفير لذنوبهم، وإيقاظ لهم من غفلتهم، ورفعة لدرجاتهم ومنازلهم في الجنّة.

ويُؤمّنهم سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ساعة خروج أرواحهم، وهي أشدّ حالات المرء حرجاً في الدنيا، وآخر الشدائد على المؤمن فيها، ولكنّ الله يهونها عليه، ففي حديث خروج روح المؤمن، يقول عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللهِ وَرِضْوَانٍ..فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا

تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ..»(١).

وإذا دخلوا قبورهم -حيث الوحشة والوحدة والفتنة العظيمة بسؤال الملَكين، وشدة القبر- يكونون في أمان تام، كما جاء في الحديث: «فيُنادي مُنادٍ من السماءِ أنْ صَدَقَ عبدِي، فأفرِشوه من الجنة، وألْبِسُوهُ من الجنة، وافْتَحُوا له بابًا إلى الجنةِ، فيأتِيه من رَوْحِها وطِيبها، ويُفسحُ له في قبره مَدَّ بصره، ويأتِيه رَجلٌ حَسَنُ الوَجه، حسنُ الثِّياب، طَيِّبُ الرِّيح، فيَقولُ: أبْشِرْ بالَّذي يَسُرُّك، هذا يومُكَ الذي كُنتَ تُوعَدُ، فيقولُ لهُ: مَن أنتَ؟ فوجْهُكَ الوَجْهُ يَجيءُ بالخير، فيَقولُ: أنَا عَملُك الصالِحُ، فيَقولُ: رَبِّ أقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ أقِمِ الساعَةَ حتى أرجع إلى أهلي ومالي»(٢).

«ثم يُفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين، ثم ينوّر له فيه ثم يقال له: نَمْ فيقول: أرجع إلى أهلي، فأخبرهم فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»(٣).

وإذا كان يوم القيامة -حيث الخوف والأهوال العظام- أمّنهم الله من الفزع الأكبر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾ [النمل:٨٩]

(١) اخرجه أحمد

(٢) اخرجه أحمد

(٣) أخرجه أحمد.

- ومن معاني **المؤمنُ**: أنّه الذي يصدّق ظنون عباده به، ولا يخيب آمالهم بجنابه، فيُنزلُ في قلوبهم السكينة، والطمأنينة في المدلهمات، فيُحقق رجاءهم فيه، ويفتح عليهم من أبواب النصر والهبات والأرزاق، والمخرج من المضايق، وتحقيق الأمنيات ما تتعجّب له عقولهم، فيكونون في أمان وثقة -حتى وإن كان ظاهر الأمر خوف وهلع- إلا أنّ الله يرعاهم ويحفظهم، وكم في تاريخ المؤمنين من عِبر وآثار تُبيّن كيف كان أثر أمان الله عليهم في الصبر والثبات.

- ويُصّدق ظنّهم به عن نزول الهموم والكروب بهم، فمهما أُغلقت في الوجوه الأبواب، ووصدت السدود يبقى الظنّ الحسن بالله هو بلسم المؤمن، وأنيس المستوحش، ومنفس المهموم (والله عند ظنّ عبده به) كما صح بذلك الحديث وهو عند الإمام البخاري، فظُنّ بربك أحسن الظنون، وثق بفرجه وقرب رحمته.

وبعدُ/ فهذه بعض معاني هذا الاسم العظيم، وبعض آثاره وهي -كما ترى- معان جليلة عظيمة لسعة كلِّ اسم من أسمائه، وما ذُكر هنا من هذه المعاني إنّما هو غيض من فيض، وقليل من كثير، فزد نظراً وتبصرة في الفقه بأسمائه، فهو السبيل الأعظم لمعرفته وزيادة الإيمان به، ووجدان لذة الطاعة وحلاوة المناجاة، فاللهم زدنا معرفة بها يا أرحم الراحمين..

❊❊❊

(٤٩) المهيمن

من أسماء الله تعالى: (المهيمن) وجاء ذكره مرة واحدة في كتابه، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ...﴾ [الحشر: ٢٣]

وفيه أربعة معان: المعنى الأوّل: قيل في معناه: الرقيب الحفيظ لأعمال العباد المطّلع عليها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب)(١). فهو الرقيب المسيطر على كل شيء.

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المهيمن: الرقيبُ بلغة قريش، والحافظ في لغة بقية العرب)(٢).

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المهيمن: المطّلع على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علمًا)(٣).

المعنى الثاني: (الشهيد) فهو شهيد على كل شيء، ومن ذلك: شهادته بصدق كتبه، وشهادته على خلقه بأعمالهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغير واحد (المهيمن) أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى هو رقيب عليهم، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ

(١) [تفسير سورة الحشر للطبري]
(٢) [تفسير سورة الحشر/ التحرير والتنوير]
(٣) [تفسير السعدي]

شَهِيدٌ ﴿٩﴾ [البروج:٩][١].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ اختلف أهل التأويل فيه في تأويله،فقال بعضهم: الشهيد، قاله مجاهد وقتادة وغيرهم[٢].

المعنى الثالث: قيل في معناه : القائمُ على أمر خلْقه بالرعاية والحفظ.

قال بعض أهل اللغة: الهيمنة: القيام على الشيء والرعاية له، فهو مهيمنٌ على مخلوقاته، فلا يخرج عن أمره شيء، يحفظها ويرعاها بقدرته.

مَليك على عرش السماء مهيمن　　لعِزّته تعنو الوجوه وتسجدُ

المعنى الرابع : قيل معناه : المؤمن المُصدِّق؛ فهو قد صدّق كتابه بإظهاره، وتصديق أخباره عمّا مضى، وما بقي من أمور الدنيا، وما حدّث عن الآخرة، وصدّق رسله بظهور المعجزات على أيديهم، وظهورهم على أعدائهم، وصدّق عباده بإكمال الثواب لهم، فهو لا يُنقص الطائعين شيئًا من حسناتهم لأنّ الثواب لا يُعجزه، ولا يزيد العصاة على ما اجترحوه من السيئات شيئًا لأنّ الظلم منتفٍ عنه، وهو غير محتاج إليه، وقد سمّى عقوبة أهل النّار جزاءً لاستحقاقهم جزاء عملهم السيء.

فالله هو المهيمنُ الحفيظ الذي لا يخرج عن هيمنته شيء في الكون، فبهيمنته حفظ الكون من الخلل والاضطراب، فالسماء والأرض قد استقرت وثبتت بأمره، والخلْق تحت هيمنته، وحياتهم واستقرارهم بأمره، وتحت إرادته.

(١) [تفسير ابن كثير]

(٢) [تفسير سورة الحشر للطبري]

وبهيمنته شهد على خلقه بجميع أعمالهم فلا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم، ولا يغيب عنه شيءٌ من أحوالهم -فمن كان منهم مستخفٍ بليل، أو ساربٍ في وضح نهار، أو كان خالياً من العباد، أو بينهم يسترق سمعاً أو ينظر لحرام، أو يلفظ بقول لا يرضي ربه- كلهم تحت هيمنته وإحاطته.

وهو المهيمنُ الرقيب على كل شيء، المطّلعُ على كل عمل، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وهو بصير بخفايا الأمور، وخبايا الصدور، أحاط بكل شيء علماً، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]

وهو القائمُ على خلقه بالحفظ والرعاية، فالكونُ كلُّه مفتقراً لقيامه وحفظه ورعايته، ولولا حفظ الله له ورعايته له لا اضطرب واختلّ.

ومن تأمّل في هذه القدرة والإحاطة، وهذه الهيمنة والقوة أيقن بربٍ جليل عظيم لم يقدره حق قدّره من أشرك به أو نسب له النقص.

ومن أيقن بهذه الهيمنة لله علّق قلبه به، فكل شيءٌ تحت سلطانه، وقلوب العباد وإراداتهم وتصرفاتهم وأفعالهم تحت أمره، فكيف يخافهم ويرجوهم؟!

ولو صحّت القلوبُ كما ينبغي لكان تعلّقها بربها أعظم ممّا هي عليه الأن.

ومن عرف ربه المهيمن حق المعرفة: حقق التوكل عليه، وصدق في الاعتماد عليه، وعاش مطمئن النفس، هادئ الطبع.

ومن تأمّل في سيرة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجد هذا ظاهراً في مجمل حياته كلها، وذلك لكمال إيمانه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهيمنة ربه على كلِّ شيء؛ فعودة صادقة لمعرفة معاني الأسماء الحسنى لله عَزَّوَجَلَّ فإنّها تورث النفس الإجلال والتعظيم،

وتعلّق المتأمّل بربه، وتجرّده عن ملاحظة المخلوقين، والالتفات لهم.

والمعرفة الحقة بأسماء الله الحسنى تزيد في إيمان العبد، وتجعله يذوق حلاوة الحياة الدنيا، ويدرك لذة الطاعات ويجد الأنس به.

ومن التصديق الكامل بالقرآن العظيم: الإيمانُ بهيمنته على الكتب السابقة، فالقرآنُ أمينٌ على ما سبق من الكتب التي أنزلها الله على رسله السابقين قد صدّق أصولها.

وهو حاكمٌ على كلِّ الكتب قبله، فقد جاء بأحسن ما فيها، ونسخ منها ما نسخه، وبيّن تحريف أصحاب الكتب السابقة لها بعد وفاة رسلهم، وقد قام في أنفسهم الاعتراف بذلك بين يدي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والإيمان بهذا يُورث في النفس الطمأنينة به، واليقين بصدقه، وتعظيمه وإجلاله، والفرح به أعظم الفرح، ويُثمر العمل به، والتحاكم إليه، ورفض ما سواه من الأحكام والأهواء.

قال الله تعالى -عن كتابه المجيد-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ...﴾ [المائدة:٤٨] وقوله ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: (بمعنى: أمينٌ على كل كتاب قبله، وقيل معناه : شهيداً، وقيل معناه: حاكمًا على ما قبله من الكتب. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإنّ اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كل كتاب قبله، وجعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛

فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها)[1].

فاللهم ارزقنا إيمانًا كاملاً بك، وتصديقًا بأمرك، وثقة لموعودك، وتصديقًا بكتابك ورسلك.

***

(١) [انظر تفسير سورة المائدة لابن كثير]

(٥٠ ، ٥١) الخالق، الخلّاق

ورد اسـم (الخالق) في القـرآن الكريم ثمان مرات، أمّا اسـم (الخلّاق) فورد ذكره مرتين.

واللهُ هو (الخالقُ): أي: المبدِعُ للخلق المخترِعُ لهم، الذي خلق المخلوقاتَ وأوجدها من عدم، وعلى غير مثال سابق.

ومعنى (الخلّاق): الخالق خلْقًا بعد خلْق، فهو من أفعال المبالغة الدالة على كثـرة خلْق الله، فكم يحصل في اللحظة الواحدة من خلْق بلايين المخلوقات، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ [الحجر:٨٦]

واسمه سبحانه (الخالق والخلّاق) ممّا أقرت به جميع الأمم مؤمنهم وكافرهم.

وخَلْـقُ اللهِ للكون وما فيه، تظهر فيه عظمته وقدرتـه وقوته وإتقانه وحكمته؛ فهو قد قدّر وجود الخلق في الأزلِ، وأخرجهم إلى الوجود بعد العدم، ونوّع خلقه ما بين عاقل وغير عاقل، ومتحرك وساكن.

خلَق إنسـًا في تنـوّع ظاهـر لا يعلم عددهم إلا مـن خلقهـم، وملائكةً أولي أجنحـة مثنى وثلاث ورُباع يزيد في خلقهم ما يشـاء بأعداد لا حصر لهم، فإذا كان البيت المعمور فقط يدخله كل يوم سـبعون ألف ملك لا يعودون إليه مرة أخرى، بل يأتي سـبعون ألفًا آخرين في اليوم الذي يليله، وهكذا كلّ يوم، فكم عدد الأيام التي خلقها الله؟!

وكم يكون عدد الداخلين لهذا البيت؟

وكم يكون عدد بقية الملائكة؟ فسبحان (الخلّاق العظيم)

وخلق جانًا قد ملئوا الأرض والبحار والفضاء، وحيواناتٍ لا يعلم عددهم إلا الله، ونباتًا وزروعًا، وجبالاً وبحاراً وأنهاراً وغيرها من المخلوقات التي لا يُحيط بها إلا من خلقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- والله خالق كل شيء، فلا خالق سواه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢] فكل ما في الكون خَلَقَه اللهُ تعالى، وهذا يدلُّ دلالة ظاهرة على قوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدرته على كل شيء.

خلقهم على ما يشاء من الصفات والهيئات، فجعل بعضَهم قويًا وبعضهم ضعيفًا، وحسّن في أشكال بعض، وخلق بعضَهم في صورة دون ذلك في تفاوت عظيم تظهر معه قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الإتقان، وعلى خلق ما يشاء، كيف شاء -وخلْقُه كله حسن- قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ...﴾ [السجدة: ٧]

- انظر إلى السماء وسعتها وجمالها وارتفاعها وثباتها بلا عمد، لا ترمي ببصرك في جهة إلا وجدت سماءً صافيةً قد بلغت من الجمال أبهاه، ومن الصورة أجملها، ومن العظمة أنصعها وأعلاها. وانظر ما جعل فيها من مخلوقات عظيمة، فقد جعل اللهُ فيها شمسًا عظيمة الخِلقة، ونوراً يخرج منها يملأ الأرض، وقوةً حارقة ولو قربت من الأرض يسيراً لأحرقت ساكنيها، وجعل فيها قمراً بديعًا قد بلغ من الجمال أسناه، ومن النور أبهاه، وجعله سراجًا منيراً. وخلق فيها نجومًا زيّن بها السماء، وجعلها علامات ودلائل للمهتدين، وجعل فيها كواكب سيّارة لا يعلم عددها أو كنهها إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وانظر كيف خلق الليل والنهار، وجعلهما يسيران بانتظام عجيب بلا خلل أو تغيّر، فسبحان من خلق فأبدع، وصنع فأتقن.

- وتأمّل في خَلْقه للأرض وما عليها من مخلوقات متنوّعة، وكيف بسطها ومهدها حتى وسعت الخلائق ولو تضاعفت أعدادهم أضعافاً مضاعفة، وجعلها صالحة للمعيشة ومستقرة للعباد، ولو اضطربت لحظات كما يحصل ساعة الزلازل والبراكين لكان من المستحيل العيش عليها ولكن من رحمة الله أن جعلها بهذا الثبات.

- وانظر ما جعل الله فيها من سهول وطرق وفجاج لتنتظم حياتهم وينتقلون من مكان لمكان بيسر وسهولة، فكم في هذا التنوّع من مصالح للإنسان.

- وانظر كيف خلق البحر بهذه الصورة العجيبة، وجعل فيه آيات بيّنات دالة على قدرته التامّة، فحبسه أن يُغرق الأرض، ومنعه أن يؤذي الخلق، وسخّره لبني آدم، وجعله مذللاً لهم، وسبباً في أرزاقهم، وبثّ فيه من المخلوقات المتنوّعة التي لا يحصيها إلا الله، وأباح لهم أكل مخلوقاته، فانتفعوا به أيّما انتفاع.

خلق فيه هذه الحيتان في الماء لتعيش بصورة عجيبة تحت الماء، وتلد بهذه الطريقة الغريبة حيث تنتج مئات البيض فيموت أغلبه ولا يبقى منه إلا القليل، فيحيا ويتوالد مرة أخرى، والنّاس يأكلون منه بيسر وسهولة وهم لا يرون كيفية هذا الخلْق.

- وانظر لخلْق الجبال وما فيها من آيات واضحات تدلّ على قدرة الله وقوته، وتمام صنعه، وتأمّل كيف جعلها في أحجام متغايرة، وألوان

متنوّعة، فمنها أحمر، ومنها أسود، ومنها أبيض وغير ذلك.

وخلقها بأشكال متباينة، فمنها ما هو حجري صلب، ومنها ما هو حصى صغير، ومنها ما هو رملي ممّا يدل على عظمة خلْق الله.

- وانظر إلى السهول والوديان والجَدَاول والأنهار وكيف يجري بعضُها من آلاف السنين بلا توقف أو نضوب لتنتفع بها الأرض وينتفع بها -أيضًا- الآدميون والبهائم، وانظر كيف نوّع خلْقه فيها، وجمّل منظرها، وحسّن صورتها حتى غدت أنسًا للمتأملين.

- وانظر لهذه الزروع والأشجار وما فيها من آيات دالة على عظمة الله وقدرته التامّة، فمِن هذه الأشجار ماله ساق، ومنها ما هو بلا ساق، ومنه ما هو معروش، وآخر غير معروش، ومنها ما يسبح في الأرض ومنها ما يصعد في السماء، ومنها ما هو حلو، ومنها ما هو حامض، ومنها ما بين ذلك، يُسقى بماء واحد، وفي أرض واحدة ومع ذا ترى هذا التباين والاختلاف، وجعل هذه الزروع والشجار بهجة للناظرين، وأنسًا للمشاهدين.

- وتبصّر في خلق بني آدم وما فيه من عِبر وآيات، وانظر لاختلاف ألوان الناس وصورهم وألوانهم ولغاتهم ولهجاتهم، فقد جعل الله ذلك من جملة آياته الدالة على وحدانيته، وعظيم قدرته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم:٢٢] وتأمل أصل خلقتهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم:٢٠]

وبنو آدم من أعقد الخلق سواء في خلْقهم أو خُلُقهم، وما في داخلهم من عجائب صنع الله وقدرته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١]

وانظر كيف باين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خلق ذوات الأرواح، فهذا قائم على رجلين بأحسن هيئة -وهو الإنسان- وآخر يمشي على أربع، وذاك يزحف، وآخر يسبح، وخامس يطير، وخَلَقهم بهيئات مختلفة في الحجم واللون والشكل، قال الله -عن بديع صنعه-: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١١]

تنوّعت مخلوقات الله في تعدادها وهيئاتها وصورها وحِكمها ويجمعها أمر واحد وهو: (عظمة الله، وكمال قدرته، وسعة علمه، وإتقان صنعه).

- ومن دلائل عظمة الله في خلْقه: أنّ خلْقه لا يتوقف ولا ينقطع فكل يوم، بل هو في كل لحظة يخلق ما يشاء، بأي كيفية شاء، في أي وقت شاء، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [النور: ٤٥]

وهناك من العوالم ما لا يعلمه إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل:٨] ومن تدبّر هذا الأمر أذعن لقدرته التامّة، فيستحيل أن يُحيط أحدٌ بعدد خلق الله بل هو متعذّر وممتنع، وتزيد عظمة الله في خلقه حين يستحضر المتأمّل كثرة الخلق وتنوّعه ومع ذلك هو يسير عليه بل خلق هذه النفوس بهذه الكثرة كخلق نفس واحدة بغاية الإتقان، قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان:٢٨] فما أعظمك يا الله.

- ولا تتوقف عظمة الله عند خلقه للخلق بل يخلقهم، ويعلم أسرار خلقهم، وتدبير أمورهم، ويتكفّل برزقهم، ويتولى محاسبتهم، فسبحانه ما قدره العباد حق قدره، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٧]

وجميع المخلوقات لم تُخلق لهواً ولا عبثًا، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص:٢٧]

بل أبان عن مقصد خلْق أشرف المخلوقات -وهو الإنسان- بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]

وأبان عن حكمته من خلق السموات والأرض بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق:١٢]

فتأمّل المقاصد من خلْق الخلق لتوقن بعظمة ربك، واستحقاقه للعبادة.

- وكل ما سوى الله مخلوق ومحدَث، وكل المخلوقات سبقها العدم، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن أشرف مخلوقاته -وهو الإنسان-: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١]

و﴿هَلْ﴾ هنا بمعنى: قد. أي: قد أتى على الإنسان وقتًا لم يكن موجوداً ثم خلق الله أبا البشر آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ،وتناسلت منه هذه الذرية بهذه الأعداد الهائلة.

وجعل من المخلوقات ما هو أكبر من الإنسان، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]

ومع كبرها وعظمتها فقد أذعنت لربها وخضعت لعظمته، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١]

- وخلْق اللهِ عظيمٌ، يعجز الإنس والجن وغيرهم أن يخلقوا مثله أو ما هو دونه بكثير، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج:٧٣] وفي هذا تحدٍّ لجميع الخلق من الجن والإنس وغيرهم أن يخلقوا مثل خلْقه، وهذا التحدي قائم وسيبقى شاهداً على قوة الله، وانفراده بالخلْق، ودليلاً على ضعف البشر وقلة حيلتهم.
- وخلْقُ الله كامل مهما صغر في نظر الناظر، فقد خلَقَه عن علم بما يخلق، وكيف يخلقه، ومتى يخلقه، وما الحكمة من خلقه، ولمقاصد لا تُدركه الأفهام.

ومن أراد النصح لنفسه فليُكثر من التفكّر في مخلوقات الله، فإن التفكّر فيها يزيد في إيمانه ويقوي يقينه.

- ومن آمن أنّ الله هو الخالق وحده أيقن أنّه لا يستحق العبادة إلا هو، فكيف يخلق ويُعبدُ غيره؟! وكيف يرزقُ ويُشكر سواه؟! قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام:١٠٢] فاللهم ارزقنا التفكّر في خلقك وآياتك واجعلنا لك خاضعين عابدين.

(٥٢ ، ٥٣) البارئُ، المصوّرُ

ومن أسماء الله: البارئُ، المصوّرُ.

وورد اسم (البارئ) مرة واحدة في كتاب الله، وكذلك اسم (المصوِّر)

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى هذا الاسم: (البَارِئُ: الذِي بَرَأَ الخَلْقَ فَأَوْجَدَهُم بِقُدْرَتِهِ)[١].

وقيل: (البارئ: المُبدِعُ المُحدِث)[٢].

(واسم البارئ له ارتباط باسم الخالق؛ لأنّ الخلق والبرء صفتان متصلتان والفارق بينهما يسير ودقيق، فإذا كان الخَلق هو التصميم والتقدير، فإنّ البرء هو التنفيذ والإخراج.

وإذا قلنا: إنّ الله عَزَّوَجَلَّ خلق الإنسان، فمعنى ذلك أنّه استحدثه وأوجده من العدم المطلق، وإذا قلنا: برأ اللهُ الإنسان، فمعنى ذلك أنّه استحدثه وأوجده من العدم المطلق في خِلْقَة تناسب المهمة والغاية التي خُلق من أجلها)[٣].

قال الزجاج: (البرء: خلْقٌ على صفة..)[٤].

و(البارئ) هو الذي فصل بعض الخلق عن بعض؛ أي: ميّز بعضه عن بعض، فالبرءُ أصله من البرء الذي هو القطع والفصل.

(١) [تفسير سورة الحشر للطبري]

(٢) [شأن الدعاء للخطابي:٥١]

(٣) [انظر تفسير سورة الحشر لابن كثير]

(٤) [تفسير الأسماء:٢٧].

وقيل في معنى البارئ: قَالِبُ الأعيان، أَي أَنَّه أبدع الماء والتراب والنار والهواء لا من شيء، ثمّ خلق منها الأجسام المختلِفة، فخلق الإنسان من بين الصلب والترائب من الماءَ الدافق، فكانت هذه النطفة من الماء المهين، ثمّ جمعها في الرحم في قرار مكين، ثم صرّف تلك النطفة طورًا بعد طورٍ، وطبْقًا بعد طبق، حتى كَمُل في ظلمات الخلق، وهكذا خلْقه في بقية المخلوقات من ذوات الأرحام يخلقها في مراحل يتبع بعضها بعضًا حتى تكتمل، كل ذلك بعلمٍ وحكمةٍ وإتقان.

وقيل في معنى الباري: الذي خلق الخلق بريئًا من التفاوت؛ أي: خلقًا مستويًا لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل.

وقيل في معنى الباري: المُوجِدُ لِمَا كَانَ في مَعْلُومِهِ مِنْ أَصْنَافِ الخَلَائِقِ، وهَذَا هُوَ الذِي يُشِيرُ إليهِ قَوْلُه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد:٢٢] وليس معناه أنّه أبدعه بغتة من غير علم سبق له، وإنّما أبدعه وأظهره)(١).

قال بعض العلماء: إن اسم البارئ يُدْعَى به للسلامة من الآفات، وأنّ مَن أكثرَ مِن ذِكْره نالَ السلامةَ من المكروه.

ولمّا أرادت الجنُّ أذية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَحَدَّرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجِبَالِ، وَفِيهِمْ شَيْطَانٌ مَعَهُ شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ يُرِيدُ أَنْ يُحْرِقَ بِهَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرُعِبَ وَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ قُلْ، قَالَ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا

(١) [انظر فتح الباري:١٣/ ٣٩١]

يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ، فَطَفِئَتْ نَارُ الشَّيَاطِينِ، وَهَزَمَهُمُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[(١)].

وهو **المصوّر**: الذي صوّر الموجودات في صنع عجيب متقن، وترتيبٍ كاملٍ، وهيئةٍ تتميّز بها عن غيرها، فأعطى كلَّ شيء منها صورةً خاصةً به.

تأمّل في تصويره لبني آدم فقط؛ يعيش فوق الأرض حاليًّا قرابة ثمانية مليار نسمة (ثمانية آلاف مليون شخص) هل تصوّرت العدد؟!

كل واحد منهم صورته تُغاير صورة غيره في قدرة عجيبة على التصوير والتباين، فسبحان من غاير وباين بين بني الإنسان وهم أبناء رجل وأمّ واحدة، فالخلق كلهم لأدم وآدم من تراب؛ هذا في بني الإنسان فكيف بغيره من المخلوقات؟! فسبحان الخالق المصور.

وخلَقَ الإنسان في أحسن صورة، كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤]

وقد دعانا اللهُ للتأمل في خلقنا وتصويرنا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١]

فمن التأمّلات في تصويرك: أن تتذكر نعمة الله عليك بهذه الصورة وأنت ترى غيرَك قد تشوهت صورته، وأنت في عافية وسلامة، وبعض الناس يرى أنّ صورته ليست حسنة ولكنّه لو نظر لمن هو دونه ممّن تشوّهت صورته تشوّهًا ظاهراً حمد الله على ما منّ عليه من صورة.

---

(١) أخرجه أحمد، وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب.

ومن التأملات في تصويرك: أن تعترف بالضعف أمام إرادة الله الذي اختار لك صورتك التي لا تستطيع تغييرها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٧،٨]

ومن التأملات في تصويرك: أن ترى التغيّر الذي يعتري صورتك وأنت لا تملك منعًا له، فبينما الصورة حسنة تفتن من رآها، والكمال فيها ظاهر إذ التغيّر يعتريها، وتجاعيد الزمان قد بدّلتها.

ومن التأملات في تصوير بني آدم: أنّك تجد الأخوين -وهم أبناء رجل واحد وأم واحدة- ومع ذا ترى التباين والاختلاف بينهم ظاهراً وكأنّه لا يجمعهم دم أو نسب، وبالمقابل تجد بعض الإخوة صورتهم واحدة أو متقاربة إلى حد كبير، فسبحان من فرّق وجمع، وسبحان من ساوى وفاوت.

ولئن أوتي المرء صورة حسنة -رجلاً كان أو امرأة- فليعلم أنّها نعمة وبلاء، وفتنة ينبغي له شكرها، وأن لا يغترّ بها أو يعصي الله بها، فكم كان حُسْن الصورة وبالاً على صاحبه أوردته المهالك وأعقبته العطب، وهل كانت فتنة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا بصورته الحسنة؟!

وإبداع تصوير الله ليس في الإنسان فقط، بل هو في المخلوقات كلها، فانظر كيف فاوت الله بين صورها وأشكالها في الخلق كله لترى تباين عجيب، وتصوير متقن يدل على عظمته وجلالة صنعه.

وتأمّل في تصويره فيما بث في الكون من مخلوقات من أرض وسماء وجبال وأشجار وبحار وأنهار وصخور وهضاب، صنع عظيم وتصوير بديع.

وهذه الأسماء الثلاثة (الخالق، البارئ، المصوّر) ليست مترادفة بل كل اسم قد تميّز عن غيره، فالعطف في اللغة يقتضي التغاير.

ولقد جمع اللهُ بين هذه الأسماء الثلاثة في آية واحدة، فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤]

(قال بعض العلماء:

الخلق: هو الإيجاد والتقدير.

والبرء: هو إظهار الخلق، وإبرازه وفق ما أراد.

والتصوير: هو إعطاء كل شيء صورته كيف شاء)[1].

فسبحان من خلق وبرء وصوّر كيف شاء بقدرة عظيمة، وإتقان محكم، ولمقصد جليل.

فاللهم ارزقنا التأمّل والتدبّر في خلقك وصنعك وإحكامك، اللهم اجعلنا لك خاشعين خاضعين مخبتين.

❊❊❊

(١) [انظر أضواء البيان:٨/ ١٢٤].

(٥٤) الوارث

ومن أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: الوارث.

وورد ذكر هذا الاسم في القرآن الكريم ثلاث مرات كلها بصيغة الجمع، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر:٢٣]

فالله هو: (الوارث) الباقي بعد فناء خلْقه، الدائمُ الذي لا يزول؛ يفنى الخلائق ويبقى الحيُّ الذي لا يموت.

تنتقلُ الأملاكَ من خلقٍ إلى خلق، يُوَرِّثها الله من شاء من عباده، وتتعاقب الأجيال جيلاً بعد جيل، وكأن الأول لم يعش ولا لحظة واحدة حتى يرث الجميع الوارث الباقي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كم سكن الأرض من خلْق، وعمّروا دوراً، كانت قراهم عامرة بالصخب والأسواق والرائحين والغادين، وإذ بها غدت خراباً لا تسمع لأهلها صوتاً ولا همسا.

وأباد أمماً لا حصر لها كانت تعيش في دَعةٍ وسَعةٍ من العيش، فأصبحت منازلُهم بوراً، وجمعهُم غروراً، وعادت تلك المنازلُ خاوية لا يسكنها إلا المارّةُ يوماً أو بعض يوم؛ ولم يبق إلا الذي له ميراث السموات والارض، وإليه مآب ومرجع كل شيء، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:١٠]

فلا تتعلّق القلوبُ بالدنيا فمصيرها إلى زوال، وعاقبة أهلها الرحيل، فلينتقل المرء منها بخير حال، وليجعل زاده العمل الصالح ليوم التناد، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص:٥٨]

عاش خلقٌ كثير على هذه الأرض لا يحصيهم إلا الله ثمّ ماتوا -كما هي سنة الله في خلقه- وصار الملك لله وحده أولاً وآخراً، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر: ٢٣] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم:٤٠]

فتفنى الدنيا ومن عليها، ويبقى الوارث الديّان، فقد قضى ألا يبقى إلا وجهه، قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٦،٢٧]

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص:٨٨]

- أعظم ما يُعظّم الخلْق: المُلْك، والأرض، والأموال؛ وكلها يرثها الله تعالى، فالأموالُ في أيدي النّاس على سبيل الوديعة والاستخلاف، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد:٧]

- ووصف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حالَ أرباب الأموال، وكيف سيأتون ربهم فرادى قد تركوا الأموال وحاشيتهم: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأعراف:٩٤]

- كفر بعض الطغاة، وأنكر المرجع والمآب لله، فأخبر اللهُ بمقالته الشنيعة، وبيّن مآله، ووصف حال رجوعه إليه، وكيف سيأتي ربَه فرداً ذليلاً، ذلك أنّ الله هو (الوارث) وأنّ إليه الرجعى والمآب، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ

ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴿٨٠﴾﴾ [سورة مريم: ٧٧- ٨٠]

- ويظنّ بعضُ الكافرين والمفتونين بهم وقد آلت الغلبة لحزب الشيطان في بعض الأزمنة، وصارت السلطة ونفاذ الأمر لهم، فيظنون لفرْط جهلهم أنّ هذا ملك ثابتٌ لهم، وأنّها غلبة مُطّرِدة، وكأنّهم لم يقرؤوا التاريخ، ولم يروا ما صنع الله في الأمم الكافرة الطاغية، وكيف جعلها خاسرة، ونالهم خزي الدنيا مع الوعيد بعذاب الآخرة؛ ذلك أنّ مرجع الأمور إلى الله، ومآبها إليه، وأنّ ظهور هؤلاء إنّما هو ظهور مؤقت، وفي حال ضعف من المؤمنين، فالحقيقة كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [١٢٨ الأعراف] وهم العباد الصالحون، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥] فالصالحون من عباده هم من يرث الأرض –حتى وإن طال الزمان بهم، وإن تأخر النصر عليهم– إلا أنّ العاقبة لهم، وميراث الأرض من نصيبهم، ذلك أنّ الأرض لله يُورثها من شاء من عباده، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣٧]

- وأورث اللهُ نبيه والمؤمنين أرض اليهود في المدينة والتي كان المسلمون لا يستطيعون أن يطؤها ولكنّ الله أورثهم إيّاه لأنّه هو: (الوارث) والنافذ أمره وقضاؤه في عباده، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب:٢٧]

- وأورث سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المؤمنين أراضٍ لم يخطر ببالهم يومًا من الأيام أن يطؤها فضلاً أن تكون للمسلمين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النور:٥٥]

فانظر لرقعة الإسلام اليوم وكيف بلغت المشارق والمغارب بعد أن كانت يوما من الأيامَ لا تتجاوز دار الأرقم ابن أبي الأرقم.

وأشرف ميراث يرثه العبد: ميراث النبوة، ولذا سأله يعقوبُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لبنيه، فقال تعالى -حاكيًا دعاءه-: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦﴾ [مريم:٦]

وأورث الله هذه الأمّة الميراث الباقي: وهو القرآن العظيم، فكان فضلاً من الرحمن عليهم، ورحمةً سابغة من عنده لديهم، وورثوا به علم الأولين والآخرين، ونالوا بهذا الكتاب شرف الدنيا وعزّ الآخرة، وفتحوا به البلاد، ودانت لهم الدنيا بأسرها، وأعزّهم اللهُ به، وانفتح لهم من العلوم والمعارف ما صاروا به قادة الدنيا، فبحسب اتّباع العبد لكتاب ربه عَزَّوَجَلَّ يكون شرفه وكرامته في الدارين، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر:٣٢]

وأعظم ميراثٍ أورثه نبي الأمّة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته: العلم النافع، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا،

ورِّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ»[1].

فينبغـي أن يكون تحصيل هذا الميراث هو همّ العبد الأعظم، ومقصده الأهمّ لأنّـه الباقـي والنافع له لا متـاع الدنيا الزائل، ولـذا أبقى اللهّ تعالـى الثناء على من ورثوه، وصار لهم لسان صدق في الآخرين.

ومـن الميـراث المبارك الـذي يورثه الله عبـدَه: الولد الصالح؛ فمـن نِعَم الله عليه أن يرزقه ولداً يؤنس له حياته، ويُعينه على مشـاقها، وتحمّل متاعبها، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩]

ومـن مطالب المتقين أن يجعلهم الله أئمةً يُقتدى بهم، ويكونون قادة في عمل الخير، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص:٥] وهذا لا يتأتّـى إلا بالاجتهاد في تحصيل العلم، ونشـره ونفع النـاس بجميع أنواع النفع ليكونوا قدوة لغيرهم، وأئمة لمن جاء بعدهم.

- ومن أيقن بزوال الدنيا وانتهائها وفناء أهلها علّق قلبَه بالله والدار الآخرة، فهي الباقية التي لا تزول، ولا يفنى أهلها، وهي الدار الحقيقة التي تستحق العمل، وبذل الجهد للفوز بخيراتها، ولا سـبيل إلى ذلك إلا باسـتفراغ الجهد في العمل الصالح، والسعي في طلب مرضاة الله تعالى.

- ويُحسـن بالعبـد أن يسـأل ربَـه أن يُورثـه مـا ينفعه اقتـداءً برسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الـذي كان كثيـر الدعاء بهذا، فعن ابـن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: كان رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قلّمـا يقـوم من مجلس حتـى يدعو بهؤلاء الكلمات: (اللَّهُمَّ اقْسِـم لَنَا مِنْ خَشْـيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَـا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ،

---

(١) رواه أبو داود.

وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا)[1].

وأعظم ميراث يرثه العبدُ ويفوز به: ميراث الجنة التي يرثها المؤمنون، فيسعدون بها سعادة لا شقاء معها، ويحيوْن بها أكمل حياة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم:٦٣ مريم] وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف:٧٢]

وبيّنت الآيات دعاء خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في طلب هذا الميراث لنقتدي به، قال تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء:٨٥]

فاللهم نسألك ميراث كل خير في دنيانا من العلم النافع والعمل الصالح والذرية الطيبة والذكر الحسن، ونسألك يا ربنا ميراث الجنّة ونعيمها الذي لا يحول ولا يزول في مقعد صدق بجوارك يا أرحم الراحمين.

❋❋❋

(١) رواه الترمذي.

(٥٥) المجيد

ومن أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: المجيد.

وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرتين.

والمجد في اللغة: (الكثرة والسَّعة والشرف)[١].

قال الراغب: (المجد: السعة في الكرم والجلال)[٢].

والله هو: ((المجيدُ): الشريفُ ذاته، الجميلُ أفعاله، الجزيلُ عطاؤه ونواله)[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وصَف نفسَه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها، وسعة أفعاله، وكثرة خيره ودوامه)[٤].

فصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تدخل تحت الحصر، ولا تُحدّ بعدد، فهو كثير المجد، كثير الخير، دائم الفضل والإنعام، واسع الإحسان؛ له من الصفات أكملها وأوسعها، ومن الأسماء أحسنها وأجملها، ومن الأفعال أتمها وأحكمها، فصفاته لا منتهى لها، وفضله لا حدّ له.

له المجدَ الأعلى، والشأنُ الأجلّ، فلا مجدَ على الحقيقة إلا مجده، ولا عظمةَ على الكمال إلا عظمته -ولكثرة مجده، وسعة خيره، ودوام فضله، وكمال

(١) [تفسير الأسماء:٥٣]

(٢) [المفردات:٤٦٣]

(٣) [مختصر النهج الأسنى:٢٥٩]

(٤) [التبيان في أقسام القرآن:٩٤]

أوصافه- لا يستطيع أحدٌ إحصاء الثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يُثني عليه خلقُه، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه: «..لا أُحصي ثناءً علَيكَ أنتَ كما أثنيتَ علَى نفسِك»(١).

أسماؤه كلها مجد، فهي أشرف الأسماء وأكثرها معنى، قد بلغتَ من الحسن منتهاه، ومن الكمال أقصاه، ومن المعنى أوسعه وأكمله، وهي ذات دلالة ثابتة لأسمى المعاني.

وصفاته صفات عظمة، له أكمل الأوصاف منها وأتمها وأعلاها، فلا نقص فيها ولا عيب ولا خلل، بخلاف صفات المخلوقين ففيها من النقص ما لا يخفى ولا ينحصر.

فحياته حياة كمال لم يسبقها عدم ولا يلحقها فناء ولا زوال، ولا يعتريها نقص ولا ضعف.

وعلمه قد بلغ الكمال في منتهاه، فهو علمٌ لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان.

وأفعاله أفعال مجد وحمد، وهي دائرة بين الفضل والإكرام، والعدل في قضائه وقدره ليس فيها ظلم أو شطط، بل مشتملة على الكمال والرحمة في شرعه وجزائه وثوابه وعقابه.

وأقواله أقوال مجد وصدق وعدل، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام:١١٥]

قد امتلأت قلوبُ عباده العارفين به من تعظيمه وإجلاله، وانشغلت ألسنتُهم

(١) رواه مسلم.

بتسبيحه وتحميده وتكبيره، وأكثروا من المديح له والثناء عليه، ذلك أنّ ربهم قد كمل فضله وعطاؤه وإحسانه، والنفوس تُحبُّ وتُجلّ من كمل في ذاته، وتمّ في إحسانه، ولا أكمل من ربهم في هذه الخصال.

وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُحبُّ المدح والثناء «فلا أحد أحبُّ إليه المِدْحة من الله، فلذلك مدح نفسه» كما صح بذلك الحديث عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو في صحيح البخاري.

وجاء في الأدب المفرد: أنّ الأسود بن سريع، قال: كنتُ شاعرًا فأتيتُ النبيَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقلت: ألا أنشدك محامد حمدتُ ربي بها؟ فقال: «إنّ ربك يحب الحمد»[(١)].

فمن عرف الله حق المعرفة مجّده بما يليق بكماله وجلاله، ولهج لسانه بكثرة ذكره وشكره والثناء عليه.

وكثرة الثناء على الله لها أثرها على القلب، فبها يحصل الخشوع والخضوع والذلة والاستكانة، وهي التي تُعلي العبد عند ربه؛ وبكثرة تمجيد الله تزداد المحبة في القلب له، وهي أرفع المقامات التي ينتفع بها العبدُ في الدارين.

- ومن أعظم المواضع التي تخضع فيها النفس لله ويجتمع على القلب حضوره: (الصلاة) فيستحضر المصلي عظمة الله، ومجده وسعة صفاته، وكمال أوصافه وهو يُثني على ربه في ابتداء صلاته بدعاء الاستفتاح، ولذا اختار الإمامُ أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ الاستفتاح بدعاء «سُبْحَانك اللَّهم وبحَمْدِك

(١) حديث حسن.

وتبارك اسْمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غَيْرك»[1]. لأنّ فيه التمجيد والثناء على الله.

ومن مواطن التمجيد في الصلاة: الركوع والسجود وما يكون فيهما من التسبيح لله، وكذلك الرفع بعد الركوع كما جاء في حديث الرفع من الركوع: «أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبدُ وكلنا لك عبد..» ويختمها بالصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ختام الصلاة الإبراهيمية «إنّك حميد مجيد» فلا يخرج من صلاته إلا وقد سكن قلبه إجلال الله المستحق للثناء والتمجيد، فينجو من الشرك والرياء، وطلب المحمدة عند النّاس، ويستقرّ في نفسه تعظيم الله وإجلاله؛ فيا لله كم لهذا الاسم من أثرٍ على قلب المسبِّح والداعي به.

والقرآنُ الكريم: كتابٌ مجيدٌ لشرف أوصافه وسعتها، فهو كلام الله؛ وتعظيمه يكون بالإيمان أنّه كلام الله، وبتعظيم مَن أنزله، واعتقاد مباينته لكلام البشر، وكثرة تلاوته، وإجلال أوامره، وحضور القلب عند التلاوة وسماعه، والتأدّب بآدابه، ونشره وتعريف الناس بمكانته ومنزلته ونحوها، فمَن عظّم القرآن حق التعظيم ناله من الشرف والرفعة في الدارين بقدر تعظيمه لكتاب الله.

ومن سبل تعظيم الله وتمجيده: كثرة ذكره والثناء عليه مستحضراً عظمته عند الذكر.

وسمى اللهُ -أيضًا- عرشه بالمجيد لعلو مكانته ومنزلته، فالعرشُ أكبر المخلوقات، وأعظمها وأجلّها؛ وإذا كانت السماوات السبع والأراضين السبع -على سعتها وعظمتها- بالنسبة للكرسي كحلقة ملقاة في فلاة، والكرسي بالنسبة

---

(١) رواه أبودود وأحمد [مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود السجستاني:٤٦]

للعرش كحلقة ملقاة في فلاة، فكيف هي عظمة العرش؟!

وكيف هي عظمة خالقه سبحانه؟!

وكل مجـدٍ يناله العبدِ إنّما هو عطاءً وتفضّلاً ومنّـة من ربه المجيد، فليعرف العبد فضل ربه عليه، ولْيُسند الإحسان له في كلِّ شؤونه.

فاللهم ارزقنا معرفتك حق المعرفة، وتمجيدك حق التمجيد.

اللهم اجعل في قلوبنا محبتك وتعظيمك، وفي ألسنتنا ذكرك يا حميد يا مجيد.

❊❊❊

(٥٦) النُّور

من أسـماء الله: (النـور) على ما اختاره جمعٌ من أهـل العلم، منهم ابن تيمية وابن القيم، ومن المعاصرين الشيخ ابن عثيمين رحمهم الله جميعاً.

قال ابن تيمية: (والنصوصُ التي سمى اللهُ فيها نفسه (نوراً) جاءت بثلاثة:

الأوّل: اتّصافه بصفة النور في قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩].

الثاني: كونه تعالى نوراً، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]

الثالث: حجابه النور كما صحّ به الحديث «حجابه النور ...»)[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد أخبر الله في كتابه أنَّ الأرض تشـرق بنور ربها، فإذا كانت تشرق من نوره، كيف لا يكون هو نوراً؟!)[٢].

قال الإمام ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (النور من أوصافه على نوعين:

نورٌ حسي: وهو ما اتصف به من النور العظيم، الذي لو كشف حجابه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه ... وهو الذي استنارت به العوالم كلها، فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار العرش، وجميع الأكوان.

النوع الثاني: النور المعنوي، وهو النور الذي نوّر قلوب أنبياءه وأصفياءه من أنوار معرفته، وأنوار محبته، فإنّ لمعرفته في قلوب أوليائه أنواراً بحسـب ما عرفوه من نعوت جلاله، وما اعتقدوه من صفات جماله)[٣].

---

(١) [مجموع الفتاوى:٢/ ٣٨٦]

(٢) [مجموع الفتاوى٢/ ٣٩٢]

(٣) [الحق الواضح المبين:٢٤٠]

وكان رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُثني على ربه إذا قام من الليل، فيقول: «اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن -الحديث-»[(١)].

وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور..»[(٢)].

فالنورُ يُطلق على الله اسماً، ويُطلق عليه وصفاً، وهو نوعان: أحدهما: صفة من صفات الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهذا كسائر صفاته لا يُدرك كنهه أحد، ولا مثيل لها، فنؤمنُ به على ظاهره كإيماننا بسائر صفاته، فلا نكيّفه ولا نمثّله ولا نعطّله أو ننفيه أو نشبهه بالأنوار المخلوقة -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-.

والثاني: خلقٌ من خلقه.

فكما أنّ الرحمة نوعان الأول: صفة من صفاته، والثانية: خلق من خلقه، فكذلك النور.

ومن النور المخلوق: (الحجاب الذي احتجب به عن خلقه) فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام فينا رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخمسِ كلماتٍ: قال: «إنَّ اللهَ لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، ولكن يخفضُ القسطَ ويرفعُه، يُرفعُ إليه عملُ اللَّيلِ قبل عملِ النَّهارِ، وعملُ النَّهارِ قبلَ عملِ اللَّيلِ، حجابُه النُّورُ، لو كشفها لأحرقت سبُحاتُ وجهِه ما انتهَى إليه بصرُه من خلقِه»[(٣)].

ولمّا سُئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل رأيت ربك ؟ قال: «نّور أنى أراه»[(٤)].

---

(١) الحديث في الصحيحين.

(٢) ذكره الذهبي في العلو.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

فلو كشف ذلك الحجاب -وهو: النور المخلوق؛ غير نور الذات الإلهية لأحرقت سبحات وجهه ومحاسنه وجماله وجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما انتهى إليه بصره من خلقه حتى الملائكة المخلوقة من نور ستحترق لأنّه يرى كل شيء؛ ولولا أنّ الله يمكّن المؤمنين في الجنة من النظر إليه، ويجعل في عيونهم القوة والقدرة على رؤيته ما استطاعوا النظر إليه على الإطلاق لكنّه يُنعم عليهم بأن ينظروا إليه وهم على الأسرة في جنات النعيم على الأرائك ينظرون.

ولمّا كان من أسمائه: (النور) كان شرُعه نوراً، ورسولُه نوراً، وكلامُه نوراً، ودارُ كرامته لأوليائه نوراً يتلألأ، والنورُ يتوقّد في قلوب عباده المؤمنين، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وهو نوره في قلب عبده المؤمن؛ وهو نور الفطرة ونور الإيمان والهداية والاستقامة.

وإنّ من ألمع الأنوار توهجًا: قناديلُ العلم؛ فالعلمُ نور، والجهل موت وظلمة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢]

فهذا النور هو: نور الإيمان والعلم الذي يُحيي الله به القلوب، وكلما زاد العبد إيمانًا وتقوى زاد نوره ورأى جميع الأمور على حقائقها، فعرف الدين الحق فاتّبعه، وفرّق بينه وبين الدين الباطل، وأبصر السبيل الواضح، والمنهج البيّن الأبلج، فسلكه وابتعد عن البدعة وصار من أهل السنة، وزاد نوراً في معرفة أوامر ربه، فعرف مواطن رضاه فأقبل عليها، وأبصر طرق سخطه فاجتنبها، فقد بان له السبيل، واتضح له الطرق، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]

فيسير المؤمنُ في هذه الدنيا بهذه الأنوار، فإذا ما قضى الله عليه بالموت، ودخل قبره كان معه ذلك النور، فقد ورد في حديث نعيم المؤمن في قبره «ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ»(١).

فيبقى في نعيم كامل وهو يرى آثار طاعته حتى إذا ما بقي في قبره ما شاء الله أن يبقى ثمّ قضى الله بخروج الأجساد ليوم الحساب والجزاء، وقُسّمت الأنوار على الخلائق، وأطُفِئت أنوار أهل الشرك والنفاق والضلال أتمّ الله له نوره، وأكمل له سعادته فبقي نوره معه الذي اقتبسه من الدنيا بطاعة ربه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ [الحديد:١٢]

وتشتدّ حاجة المؤمنين لهذا النور، فيسألونه ربهم فيُتمّه عليهم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم:٨]

ويكون هذا النور مع المؤمنين في أشدّ المواقف وأعظمها حَرَجًا وهي ساعة المشي على الصراط، فوق الدار المظلمة الموحشة (جهنم) فتُقسّم الأنوار هناك، ففي حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُجْمَعُ الناسُ يومَ القيامةِ -إلى أن قال- : فيُعْطَوْنَ نورَهم على قَدْرِ أعمالِهم، فمنهم مَن يُعْطى نُورَه مِثْلَ الجبلِ بينَ يَدَيْه، ومنهم مَن يُعْطَى نُورَه فوقَ ذلك، ومنهم مَن يُعْطى نُورَه مِثْلَ النخلةِ بيمينِه، ومنهم مَن يُعْطَى دون ذلك بيمينه، حتى يكونَ آخِرُ مَن يُعْطى نُورَه على إبهامِ قَدمِه، يُضيءُ مَرَّةً ويُطْفِئُ مَرَّةً، وإذا أضاء قَدَّمَ قَدَمَه، وإذا طَفِئَ قام،

(١) رواه الترمذي.

قال فيَمُرُّ ويَمُرُّونَ على الصراطِ..»[1].

ولقد جعل الله لنيل هذا النور أسبابًا من أجلّها:

(التوحيد) فهو أساس مصدر النور للعبد في الدنيا والآخرة، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾ [الزمر:٢٢] وكلما قوي التوحيد في القلب ازداد نوراً وانشرح وأقبل على الطاعات.

ومن أسباب نيل هذا النور: الأعمال الصالحة، فهي نور لصاحبها في الدنيا والآخرة، والعبدُ أفقر ما يكون لهذا النور الذي يُضيء له حياته ويستنير بها دربه، فكم فات من فاته هذا النور من خيرات، وكم خسر من مكرمات، وإذا أردت أن تعرف عظيم خسارة هذا النور، فانظر لحال من يكون معه النور يوم القيامة وكيف ينجو من مهالك الظلام هناك.

ومن أعظم هذه الأعمال الصالحة: الصلاة – خصوصًا صلاة الفجر والعشاء، وصلاة الليل – فهي نورٌ للقلب والوجه، وكل ما يتعلق بالصلاة نور، فالوضوءُ نور لأعضاء المتطهر، والمشي إلى المسجد في الظلم يقتبس منه المؤمن نوراً في الدنيا ويكون له نوراً يوم القيامة.

ومن مصادر النور: كتاب الله الذي يهدي به من اتبع رضوانه، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء:١٧٤]

(١) رواه الحاكم، وهو في صحيح الترغيب.

وفي وصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «وعليك بتلاوة القرآن وذكر الله فإنّه نورٌ لك في الأرض، وذخرٌ لك في السماء»(١).

وقراءة سورة الكهف نوراً لصاحبها، والشيب في الإسلام نوراً يوم القيامة، ورمي الجمار في الحجِّ نور، ومن رمى في سبيل الله بسهم كان له نوراً يوم القيامة، والمتحابون في الله على منابر من نور يوم القيامة، وبكل لك وردت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإذا دعا العبدُ ربَه بأن يهبه نوراً يُنير له قلبه وسائر جوارحه ويُحيط به من جميع الجهات رزقه ذلك الفضل، وجعله في عَظْمه ولحْمه ودمه وبشرته ومن رُزق هذا فقد رُزق خيراً كثيراً.

وإذا سأل العبدُ ربَه كل صباح خير يومه وفتحه ونصره ونوره وبركته ناله من خيرات هذا اليوم ما لا يخطر له على بال، فالزم -يا عبد الله- مثل هذه الدعوات واقتبس النور من كتاب ربك تنال بركات يومك وسائر حياتك.

ودين الله نوره الذي لا ينقطع، ولئن حاول أعداؤه إطفاء ذلك النور فيبقى سعيهم خائبًا، وجمعهم خسارة عليهم ويُغلبون، فقد قضى الله ببقاء هذا النور إلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها.

ومن معاني النور: الهادي.

قال ابن جرير الطبري: معنى ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]: (أي: هادي

(١) رواه ابن حبان.

من في السماوات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون)[١].

فاللهـم ارزقنا هذا النور، ونوّر به بصائرنـا وقلوبنا وطريقنا ودنيانا وآخرتنا يا نور السماوات والأرض.

***

(١) [تفسير سور النور للطبري]

(٥٧ ، ٥٨) الشاكر، الشكور

وهما من أسـماء الله، وقد ورد اسم (الشاكر) في القرآن الكريم مرتين، وورد اسم (الشكور) أربع مرات.

فالله شـاكرٌ لعباده وشـكورٌ لهـم؛ رغّب عباده في الطاعـات -وإن صغرت في نظرهم- ليُثيبهم عليها.

ويذنبُ العبدُ الزمنَ الطويل ثمّ يفعل الطاعة اليسيرة فيشكرها اللهُ له، ويغفر له ذنوبه بسببها مع يسرها، ويدخله الجنّة لأنّه ربٌّ شكور.

قـال الخطابـي في معنى (الشـكور): (هو الذي يشـكر اليسـير مـن الطاعة، فيُثيب عليهـا الكثير من الثواب، ويُعطي الجزيل من النعمة، ويرضى باليسـير من الشكر)[١].

ومظاهر شكره لعباده لا حصر لها:

فمـن شُـكْرِه لعبـاده: أن يُضاعف لهم الحسـنة عشـرة أضعاف -وهـذا أقلُّ تضعيف- إلى سـبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ولا يُضاعف السـيئة بل يعفو ويصفح ويتجاوز.

ومن شـكره لعبده: أن يُثيبه علـى نية العمل الصالح، فلو همّ العبدُ بالحسـنة كتبها عنده حسنة كاملة لأنّه كريم شكور.

ويشـكرُ من شـرع بعمل صالح ثم حال بينه وبين إتمامه حائل، فيجازيه عليه

---

(١) [شأن الدعاء:٥٦]

وكأنّه قام به على أكمل وجه لأنّه جواد شكور.

ومن شكره لعبده أن يجمع لعبده الصادق ثواب أعمال تزاحمت في وقتها ولم يمنعه عنها إلا انشغاله بأحدهما كمن تزاحم عليه بِرّ الوالدين وصلاة النافلة، أو طلب علم ورعاية أهل ونحو ذلك، فيُكرمه بالثواب عليهما لعلمه بالمانع، فسبحان ربنا الشكور الغفور.

ومن شُكْرِه لعبده توفيقه للطاعات، وشرْح صدره لها، وتيسيرها له، والتلذذ بها، فيوفقه لها ابتداءً ثم يثيبه عليها انتهاءً، ففضله سابقٌ ولاحق، فهو الموفق ابتداءً المثيب انتهاءً.

وكلما أخلص العبد في طلب الطاعة وحرص على عدم فواتها، كلما زاده توفيقًا، فتراه من طاعة لأختها، ومن عمل صالح لآخر قد امتلأتْ حياته بالقربات وترى البركة محيطة به.

ومن شُكْرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعبده: أن يكتب له محبته، ومحبة الملأ الأعلى له، ويجعل له القبول في الأرض، فتجده محبوبًا مقبولاً عندهم قد صار له ذكراً حسنًا بينهم، وهذا عطاء لا يملكه إلا الله، فقلوب العباد بيده، وكم سعى إنسانٌ أن يكون له قبولاً ومكانةً في نفوس الخلق فلم يحصل له ما أراد لأنّ هذا الأمر بيد الله وحده.

ومن شُكْرِه لعباده: أن يرزقهم جنّةً عرضها السموات والأرض في مقام سرمدي أبدي بأعمال محدودة منهم -يشوبها ما يشوبها من التقصير والخلل- ولكنّه جوادٌ شكور، وتأمّل معي هذا الحديث العجيب المتعلّق بهذا لترى عظيم فضل الله على أهل جنّته، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لو أنَّ رجلًا يُجَرُّ على وجهِهِ من

يومِ وُلِدَ إلى يومِ يموتُ هَرَما في مَرْضاةِ الله تعالى لحقَرَه يومَ القيامَةِ»[١].

فأعمالُ العبد -وإن بلغت آلاف السنين- لا تعدل شيئًا أمام نعيم الجنّة العظيم ولو لحظة واحدة، فكيف وهي ثواب لأعمارٍ محدودةٍ جداً لا تتعدى سنوات معدودات، بل ربما أقل من ذلك بكثير ومع ذلك يُثيبه المقام الأبدي في خير دار.

ومن شُكْرِه وواسع فضله، تفضلّه على طائفة من أهل النّار بالخروج منها، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ»[٢].

وهذا شكر عظيم منه سبحانه، بل من شكره وإحسانه أنّه يخلق للجنّة خلقًا لم يعملوا خيراً قط، فعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ الله لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ»[٣].

فإذا عرف العبد شُكْر الله للطائعين، وكثرة ثوابه للعاملين تطلّعت نفسه لفعل المزيد منها رجاء زيادة الثواب من الله، وهذا ما فقهه الصالحون من العباد فسعوا لكثرة القربات، وأفنوا أعمارهم في مرضات ربهم لمعرفة حسن صنيعه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لعبده العابد، وشكره وثوابه للمحسن الناسك.

(١) رواه الإمام أحمد.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) متفق عليه.

ومن شُكْرِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ثناؤه على عباده الصالحين وإبقاء ذكرهم، فإذا قام العبدُ مقامًا يحبه ربُه شكره وأحسن إليه كما شكر لمؤمن آل فرعون عمله وجهاده وصدعه بكلمة الحق، وأبقى له ذكراً حسنًا في آيات تُتلى إلى يوم القيامة، وشَكَر لصدّيق الأمّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمله وجهاده ونصرته لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم قام المقامات العالية في الدين من تصديق نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبذله حياته وماله في سبيل مرضاة الله، فأثنى عليه في آيات تتلى إلى يوم القيامة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر:٣٣] قال بعضهم: الذي جاء بالصدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصدّق به: هو أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)].

وأبقى اللهُ ذكر الصحابة رضوان الله عليهم والصالحين من بعدهم ممّن أفنوا أعمارهم في طاعته، فجعل لهم ذكرًا حسنًا في العالمين، ومن قبلهم الأنبياء الكرام -عليهم الصلاة والسلام- فبقيت سيرتهم وأعمالهم قرآنًا يُتلى، وأحاديث تروى ليُوقن العبدُ أنّ أشرف العطايا: الصلاح والاستقامة، فيحرص عليها حياته كلها، وليوقن أنّ أعظم الشكر: شكر اللهُ.

ومن شُكْرِه لعبده: أن يعوّضه عمّا ترك لأجله، ويُعطيه أفضل منه (فمن ترك شيئًا لله عوّضه الله خيراً منه).

وانظر كيف عوّض الله نبيه يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لعفته وصبره على السجن وسائر الفتن، فجعل له المُلْك والمكانة، والرِفعة في الدارين.

---

(١) [انظر تفسير سورة الزمر للطبري]

وشـواهد العِوض من الله لعبـاده لا تُحصى، يترك العبد المعصية فيعوّضه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه، ويترك المال الحرام فيرزقه الله رزقًا واسعًا في حياته، وغيرها من أنواع العِوض، وليس شـرطًا دومًا أن يجد العبد العِوض في الدنيا بل يكفيه الأجر والثواب في الآخرة.

ومن كمال غناه: أنّه غنيٌّ عن شـكر العباد ولا ينفعه شـكرهم، بل هو شـكور قبل شكرهم وعبادتهم.

وينبغي للعبد أن يُكثر من الطاعات التي جاءت النصوص بذكر شكر الله لأهلها -على الخصوص- لأنّها في المقام الأعلى، والمكان الأسمى، ومن أعظمها:

شـكر الله على الـدوام، والإقامة على طاعته فقد جعل الشـكر طريقًا للمزيد فحثّهم على ذلك لِما لهذا الشكر من آثار على العباد، مع المداومة على الاستغفار عنـد التقصيـر، فالعبد لا يزال بخير مادام أنّه قائم علـى طاعة ربه، مؤديًا فرضه لا يتخلف عن مواطن رضاه، ولا تشغله دنياه عن القيام بحقه.

ومنها: المتابعة بين الحـج والعمرة، فمن تطوّع خيراً بهما فإنّ الله لأصحابها شاكرٌ عليمٌ.

ومنها: تلاوة القرآن على الدوام، فاللهُ يشكر صاحبَ القرآن الملازمَ له ويرزقه الأنس به والاسـتغناء به عن النـاس، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠ ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠]

وفي الجملة فإنّ من تأمّل في ثواب جميعَ الأعمال الصالحة وجد شكراً من الله لأهلها، يوقن معه بسعة رحمته وإحسانه للعباد، فانظر لثواب الوضوء وكيف يكون سبباً لتكفير الذنوب والخطايا مع يسره، وتأمّل في فضل صلاة الفجر والعشاء وبقية الصلوات وصلاة النافلة، وكثرة ثواب الذكر اليسير، ومضاعفة أجر الصدقة بالقليل، وثواب التبسّم والكلمة الطيبة .. فكم فيها من حسنات مضاعَفة كل ذلك مقابل أعمال يسيرة.

وكذلك صوم رمضان فإنّه مكفّرٌ للذنوب، وصوم يوم عاشوراء يُكفّر ذنوب عام، وصيام يوم عرفة يُكفّر ذنوب عامين، ويعود الحاجُّ المخلص من حجِّه كيوم ولدته أمه... كل ذلك فضلاً من الله ورحمة.

وأهل الجنة عندما يرون ثواب أعمالهم يوقنون بفضل الله عليهم ورحمته بهم، حيث هداهم، ويسر لهم دخول الجنّة، وأثابهم داراً جمعت كل نعيم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر:٣٤]

فافرح أيّها المؤمنُ الموحّد بهذا الفضل من ربك، وتعرّف عليه بهذا الاسم الذي يُوجب محبته والثناء عليه.

فاللهم هب لنا شكراً لأعمالنا على تقصيرنا، وثناءً منك ندرك به التوفيق، ورحمة من لدنك ننال بها أعلى الدرجات.

❊❊❊

(٥٩) الحق

من أسماء الله (الحق) وقد ورد هذا الاسم في كتاب الله عشر مرات.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢]

(فالله عَزَّوَجَلَّ حق في ذاته وصفاته، وهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل، ولا يزال، بالجلال، والجمال، والكمال موصوفًا، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفًا)(١).

قال الخطابي: (الحقُّ هو: المُتحقق كونه ووجوده، وكلُّ شيءٍ صحّ وجوده وكونه فهو حق)(٢).

وهو: (الحق: الذي لا يسع إنكاره، ويلزم ثبوته والاعتراف به)(٣).

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حقٌّ، وقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، والنبيون حق، والكتب التي أنزلها حق، ودينه حق، ووعده بالجنّة حق، ووعيده بالنّار حق (وكل شيء يُنسب إليه حق).

ولو تجرّد طالب الحق لدلّه هذا التجرّد على الله، ولساقه هذا للإيمان به، واتّباع شرعه، ولزال عنه كل شك، واضمحلت عنه كلَّ شبهة.

(١) [الثمر المجتبى مختصر شرح أسماء الله الحسنى:١٠٣]
(٢) [شأن الدعاء:٧٦]
(٣) [مختصر النهج الأسمى:٢٧٢]

فالدلائل على الله ووحدانيته وعظمته لا حصر لها، فهذه الآيات المخلوقة بإبداع دليلٌ على أنّ خالقَها إلهٌ حقٌ عليمٌ قديرٌ، فيستحيل أن يكون الكون قد وُجِد صدفة، أو أن ينتظم هذا الانتظام بدون مُدبّر.

وفي يوم القيامة تظهر حقائق كلَّ ما أخبر اللهُ به أو أخبرت به رسلُه، فينتفع من آمن بها بالغيب -وإن لم يرها في الدنيا- أمّا الشّاكون فإيمانهم بها يوم القيامة لا ينفعهم لأنّه قد فات وقت الإيمان، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ:٥٤] قال الحسن البصري: (حيل بينهم وبين الإيمان)[١].

(والله هو (الحق) الذي بيّن كلَّ شيء) وأوضحه وجلّاه، فلم يعد للخلق عليه حُجّة، فقد جعل في الحق شواهد ظاهرة تدلّ عليه، وجعل في النفوس معرفته.

وهو (الحق) في بقائه وسرمديته، فالله لا يحول ولا يزول، وحياته أزلية أبدية، فهل يستقر الكون بدون رب قوي قادر مالك؟! هذا أمر مُحال.

وهو (الحق) في ربوبيته وتدبير أمور العباد، وتصريف شؤونهم بمقتضى حكمته وإرادته، قد تولى رزقهم، وكفاية شؤونهم.

وهو (الإله الحق) المستحق للعبادة دون سواه، قام على ثبوت إلهِّيته أدلةٌ لا حصر لها، منها: ما قام في النفوس من الاعتراف بربوبيته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١]

---

(١) [تفسير سورة سبأ للطبري]

فعبادة من هذا وصفه حق، وعبادة ما دونه -ممّن لا يملك ضراً ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً- باطلة واضحة البطلان.

وقد فطَر الخلق على وحدانيته، فالمشركُ قد خالف الفطرة، وتنكّب الطريق، واستكبر عن كل دليل يدلّ على وحدانية الله، واستحقاقه للعبادة.

ومن دلائل استحقاق إفراد الله بالعبادة: انفرادُه بالكمال المطلق في الصفات والأسماء والأفعال، فمن تأمّل في أسمائه، وعرف معانيه على الوجه الصحيح، وتأمّل في صفاته وما دلت عليه من معانٍ جليله، وتأمّل في أفعاله الدالة على كماله وعظمته دلّه ذلك كلَه على إله حق مستحق للعبادة دون سواه.

والنظر بإنصاف للآلهة التي تُعبد من دون الله، والتي جمعت كل نقص تدلّ على بطلانها، فكيف يكون الإله لا يسمع ولا يُبصر ولا يدفع عن عابده ضراً أو يجلب له نفعًا كحال الأصنام، أو يكون الإله آدمي يأكل ويشرب، ويحتاج لما يحتاجه سائر البشر فهذا لا يصلح أن يكون إلهًا ... وشواهد هذا الحق لا حصر لها.

وهو: الملك الحق الذي له الملك المطلق، ومن مقتضيات ملكه: أنّه لم يخلق خلقه عبثًا بل خلقهم لغاية جليلة، وحكمة عظيمة وهي: (العبادة) كما أبان عن ذلك في كتابه المجيد، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم واستجابتهم له، وسيختلف جزاؤهم لاختلاف أعمالهم، وهذا مقتضى عدله الحق، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦]

وهو الحق: في كلماته الشرعية والقدرية، فأخباره كلها حق وصدق، وأحكامه كلها عدل وكمال، وهي دائرة بين العدل والفضل، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ

﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام:١١٥]

خلق السماوات بالحق، ودليلاً على عظمة خالقها، وأنّه مستحق للعبادة، وجعلها برهانًا على وجوب الحساب والجزاء، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣﴾ [النحل:٣]

وهو الحق: في بيان السبيل والطريق لئلا يكون للعباد حجة عليه، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾ [النحل:٩]

وأنزل الكتب بالحق كاملة محكمة لا خلل فيه ولا عوج ليعلم العباد أنّها حق، وجعلها حاكمة بين النّاس بالحق حتى لا يُظلم أحد، قال اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران:٣] وقصّ فيها من أحوال الأمم السابقة بصورة واضحة بيّنة لا تناقض بينها ولا اختلاف ليعتبر العباد وليعلموا أنّها: (القصص الحق) فينتفعوا بها، ولتكون لهم نبراسًا في الحياة، فالتاريخ يُعيد نفسه ومن لم يتعّظ بغيره فبماذا يتعّظ؟!.

وأرسل الرسل (بالهدى ودين الحق) وكان من دلائل صدقهم -وأنّهم رسل الله حقًا، وما جاؤا به هو الحق- أن جعل الغلبة لهم، والعاقبة لهم ليعتبر العباد بصدقهم، وتأييد الله لهم، فقامت الدلائل الواضحة على وحدانيته، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة:٣٣] ودلائل صدقهم لا حصر لها.

وهدى النفوس لمصالحها وما ينفعها في أمور دنياها وآخرتها، وجعل فيها معرفة الحق والباطل، فتبيّن بهذا أنّ كلَّ ما قضاه عليهم لا ظلم فيه، بل كان ظلمهم لأنفسهم ظاهر، وعنادهم بيّن، ولذا كان الانتقام منهم هو عين العدل والحق.

ووعْـد اللهُ عبـادَه -وكان وعـده حقًا- فقد أقام من الدلائـل على صدق هذا الوعد بما تُذعن له النفوس، وتتعظ به القلوب المتبصرة، وتستدل به على صدق وعده بعد الموت.

وسـيَصدقُ المؤمنيـن بنعيم الجنـة، فينالونـه ويتنعّمون به، ويصـدَق وعيده الكافرين فيذوقون عذاب النار.

ومن عرف أنّ الله حقٌّ، وشـرعه حق، وكلامه حق، ورسـله حق، وكتابه حق، ووعده حق، ووعيده حق، سلّم واستسلم له، وأيقن أنّ الله تعالى لا يظلم أحداً.

ومن عرف ربه حقًا توكل عليه صدقًا، فهو الذي بيده أمور كل شـيء، وهو يجير ولا يُجـارُ عليه، فالله هو الحـق، وينصر الحق، ويُؤيد أهـل الحق، ويُعينهم ويسددهم وينصرهم، ويكفيهم أعداءهم فمن كان هذا شأنه توكلت القلوبُ عليه، وتعلقـت النفوسُ به، ولذا جاء الأمـر بالتوكل عليه بقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾ [النمل:٧٩]

والتـوكل علـى الله هو هـدي أنبيائه ورسـله عليهم الصلاة والسـلام قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عنهـم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ [إبراهيم:١٢]

فـإذا عـرف العبدُ هـذا، وأيقن بهـذه الأمور شـكر ربَه أن هـداه لدين الحق، ورضـي بكل أقضيته القدرية لأنها حق، وسـلّم لأحكامه الشـرعية وفعلها بصدر منشرح لأنّها حق وخير للعباد، ووثق بوعده لأوليائه فهو حق وصدق لا مرية فيه.

وعلى العبد أن يُذعن للحق إذا ظهر له، وظهرت علاماته، وبانت آثاره، وتبيّن صوابه، فالتواضع له وقبوله هو سبيل النجاة، فقد تكّبر خلقٌ عليه فأذلهم الله، وخسروا خسرانًا مبينًا، وصاروا للناس آية، وجعلهم أحاديث يعتبر بها المعتبرون.

وكلما زاد إيمان العبد بوعد الله الحق حمله هذا التصديق على الاستجابة التامّة لأمر ربه، والاستعداد للقائه، لأنّ لقاءه حق لا مرية فيه ولاشك، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام:٦٢]

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٤]

فمن أيقن بذلك استعدّ له الاستعداد الكامل، وأيقن أنّه سيقف بين يدي ربه ومولاه، وكلما زاد يقينه بهذا، واستحضر قربه، أكثر من العمل الصالح، وابتعد عن العمل المشين فكانت النجاة بين يدي ربه.

أمّا المُكذّبون بهذا فسينالون عاقبة تكذيبهم، وتُدركهم من الحسرات ما تنقطع له قلوبُهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام:٣١]

فاللهم ارزقنا الايمان الحق بك، والاذعان لشرعك، وارزقنا الاستعداد للقائك، وأحسن وقوفنا بين يديك.

***

(٦٠) الوّهاب

ومن أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: **الوهّاب.**

وقد ورد هذا الاسم في كتاب الله ثلاث مرات، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ [ص:٩]

وهــو الكثيرُ المواهب، المصيبُ بها مواقعها، الذي يقسّــمها على ما تقتضيه حكمته.

وهو المتفضّلُ بالهبات -تفضّلاً منه لا عن استحقاق عليه- يجودُ بالعطاء من غير طلب للثواب من أحد.

كثُـر إحسـانه علـى الخليقـة، وعمّ فضلـه البريـات، وأفاض عليهـم بالنعم والخيرات، وشمل رزقه أهل الأرض والسموات.

انظـر لكثرة هباتـه وتنوّعها على عبـاده، فالعبادُ -وإن وهـب بعضُهم بعضًا عطايا- فهي في حال دون حال، وفي زمان دون زمان، ولا يملكون الهبات الشـاملة المطلقة، فلا يملكون شـفاءً لسقيم، ولا ولداً لعقيم، ولا هداية لضال؛ أمّا اللهُ فهو من يملك جميع ذلك.

وسِع الخلقَ جودُه، فدامت مواهبُه، واتصلت مِننُه وعوائدُه.

وإذا تأمّل العبدُ واستحضر كثرة مواهب ربه أحبّه لا محالة، فما من نعمة عليه إلا وهي من الله، **وهباته ونعمه** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **نوعان:**

هبة دينية: وهي الأشرف، والأسمى، والأبقى، والأنفع للعبد، يختصّ بها طائفةً

من خلقه، وهي دليل لمحبة الله لمن وهبه هذه النعمة. وهي التي ذكرها الله على نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣] فمع أنّه كان في ضيق من دنياه، وفي قتر من العيش فيها حتى أنّه خرج من الدنيا ودرعه مرهونة عند يهودي (ويمرّ الهلالُ، والهلالُ، والهلالُ ثلاثة أهلة في شهرين ولا يُوقد في بيته نار) إلا أنّ فضل النبوة لا يعدله فضل، وهبة الهداية لا تعدلها هبة.

فمن رُزق هداية واستقامة، وتوفيقًا للطاعات، أو رُزق علمًا نافعًا، وقبولاً عند الخلق وغيرها من الهبات الدينية، فعليه أن يحمد ربَه الوهّاب، وأن يشكره عليها، وأن يسعى جاهداً في المحافظة عليها، ويشكره أن خصّه بها من بين العالمين، وأن لا يخدش استقامته خلل، أو يُؤثر على سيره إلى ربه فتنة، بل يهرب منها هروبه من الأسد، ويجعل بينه وبين ما يحول عن امتداد هذا الفضل من الله خندقًا من التقوى والورع حتى لا تُسلب منه.

ومن الهبات الشريفة: أن يهبَ اللهُ عبدَه العلم النافع الذي ينفع به الخلق، ويدلهم به على ربهم، وانظر لآثار أهل العلم قديمًا وحديثًا وكيف نفع الله بعلومهم، وأبقى لهم ذكراً حسنًا في العالمين.

ومن الهبات الخاصّة: أن يهبَ اللهُ عبدَه حُبّ السعي لخدمة عباده، والعمل على تفريج همومهم، وتنفيس كروبهم، فتجد هذا المُوفَق يسعى سعيًا حثيثًا لخدمة الخلق، ويمضي وقته كله في نفعهم، ويبذل ساعات عمره لهم.

ومن الهبات العظيمة والرزق الوفير للعبد: الزوجة الصالحة والولد الصالح البارّ، فهي خير هبات الدنيا، وإذا أردتَ أن تعرف فضلها، فانظر لمن يعاني من زوجة ناشز أو ولد عاق، فإنّه يصطلي بالعذاب بهما أو بأحدهما طيلة حياته ما داموا على

هذه الحال فلذا اجْعَل أكثر دعائك: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان:٧٤]

فهم الذين تقرّ بهم العين في الدنيا، وتطيب بهم الحياة، ولا تيأس من طلب الذرية الصالحة فقد وهبها الوهّاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنبياءه بعد كبر سنهم، ورقة عظمهم، واشتعال رؤوسهم شيبًا، قال الله تعالى: -عن زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ [مريم:٤] فوهبه يحيى نبيًا من الصالحين.

وأثنى إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على ربه بهذه النعمة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم:٣٩]

ومن الهبات التي لا يستحضرها كثير من الخلق:

هبة العافية؛ بجميع صورها وأنواعها؛ فالعافية نعمة جليلة، وهبة عظيمة.

وهذه العافية لا يُدرك حقيقتها إلا من اصطلى بضدها، أو رأى بعض من فقدوها في أوطانهم أو أنفسهم أو أموالهم، فرأى ما يعانونه من آلام، وما يذوقونه من ويلات، ولذا أرشد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيراً من الصحابة والأمّة من بعدهم إلى طلب العافية وسؤالها على الدوام.

ومن الهبات النفيسة: هبة الرحمة من الله، فتسكن الطمأنينةُ قلبَه، ويرى فضل ربه عليه في حياته كلها حتى وإن كان الألم فيها أغلب، والشدة أكثر إلا أنك تراه يرى رحمة الله في أنّه عافاه ممّا هو أكبر منها، يوم يرى المصائب التي نزلت بغيره، من فقد عزيز، وفوات عافية، وارتحال مال وعزٍّ كان فيه، فيعلم بعظيم رحمة الله به، وهباته الخاصّة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا حصر لها

واعلم أنّ هذه الهبات الربانية لا تأتي إلا بعد ابتلاءات وامتحانات كبيرة يمرّ بها العبد الصالح حتى ينالها، فهذا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يوهب الذرية الصالحة بعد ابتلاءات تنوء بحملها الجبال ولكنّه صبر وجاهد في سبيل الله حتى توالتّ عليه الخيرات من ربه، ونال العطايا من مولاه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم:٤٩-٥٠]

والنوع الثاني من الهبات: الهبات الدنيوية، وهي عامة للخلق كلهم من الآدميين -مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم- وهي ليست دليلاً على المحبة، فكم يرفل الكافر بنعم الله التي وهبه إيّاها مع إقامته على كفره، وكذا العاصي والفاجّر، يهبهم الوهّاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأرزاق والعطايا، وكثرة المال وسعة الجاه، ويمدهم بالصحة والعافية، وهذه المواهب ليست دليلاً لكرامتهم على الله، بل فيها دليلٌ واضحٌ على أنّ الدنيا وما فيها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولذلك يهبها الكافر والفاجر.

وهبات الله الدنيوية -أيضًا- لا حصر لها وذلك لسعة كرمه وكثرة إحسانه.

وعلى العبد أن يُعلّق قلبه بالله، ويسأل كل الخيرات منه وحده، ويعظم رجاءه به، فخزائنُ كل شيء بيده، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثير الدعاء له بأن يهبه الخيرات التي لا تنقطع -معلّمًا أمّته هذا السبيل- يقول سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستفتح دعاءً إلا استفتحه بـ: «سبحان ربي الأعلى العليّ الوهّاب»[(١)].

(١) رواه أحمد.

ولتكن همّتك عالية في المطالب، فتطلب من ربك أشرفها وأدومها، من الإيمان الكامل، والعلم النفع، والخُلُق الحسن، والرزق القانع ونحوها من المطالب العالية، واسأله وأنت واثقًا من سعة جوده، وكثرة إحسانه وهباته.

وحقٌّ على من وهبه الله أي نعمة أن يؤدي شكرها وأن يحافظ عليها، وأن يُسند الفضل فيها لله وحده -حتى وإن جرت على أيدي بعض الخلق- فإنّما هم أسباب فقط، وساق الله هذه النعم على أيديهم.

وليْسعَ في المحافظة عليها بكثرة شكر الله، واستدامة الطاعة، والبعد عن المعصية، فما فُقدت النعم إلا بالكفران، وكثرة المعاصي والآثام، فممّا ورد من الدعوات: (اللهم إني اعوذ بك من زوال نعمتك ...)[(١)] فالنعم ثباتها بالطاعة، وصدق الدعاء.

وإذا سُلب العبد نعمة دنيوية، فليصبر وليحتسب فإنّه لا يدري ما موطن الخيرة له، وأي النعم أفضل له، وهل بقاؤها له أنفع أم ذهابها عنه.

وعلى المؤمن أن يتخلّق بهذه الصفة فيُعطي ويهب عباد الله، فالجزاء عند الله من جنس العمل، فمن أحسن للعباد أحسن اللهُ إليه، ومن نفعهم فتح له أبواب الخيرات، ومن أفادهم بالعلم زاد علمه، ومن كان سببًا في رزقهم رزقه، ومن دفع عنهم الشرّ دفع الشر عنه.. وهكذا شأن هبات الله ونعمه تصل العبد، وتُصبُّ عليه صبًا كلما أحسن ونفع عباده.

فاللهم هب لنا من الخيرات ما تقرّ به أعيننا، وهب لنا من العطايا ما تفرح به نفوسنا، وارزقنا جنتك ونعيمها المقيم.

---

(١) رواه مسلم.

(٦١) الشهيد

وقد ورد هذا الاسم في كتاب الله ثمان عشرة مرة، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾ [الإسراء: ٩٦]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من أسمائه: (الشهيد) الذي لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء؛ بل هو مطلع على كل شيء، مشاهد له، عليم بتفاصيله)(١).

قال الزجاجي: (فالله عَزَّوَجَلَّ لما كانت الأشياء لا تخفى عليه، كان شهيداً لها وشاهداً لها، أي: عالماً بها وبحقائقها، عِلْمُ المشاهدة لها؛ لأنّه لا تخفى عليه خافية)(٢).

وشهادةُ الله لأعمال عباده بكمال علم، وإحاطة شاملة.

يفعل العبد المعصية فينساها، ولا تخطر له ببال، ولكنّ الله قد أحصى عليه كل صغير وكبير، وجليل وحقير، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة: ٦]

وشهادته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عامّة لا يغيب معها أيُّ شيء من حال العباد، فهي شهادة بصير سميع خبير.

فيا أيّها العابدُ في محرابِ تعبّده.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٣٣).
(٢) [النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى]

وأيّها الداعيةُ في ميادين الدعوة.

وأيّها المحسنُ المتصدق بمالِه.

وأيّها البارُّ بوالده والواصل لرحمه.

وأيّها العفيفُ المتعفّف.

وأيّها الباكي ذلةً وخضوعًا بين يديه.

وأيّها الصابرُ على كل بلاء، والصابر عن كل دعوة سوء تدعوك إليها النفسُ الأمّارة بالسوء.

يا كلّ هؤلاء وغيرهم من أهل الطاعات، أيقنوا أنّ أعمالكم حاضرة بين يدي ربكم (الشهيد) فلا تخافوا ضياع حسنة، ولا تخشوا ذهاب قّربة، وليكن أنيسكم فيها، قول الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس:٦١]

ويا أيّها العاصي المستخفُّ بنظر الله إليك.

ويا أيها المستتر وقد انتهكت حرمة مولاك.

ويا أيّها المبارز لربك بالكبائر.

ويا أيّها المتجرئ على الحرمات ... أيقن أنّ الله مطَّلِع عليك، ولا يخفى عليه شيئًا من شأنك، قال البصير الشهيد سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٨٠]

- وشـهادتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علـى الكـون ومن فيه تـدل على عظمتـه وجلالة صفاتـه، فانظـر لهذا الكون وسـعته وكثـرة من فيه، واختـلاف أعمالهم وأحوالهـم، ومع ذا فاللهُ شـهيدٌ عليهـم جميعًا لا يخفى عليه شـيء من أمورهـم، وشـهادته عليهـم جميعًا كشـهادته على الفـرد منهم، وذلك لكمالـه وكمال قدرته، وسـعة إحاطته بخلقه، فسـبحان: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ [البروج:٩] وشهادته هذه تدلّ أنّه ليس كمثله شيء، وأنّ صفاتَه تباين صفات عباده، فتأمّل كثرة هذه الأمم وتبايـن أعمالها، واختـلاف أحوالهم ومع ذا فاللهُ شـهيدٌ عليهم جميعًا، ويفصل ويحكم بينهم.

- تكونُ بين العباد مظالم وحقوق، فتذهب الدنيا، ويموت الظالمُ والمظلوم، وتنتهـي آجال المتخاصمين، ولكـنّ اللهَ لا تغيب عنه غائبة في الأرض ولا في السماء، فتكون يوم القيامة الشهادة من الله على العباد حاضرة، ويفصل بينهـم إقامـةً للعدل، وإعطـاءً لكل ذي حق حقه، قـال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج:١٧]

- وهو (الشهيد) الذي شهد لنفسه بأعظم شهادة في الوجود، وهي: **الشهادة له بالتوحيد،** فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:١٨]

وهي الشـهادة التي عليها مدار السعادة والشقاء، والشهادة التي متى ما عرفها المـرء على حقيقتها وأقرّ بها، وقام بمقتضاها سـعد سـعادة أبدية، وعرف مقصد وجوده، وعمل لأجله.

- وهو (الشـهيد) الذي شهد لكتابه بالصدق، وأنّه منزّلٌ من عنده، ولو كان مختلقـاً من النبـي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما يفتـري الكافرون لكذّبـه الله بين الخلائـق، ولكنّ شـهادته له صارت دليلاً على صدقـه، وصدِق من جاء بـه، وصدِق مـا جاء به، ومن تأمّل كتاب الله عـرف ذلك، وأيقن من هذه الحقيقـة التي لا يُنكرهـا إلا مكابر، قال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦]

فلْتَفـرح الأمّةُ بهذا الخير والاصطفاء، ولْيزدد فرحـاً المهتم بكتاب ربه فقد خصّه بنعمة هي خير من الدنيا وما فيها يوم صار القرآن أنيسه وصرف وقته وجهده للقرآن -تعلّماً وتعليماً ومدارسـة ونشراً- فانتسب لأهل القرآن (الذين هم أهلُ الله وخاصّته).

- وشـهد اللهُ لرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالصدق في تبليغ الرسالة، وأيّده بنصْره، وإظهار دينه، وهزم أعداءه، وجعلهم للنّاس عبرة وآية ولكنّ أكثر الخلق غافلون.

ولمّا أنكر الكفارُ نبوة ورسالة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جاء الرد عليهم من الله بأنّه يشـهد له -وكفى به شـهيداً- يقـول الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد:٤٣]

وشـهادته سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أعظم وأرفع وأجلّ شـهادة، لا غلط فيها ولا ظلم ولا محاباة، فمن شهد الله له، فشهادته كافية على صدقه، ولا يحتاج إلى شهادة غيره، ولذلك أمر الله رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يُعلن هذا للمشركين

والكافريـن الذين يُكذّبونه وينازعونه ويعترضون على ما جاء به ببيان أنّ أعظم الشـهداء هو الله تعالى -وهي أكبر شهادة وأصدقها- قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام:١٩]

- فلو كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاذبًا -وحاشاه- لكذّبه الله، وبيّن افتراءه وكذبه-فلمّا جاء التصديق من الله له بهذه الشهادة والتأييد والنصرة على الأعداء والحفظ والرعاية له، وبقاء دينه، وانتشـاره هذا الانتشار، وإقبال العقلاء والمنصفين لاتّباعه، وتأييد الله له، ونصرته والدفاع عنه- دلّ هذا دلالة واضحة على صدقه وصدق ما جاء به .

- ويُصـدّق الله شـهادة الرسـل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ علـى أممهـم بالبـلاغ، قـال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩]

- ولشرف هذه الأمة جعلها شـهيدة على سائر الأمم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]

- ومن معاني (الشـهيد): أنّه يشـهد على الخلق يوم القيامـة، ويُقيم عليهم الشـهداء، فلا أحد أحبّ إليـه العذر من الله، فلذا بعث الرسـلَ -عليهم الصلاة والسـلام- وأنـزل الكتب، وأقام الدلائل علـى العباد، ومن تمام

هذا: إقامة الشهداء عليهم؛ فمع أنّ شهادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أكبر شهادة وكفى بها إلا أنّه من كمال إظهار حجته على العباد أن جعل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يشهدون على أممهم، وتشهد الملائكةُ، ويشهد العبادُ، وتشهد الأرضُ، وتشهد الجوارحُ والأعضاء، وفوق هؤلاء كلهم يشهد اللهُ على العباد حتى لا يبقى لأحد عذر، ويوقن كلهم أنّهم لم يُظلموا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩﴾ [الزمر:٦٩] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور:٢٤] وقال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾ [ق:٢١] فمن عرف هذا استحضر عظمة الشهادة عليه، وأيقن أنّ الله شهيدٌ عليه ومُحَاسِبُه على عمله، فلا يخطو خطوة، ولا يلفظ بقول إلا وهو يراقبه، واجتهد أن لا يصدر منه إلا الأعمال الصالحة، واستحى من ربه أن يراه على معصيته.

إذا ما خَلَوتَ الدَهرَ يَوماً ... فَلا تَقُل خَلَوتُ وَلَكِن قُل عَلَيَّ رَقيبُ
وَلا تَحسَبَنَّ اللَهَ يُغفِلُ ما مَضى ... وَلا أَنَّ ما يَخفى عَلَيهِ يَغيبُ
لَهَونا لَعَمرُ اللَهِ حَتّى تَتابَعَت ... ذُنوبٌ عَلى آثارِهِنَّ ذُنوبُ
فَيا لَيتَ أَنَّ اللَهَ يَغفِرُ ما مَضى ... وَيَأذَنُ في تَوباتِنا فَنَتوبُ

- الأرض التي تطيع الله فيها تشهد لك بين يدي الله كأحوج ما تكون للشهداء، والبقعة التي تسجد عليها تبكي عليك عند فقدك، وتكون شاهدة لك بين يدي الله، فهي تشهد لكل صالح، وعلى كل معتد.

قال بعضُ السلف: (إنّ في دوام الذكر في الطريق والبيت والحضر والسفر والبقاع تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة)

ومن المعاني اللطيفة لهذا الاسم الشريف (الشهيد): أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشاهد للمظلوم الذي لا شاهد له ولا ناصر على الظالم المعتدي، والذي لا مانع له في الدنيا لينتصف له منه.

فاطمئن -أيّها المظلوم- حتى وإن لم يشهد لك أحد في الدنيا لتنال حقك، فالله شهيدٌ لك -ونعم الشهيد هو- فحقك محفوظ، ومظلمتك لا تذهب سدى.

فاللهم فوّضنا أمرنا إليك، واعترفنا بذنوبنا، فاغفر لنا إنّك أنت الغفور الرحيم.

❊❊❊

(٦٢ ، ٦٣) القاهر، القهّار

ومن أسماء الله – تعالى –: القاهر والقهّار.

وورَدَ اسم (القاهر) في الكتاب العزيز مرتين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ١٨﴾ [الأنعام: ١٨] وورد اسم (القهّار) ست مرات؛ منها: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرعد: ١٦]

فاللهُ هو الذي قهر كلَّ شيء، وغلب كلَّ مُتكبِّر، وخضعت له رقابُ العباد، ودانت له أعناق الجبابرة، وذلّت له جميع الأنفس، واستكانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه الأشياء.

(والقهّار) صيغة مبالغة من القاهر لكثرة قهره للعباد.

وقهْرُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عامٌّ للعالَم العلوي والسفلي، فكلهم تحت قبضته، وأمورهم تحت إرادته، عزّ فقهر، وتمّ سلطانه فحكم، وكملت قوته فدان له كل شيء وخضع.

قاهرٌ كامل القهر، فلا يخرج عن أمره شيء طرفة عين، ولذا خضعت له الجبال الصلاب، واستجابت لأمره السماوات والأرض، فمع ضخامتها وقوتها أتته طائعة، وذلّت بين يديه، وانظر لقهره في تسْيير الليل والنهار بانتظام تام يقف أمامه كل البشر عاجزين عن تغْييره أو تبديله.

ولِقهْرِه وقوته كان مستحقاً للعبادة، أمّا ما سواه من الآلهة فهي مخلوقات مغلوبة مقهورة عاجزة، فكيف يُعبد المقهور الذليل؟!

كـم من آلهة تُعبدُ من دون الله، فيُذلها الطفـل الصغير، ويتلاعب بها، وتكون صاغرةً بين يديه، فبِأيِّ عقلٍ يكون هذا إله؟!

واتّصافه بصفة القهر من دلائل وحدانيته، فلا يكون (القهّار) قاهراً قهراً مطلقًا إلا إذا كان واحـداً، إذ لـو كان معه كفؤٌ ولم يقهره لم يكن قهّاراً على الإطلاق، أمّا إذا قهـره فدلّ هذا على تفرّده بالقوة والكمال، ولذا جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قهره المطلق دليلاً عقليًا على وحدانيته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون:٩١]

وهـو القاهـرُ القهّار في نفاذ قضائه وقَدَره في خلقه، فما شـاءه اللهُ عليهم كان، ومالم يشـأه لم يكن؛ كم يسعى الواحد منّا في تدبير شؤون معيشته، ويلهث خلف غاياته ورغباته ولكنّه لا يُحصّل كلَّ ما يريد لأنّ الله ما أراده ولا قضاه.

وكم من إنسـان سعى لعِزّةِ نفسـه، وقد جمع حوله الأعوان، وبذل كل سبب لذلك ولم يتحقق له ما أراد لأنّ إرادة الله فوق إرادته، ومشيئته قبل تدبيره.

وهو القاهرُ فوق عباده، فكم من ذليل أعزّه الله، وأعلى مكانته وإن ظنّ النّاس أنّه لا ينال هذه الرفعة والكرامة.

وهو الذي قهر المعاندين بما أقام عليهم من الآيات والدلائل والحجج على توحيده، وصِدْق رسـله، وإظهـارِ دينه، فمهما حاول أعداء الدين إبطاله وتشـويه صورته، فاللهُ يُعليه ويُظهره على جميع الأديان.

وقَهَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **الجبابرة** فذلوا أمام سلطانه، وخضعوا لإرادته، فما من أحد مـن عتاة البشـر إلا وقد قهره الله، فهزمه وصار لمن بعـده آية تدل على ضعفه أمام

قوة الله لأنّه لا يقف أمام قهْره أحد.

فهـا هو فرعونُ يسـعى في تقتيل أبناء بني إسـرائيل حتى لا يكـون نهاية ملكه علـى أيديهم، فيقهـره الله ويُذله ويُريه أنّ هذا الذي تقتـل من أجله الآلاف، وتكاد تبيـد أمته خوفـاً منه نربيه في بيتك، وتحت نظرك، ونُلقـي عليه حنانَك ورعايتك، فتحفظه وتغذيه ليكبر ويشب ثم يكون هلاكك على يديه لتعلم -ويعلم العالمون من بعدك- أنّ الله هو الواحد القهّار وإذا أراد شيئاً مضى كما أراد.

وحاول إخوة يوسـف قتله وأبعدوه عن أبيه ومكروا به مكراً كُبّاراً، فخيّب اللهُ سعيهم، وأبطل كيدهم، وأعزّ يوسفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حتى جاءه إخوتُه يطلبون إحسانه، ويرغبون بنواله ليعلم الخلق كلهم أنّ الله واحدٌ قهّار.

وهؤلاء اليهود أرادوا قتل عيسـى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وصلبه، وسعوا وخططوا لجرمهم هـذا ولكنّ قوة الله كانت أعظم، وقهره كان أقوى، فرفعه اللهُ إليه في معجزة ظاهرة وقهر لأعدائه، وأذلهم وأهانهم، وضرب عليهم المسكنة، وتتابعت عليهم اللعنات إلى يوم القيامـة، وكُتبوا عند الله قتلة مجرمين بعزمهم ذلك، فنجّاه الله منهم ليعلم العالمُ أجمع أنّ الله واحدٌ قهّار .

وهذه قريش تسـعى في قتل نبي الأمـة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتُجمّع الجموع، وَتَعِـدُ بالمكافـآت لمن قتلـه، ولكـنّ إرادة الله القاهـرة تُذلهم وتجعـل تدبيرهم تدميرهـم، ومكرهم يحور عليهم وبهـم يحيق...في سلسـلة لا منتهى لها من قوة وقهر الله للعباد، ومُضيّ إرادته، ونفاذ مشيئته فيهم.

وكم من ظالم سـعا ضد عبد من عباد الله يكيـد له ويمكر به، ولكنّ الله يرعى ذلك العبد ويحفظه من كيده لأنّه الواحد القهّار.

وكـم من مرض ينزل بكبـار القوم فيجمعون له الأطباء، ويسـعون في علاجه بـكل وسـيلة، ولكـنّ إرادة الله القاهرة تحول بينهـم وبين مـا أرادوا ليعلم الخلق جميعـاً أنّ الله هـو الواحد القهّار، قـال الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧]

ومن نظر في حال نفسه أيقن أنّه مقهور وليس له من أمره شيء، فهو يود أن لا يمرض فيُصاب به رغمًا عنه، ويتمنى الولد -لو كان عقيمـًا- ويبذل في سـبيله كل سـبب فلا يُرزقه، ويودُّ تحقيق أمنيات في نفسـه وولده ومن يعزّ عليه فلا يقدر على تحقيـق كثير منها لأنّ الأمور كلها بيد الله الواحد القهّار، فإذا اسـتحضر العبدُ هذا علِم مقدار نفسـه، وحدود طاقته، وأذعن وتواضع واعترف بقهر الله له وللعالمين حوله.

وهو سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الذي قهر العالمين بالموت، فلا يحيد عنه ملك، ولا يهرب منـه قوي عزيز، فسـبحان مـن قهر عبـاده بما لا يسـتطيعون دفعه عنهـم، قال الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١]

فيبعـث اللهُ ملَـكَ الموت فيتوفى الأنفـس وإن كانت أشـرف النفوس، وإن كان أهلها وحاشـيتها محيطون بها، ويقبض روحَهـا، والكلُّ ينظر إليها، قال الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧]

والله عَزَّوَجَلَّ لا يحتاج في قهره لمعين كحال ملوك الدنيا الذين لا يقهرون إلا بالجنود والأعوان، بل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قويٌ بلا معين، نافذٌ أمرهم بلا ظهير، مستغن عن كل أحد.

وقهْرُ الله ليس فيه ظلم لأحد كحال من قهروا العباد ظلماً وعدواناً، بل هو قهْرٌ لمن استحق القهر والنكال، فيكون نزول العقوبة لائق بهم.

والله يقهر العالمين بذلتهم بين يديه يوم القيامة، فلا تسمع لأحدهم فيه همساً ولا رِكزاً يتخافتون بينهم يوم القيامة خَضَعاناً وذلة لله الواحد القهّار، فتتلاشى أملاكُهم، وتذهب رسومُ سلطانهم، وتنمحي تيجانُهم، وتزول أسماءُ رهبتهم، ويبطل نفاذُ أمرهم لأنّ الكل قد خضعوا لله الواحد القهار، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر:١٦]

وتظهر الذلة على الظلمة كأوضح ما يكون، وترى الصَغَار يُحيط بهم، فقد حلّ بهم تبعات ذنوبهم وظلمهم، وأيقنوا بالعذاب، ففي ذلك اليوم: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٥١ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم:٤٨-٥٢]

فلتطمئنّ النفوسُ المظلومة فإنّ ربها قاهر قهّار، يقهر من ظلمهم لاطّلاعه على كلِّ أعمالهم، ومحيط بجرائمهم، ولئن أخرّ عنهم العذاب برهة من الزمان، فإنّما هو لحكمة تغيب عن الأذهان، ولا تُحيط بها العقول، بل إنّ تأخيره عن هؤلاء الظلمة ليكون -إذا نزل بهم- أنكى وأوجع لهم، ويبقى دائماً مستمراً

عليهم، فحقك محفوظ -أيّها المظلوم- وستأخذه حتمًا، ودعواتك مسموعة، قضى بذلك الملك العدل الحكيم.

اللهم إنا نعوذ بك أن نَضِلّ أو نُضل، أو نزلّ أو نُزلّ، أو نظلم أو نُظلم، أو نجهل أو يُجهل علينا.

❊❊❊

(٦٤) الرؤوف

ومن أسماء الله: الرؤوف.

قال ابن جرير: (والرأفة: أعلى معاني الرحمة)[١].

وورد هذا الاسم عشرَ مرات في كتاب الله تعالى.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الرأفةُ شدّة الرحمة، فهو بمعنى: الرحيم مع المبالغة)[٢]. وقال بعضُهم: الرأفةُ أبلغُ الرحمةُ وأرقُّها.

فاللهُ عظيم الرحمة بعبادة، عطوفٌ عليهم بألطافه، قد بلغت رحمته ورأفته العباد كلهم في الدنيا، ويخصّ بها أولياءه في الآخرة.

قال الخطابي: (الرؤوف هو: الرحيم العاطِفُ برأفته على عباده، وقال بعضُهم: الرأفةُ أبلغُ الرَحمة وأرقُّها)[٣].

ولسعتها فقد جاءت في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة:١٤٣] مؤكدة بنون التوكيد، واللّام، والجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار ليوقن العباد بثبوت رأفة ربهم بهم ودوامها واستمرارها، وهذه هي الرحمة والرأفة العامّة.

وأمّا الرأفة الخاصة، فهي خاصّةٌ بالمؤمنين، ينالها أهل الإيمان كأكمل ما

(١) تفسير الطبري(١٢/ ٢)

(٢) المنهاج الأسنى، للقرطبي (١/ ٢٠١)

(٣) [شأن الدعاء:٩١]

يطمعون، وأوسع ما يأملون، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾ [الحديد:٩]

ولرأفة الله ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مظاهر لا حصر لها، فمن ذلك:

أنّهُ يقبل توبة التائبين مهما بلغت ذنوبهم، وعظمت خطاياهم، ومهما نقض العبادُ توبتهم ثمّ عادوا لها قَبِلها اللهُ منهم لكمال رأفته ورحمته، ولعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بضعف عباده، وغلبت نفوسهم عليهم، فهو الذي: «يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا»(١).

ومن رحمته ورأفته أنّه لا يُكلف العباد فوق طاقتهم، وما ليس بوسعهم، بل جعل شريعته سمحة يسيرة سهلة، وعبادات وفرائض مقدور عليها، فهو كما وصف نفسه: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٧﴾ [البقرة:٢٠٧]

ومن رحمته ورأفته أنّه لا يضيع عمل عامل من عباده، فإنّه يحفظه له، ويُثيبه عليه؛ صلى أُناسٌ من صحابة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جهة بيت المقدس، وماتوا قبل تحويل القبلة، فلمّا تحوّلت تساءل الصحابة -رضوان الله عليهم- عن صلاة إخوانهم، فطمأنهم الرؤوف الرحيم أنّ ثواب صلاتهم محفوظ، وأجرهم باق، فهو بعباده رؤوف رحيم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٣﴾ [البقرة:١٤٣] فلا يخاف عبدٌ ضياع عمل صالح له بل سيبقى ويُدّخر له لينال ثوابه أحوج ما يكون إليه، ولا يُحرم أجره، ولا يفوته أثره، بل ربما نَمّاه له لينال ثوابه يوم القيامة بما لا يخطر له على بال ذلك أنّ ربّه به رؤوف رحيم.

---

(١) رواه مسلم.

ومن رحمته ورأفته أنّه علِم حاجة العباد لبعض المخلوقات كالإبل والخيول والبغال والحمير، فسخّرها لهم لتحملهم وتحمل أثقالهم، ولتُقضى عليها مصالحهم، قال اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧﴾ [النحل:٥-٧]

وسخّر في زماننا مراكب ومخترعات ما ظنّ بنو آدم أن يصلوا إليها، ولكنّه التسخير والرأفة والرحمة بالعباد.

ومن رحمته ورأفته أنّه حذّر العباد نفسه وعقابه لئلا يظلموا أنفسهم باقتحام المعاصي، وأخبرهم أنّهم سيلاقون جزاء أعمالهم، وستجد كلُّ نفسٍ ما عملت من خير أو سوء حاضراً بين يديها، فيحملها هذا العلم أن تعمل صالحاً، وتجتنب كل ما يحول بينها وبين رحمة الله، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٣٠﴾ [آل عمران:٣٠]

ومن رحمته ورأفته أنّه يُمهل من عصى، وتجاوز الحدود لعله يتوب ويُنيبُ إليه، وربما أرسل إليه النُذُر ليستيقظ من غفلته، فلقد ذكر الله في كتابه أنواع العقوبات التي قد تصيب المخالف لأمره ليحذر منها العباد - كل ذلك رأفةً ورحمةً بهم - لئلا يقتحموا ما حرّم الله عليهم، فقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾ [النحل:٤٥-٤٧]

وبعدُ/

فـإنّ من عرف ربه (الرؤوف) أحبّه لا محالة، فهـو يرى ترادف نِعَمه عليه بلا منـع، وتتابع خيراتـه لديه بلا انقطاع، وربمـا كان مقيمًا على معصيته، سـادراً في غوايته، ومع ذا فربُه الرؤوف يتابع فضله عليه.

ويرى سـتره وعفـوه وعافيته محيطة به -رأفة ورحمة منـه- فكم في تدبّر هذا الاسـم من أثرٍ في غـرس محبة الله تعالـى في القلب -والتي هي مـن أرجى أعمال العبد-.

ونبينـا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تحلّـى بصفتي الرأفـة والرحمة، فهـو بالمؤمنين رؤوف رحيـم، فمن تبعـه في هذا الهدي نال الرحمة من الله، وفاز بالذكر الحسـن بين الخلق، فهنيئًا لنفس كانت الرحمة هديها، والرأفة سمتها، فقد جمعت الخير من جميع جوانبه.

يقول ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: (وأقرب الخلق إلى الله تعالى: أعظمهم رأفة ورحمة، كما أنّ أبعدهم منه: من اتصف بضد صفاته)[١].

فاللهم ارأف بنا، وارزقنا رحمتك التي وسـعت كل شـيء، اللهم املأ قلوبنا ثقة بعفوك ومرضاتك، والطف بنا وبأهلينا والمسلمين.

❊❊❊

(١) [الروح:٢٥١]

(٦٥) البَرُّ

ورد هذا الاسم في كتاب الله مرة واحدة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٨]

وهو اسمٌ عظيمٌ جليلٌ من أسماء ربنا الكريم أوصل بعضهم معانيه إلى سبعة معان، وما ذاك إلا لنوقن بسعة معنى كل اسم من أسماء الله تعالى على العموم، وبمعنى هذا الاسم على الخصوص.

وعندما تقرأ اسم (البَرّ) أو تسمعه تشعر أنّ الرحمة أحاطت حياتك كلها، وأنّه لن يفوتك أيُّ خير ترجوه، فمع استحضار معانيه تزيد الثقةُ بوعد الله واليقين بصدقه. وبتدبّر معانيه يرى المؤمن كثرة إحسان الله عليه، ومزيد إكرامه له.

ويطمع بالفوز برحمته في قبول عمله مع التقصير الحاصل منه.

ويعترف بجميل ستر الله الذي يغشاه.

ويوقن برفق ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي قد أحاط بالعباد.

وكلها معان -كما ترى- تُسْكِنُ في القلب الطمأنينة والسعادة، وهي تتفيأ ظلال هذا الاسم الشريف.

فمن معاني اسم (البَرّ): (اللطيف بعباده، كثير الإحسان لهم بلا حدود).

فالله بَرٌّ محسن، عمّ بِبِرّه جميع خلقه، وأحسن إليهم بجميع أنواع الإحسان.

تأمّل في عطائه الذي لا ينقطع عن عباده لحظة واحدة، ففي الدنيا عطاؤه سابغٌ

للمؤمن منهم والكافر، والمحسن والمسيء، ويمتدّ إحسانُه لعباده المؤمنين إلى ما لا نهاية في العطاء في دار كرامته في جنات الخلود.

قَالَ أبو السُّعُودِ في تفسيره: (البَرُّ المحسِنُ الرَّحِيمُ الكثيرُ الرَّحْمَةِ، الذي إذا عُبِدَ أَثَابَ، وإذا سُئِلَ أَجَابَ)

وقيل من معاني (البَرُّ) هو: (الصادقُ في وعده).

وقد تكرر قول الله تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: آية ٥٥] في القرآن عشر مرات للتأكيد عليه، فاللهُ برٌ يصْدُقُ وعده عباده في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا صَدَق أولياءه بإظهار دينهم، وبَرّ وصدَق في رفعتهم وإكرامهم، فانظر كيف رفعهم في الدنيا، فكم من هبات يهبها عبدَه المؤمن، فييسره لليسرى، ويعينه ويسدده، ويفتح له أبواب الخيرات، ويرزقه من حيث لا يحتسب، وكلما كان العبدُ مداوماً على طاعته صُبّت عليه العطايا صَبّاً، ولئن فاته شيءٌ من الدنيا أو تعكّرت أموره فهو يحتسب صبره ورضاه وهذا -أيضاً- من عطاياه له وبِره به.

أمّا في الآخرةِ فيصدق اللهُ عبادَه ما وعدهم به من دخول الجنّة والتنعّم فيها، وقد بيّنت الآيات هذا الأمر في مواضع كثيرة ليطمئنّ المؤمنُون ويوقنون به، وأنّه صادق فيه، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزمر:٧٤] وأثنوا عليه بهذا الاسم الكريم كما في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور:٢٨]

ومن معاني (البَرّ): (أنّه يبرُّ عملك، أي: يقبله).

فاللهُ لكمالِ رحمته، وسعةِ فضله يقبل عمل العابد -على تقصيره فيه- وكل واحد منّا يوقن بهذا، فأعمالنا غالبها يعتريها التقصير، وهي مليئة بالنقص؛ انظر للصلاة وكثرة الوسوسة، وشرود الذهن فيها، حتى أنّ البعض ربما لا يستحضر ما قرأ -هذا في أعظم عبادة- وهو الحال في غالب العبادات، يغيب عن العامل كثيرًا حضور القلب فيها، ويقصّر في أدائها على الوجه الأكمل، ومع ذلك فالله (البَرُّ) الرحيم يقبلها ويثيبه عليها.

ومن معاني (البَرّ): (أنّه الذي لا يقطع خيره عن عبده، حتى وإن كان مقيمًا على المعصية) وانظر لكثرة العاصين، وتتابع معاصيهم، وإصرارهم عليها، وعدم رغبتهم الانفكاك عنها، ومع ذا يوالي عليهم (البَرُّ) إحسانَه عليهم، ويتابع عليهم فضله، ولا يقطع عنهم عطاءه، فشرّهم إليه صاعد، وخيره إليهم نازل، فالله -لكرمه وبِرّه- لا يُعامِل عباده بالمثل، ولو فعل لهلكوا ولكنّه يُعاملهم بالبِرّ والإحسان والفضل والكرم.

ومن معاني (البَرّ): (الرفيق بعباده، فإنّه لم يكلفهم فوق طاقتهم، وما ليس بوسعهم، بل طلب منهم القليل، ووعدهم الثواب الكثير) ومن قارن بين الأمر والجزاء علم فضل الله وبره بأوليائه.

ومن معاني (البَرّ): (المصلحُ لأحوال عباده، المتولي شؤونهم) يرعاهم رعايةً تامةً؛ فانظر كيف أصلح لعباده دنياهم، وكيف صاروا يعيشون حياة طيبة -بَرّاً منه وإحسانًا- ويسّر لهم أساسيات حوائجهم، ويعيشون غالب حياتهم في صحة وعافية.

يحمـي عبدَه المؤمن مـن الوقوع في المحرمات، ويحوطـه برعايته، ويُحبّب إليه الإيمان ويُزيّنه في قلبه، ويُكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان.

أمّـا فعْلُه مع عبده العاصي، فهو يمهله لعله يتوب ويُنيب، ويعود إلى رشـده، فمع علمه وإحاطته به وبمعصيته، ولكنّه يُسـبل عليه سـتره فلا يفضحه، وهذا من كمـال بِرّه ورحمتـه وعطفه حتى إنّه يـوم القيامة يضع عليه كنَفَه ويسـتره، ويدور بينـه وبين عبدَه هذا الحوار الحاني، أخـرج البخاري من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عليه كَنَفَهُ ويَسْتُرُهُ، فيَقـولُ: أتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أتَعْرِفُ ذَنْبَ كَـذَا؟ فيَقولُ: نَعَمْ أيْ رَبِّ، حتَّى إذَا قَرَّرَهُ بذُنُوبِـهِ، ورَأَى في نَفْسِـهِ أنَّه هَلَكَ، قالَ: سَـتَرْتُهَا عَلَيْكَ في الدُّنْيَـا، وأَنَا أغْفِرُهَا لك اليَومَ، فيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»[1].

واللهُ بَـرٌّ يُحِـبُّ البِرّ، ومن يتخلّقُ به، فـإذا أراد العبدُ إحسـانَ الله إليه في الدنيا والآخـرة، فعليه باتِّباع ما يُفضـي إلى بِرِّه ومرضاته من الأعمال الصالحة في الدنيا، وأعظمها:

(بِرُّ الوالدين) فهنيئًا لمن تحلّى به، وكان هو هديه وسمته، فقد أدّى ما أوجبه اللهُ عليه، ونال سعادة الدارين.

والأخلاق الحسنة من البِرّ، فـ«البِرُّ حُسن الخلق»[2]. كما صح بذلك الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) رواه البخاري
(٢) رواه مسلم

وصاحبُ الخُلقِ الحَسَـن من خير الخلق في تعاملـه معهم، فهو لا يؤذيهم أو يتعدى عليهم.

ومن أتقن تلاوة القرآن، وكان ملازمًا له حُشـر مع شـرفاء الخلق (الملائكة السـفرَةِ الكرامِ البررَةِ) يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والماهِرُ بالقرآنِ مع السفرَةِ الكرامِ البررَةِ»[1].

والصـدق في الأقـوال والأعمـال والنوايا من أعظم طـرق البِرِّ التـي تُنال بها خيرات الدنيا والآخرة، فالصدق يهدي إلى البِرِّ، والبِرُّ يهدي إلى الجنّة.

والأبرارُ في نعيم مقيم، بَرةٌ قلوبُهم وأعمالُهم، ففازوا بجوار البَرّ الرحيم في دار كرامته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المطففين:٢٢]

ومـن كان ملازمـًا للدعـاء نـال العطايـا والخيـرات مـن الرحمـن، فهديُ الصالحين دعاء ربهم على الدوام، وحسن ظنّهم به أن لا يقطع إحسانه عنهم، قال الله -عنهم-: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٨]

وأعظـم أمـاني المؤمنين الوفاة مـع الأبرار، والحشـر معهم في أحـوال بارّة، وخاتمـة حسـنة، فذكرت الآياتُ هذه الأمنية ضمن دعـوات صالحة لهم، قال الله -عنهم-: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران:١٩٣]

فمن كان باراً مؤمنـًا تقيـًا صالحـًا نال خيرات لا منتهى لها، فلقد وعد الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهـو لا يُخلف الميعـاد: الخير الكثير، والنـزل الكريم للأبرار كما في

(١) رواه الشيخان.

قولـه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران:١٩٨]

فيا بَرُّ يا رحيم آمنا بك، وصدّقنا بوعدك ووعيدك، وطمعنا ببِرك وإحسـانك، فاللهم لا تُخيّب رجاءنا فيك، فرجاؤنا أعظم من أعمالنا، وثقتنا بعطائك أوثق من طاعتنا، فنسألك فردوسك الأعلى في نعيم لا يحول ولا يزول.

❋❋❋

(٦٦) الواسع

ومن أسماء الله (الواسع) وجاء ذكره في القرآن تسع مرات منها: قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة البقرة:١١٥]

وهو الذي يَسَعُ خلقه كلهم بالكفاية، والجود، والرزق، والإحسان، والتدبير.

قال في اللسان: (الواسعُ هو الذي وسِع رزقه جميع خلقه، ووسعت رحمته كل شيء، وغناه كل فقر)[١].

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الواسعُ: هو الغني الذي وسِع غناه مفاقر عباده، ووسِع رزقه جميع خلقه؛ والسعة في كلام العرب: الغنى. ويُقال: الله يعطي عن سعة، أي عن غنى)[٢].

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (واسعُ الصفات والنعوت) فصفاته ونعوت جلاله لا منتهى لها، وأسماؤه لا عدّ لها، وما دلت عليه من المعاني لا يُتصوّر لعقل أن يُحيط بها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه:١١٠] وقال عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:١١٥]

فله سعة كل كمال، ومن ذلك الكمال أكمله، ولا يستطيع أحدٌ الثناء عليه بما هو أهلُه، بل هو كما أثنى على نفسه.

(١) [لسان العرب:٦/ ٤٨٣٥]

(٢) [شأن الدعاء:٧٢]

قال الخطّابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكلّ سِعة وإن عظُمت فتنتهي إلى طرف إلا عظمة الله فلا منتهى لها)[١].

(وهو واسعُ الملك والعظمة والسلطان) وأنتَ إذا تأملتَ فقط هذا الكون الفسيح، والذي لا نعرف منه إلا شيئًا يسيراً ممّا أطلَعَنا اللهُ عليه دلّك على سعة ملكه، فكيف بملكه الذي لم يره العباد؟!

فما غاب عنّا أكثر بكثير ممّا نرى ونعلم.

وإذا كان كرسيه وسع السماوات والأرض، فكيف هي عظمته وهو الذي نسبة الأرض والسماء له كحلقة ملقاة في فلاه؟!

وكيف بالعرش الذي نسبة الكرسي له كحلقةٍ ملقاة في فلاه، فأيقن أنّ سعة ملك الله تعالى لا يمكن لأحد أن يُقارب تصوّرها.

ومن تأمّل في سعة هذا الملك حار فكره فيه وتلك السعة؛ فهو مُلْكٌ مترامي الأطراف، واسع الخلْق والخليقة، فيه من الأملاك ما لم يعلمه إلا الله.

مُلْك في الأرض، ومُلْك في السماء، ومُلْك في البرِ والبحار، ومُلْك في الفضاء، ومُلْك في عوالم لا نعلمها، فسبحان الواسع العليم .

(وهو الواسعُ في الرزقِ وإغناءِ خلقه) فقد وسع رزقه جميع الخلق من إنس وجانّ وحيوان.

ومن تأمّل في الرزق وجد عجبًا عُجابًا في السعة والكفاية، فهذه الأعداد

(١) [شأن الدعاء:٧٢]

الهائلـة من الخلائق قد وسـعهم رزق الله في الإطعام والارتواء مـن الماء والتنعّم بسائر الأطعمة والأرزاق التي يحتاجونها في حياتهم في كفاية عظيمة.

(ووسـع رزقِـه الخلق كلهم بصحـة أجسـادهم، وعافية أبدانهـم) وأغناهم عن الطـب والعلاج في غالب حياتهـم، فلو قارنت بين أيّـام العافية وأيام المرض لوجدتَ بونـًا شاسـعـًا، فالمرءُ أكثرُ وقتِه في صحةٍ وعافية، ولكنّ الواحد منّا يغفل عن هـذا، وأمّا المرض فلا يُصيبنا إلا لَممـًا فلله الحمد والشـكر، ولو قارنت بين عدد الأصحاء وعدد المرضى لأيقنت أنّه لا مقارنة بينهما.

(وهو واسعُ العلم) فقد أحاط علمه بكل شيء -وقد تقدّم الحديث عن صفة علمه وأنّها واسعة لا يحيط بها أحد- فهي هو كما قال عنها: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ٩٨﴾ [طه:٩٨]

ومثل هذا الإيمان يجعل المرء مطمئنـًا لكل قضاء يقضيه الله له فهو عن علم وإحاطة ورحمة، ويطْمئن المؤمن برعاية ربه له، وحفظه مادام مقيمـًا على طاعته.

(وهو الواسـع في رحمته) التي وسعت الخلائق كلَّهم، فشملت أهل الأرض وسـكّان سمائه، فانظر لأعدادهم ولحاجتهم لرحمته، فهم بحاجتها وهم في بطون أمَهاتهـم، وفي كل مراحل عمرهم، وفي كل مـكان يحلّون فيه، وفي كل وقت وآن، ومع كثرة أعدادهم إلا أنّ رحمته وسـعتهم جميعـًا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن سعة هذه الرحمة: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧]

وقال عن حملـة العرش في دعائهـم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كان هذا الكتابُ العظيمُ الشأنِ، أي «إنّ رحمتي سبقت غضبي» كالعهدِ منه سبحانه للخليقة كلها بالرحمة لهم، والعفو عنهم، والمغفرة والتجاوزِ والستر والإمهال والحِلم والأناة؛ فكان قيام العالم كله في السماء والأرض بمضمون هذا الكتاب الذي لولاه لكان للخلق شأن آخر)[1].

وهذه هي الرحمة العامة التي ينالها المؤمن والكافر فيعيشون بها في الدنيا، وتستقر بها أمور حياتهم ويحيون -في الغالب معها- حياةً طيبةً مستقرة.

أمّا الرحمة الخاصة، فهي لأهل الإيمان والتُّقى، وينالونها كأوفر ما يكون في الآخرة، وقبلها في أوّل مراحلها ساعة خروج الروح، ويوم دخول القبر، فاحرص عليها -يا عبد الله- فهي نائلة كل مؤمن تقيٍّ مستجيبٍ لأمر ربه .

(وهو واسع العفو والمغفرة) وإذا تأمّلت في عدد المذنبين الذين يحتاجون لمغفرته وجدتَهم بالمليارات، ومع ذلك وسعتهم مغفرته، وبلغهم فضله وإحسانه.

وتأمّل في هذا الوصف لسعة مغفرته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢]

وقال: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧] وغيرها من الآيات في هذا المعنى لترى تحتها سعة لا حدّ لها.

(وهو واسع الفضل والعطاء والإحسان) وتأمّل في سعة فضله على عباده يُعطيهم ما يسألون وما لا يسألون، ويُسبغ عليه نِعَمه، ويُرادف عليهم فضله بلا انقطاع، فهو كما وصف فضله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [آل عمران:٧٤]

---

(١) [مختصر الصواعق المرسلة:٣٠٤]

وليس لهذا الفضل حدٌّ ولا نهاية بل هو متتابع على الخلق كتتابع أنْفَاسهم، وقد أتى على جميع شؤونهم وأحوالهم وأوقاتهم وأماكنهم، وهو فضل عام لا يختص بخلق دون آخر بل كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة:٢٥١]

(وهو الواسع في حكمته) فحكمته وسعت الخليقة كلها، ولذا ترى في تدبير شأنهم استقراراً ظاهراً، وعدلاً تاماً وذلك لسعة علمه وتمام حكمته.

(وهو واسع النعيم) يكفيك في ذلك استحضار نعيم الجنّة وكيف وسع الخلائق، فملأ قلوبهم رضا عن ربهم، وكفايةً لرغباتهم، ومن استحضر عدد أهلها، ونعيمهم الكبير والمتزايد الذي لا ينقطع عنهم أبداً أيقن أنها سعة لا يحيط بها أحد من العباد، ولو اجتمع بلغاء العالم أجمع على أن يصفوه لعجزوا، وذلك لسعة هذا الجود وذاك النعيم، فاللهم لا تحرمنا إيّاه.

وإذا أيقن المؤمن بسعة عطاء ربه، وكثرة جوده علّق قلبه به، وسأله حوائجه كلها وهو موقن بالإجابة، ولم ييأس من رَوْحه، وأمّل العِوض عمّا فاته، وأيقن أنّ الله سيوّسع عليه، فالله لا مُكرِه له، والعطاء أحبّ إليه من المنع، ولا تزيده كثرة المسألة إلا جوداً وعطاءً.

(وهو الذي يُوسِّع على عباده في دينهم، فلا يكلّفهم ما ليس في وسعهم) فقد بعث اللهُ نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحنيفية السمحة وبالشريعة التي غالبها اليسر.

وهي شريعة واسعة قابلة للتطبيق في أي زمان لا كما يظنّ الجهلة بليدي الأذهان أنّ شريعة الإسلام صالحة لزمان دون زمان أو لمكان معيّن دون مكان ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾ [الكهف:٥] فهي شريعة

وأحكام من لدن عليم حكيم خبير، عليم بأحوال خلقه وما يصلح لهم، ولئن تفوّه الجاهلون بعدم صلاحية الأحكام الشريعة لهذا الزمان أو غيره، فإنّما أُتوا من قِبل نظرتهم القاصرة، وفهمهم السقيم وإلا ففي الشريعة من القواعد والأصول ما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان.

وأوسع عطاءٍ يهبه اللهُ عبدَه هو: عطاء الصبر، ففي الحديث يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»(١).

فمن رحمة الله بعبده أن يهبه الصبر، فيعيش به ويحيى وقد امتثله في حياته كلِها، وإذا رُزقه العبد فليعلم أنّه من الله فلا يتسرب الإعجاب إلى نفسه فإنّما هو محض فضل الله فيلهج اللسان بالشكر عليه.

هذه بعض معالم هذا الاسم الكريم، وهو أوسع من أن يُحيط به أحد، فسبحان ربنا الواسع العليم.

فاللهم آمنّا بسعة صفاتك، وسعة جودك وإحسانك، فلا تحرمنا فضلك بسبب ذنوبنا وخطيئاتنا، معترفون بالإساءة، ومقرون بالذنب ولكنّ عافيتك أوسع، ورحمتك أرجى.

***

(١) متفق عليه.

(٦٧ ، ٦٨) القريب - المجيب

ورد اسم الله (القريب) ثلاث مرات في كتابه العزيز، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١].

وروى ابن كثير في تفسيره أنّ أعرابيًا قال: يا رسول اللّه أقريبٌ ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأنزل اللّه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]

وتأمّل هذه اللفتة الكريمة في الآية حيث يقول الله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ﴾ فعجّل سبحانه بالإجابة، ولم يقل (فإني قريب أسمع) ليطمئنّ الداعي ويوقن بسماع ربه لدعائه، وتحقق الإجابة منه.

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنّا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غَزَاة فجعلنا لا نصعد شَرَفًا، ولا نعلو شَرَفًا، ولا نهبط واديًا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير؛ قال: فدنا منا فقال: «يا أيها الناس، أرْبعُوا على أنفسكم؛ فإنَّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيرًا، إنّ الذي تدعون أقربُ إلى أحدكم من عُنُق راحلته»(١).

فاللهُ مع علوّه واستوائه على عرشه إلا أنّه (قريبٌ ممّن دعاه - دعاء مسألة أو دعاء عبادة - يُجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها أجلّ ثواب) قاله ابن سعدي(٢).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) [تفسير ابن سعدي:٣٨٤]

وقد يُشكل على البعض كيف يكون قُرب الله مع علوّه، والجواب من ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد قال: (.. والذي يسهل عليك فهم هذا: معرفة عظمة الرب، وإحاطته بخلقه، وأنّ السموات السبع في يده كخردلة في يد العبد، وأنّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقبض السماوات بيده والأرض بيده الأخرى ثمّ يهزهنّ، فكيف يستحيل في حق من هذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه، ويقرب من خلقه كيف شاء، وهو على العرش؟!)[1].

قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقربه نوعان: الأوّل: قُربٌ عام؛ وهو إحاطة علمه بجميع الأشياء، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وهو بمعنى المعية العامّة.

الثاني: قُربٌ خاص بالداعين والعابدين، وهو قُربٌ يقتضي المحبة والنصرة، والتأييد في الحركات والسكنات والإجابة للداعين، والقبول والإنابة للعابدين)[2].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا القرب الخاص لا تُدرك له حقيقة، وإنّما تعلمُ آثاره من لطفه بعبده، وعنايته به، ونصرته وتوفيقه له)[3].

فهو قُرْب إجابة وقبول وإثابة ورحمة ونزول سكينة.

يشعر بهذا القرب العابدُ في محراب تعبّده.

والداعي وهو يناجّي ربه في دعائه.

والمكروب وقد أشتدّ عليه كربُه، فيثق بفرجه.

---

(١) [مختصر الصواعق المرسلة:٤٨٢-٤٨٣]

(٢) [شرح أسماء الله الحسنى:١١٨]

(٣) [تفسير السعدي:٥/ ٣٠٤]

والمهموم وقد أحاط به همّه، فيثق بقدرة ربه على إزالته.

وأعلى ما يكون شعور هذا القرب في حال سجود العابد وهو خاضعٌ ذليلٌ بين يديه، فيجدُ لذيذ المناجاة وهو يُسبّحه، ويشعر بقرب إجابته له وهو يرفع إليه حوائجه، يقول ﷺ: «أقربُ مَا يَكونُ العبْدُ مِن ربِّهِ وَهَو ساجدٌ، فَأَكثِرُوا الدُّعاءَ»(١).

وأمّا في الخلوة به في جوف الليل الآخر فذاك قُربٌ لا تُحيط به عبارة، ولا يُعبّر عنه بلفظ، يقول ﷺ: «أقربُ ما يكونُ الربُّ من العبدِ في جوفِ الليلِ الآخرِ فإنِ استطعْتَ أن تكونَ ممن يذكرُ اللهَ في تلْكَ الساعَةِ فكُنْ»(٢).

فيا لله كم يكون مع هذا القرب الشعور بسماع الله له، واليقين بالإجابة.

وكذلك قربه وقت الذكر، فهو قرب يشعر معه الذاكر بالأنس والفرح، ويستحضر معه ذكر الله له، وثناءَه عليه ففي الحديث: «قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أنا مع عبدِي ما ذكَرني وتحرَّكَتْ بي شَفَتاهُ»(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أخصُّ من المعِيَّة الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي مِعيَّة لا تُدرِكها العبارة ولا تنالها الصِّفة، وإنما تُعلَم بالذوق)(٤).

وكل عابد صادق في عبادته مراقب لمولاه في تعبّده يشعر بهذا القرب، فيعبده وكأنّه يراه.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه ابن ماجه.

(٤) [الوابل الصيّب:٦٦]

ففي صلاته يعبدُ الله بمقام المشاهدة، فإن عجز عبَدَه بمقام المراقبة.

وفي صدقته يستحضر اطّلاع ربه عليه، وقربه منه.

وفي حجِّه وعمرته يستحضر اطّلاع الله عليه في طوافه وسعيه ووقوفه وعند دعائه ومناجاته.

وفي إحسانه يؤمن بجزاء ربه وصدق وعده بالإحسان...وهكذا مع كل طاعة من الطاعات يستحضر أولياؤا الله قرب ربهم منهم، ويثقون بحسن جزائه لهم.

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريب من التائبين يجيب دعاءهم، ويثبّت إيمانهم، ويذيقهم من حلاوة القرب منه ما يستغنون به عن كل لذة محرّمة، ولذا رغّب نبي الله صالحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قومَه بالإنابة والتوبة والاستغفار لينالوا هذا الفضل من ربهم، قال تعالى -عنه-: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١]

فيا أيّها التائب لا تيأس من رحمة الله، ولا تقنط من رَوْحه مهما بلغتْ ذنوبك، ومهما تجاوزت الحدود، فأيقن بقبول الله لتوبتك، وقربه منك، وعلمه بإنابتك، واطّلاعه على ندمك، ومغفرته لذنوبك.

ومن أيقن بقربه شعر بالثقة والطمأنينة والأمن وأنّه يأوي إلى ركن شديد لإيمانه بحفظه له، ودعاه وهو موقن بالإجابة لأنّه يُؤمن برب قريب مجيب محيط به وبشأنه، رحيم لطيف بمن ناداه ولجأ إليه، ويزيد طمعَه بفضل ربه ليقينه بسعة رحمته.

ومن آثار الإيمان بهذا القرب: حصول السكينة والثبات، فيشعر بحفظ الله له، ورعايته ونصرته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]

ومن آثار الإيمان بهذا القرب: إخفاء الدعاء وزيادة الإيمان بقرب الله وسماعه، قال الله تعالى واصفًا دعاء زكريا: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم:٣]

(فإخفاء الدعاء دليل قوة إيمان العبد بسماع الله دعاءه) كما ذكر ذلك ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن آثار الإيمان بهذا القرب: الإكثار من نوافل العبادات، فكلما أيقن العبدُ بقرب ربه منه أكثر من طاعته، فهو لا يزال يتقرّب لربه بها حتى ينال أعظم وسام، وأسمى مراتب الشرف، وأوسع عطاء يمكن أن يناله عبدٌ، وهو: محبة الله، ففي الحديث: «ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ...»[1].

فيالله كم في هذا الفضل من عطايا وهبات، ونزول فيض لا منتهى له من الرَّحمات.

ومن سعى في تقريب العباد من ربهم وحثّهم على طاعته جازاه الله بالقرب منه؛ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ألستَ تبغي القرب منه؟! فاشتغل بدلالة عباده عليه»

وهو - سبحانه -: المجيب.

وورد هذا الاسم الكريم مرتين في القرآن الكريم: مرة بصيغة الفرد؛ في قوله تعالى على لسان نبيِّه صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ [هود:٦١] ومرة بصيغة الجَمْع؛ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾ [الصافات: ٧٥]

(١) رواه البخاري.

وإجابة الله للداعين دليل عظيم على كمال صفاته، وسعة سمعه، فهو سميع لكل داع، عليم بكل سائل.

وإجابته -أيضًا- دليل على كثرة جوده، وتعدّد نواله، ورحمته بالسائلين، وبرهان جليّ أنه الإله الحق المبين، فانظر لكثرة الداعين، وتنوّع مطالبهم، وكثرة مسائلهم، واختلاف لغاتهم، وتباين استحقاق كل واحد منهم للإجابة؛ ومع ذا فاللهُ سميع قريب منهم مجيب لدعواتهم، يسمع أنين هذا المكروب، ولا يخفى عليه اضطرار ذاك المضطر الملهوف، وهو عليم ببكاء هذا السائل الذليل بين يديه، ومحيط بصدق هذا الطالب المخلص، فيسمعهم كلهم في ساعة واحدة، وإحاطة شاملة، وعلم محيط، فلا إله إلا هو الربّ العظيم، الواحد الأحد المجيد.

ولقد بيّنت آياتُ القرآن الإجابات المتنوّعة للداعين ابتداءً بأنبياء الله ومن بعدهم من الصالحين، بل بيّنت الآيات استجابة الله لأمم وأفراد من عتاة الكفرة والمجرمين ليعلم الخلق أنّ ربهم مجيب سميع.

وإجابة الله دليل على كمال غناه، ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وجِنَّكم وإنسَكم اجتمَعوا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني جميعًا فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ منهم مسألتَه لم يُنقِصْ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يُنقِصِ المَخيطُ إذا غُمِس في البحرِ..»(١).

وإذا أعطى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يعطي بفضل، وإذا منع منع لحكمة.

وإجاباته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لعباده تتنوّع، فتارة تقعُ عينها جوابًا لسائل، وتارة تتأخّر لحكمة يفوت السائل معرفتها، وتارة تقع ولكن بغير المطلوب، وتارة تكون

(١) رواه مسلم.

صرْفًا لشــرٍ عنه، وتارة يدّخرها للســائل ليجدها أحوج ما يكون يوم القيامة، فالله حيـيٌ كريم، فهو أكرم من أن يردّ يديَ عبدَه صِفراً، فلا يتســرب القنوط لنفســك، ولا تظنّ بربك ظنّ السوء، فالله بيده ملكوت كلِّ شيء، وهو على ما يشاء قدير.

فاللهــم بإيماننا بقربك ممّن دعاك، ويقيننا بســعة جودك لمن ســألك، وكثرة فضلــك بمن وثق بعطائــك، اللهم فامنن علينا بعفوك وســترك ومغفرتك وجميل إحسانك.

❊❊❊

(٦٩، ٧٠) المُقدّم - المؤخِّر

من أسماء الله تعالى: المُقدِّم - المؤخِّر.

ولم يردا في القرآن الكريم وإنّما وردا في السُنّة، فمن دعوات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثنائه على ربـه: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ، وما أَسْـرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ وأَنْتَ المُؤَخِّرُ، وأَنْتَ علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ»[1].

والتقديـم والتأخير اسـمان لله دالان علـى مُضي إرادته، ونفـاذ أمره، وكمال حكمته.

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: (المقدِّم: هو المُنزِّل للأشياء منازلها، يُقدّم ما شاء منها، ويؤخّر ما شاء؛ قدّم المقادير قبل أن يخلق الخلق، وقدّم من أحبّ من أوليائه على غيرهم مـن عبيده، ورفع الخلق فوق بعض درجات، وقدّم من شـاء بالتّوفيق إلى مقامات السّابقين، وأخّر من شاء عن مراتبهم وثبّطهم عنها، لا مقدّم لما أخّر، ولا مؤخّر لما قدّم)[2].

وقـال الحليمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (المُقدِّم: وهـو المعطي لعَوالي الرُّتـب، والمُؤخِّر: وهو الدافع عن عوالي الرُّتّب)[3]. وكلُّ هذا من التعريف ببعض المعاني.

والتقديم والتأخير كوني وشرعي.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) [الأسماء والصفات للبيهقي:٨٦]

(٣) [مختصر النهج الأسمى:٥٢٩]

فالكـوني: مثل تقديم خلْق بعض المخلوقات على بعض، كتقدّم خلق الجنّ علـى الإنس، وتقـدّم خلق الأرض على السـماء وغيرها مـن المخلوقات، وهذا التقديم تابع لحكمته سبحانه، وهذا النوع في الخلق بحرٌ لا ساحل له.

والشرعي: كتقديم وتفضيل بعض الأمكنة على غيرها كتقديم مكة والمدينة وأرض الشام على سائر بقاع الأرض بما جعل فيها من مضاعفة الحسنات والبركة ونحوها.

وكتقديم وتفضيل بعض الأزمنة كرمضان وعشـر ذي الحجة وأشـهر الحج وتفضيل شهر محرم وتفضيل يوم الجمعة وليلة القدر وساعات السَّحَر.

وقـدّم اللهُ وفضّل بعـض العبادات على بعـض، كتقديم الصـلاة على غيرها لِما اشـتملت عليه من عبادات جامعـة، وكتقديم جنس التلاوة على جنس الذكر، وكتقديم الدعوة إلى الله على غيرها، وكتقديم العمل الذي نفعه متعدٍ على العمل الذي نفعه قاصرٌ، وتقديم ماله أثرٌ بيّن على ما ليس كذلك.

وأحيانـًا يكون التقديم في بعض العبادات والأعمال في وقت دون وقت وحال دون حال.

وقدّم وفاضل في أمور معاشـرة الخلق، فقدّم بـر الوالدين على غيرهم، وقدّم حقـوق الأهل والأبناء على من سـواهم، وهـذا التقديم -أيضـًا- متنوّع ومتعدد وإحصاء أفراده متعذّر.

وعلـى المؤمـن أن يفقه هذه الأمور، فربمـا أمضى العبد عمـره كله في عمل مفضول مفوّتـًا على نفسه العمل الفاضل الذي تزداد به حسناتُه، ويعظم به أجرُه.

وقدّم اللهُ الإنسانَ وفضّله على كثير من خلقه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠]

وفضّل الأنبياء والمرسلين منهم، وجعلهم خيرة خلقه، وصفوة عباده، وقدّم بعضهم على بعض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات بمقتضى حكمته وعلمه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]

وجعل أفضلهم أولي العزم، وهم: (محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم الصلاة والسلام) وجعل أفضلهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو خيرة خلقه ومصطفاه من رسله، فينبغي لأتباعه أن يعرفوا مكانته ومرتبته ويُنزلوه المنزلة اللائقة به.

وقدّم الصحابةَ -رضوان الله عليهم- على أفراد الأمة ثمّ التابعين وتابعيهم وأئمة الهدى من السلف الصالح الذين جعل لهم لسان صدق في الآخرين.

والتقديم لأفراد هذه الأمّة باق ومُتجددٌ في كل زمان، فيُقدّم قادة الخير منهم، وكل ذلك بفضله ورحمته وهو تابع لعلمه وحكمته، ويُؤخرّ من شاء بعدله.

وتقديم الله للأشياء من المخلوقات والأزمنة والأماكن وتقديمه -أيضًا- للعباد والشرائع عن سعة علم وكمال حكمة، ويجب على العبد أن يعرف قدره في هذا الباب، فبعضُ الخلق -لجراءته وغروره بنفسه- نازع الله في ربوبيته في خلقه فاعترض في قضية التقديم والتأخير في تقديم الأشخاص، وهذا عين ما فعل إبليس، وهو سبب كفره إذ اعترض على تقديم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عليه، وهو -أيضًا-

سبب كفر اليهود ورؤوس الكفر من قريش وذلك باعتراضهم على تقديم نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عليهم، واعتراضهم على تقديم المستضعفين من الصحابة.

وهي قضية متكررة في كل زمان، فشأن المؤمن الحق التسليم لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في هذا الاختيار.

والتقديم والتأخير في العبادات أو الأماكن أو الأشخاص حقٌ محضٌ لله تعالى، فلا يجوز تفضيل عبادة على عباده، أو زمان على زمان، أو مكان على مكان، أو تقديم بعض الأشخاص إلا بنصّ شرعي دلّ عليه الكتابُ والسُنّة حتى لا يقع أحد في المحذور الشرعي، ويحصل هذا كثيراً في أهل البدع بتقديم وتفضيل بعض العبادات على غيرها دون نص شرعي صحيح صريح.

والطريق الموصل للمعرفة بهذا التقديم هو العلم الشرعي الموروث فكلما زاد به المرء فاق غيره في سيره إلى ربه.

- وإذا حرص العبد على التقدّم إلى الطاعات والقربات أدناه الله وقرّبه منه، وأمّا من تأخّر عن معاقد العزِّ والشرف، وضعفت همّته عن الطمع في منازل العلو، وتكاسل عن تلك الرُتب، فسيندم في ساعة لا يجدي فيها الندم، يقول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ولَا يزالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتى يُؤَخِّرَهُمُ الله»[(١)].

والتقدّم الحقيقي إنّما هو في الدار الآخرة، فهي المآل الأبدي للعبد، والعامل لها من أعقل النّاس، وأكيسهم وأنصحهم لنفسه، فهي الدار الباقية في خيراتها وعطاياها.

(١) رواه مُسلِم.

والمتُقـدّم هُنا هو المُقرّب من ربه هنـاك، قال تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: ١٠-١١]

فالناصح لنفسـه هو الذي يسارع للطاعات، ويُسـابق إليها، لعلمه أنّها سبيل التقدّم إلى مراتب الشرف والكرامة، وعليه أن يحذر من التعدي على الحدود فإنّها سببُ تأخره، وإن عزّ جاهُه بين النّاس.

وأعظم العبادات سبباً للتقدّم، والرفعة عند الله، والقرب منه:

الصلاة الخاشـعة، فقد روى البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث عبدالله بن مسـعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سَـأَلْتُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أيُّ العَمَلِ أحـبُّ إلى اللهِ؟ قالَ: الصَّلاةُ علَى وقْتِها، قالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: ثمَّ برُّ الوالِدَيْنِ، قالَ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: الجِهادُ في سَـبيلِ اللهِ، قالَ: حدَّثَني بهِنَّ رسول الله، ولَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزادَنِي»[(١)].

وقـال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «اسـتَقيموا ولَـن تُحصوا واعلَمـوا أنَّ خيـرَ أعمالِكُمُ الصَّلاةَ»[(٢)]. فالصلاة هي المُقدّمة من الأعمال بفريضتها ونافلتها.

ومن الأعمال التي تُعلي وتُقدّم صاحبها: بِرُّ الوالدين، وطلب العلم، والعناية بكتاب الله وحفظه ومدارسـته، والأخلاق الفاضلة وبـكل ذلك وردت النصوص الصحيحة.

وأعظـم تقديم يهبه اللهُ عبدَه: تقديمه في الجنّة، ورزقـه الدرجات العالية فيها -فهـو لعمـر الله- التقدّم الحقيقي، والرفعة السـامقة، والعلـو المطلق، ولئن كان دخـول الجنّة من أعظم الهبـات، وطلبه أنفس المطالب إلا أنّ العبد لابد أن تكون

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه ابن ماجه.

نفسُه توّاقة للمنازل العالية فيها، ولذا قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإذا سَأَلْتُمُ اللهَ، فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أوْسَطُ الجَنَّةِ وأَعْلَى الجَنَّةِ -أُراهُ- فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أنْهارُ الجَنَّةِ»[١].

وينبغي للعبد أن لا يستهين في قضية التأخر في الزمان في باب الطاعات، فمن نظر في حال المتقدمين زمانًا من صحابة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرف أهمية التقدّم وشؤم التأخر، فقد تقدّم منهم رجالٌ فصاروا هم السابقون من المهاجرين والأنصار، فأثنت عليهم الآيات إلى يوم القيامة، ولم يساوِ الله بين من تقدّم منهم وأنفق ممّن جاء بعدهم -مع جلالة فضلهم جميعًا- إلا أنّ المتقدمين منهم أرفع درجة، وأعلى مكانة في الدنيا والآخرة، وهكذا من جاء من بعدهم من أهل الطاعات، فأهلُ القرآن والعلم يُقدّمون على غيرهم، وأهلُ الفضل لهم التقدّم على من سواهم.

والواجب على العبد أن يُقدّم من قدّم الله، ويُؤخر من أخرّه، فالله قدّم الطاعات وأهلها والمؤمن تبعًا لأمر ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيُقدّم من أحبّ الله من الخلق، وفي مقدمتهم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فمحبتهم من أرجى الطاعات.

ويحبّ صحابة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهم خير الأمّة بعد نبيها، وهم أصحاب السبق، وفضلهم على الأمّة لا يُدانيه فضل.

ويُحبُّ أهل العلم والفضل في كل زمان، ويعرف فضلهم على الأمّة بنشر الإسلام وتعاليمه، وهذا الحبّ عبادة جليلة ينال بها العبدُ أعلى الدرجات.

---

(١) رواه البخاري.

ومـن اعتنى في هذا الباب أدرك خيراً كثيـراً في حُبّ ما أحبّ الله من الطاعات وأهلها، وكُره ما كره الله من المعاصي وأهلها، فيوافق الله في محَابه، وكره ما يكرهِ وهي عبادة قلبية تُعلي صاحبَها عند ربه.

واعلم أنّ تقديم الله للعباد باق أبد الدهر وكذا تأخيره، فانظر لتقديمه للأنبياء عليهـم الصـلاة والسـلام، وكيف هو ثنـاء أهـل الأرض عليهم جميعـاً إلى يوم القيامـة، وكـذا أئمة الهدى، وانظـر في المقابل لمن أخرّه الله كيـف بقي أبد الدهر في خزي وسـوء مآل، فهـذا إبليس تتابعت عليـه اللعنات إلى يـوم القيامة لأنّ الله أخرّه، وكذا أئمة الضلالة كفرعون وأبي جهل ونحوهم حقت عليهم اللعنة وسوء العاقبة والمآل بسبب كفرهم وضلالهم.

فاللهـم ارفـع درجاتنا عنـدك، وأعلي منازلنـا في جنّتك، وتولـى أمرنا وأنت صاحب الفضل السابق واللاحق يا ربّ العالمين.

***

(٧١ ، ٧٢ ، ٧٣) الوكيل - الكفيل - الكافي

من أسـماء الله (الوكيل) وورد هذا الاسـم في القرآن أربع عشرة مرة، ومعناه: الـكافي خلقه ما يحتاجون إليه، والذي تُفَوَّضُ إليـه الأمور، وتثق بتدبيره القلوب، وتطمئن لصنيعه النفوس.

فالمؤمنـون بربهـم حقّاً قد توكلوا عليـه لعلمهم بكفايته العامّـة، وتبرؤا من حولهم وقوتهم ليقينهم بحول ربهم وقوته.

ووكالتـه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عامّـة، فهو كمـا وصف نفسـه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزمر:٦٢]

قال البغوي: (أي الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها)(١).

ووكالتـه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عن علم كامل، وقدرة شـاملة، وإحاطة عامة فـ(الوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامـة على ما هو وكيـل عليه، ليتمكن من التصرف فيه، ومـن حفظ لما هو وكيل عليه...فإخباره بأنّه على كل شـيء وكيل، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها)(٢).

والله (هـو: المتولـي تدبيرَ خلقـه بعلمِه، وكمـال قدرته، وشـمول حكمته، والذي تولى أولياءه، فيسـرهم لليسرى، وجنّبهم العُسـرى،وكفاهم الأمور،فمن اتخذه وكيلاً كفاه) قاله ابن سعدي رَحِمَهُٱللَّهُ.

(١) [تفسير سورة الزمر للبغوي]

(٢) [انظرتفسير سورة الزمر لابن سعدي رَحِمَهُٱللَّهُ]

ومن أسماء الله: (الكفيل) وجاء ذكره في كتاب الله مرة واحدة، والله هو الكفيل: الذي تكفّل بأرزاق العباد ومصالحهم، وإرشادهم إلى ما ينفعهم، وتبصيرهم بما يضرهم؛ ضَمِن ذلك كله ضمانًا كاملاً.

ومن أسماء الله (الكافي) وورد هذا الاسم في كتاب الله مرة واحدة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر:٣٦]

وهو: الذي يكفي عبادَه ما أهمّهم من أرزاقهم وأقواتهم وحوائجهم وما يضطرون إليه، وهو الدافع عنهم شرور الدنيا والآخرة، فيكفي من التجأ إليه، واعتمد عليه، وفوّض أمره عليه.

وكفاية الله عامّة وخاصّة.

فكفايته العامّة: تأتي على الخلائق كلهم، فيكفيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شؤونهم كلها، مِن رعايتهم وحفظهم، ورزقهم، فيعيشون تحت فضله وإحسانه.

أمّا كفايته الخاصّة: فهي لأوليائه، فقد قضى بالكفاية لهم من كلِّ شرّ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦] والاستفهام هنا تقريري، أي: أنّه كفاهم كل ما يحتاجون إليه.

وكفاية الله لوليه الصادق، وعبده القانت تأتي على حياته كلها؛ وكلما صدق العبد في توكله على ربه ناله من وكالته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكفايته ما يستغني به عن الخلق أجمعين، وتتم له الرعاية كاملة في أعظم ما يملك من سلامة دينه من الضلالة، وقلبه من الشبهات المضلة، والشهوات المهلكة، وكفالة معيشته، ونحو ذلك ممّا

يحتاجه لصلاح دنياه وآخرته، فامْلأ قلبَك توكلاً عليه، وحسن ظنٍّ به، وكمال يقين بكفالته.

ومن عرف الله حق المعرفة اعتمد عليه حق الاعتماد، ولم يلتفت لأحدٍ سواه، وعلّق قلبه به، وفزع إليه في كل نوائبه وحوائجه، ومن أوى إلى ربه حقـًا، فقد أوى إلى ركن شديد.

فأرحْ نفسك من ضعفها وقلقها، واجعلها تتفيأ ظلال (الوكيل، الكافي) وأيقن بحفظه ورعايته وتوليه لأمورك كلها، فإنّه أرحم بك من نفسك ووالديك، وأيقن أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وأنّ الأمور منتهية، والقضاء نافذ.

والقلب كلما امتلأ ثقةً بربه صُبّت عليه العطايا والخيرات، واندفعت عنه الشرور بطرق خفية وعجيبة.

والله هو (الوكيل) الذي يدفع عن عبده ما لا يطيق من أذى الخلق، وظلمهم وعدوانهم، فهو القوي العزيز، وهو الكافي عبده الشرور كلها، وواقيه كل الآفات.

يكفي المتوكل أنّه تحت رعاية ربه الملك العليم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي: كافيه؛ وهذا يعمّ كل كفاية يحتاجها العبد، فلو كاده أهلُ الأرض كلهم لجعل اللهُ له مخرجـًا .

ومن توكَّلَ على الله حق التوكل تبرأ من حوله وقوته، وحقق التوحيد بجميع صوره، فلا يلتفت للأسباب الظاهرة، ولا يُصيبه خوف من تربص عدوّ، أو اجتماع أهل باطل عليه فـ(الكافي الحفيظ) يرعاه من حيث لا تحتسب، ويحوطه بعنايته، ويصرف عنه السوء بطرق لا تخطر له على بال .

تـوكَّلَ عليـه في (رزقك) فهو الرزّاق الكريم، فلا تحمـل هـمّ رزق، ولا كفاية أهل، فالذي تكفّل بأرزاق الخلائق لا يُعجزه رزقك أو رزق من تعول.

وتـوكَّلَ عليه في (حفظك) فهو الحفيظ اللطيـف، يكفيك كل بلاء، ويُنجيّك من كل مكروب، ويجعل لك من كلِّ همّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ويرزقك من حيث لا تحتسب.

وتوكَّلَ عليـه في (هدايتك) فهو الهادي البصير، يهديـك ويُبصرّك، ويُلهمك ويسددك، وهذا -لعمر الله- أشرف وأعظم أنواع التوكّلِ، وأولاها رعاية.

وتوكَّلَ عليه في (نصرتك على عدوك) فهو الذي ينصر أولياءه ويجعل العاقبة لهم، ولئن تأخرت، فإنّما هي لحِكم تخفى على كثير من النّاس.

التوكلُ على الله: يُوهِب صاحبه التوفيق والهداية والوقاية من كل شر وسوء، قال عَزَّوَجَلَّ على لسان نبيه شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾[هود:٨٨]

وهو سببٌ للفوز بمحبة الله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]

والتوكلُ على الله حقّ التوكل: يُستجلَبُ به كل مطلوب، وتدرّ به على العبد الأرزاق من حيث لا يتحسب، فكم من امرئٍ رُزق خيراً لم يخطر له على بال، ونال فضلاً ما ظنّ يومًا من الأيّام أن يناله، وكل ذلك بسبب حسن توكله، فكلما حقّق العبدُ التوكل على ربه صُبّ عليه الرزقُ صبًّا، ونزل عليه الفضل مِدرارًا، ذلك أنّ الله رزّاق كريم.

التوكلُ على الله: يُثمر الشعور براحة القلب، وطمأنينة النفس، فمهما ادّلهمت الخطـوب يبقى هذا المتوكل على ربه في طمأنينة عجيبة، ويثبت ثبات الجبال أمّام كل فتنة، ذلك أنّه يُوقن أنّ أزمّة الأمور بيد الله، فمما يخاف أو يرهب؟!

ولقد سـجّلت آيات القرآن الثبـات العظيم لأنبياء الله ورسـله عليهم الصلاة والسـلام، فقـال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عنهـم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٢]

المتـوكل على ربه: علم حقيقة الدنيا فزهـد فيها، وعلّق قلبه في الآخرة ليقينه أنّها خير وأبقى، وثوابها دائم لا ينقطع، قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشـورى:٣٦] فحقّق التـوكل على ربك لتنال منه الخيرات التي لا تنقطع عنك، والرحمات التي لا حدّ لها.

اللهم ارزقنا حُسن التوكل عليك، والكفاية بك.

❊❊❊

(٧٤) الجبّار

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرة واحدة؛ في قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] وهو اسمٌ جليل من أسماء الله، حوى معان جليلة يتقلّب معها العبد بين الخوف والرجاء، والطمع في فضله والخشية من عقوبته، يقرأه فيتذكر قوته وقهره وعظمته، فإنّ من معاني الجبّارُ: القهر والعظمة والقوة.

- قال الشيخ ابن عثيمين: (فهو الذي قهر الجبابرة وغلبهم بجبروته وعظمته، فكل جبّار -وإن عظم- فهو تحت قهر الله عَزَّوَجَلَّ وجبروته، وفي يده وقبضته)[١].

وقد توّعد اللهُ الجبابرة بالعذاب والنكال والخزي، فلئن غرتهم قوتهم في الدنيا، واعتزوا بجندهم، فإنّ العذاب الأليم ينتظرهم يوم الحساب جزاءً وفاقًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٥ - ١٧]

- ومن معان (الجبار): أنّه المصلح أمور خلقه، فيَجبر الفقير ويُغنيه بعد فقره، ويَجبر الجاهل ويعلّمه بعد جهله، ويَجبر المريض ويعافيه بعد مرضه.. وهكذا صنيعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع عباده يَجبرهم ويعافيهم في أمورهم كلها ويُصلحها لهم، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: («الجبار»: يعني المصلح أمور خلقه المصرّفهم فيما فيه صلاحهم)[٢].

---

(١) [مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين: ١/ ١٠٦]

(٢) [تفسير الطبري: ٢٨/ ٣٦]

- ومن معاني (الجبار): العالي فوق خلقه، قال الخطابي: («الجبار»: العالي فوق خلقه. من قولهم: تجبّر النبات إذا علا واكتهل، ويُقال للنخلة التي لا تُنال باليد طُولاً: الجبارة)[1].

وَقَالَ السَّعْدِيُّ: ((الجَبَّارُ): هُوَ بِمَعْنَى العَلِيِّ الأعْلَى، وَبِمَعْنَى القَهَّار، وبمعنَى الرؤُوفِ الجَابِرِ لِلقُلُوبِ المُنكَسِرَةِ، وللضَعِيفِ العَاجِزِ، وَلِمَنْ لَاذَ بِهِ وَلَجَأَ إِليه)[2].

- ومن معاني هذا الاسم الجليل: أنّه جبر الخلق على ما أراد، فما أراد من الخلق فعله لأنّه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، وليس جبره متعلّق بالهداية والإضلال فقد جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعبد الاختيار ومكّنه من ذلك، وهذا أمرٌ لا يُنكره إلا مُكابر، وإنّما المراد جبر خلقه على ما يريد من الأقضية الكونية التي لا يستطيع أحدٌ ردها، وجبرهم على أوامره الشرعية التي أمرهم بها، فـ(جبر خلقه على ما شاء من أمر ونهي، بمعنى أنّه شرع لهم من الدين ما ارتضاه لهم، فشرع لهم من الشرائع ما شاء، وأمرهم باتباعها ونهاهم عن العدول عنها، فمن أطاعه دخل جنته، ومن عصاه دخل النّار)[3].

وجبْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده يدلّ على كمال ملكه، فلا يكون في الكون إلا ما شاء وأراد.

- ومن المعاني اللطيفة لاسم الجبّار: أنّه الذي يجبرُ قلوب المنكسرين، فمن لاذ به ولجأ إليه تولاه بالرعاية، فيلطفُ بأفئدة الخاشعين، ويجبر

(١) [شأن الدعاء:٤٨]

(٢) [تفسير سورة الحشر]

(٣) [مختصر النهج الأسمى:٦٨]

المصابيـن بتوفيقهم للصبـر، ويعوّضهـم بخير العطايا جـزاء صبرهم، فليتأمّل العبد في هذا، وليتذكر رحمتَه ولطْفه وجبْره للقلوب.

جَبَر كسـر المريض الذي خـرّت قواه، وضعف عن الحركـة، فردّ له عافيته، وكشف ما به من ضُرّ.

وجَبَر كسـر الحزين الذي فقد عزيزاً، فربط على قلبه، وقوّى الصبر في نفسه، فأعانه على احتساب ما في هذه البلية من أجر للصابرين، وعوّضه خيراً ممّا فقد.

أذكـر أنّ لي صاحبًا فقد أسـرته كلهـا في حادثة غرق عبارة السـلام -زوجته وأولاده الثلاثة- فقلنا له سـيعوّضك الكريم، وسـيجبر كسـرك الجبّار وشجعناه على الزواج، فتزوج ورزقه الله بخمسـة أبناء، فيجبرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كسر من حلت به مصيبة، أو نزلت به كارثة، في نفسه أو ماله أو ولده، فيربط على قلبه، ويُلهمه الرضا واحتساب الأجر.

ويجبرُ كسر من سُدت بوجهه أبواب الرزق، فيزيده ثقة بربه لعلمه أنّ المقادير بيده، وأنّ الخيرة فيما يختاره الله له.

ويجبرُ كسر العقيم الذي يعتصر قلبه ابتغاء الولد، ويتمنى أن لو كان بين يديه مـن يناديه من الأبناء، فيجعل في قلبه السـكينة، ويعظم في قلبه الأمّل (وكل كسـر ألجأك إلى الله فهو جبر)

- ومن معاني اسمه الجبّار التي قلّمّا يُتفطنّ لها: أنّه يجبر قلوب أوليائه الذين اشـتاقت قلوبُهم لربهم، فيملأ قلوبَهم بحبه ومعرفته، ويجعلهم يستغنون به عن الخلق، ويُذيقهم لذيذ مناجاته، فتجد أحدُهم قد أنِس بربه ومولاه، وآثره على الخلق أجمعين، فيخلو به في أوقات كثيرة -خصوصـًا الشريف

منها- كوقت السَـحَر، وآخر ساعة في الجمعة، ويفرح بهذه الخلوة كفرح المحبين بخلوتهم بأحبابهم بل أعظم من ذلك.

- ومن تجبّر على الشـرع فلم يخضع للأوامر، أو تجبّر على الخلق فآذاهم وظلمهـم طبع الله على قلبه وأضله وأذله، وهذا من أعظم العقوبات التي ربما لا يشعر به الظالم الجبّار، فليحذر العبدُ من هذا، فإنّ عواقبه وخيمة علـى صاحبها، قـال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ [غافر: ٣٥]

- وَكَانَ النَّبِـيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يَدعُو بين السـجدتين فيقـول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وارْحَمنِي واجْبُرْنِي وارْفَعنِي وَاهْدنِي وَعَافِنِي وَارزُقْنِي»(١).

قَـالَ ابنُ الأَثِيرِ: (وَاجبُرنِي) أَيْ: أَغْنِنِي، مَنْ جَبَـرَ الله مُصِيبَتَهُ: أَيْ: رَدَّ عَلَيهِ مَا ذَهَبَ مِنه وَعَوَّضَه، وَأَصْلُهُ مِنْ جَبْرِ الكَسرِ.

وهو معنى قلّما يتفطن له أحد.

وَكَانَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يُعظِّـمُ رَبَّـهُ أَيضًا بهذا الاسـم فِـي الصَّلاةِ -فِـي الرُّكُوعِ والسُّـجُودِ- كَمَـا جَاءَ فِـي حَدِيثِ عَوْفِ بـنِ مَالِكٍ الأشـجَعِيِّ أَنَّـهُ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وسجوده: «سُبْحَانَ ذِي الجَبروتِ والمَلكوتِ والكِبْرياءِ والعَظَمَةِ»(٢).

أيّها العبد الموفق/

كن جابراً للمنكسـرين، معينـًا للمسـتضعفين، مؤنسـًا للمستوحشين، فمن جبر كسـر عباد الله جبر اللهُ كسـره، ومـن أعانهم أعانه، ومن بذل لهم ما يسـتطيع

(١) رواه أبو داوود.

(٢) رواه أبو داوود.

جــازاه الله علــى جميل فعلــه، ومن فرّج عنهم فــرج الله عنه، فالجــزاء عند الله من جنس العمل.

فاللهم اجبر قلوبنا، واغفر ذنوبنا، واختم بالصالحات أعمالنا.

❊❊❊

(٧٥ ، ٧٦) المُعطي - الجواد

لم يُذكر اسم (المعطي) في كتاب الله، وإنّما ورد في السُنّة، ففي حديث معاوية بن أبي سفيان قال :قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَاللهُ الْمُعْطِي وَأَنَا الْقَاسِمُ»[(١)].

كان ﷺ يقول بعد السلام من الصلاة: «اللَّهمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ ولا مُعطيَ لما منعتَ ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[(٢)].

فاللهُ هو المعطي الجواد؛ وعطاؤه عامٌ وخاصٌ.

فعطاؤه العام: شامل للخلائق أجمعين؛ فلا يُعطي مثل عطائه أحد.

تأمّل في عطائه للعالمين، وانظر ماذا أنفق على خلقه وأعدادهم بالمليارات، وهذا العطاء قد كفاهم في معيشتهم وحياتهم، ومع سعته فإنّه لم ينقص ما في يمينه -وكلتا يديه يمين- فهو سحّاء الليل والنهار، وعطاؤه ليس خاص فقط ببني الإنسان بل هو لكل حي من إنس وجنّ وحيوان؛ عطاءً واسعًا ما جعل حياتهم تقوم بأحسن حال.

وعطاؤه العام للمؤمن والكافر والبرّ والفاجر، فلم يمنعه كفر الكافر أن يُعطيه كفايته، ولا فجور الفاجر أن يكفيه حاجته ذلك أنّه جواد كريم.

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له

(٢) رواه البخاري ومسلم.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله المعطي»[1].

فيه الحصر لمن يملك العطاء وحده، فاللهُ هو المُعطي على الحقيقة؛ ولئن كان العطاء يأتي عن طريق العباد فإنّه لا يكون إلا بإذنه، فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

انظر لكثير من الخلق يسعون سعياً في طلب معيشتهم وأرزاقهم، ولكنّهم لا يُحصلّونها، ولا يظفرون بكثير من مطالبهم، ذلك أنّ الله منع عطاءه عنهم، ولم يأذن لهم بهذا الشيء، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يصف عطاء الربوبية العام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠]

وإذا تأمّلتَ هذا وجدتَ عظمةً لا منتهى لها، ويمتنع على أحد الإحاطة بها، فانظر لعدد الخلق، وكيف يُعطي هذا ويمنع ذاك، ويُزاد في رزق الأوّل، ويُنقص من رزق الآخر، وكل ذلك بعلمٍ حكمة، فسبحان ربنا العظيم ما قدره العباد حق قدره، وما عرفوه حق المعرفة.

انظر إلى عطاء الصحة والعافية، فهذا المريض يسعى سعياً حثيثاً في تحصيل العلاج ولكن تبوءُ محاولاته كلها بالفشل لأنّ معطي الشفاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يأذن له به، وبالمقابل يعافي غيره بأدنى سبب، وبلا سبب.

وانظر لعطائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في العلم، فهذا الطالب يبذل جهداً في التحصيل، ولكنّه لا يظفر من ذلك بشيء لأنّ المعطي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُقدّر له ذلك، ويُعطي غيره من العلوم ما يُبهر الخلائق بعطيته له.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وانظـر لعطائه إلى التاجر وكيف يواصل الليل بالنهار لينال نصيبًا من المال، فيبذل الأسـباب، وينوّع في الطرق وقد اجتهد في ذلك اجتهاداً كبيراً، وأتى بأسباب الربح ولكنّه لا يظفر بمطلوبه لأنّ الله لم يكتب له ذلك الرزق ... في سلسلة وصور لا حصر لها من المنع والعطاء التي لا يملكها إلا الله وحده.

وبالمقابل إذا تأملتَ عطاءه الواسع لغيرهم وجدتَه عطاءً كثيراً كبيراً، فيُعطي هـذا المـال الوفير، ويديم علـى ذاك الصحة زمنًا طويلاً حتـى لا يكاد يمرض إلا نادراً، ويفتح علـى ذاك من العلوم بالعلم الغزير...في عطاءات لا منتهى لها، وكل ذلك العطاء والمنع بعلم وحكمة.

وعطـاءُ اللهِ ومنعه العام ليس دليل على رضاه عن عبده أو سـخطه عليه في كل حال، فانظر كيف وسّع وأعطى الكافرين والفاسقين مع كفرهم وفسقهم، فليحذر مـن لا يـزال مقيمًا على المعاصي وعطاء الله لا يزال يُصـبّ عليه، فقد يكون ذلك استدراجًا ومكراً به، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْـتِدْرَاجٌ» ثُمَّ تَلَا رَسُـولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٤٤][١].

قال تعالـى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠] فالدنيا لا تساوي عنده جناح بعوضة، فلا يغترّ بها إلا المغرور.

وأمّا العطاءُ الخاص: فهو لخاصّة عباده المؤمنين.

---

(١) رواه أحمد في المسند،وصحّحه الألباني.

وهو العطاء المبارك للقلوب يوم يمدها الرحمن بالإيمان، والرغبة في فعل الخير والإحسان، ويجعل فيها حبّ نفع الخلق -وهذا العطاء أشرف أنواع العطاء، وأخصّه بالرحمة- وهو الفضل الكبير الذي لا يوازيه فضل، ولا يدانيه عطاء، وهو أنواع لا حصر له.

فمن عطائه الخاصّ: **عطاء العلم به وبشرعه وحكمه وأحكامه**، فهو عطاء يخصُّ الله به من شاء من عباده، وفي الحديث يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن يُرِدِ الله به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ»[1].

ومن العطاء الخاصّ: **عطاء القناعة والرضا**، يوم تقنع النفوس برزق ربها وكفايته لها، فلا تطمع في دنيا زائلة ليس من ورائه إلا الانشغال بها عن معالي الأمور؛ فهذا هو العطاء الذي لا يفقهه إلا سادة الخلق وأعقلهم يوم عرفوا أنّ العطاء الحقيقي هو الذي يمتدّ حتى يُوصل صاحبه إلى جنّات النعيم، فكل عطاء دنيوي مصيره إلى زوال، وكل رزق لا ينفع في الآخرة فهو رزق مؤقت، ولذا كانت قلوب المؤمنين متعلّقة بعطاء ربها الباقي الذي لا يحول ولا يزول، قال الله تعالى -عن هذا العطاء-: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود: ١٠٨]

وأيقن -أيّها المؤمن- أنّ عطاء الله العام، عطاءٌ بعلم، ومنعه بحكمة وتدبير لشؤون العباد، وعطاؤه الخاص عطاءُ فضل وجود وكرم ورحمه.

ومنْعُ الله لعبده ما يتمنى في أحيانٍ كثيرة رحمة به، يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) رواه مسلم.

«إن الله ليحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب»[1].

من عرف ربه بسعة العطاء: أسند النعم له وحده دون سواه، وتعلّق قلبه به فقط، ولم يلتفت لمخلوق، فحقَقَ التوحيد بأوضح صوره.

ومن عرف ربه بسعة العطاء: أحبّه لا محالة، فهو يرى ترادف نعمه عليه صباح مساء، وفي كل نَفَس من أنفاسه.

ومن عرف ربه بسعة العطاء: سحّ بما في يده، وأنفق ولم يخش من ذي العرش إقلالاً، فقد آمن بسعة جود ربه، وكثرة عطائه، ووفائه بالخَلَف، وكثرة عِوضه للمنفقين.

ومن عرف ربه بسعة العطاء: لم يمنّ بعطية على أحد، ولم يُعجب بعمل، ولم يسند الفضل إلا إلى الله متجرّداً من الحوْل والطوْل، فقد أيقنّ أنّ الفضل كله لله، فهو الذي رزق ووسّع، وهو الذي يسّر وهيأ، وهو الذي أعان وسهّل، وهو الذي وفق النفس للبذل.

ومن عرف ربه بسعة العطاء: لم يزلْ لسانُه يلهج بالثناء عليه، والشكر له، والاعتراف بفضله، وسعة جوده، وامتداد فضله.

وهذه المعرفة تورث العبد لزوم باب الدعاء على الدوام، وإنزال الحوائج به فقط دون سواه ليقينه أنّ عطاء ربه كلام ومنعه كلام، وهو المالك لكل شيء، فإذا أراد شيئًا فإنّما يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: آية ٤٠].

---

(١) رواه أحمد وصحّحه الألباني.

والله جواد.

ولـم يُذكر اسـم (الجواد) في كتاب الله، وإنّما ورد في السُـنّة، قال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ جَوَادٌ يُحِبُّ الجُودَ»(١).

و(الجَوَادُ): هو كثير الفضل والإحسان؛ وجودُه عام لا ينقطع عن عباده حتى وإن كانوا مقيمين على معصيته وما يُسخطه، وهذا من سعة رحمته وفضله.

أمّـا جوده على أوليائـه، فهو جود خاصٌّ بما جاد به عليهـم من الإيمان، وما فتح به عليهم من المعارف والفتوحات الربانية من العلوم النافعة، وبما جاد عليهم مـن القبول عند الخلـق، والبركة في أعمالهـم الدينية، وما أبقاه لهم من حسـناتٍ باقياتٍ لا يزالون ينتفعون بها في قبورهم وتصلهم حسناتها نعمة منه وفضلاً.

وسـعة جـوده لا حصر لها، فمن ذلـك: أنّه أمر عبادَه أن يسـألوه، ومن زاد في المسألة زاد حبه له، بل إنّه يغضب على من لا يسأله، ذلك أنّه جواد كريم.

ومن كمال جوده: أنّه أذِن لعبده بمناجاته، ولم يجعل بينه وبين عبده واسـطة في مسألته، بل إنّ العبد يناجي ربه في أيّ ساعة شاء من ليل أو نهار.

ومـن سـعة جوده: أنـه حبّب لعبـده الإيمان وزيّنـه في قلبه، وكـرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان.

ومن سعة جوده وإحسانه: أن فتح لعباده أبواب العبادة، وعرّفهم مواقع رضاه ليُكثروا منها.

---

(١) رواه البيهقي، وهو حديث صحيح أورده الألباني في صحيح الجامع.

وعندما يتذكّر العبدُ الجنّة وما فيها من نعيم متزايد لا ينقطع أبد الآباد لهذه الأعداد الهائلة من أهل الإيمان يحار في التأمل، ويتبلّد ذهنه في التفكر في سعة جود الله وعطائه لأهل كرامته، فاللهم لا تحرمنا فضلك وجودك يا رحمن.

اللهم أعطنا من الخير فوق ما نُؤمل، واصرف عنّا من الشر فوق ما نحذر، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تُؤثر علينا.

اللهم ما سألناك فأعطنا، وما لم نسألك فلا تحرمنا، وما قصُرت عنه آمالنا فابتدئنا.

❊❊❊

(٧٧ ، ٧٨) القابض، الباسط

اللهُ هـو القابض والباسـط علـى الحقيقة، فهو الذي يبسـط الـرزق والعطايا والخيرات على عباده، ويضيّقه عليهم بحكمة تامّة، وعلم محيط بكل شيء.

وقد ورد هذان الاسمان بصيغة الفعل في غير ما موضع من كتاب الله، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٢]

وقال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ تعالى هو : الخالِقُ، القابِضُ، الباسِطُ، الرازِقُ، الْمُسَعِّرُ ..»[١].

فهو يقبض ويبسط باللُّطْفِ، وحسْنِ التدبيرِ والتقدير، وبكمالِ العلمِ والخبرة، رأفة وحكمة وعِلماً.

فإذا علم العبدُ هذا فواجبه الرضا بقضاء الله عليه، وليُوقن أنّ الخير كل الخير فيما قدّره عليه ربُه، فكم مِنْ أمرٍ قبَضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن عبده فحَزن له ثم تبيّن له بعد مدة أن خِيرَتِه في ذلك القبض.

وفي قبْضه وبسْطه نفاذُ إرادته، وكمال حكمته، وسعة رحمته.

وقبْضُه وبسْطُه للعباد بحرٌ لا منتهى له.

قال بعض العلماء: (وأعظمُ البسط: بسْطُ الرحمة على القلوب لتنشرح لفعل الطاعات، وتسهُل عليها القربات)

---

(١) رواه أبو داود.

وهو الشرح المذكور في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢] وهو أشرف أنواع البسْط وأحْسَنه رزقًا، فيُبسط له في حبّ الخير وحب أهله، ويقبضه عن فعل الشر والبعد عن أهله.

وهو الباسطُ: الناشرُ فضله على عبده، فيعطيه أكثر مما يحتاجه.

وبَسْط الله من دلائل ربوبيته ووحدانيته، فلقد كان من ثناء النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ربه في هذا الشأن ما جاء في مسند أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث رفاعة بن رافع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لمّا كان يومُ أُحُدٍ، وانكفأ المشركون، قال رسولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه استَوُوا حتى أُثنِيَ على ربي عَزَّ وَجَلَّ ثمّ قال: «اللهم لك الحمدُ كلُّه، اللهم لا قابضَ لما بسطتَ، ولا مُقرِّبَ لما باعدتَ، ولا مُباعِدَ لما قرَّبتَ، ولا مُعطِيَ لما منعْتَ، ولا مانعَ لما أَعطيتَ، اللهم ابسُطْ علينا من بركاتِك ورحمتِك وفضلِك ورزقِك، اللهم إني أسألُك النَّعيمَ المقيمَ الذي لا يحُولُ ولا يزول..»[1]. الحديث.

فهو بيده الخفض والرفع، والقبض والبَسْط، والعطاء والمنع، وأمور العباد تحت إرادته ومشيئته، فمن يرد رِفعته رَفعه ولا خافض له، ومن يرد خفْضه خفَضه ولا رافع له، فسبحان من بيده القبض والبسط.

وبسْطه لعبده لا منتهى له، ويعظم ويكثر مع كثرة الإلحاح في المسألة، والصدق في الدعاء، فاسْأل ربَك بصدق أن يبسط عليك من بركاته لتجد من العطايا والخيرات ما لا يخطر لك على بال، فكم من رزق رُزقه العبد، ووسِّع عليه فيه بدون مسألة أو دعاء، ولو عُدت بذاكرتك لوجدت هذا الأمر حاضراً بين ناظريك، فكيف مع كثرة الدعاء والإلحاح؟!

---

(١) مسند أحمد

ويبْسطُ الله على عبده الخير الكثير، ويُبارك له في وقته وعمره، فتجد عنده من البركة في الوقت والإنجاز في عمله، ونفع الأمّة ما لو اجتمع العشرات بل ربما المئات على أن يُنجزوا مثل عمله لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولك في رسول الله ﷺ برهان بيّن مِن بسْط الله له ولدعوته، ونزول بركته عليها، فإنّه لم يمكث بين أصحابه إلا ثلاثاً وعشرين عاماً فقط ثبّت فيها دعائم الإسلام في جزيرة العرب كلها، وأنشأ جيلاً حملوا الرسالة من بعده، وبَسَط اللهُ بركته على خلفائه الراشدين فنشروا الإسلام في خارج الجزيرة ووصلوا إلى ما وصلوا إليه، وبَسَط على العلماء في التأليف ونشر الخير ما هو معلوم وباقٍ أثره.

فإذا رضي اللهُ عن عبده بسَط له من البركات في العلم والعمل ونفع المسلمين ما يجده في حياته، وما يُخلّفه وراءه من علم نافع وأثر باق يشهد له، فبَسْط الرحمة والفضل والرزق عطايا كريمة من الرحمن عَزَّوَجَلَّ لا حدّ لها.

ويبْسطُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عبده بالعمر، فيهبه عمراً طويلاً في حين أنّه يرى الموت يخطف غيرَه في سنٍ أصغر منه بكثير، ويُعمّره هو ليتمكنّ من العمل الصالح، ويتزوّد من الباقيات الصالحات، فيكون من خير النّاس، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خيرُكم مَن طالَ عُمرُه، وحسُنَ عملُهُ»[1].

ويبْسطُ الله تعالى لعبده في كثرة الولد والذرية، فترى الرجل ربما رأى العشرات من الأبناء والأحفاد وأحفادهم، بَسْطاً من الرحمن ومِنّةً وعطاءً ورحمةً له لتلحقه الدعوات في حياته وبعد مماته.

ويبْسطُ له في الأموال، فيهب له المالَ الكثيرَ ليُنفقه على نفسه وعلى من

(١) رواه الترمذي.

يعول، ويستغني به عن الخلق، وربما زاد ووُفق فأنفقه في سبيل الله تعالى، وكم كان المال سبباً في رضا الله عن عباده، ونيل العبد أعالي درجات الجنان، وما حال عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومن بعده من الأخيار ممّن تاجروا مع ربهم بأموالهم وانتفعوا بها عنّا ببعيد.

ويبْسُطُ له في المناصب، فينال من المناصب ما يرتفع به ذكره، وينفع به المسلمين، وينال الأجور العظيمة، وانظر إلى الملوك الصالحين، وكيف يفوزون بأعلى الدرجات بنفاذ أمورهم في تحكيم شرع الله في الأرض، وإقامة الحدود، والتوفيق لأعمال البر من بناء المساجد، ودور العلم ونشر الشريعة بين العباد، ويبسط على غيرهم ممّن أوتوا مناصب في دنياهم، فينتفعون بمناصبهم ويجعلونها قربة لهم عند مولاهم.

وأعظم البسْط بسْط العلم، فهو البصيرة والنور لصاحبه، وهو الذي يُعليه مراتب في الدنيا والآخرة، ولمّا اعترض قوم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على اصطفاء طالوت عليهم بيّن لهم نبيهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنّ من أسباب نيله هذه الولاية بسْطة العلم والجسم، فدلّ هذا على أهميتها وعِظم شأنها، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧]

ويبسطُ فضله ورحمته على القلوب المؤمنة فتُحب الطاعات، وتستسهل القربات، فتجد العبدَ الموفق كثير الصلاة، طويل القيام يتلذذ بوقوفه بين الله تعالى، ويؤديها بنفس منشرحة في حين أنّ غيره يعجز حتى عن الفريضة.

وتتأمّـل في حال بعضهم لترى عجبًا عجابًا في انشـراح صدره للنفقة، فتجده يُنفق نفقات كثيرة في أبوابٍ شتى بسخاء عجيب ما يحَارُ معه المرء وهو يرى سعة إنفاقه، وما علم أنّه من بسْط الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وشرح صدره لها.

ويبسـط لبعضهم في حـبِّ الصيام، فيصوم الأيام الطوال شـديدة الحرّ متلذذاً بهذه العبادة، وغيره يرى أنّ صيام رمضان الواجب أشق ما عليه.

وتجد من بَسَـط له في حبّ العلم، فيُنفـق ماله لأجل تحصيله، ويمضي عمره كله متنقلاًّ بين أروقته –مطالعةً وحضوراً لمجالسـه وتصنيفًا وتأليفًا– وكل ذلك مِن بسْط الله له وفضله ورحمته به، فالعلم من أنفس العطايا والهبات.

ويبسـط لبعضهم في حبِّ الحجِّ والعمرة، فيُتابع بينهما حتى أنّك لتعجب من حال من وُفق لهذا، فتجده حجّ خمسـين أو سـتين حجّة، وهذا من فضل الله على عبده في هذه العبادة.

ومنهم من يبسط له في كثرة تلاوة القرآن فيمنّ اللهُ عليه بكثرة الختمات.

ومنهم من يبسط له في ذكر الله، فلا يزال لسانُه رطْبًا بذكر الله على الدوام.

وبَسْطه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عباده في باب القُربات لا حصر له.

فاللهم ابسط علينا من بركاتك ما يكون لنا رفعة لنا عندك، وأثراً بعد الممات.

وعلى من بسـط الله له في العلم أن ينشـره، ومن بُسط له بالمال أن يُنفقه، ومن بُسـط له بالصحة أن يغتنمها بكثرة الطاعات، ومن بُسـط له في الوقت أن يغتنمه في طاعة ربه، ومن بُسـط له في الفهم أن يسـتخدمه فيما ينفعه، فكل هذا فضل من الله تعالى على عبده ورحمته به، فحقه الشـكر والاعتراف بنعمه، وليحذر من بُسط له

في هـذه الخيـرات من أن تكون حُجّـة عليه، فكم من طالب علم صـار علمُه وبالاً عليه، وكم من صاحب مال أورده مالُه نار الجحيم باستخدامه في معصية ربه، وكم من صاحب سـلطة ظلم غيره بها، وكم من فارغ كان فراغه سـببَ هلاكه، فتذكر فضل هذه الأرزاق واغتنمها في ما يُرضي ربك عليك .

ولا يغترّ أحد ببسْـط الدنيا، فاللهُ يبسـطها للكافرين والعصاة، وهو بسْطُ مكرٍ واسـتدراج، فإنّها لا تسـاوي عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شـيئًا ولكنّها متاع الغرور، ولأنّها هـي همّ أكثر الخلق فيظنون -لفرط جهلهم- أنّ بسْـطها لهم من علامات رضاه، وهذا ظنٌّ خاطئ، وبرهان ذلك أن تنظر كيف بسطها لفرعون فملّكه مصر، وجعل الأنهار تجري من تحته، وانظر كيف بسطها للكافرين في زماننا، فعندهم من بسْط المعيشة ما ليس عند كثير من المسلمين، فكيف يكون هذا من علامات رضاه؟!

ولقـد أبانت الآيات أنّ الله قادر على أن يجعل بيوت الكفار من ذهب وفضة لحقارة الدنيا عنده، فهي لا تساوي عنده شيئًا، ولكنّ أكثر النّاس لا يعقلون، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف:٣٣-٣٥]

(وهو الباسط الحليم) فلا يمنعه عصيان عبده من بَسْط رزقه عليه، ولا يحرمه فضله مع جراءته على حرماته.

ففي الخلْق من يبارزون ربهم بالمعاصي والمحرمات صباح مساء بل يباتون على معصية، ويسـتيقظون على أخرى، ومع ذا يبسُطُ عليهم رزقه ويغذّيهم بنعمه من غير سؤال منهم، وما ذاك إلا لسعة فضله، وكمال جوده.

وهو (القابِضُ) سبحانه، ولا يُطلق اسم القابض على الله إلا مقرونـًا بالباسط، فيُقال: القابضُ الباسط، لأنّ في اجتماعهما الكمال المطلق، فيكون فيه الإخبار عن القدرة، والدلالة على الحكمة.

والقبض هو: التضييق.

وقبْضُـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعـدل، وبسـطه بجـود: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء:٢٣] فيقْبض ويبْسـط بعلم وحكمة من غير ظلـم أو منع حق، ومن تأمّل في حاله وجد أنّ ما بسـط الله عليه أضعاف أضعاف ما منع، فانظر كيف بسط على جسـدك، وجعلك تكبر شيئًا فشـيئًا، وأحاطك برعايته وحفظه منذ ولادتك حتى تلقاه، ولو تأمّلتَ إلى مجمل حياتك وجدتها عافية، ولا يعتريك المرض إلا أيامًا معدودات.

ومن نظر في قضية الطعام والشـراب -وهو مادة حياة الخلق- اعترف بفضل ربه عليه بسد جوعته، وكفايته من المطاعم والمشارب، ولئن أصاب بعض الخلق جـوعٌ وعطشٌ فهما لا يُذكران أمـام الملايين ممّن كفاهـم اللهُ ذلك، وهكذا حياة الخلق كلهم تجد فيها بسْط الرزق والعطايا عليهم غالب.

ويقبضُ اللهُ قلبَ الكافر فلا يشـرحه للإسلام مع كثرة البراهين الدالة على أنّه الحق.

ويقبضُ اللهُ على قلب العاصي فلا يُؤدي فريضة، ولا يفعل طاعة، وتثقل عليه القُربات، وتراه محبوسـًا عنها، قد هجر المسـاجد، وتمرّ عليه مواسـم الخيرات وهو في واد سحيق من ظلمات الحرمان.

ويقبض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القلوبَ فتمتلئ همّـًا على أصحابها، وتجد فيها من الضيق ما لو اجتمع أهل الأرض أن يفسحوا ذلك القلب لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وقد يكون الإنسان عنده من الأموال ومظاهر الرفاهية ما يظنّ معه نيل السعادة والفـرح، ومع ذا ففيه من الضيق ما كأن جبال الدنيا على صدره لأنّ الله قبض على قلبه فصار إلى ما ترى.

والله عَزَّوَجَلَّ هو القابض لأرواح العباد عند الممات بواسطة رسله من الملائكة؛ وقبْض الأرواح آية من آيات عظمته، ودليل ظاهر من دلائل قدرته، فكم يموت في اللحظة الواحدة مِن خلْق الله!!

ومع كثرتهم فإنّه سـبحانه- يعلم وقت خـروج أرواحهم، ومكان موت تلك الأنفس، وحالها عند وفاتها من حسـن الخاتمة أو سـوئها، ومِـن تنوّع حالها بين النعيـم أو العـذاب، وهل صاحبها من أهل اليمين أو الشـمال أو ممّن منّ اللهُ عليه فصار من السابقين في قدرة وقوة عظيمة للإحاطة فسبحانه عَزَّوَجَلَّ.

ويقبض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأرض يوم القيامة مع سـعتها وعِظم خلقها لأنّه العظيم الجليل، بل إنّ الأرض والسموات في يد الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كخردلة في يد أحدنا.

فسبحان القابض الباسط، الذي بيده الأمور كلها، فاللهم بإيماننا بوحدانيتك واعترافنا بقدرتك على القبض والبسـط، اشـرح صدورنا وصدور أبنائنا وذرياتنا والمسلمين لطاعتك، وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب.

❋❋❋

(٧٩ ، ٨٠) الولي - المولى

ورد اسم: (الولي) في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [سورة البقرة:٢٥٧]

وأما اسمه (المولى) فقد ورد اثنتي عشرة مرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [آل عمران: ١٥٠]

فاللهُ هو الولي المولى، ومعنى الولي: النصير والظهير والمعين.

فهو الذي يتولى أمور العباد كلهم، يدبّرها كيف يشاء، ويصرّفها بمقتضى إرادته وحكمته؛ وتَولِيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمور العباد كلهم دليل على سعةِ علمه، وكمالِ قوته، ونفاذِ مشيئته فيهم، وتمامِ حكمته في تدبيرهم.

وولايتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عامّة وخاصّة.

فالولايةُ العامّة: شاملة للخلائق كلهم في جميع أمورهم، فقد تولّى الله أمر الكون كله -سمائه، وأرضه، بره وبحره، وفضائه الواسع- فدبّره بإتقان تام، وقدرة كاملة، وقوة شامله.

وتولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمورَ العباد، فدبّر شؤونهم بالإحياء والإماتة، والعافية والبلاء، والصحة والمرض، والغنى والفقر، ورعاهم الرعاية العامة والحفظ الشامل، وكل ذلك برهانٌ ساطعٌ أنّ العباد طوْع تدبيره لا خروج لأحد منهم عن نفوذ مشيئته، فمن كتب عليه المرض مرِض، ومن كتب له العافية عوفي، ومن

قضى عليه البلاء ابتلاه، ومن كتب عليه الوفاة توفته الملائكةُ الكرام، فمضى قدرُه في الخلائق، واستقرت أمورهم في الجملة وسارت حياتهم بانتظام تامّ، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩﴾ [الشورى:٩]

ومن معاني الولي: (المحمودُ العاقبة في جميع ما يقدّره ويفعله) قاله ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأقدار الله كلها خير، وإن رأى العبد أنّ ظاهرها الشر لعدم تأمّله في العواقب.

أمّا الولاية الخاصة: فهي التي يسعى لها الصالحون من عباده، طمعًا أن يتولّاهم ربُهم بعنايته ولطْفه، ونصْره وتأييده وتوفيقه، وإعانتهم على فعل مراضيه.

ولجلالة هذا الوصف الشريف ادّعاه الكثير من الخلق (وأنّهم أولياء الله) والحق أنّه لا يستحقه إلا أهل الإيمان والتقوى، المطيعين لربهم، الذين صفت عقائدهم، وسلمت قلوبُهم، وأُخلصت قرباتهم، وصلُحت أعمالهم، فكانوا أولياء الله حقًا، وعباده المتقين صِدقًا، وهذا ما أوضحته الآيات في بيان وصفهم الحقيقي كما في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس:٦٢-٦٤] فأولياءُ الله حقًا هم المؤمنون المتقون لا غير، وكلما زاد إيمانُ العبد وتقواه ترقّى في سُلّمِ الولاية.

واللهُ يتولى أمر عبده بتوفيقه ودلالته وإرشاده على مصالحه، فمِمَّا علّمه رسولُ الأمّة عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أمّتَه من الدعوات: «وتولَّني فيمَن تولَّيت»[1].

فيتولّاه في شؤون دنياه، فيدفع عنه شرورها، ويُرشده لمصالحه، ويحوطه

(١) رواه أبو داود.

برعايته، ويُسدده ويُعينه.

ويتولى عبدَه الصالح في تزكية نفسه، وتطهيرها من كل دنس وخلق مشين، فتُصبح نفسُه مطمئنة، ويغدو قلبُه قد حوى كل خير، وقد كان من دعاء نبينا محمد ﷺ الذي علّمه أمّته: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»[1]. فيتولى الولي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عبدَه الصالح بإخراجه من ظلمات الكفر -تلك الظلمة الموحشة- إلى نور الإسلام الفسيح، والحق الواضح المبين، فيشرح صدره، ويُنير دربه.

ويخرجه من ظلمة البدعة المُهلكة إلى نور السُنّة المُشرقة، فيعبد الله على بصيرة، ويسلك سبيل المهتدين.

ويتولّاه الولي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإخراجه من ظلمات الذنوب والخطايا، فانّ للذنوب ظلمات بعضُها فوق بعض فإن سَلِم العبد منها، ومن عُقدة الإصرار عليها، ولزم الاستغفار، وجدّد التوبة على الدوام جازاه ربه بأن يُخرجه من ظلمات الذنوب إلى نور الطاعة وحبها، وكراهية المعصية والنفور منها.

وبقدر طاعاتِك وصلاحِك تنال ولاية الله ورعايته لك، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦]

فيتولاك ويصلح لك دينك ودنياك، ويرزقك بطرق لا تحتسبها، ويوفقك توفيقًا لا يخطر لك على بالك، ويسهّل لك طاعته ويحببّها إلى قلبك.

وانظر كيف تولى أنبياءَه ورسلَه، والصالحين من بعدهم، فنشأوا تحت رعايته، واصطنعهم تحت عينه، فصاروا شامة بين البشرية، وأبقى لهم ذكراً حسنًا

---

(١) رواه مسلم

في العالمين، ولسان صدق في الآخرين.

تأمّل كيف تولى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ورعاه رعاية كاملة منذ ولادته، وفي رضاعته وصغره، ورباه في بيت عدوّه حتى شبّ واكتملت قواه، ثم تولاه وأنجاه من القوم الظالمين، ونصره على عدوه، وجعل العاقبة له ولمن معه من المؤمنين.

وانظر كيف تولى يوسف الصدّيق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحفظه من حسد إخوته، وحرسه من كيد امرأة العزيز حتى مكنّه من مُلْك مصر، وجمعه بوالده بعد الفِراق.

وتأمّل في ولايته لسيد المرسلين محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكيف تولاه طيلة فترات حياته حتى مكّن له دينه، وجعله باقياً بقاء الليل والنهار، ونشره في الأرض، وترك الأمّةَ على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

ولئن اعتزّ أهلُ الدنيا بمثلهم من الرؤساء، وأصحاب السلطة المؤقتة، فالمؤمن قد تولّاه ربه، فنال أرفع أنواع الولاية، وأشرف مراتب الحفظ والنصرة والرعاية، ولذا طمأنَ اللهُ عبادَه المؤمنين بكمال رعايته لهم، وعنايته بهم، وتوليه جميع أمورهم، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة:٥٥-٥٦]

وإذا كملت الولاية للمؤمن ظفر بالنصرة على أعدائه، وجاءته بطرق لا تخطر له على بال، واندفعت عنه الشرور من حيث لا يشعر، فاللهُ وليه ومولاه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥﴾ [النساء:٤٥] وفي التاريخ شواهد لا تُحصى كثرة.

إذا تولّاك الله -ويا سعادة روحك، وحسن حظك إن تولاك الله-: نلت محبته، وظفرت بقربه، وربحت رعايته.

إذا تولّاك الله: حفظك من كل شر، وحماك من كل مكروه، فهو الوليُّ المولى، فقد علم المؤمنون حُسن ولاية ربهم لهم، وحفظه ورعايته لهم، فحالهم كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة:٥١]

فاطمأنّت نفوسُ المؤمنين لهذه الولاية، فقد بلغهم حفظ الله لهم كما في الحديث القدسي: «مَن عادى لي وليًّا، فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(١).

فيوفقك ويُهيئ لك من أمرك رشداً، فلا تسمع إلا ما يُرضي الله، ولا يُرى عينك إلا الخير، ولا تمشي إلا لمراضيه من أماكن عبادته من صلاة وحِلق علم، وبِرٍّ وصلة رحم، وأعمالِ نفع قاصِرةٍ ومتعدِيةٍ في سلسلة من العطايا تنالها، فأيُّ خيرٍ فات مثل هذا؟!

إذا تولّاك الله: أجاب دعاءك، وحقق رجاءك، وسهّل لك كل عسير، وذلّل لك كل صعب، وجاءتك الخيرات من كل مكان.

إذا تولّاك الله: أكرمك بدخول دار كرامته، والفوز بفضله ورحمته، وشرّفك بحسن جواره، قال تعالى - عمّن تولّاهم ووعد بإكرامهم-: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢٧﴾ [الأنعام:١٢٧]

---

(١) رواه البخاري.

فاحرص - يا عبد الله - واحرصي - يا أمة الله - على نيل هذه الولاية، وذلك: بتحقيق التقوى، والاكثار من الأعمال الصالحة، وصلاح القلب والجوارح، والزيادة من العلم فهو طريق كل خير، والزم الدعاء على الدوام وتوسّل له بهذا الاسم الكريم ليتولّاك، ويُصلح لك شأنك كله.

فإنّ من الدعاء المبارك للمؤمنين ما جاء في خواتيم سورة البقرة: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:٢٨٦]

وكان من دعاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا ولِيَّ الإسلامِ وأهلِهِ، مسِّكْنِي بالإسلامِ حتى ألقاكَ عليْهِ»[1].

أمّا إذا تخلى الله عن العبد وخُلّي بينه وبين نفسه، فقد وُكل لضعف وضلال، قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء:٩٧]

فيا خسارة من آثر الدنيا وملاذها الفانية، فحُرم ولاية الله له، وباء بالخسران المبين، فاللهم تولّنا واحفظنا، واحرسنا بعينك التي لا تنام.

(اللهم يا ولي الإسلام وأهله مسّكنا به وثبتنا عليه حتى نلقاك) وتولّى أمرنا، واغفر لنا، وارحمنا وتجاوز عنا.

❊❊❊

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، وإسناده جيد.

(٨١) الرفيق

من أسماء الله (الرفيق).

وقد جاء ذكره في السُّنّة في غير ما حديث، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ»(١).

والرفق: هو اللُّطف واللين والتسهيل.

والله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ رفيقٌ كثير الرفق والتسهيل؛ فهو رفيقٌ في أفعالِه وقدَرِه وقضائِه، ورفيقٌ في شرعِهِ وأحكامِهِ ودينِه.

فمِن رِفْقه في أفعاله أنّه خلق خلْقه بالتدرّج؛ فانظر كيف خلق السماوات والأرض في ستة أيّام ولو شاء لخلقها في أقل من طرفة عين لكمال قدرته.

ومِن رِفْقه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: أنّه خَلَقَ الإنسان في مراحل متعددة، وكذا خَلَقَ الحيوان والنبات وغيرها من المخلوقات.

ومِن رِفْقه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: تعليم ابن آدم قضاء حوائجه، وتقوية أعضائه بمراحل متدرّجة، فهو الرفيق العليم القدير.

وكل هذا الرفق منه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ تعليمًا للعباد أن يرفقوا في أمور حياتهم كلها، وأن يبتعدوا عن العجلة، فقد قضى سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنّه يُعطي على الرفق ما لا يُعطي على غيره، ومن رفق ظفر بمطلوبه في الغالب بخلاف العجول، وقد قالت العرب: (العجلةُ أمّ الندامات).

(١) رواه مسلم.

ومن رِفقه بعباده: رِفقه في شرعهِ وأمرهِ، فلم يشرع لعباده التكاليف دفعة واحدة بل شرعها بالتدرّج، فشريعة الصلاة كانت بالتدرّج، فقد فُرضت أوّل ما فُرّضت الرباعية ركعتين ركعتين ثم زيدت إلى أربع في الحضر وبقيت في السفر ركعتين.

وبقي فرضها ميسراً للعباد فهي خمس صلوات فقط في اليوم والليلة بأجر خمسين صلاة.

وفرضها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عبده على مراحل، فيُؤمر بها وهو ابن سبع سنين دون ضرب إلى سن العاشرة ثم يُضرب عليها - تأديبًا وتدريبًا عليها- إلى سنّ البلوغ حتى إذا ما بلغ اعتادت نفسُه عليها وألِفتها، وما ذاك إلا لأهميتها وعلو منزلتها عند الله.

وشريعة الصيام والجهاد ونحوها كلها شُرعت بالتدرّج.

وكذلك بقية الشرائع فعامّتها على التسهيل والتيسير في أصلها ثمّ تأتي بعد ذلك الرخص عند المشقة، وكلُّ هذا من الرفق بالعباد والتيسير عليهم.

ومن معاني اسم: (الرفيق) أنّه الميسر المسهّل لأسباب الخير كلها، ومن أعظمها: تيسير وتسهيل القربات للعبد، فيُيسر له كل طاعة من صلاة وصيام وحج وعمرة وصدقة ونفقة وبِرّ وإحسان ونحوها من الطاعات الشريفة.

ومن أعظم أنواع التيسير: تيسير وتسهيل القرآن لعباده -تلاوة وحفظًا ومعرفة للمعنى (ولولا تسهيله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما قرأه ولا حفظه أحد) كما جاء ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر: ٢٢]

فيُسرّ لعبده تلاوته في كل وقت، وتجد عند هذا من البركة والتيسير ما يتعجّب منه المرء وهو يقرأ سيرته في كثرة الختمات.

ويُيسرّ لبعض عباده معرفة المعنى من الآيات، وإنّك إذا قرأت لبعض المفسرين أيقنت بتيسير المعنى لهم، وإلهامهم فهمهم، وتبسيطه للنّاس وتقريبهم المعنى لكلام العزيز الرحيم.

ومن تيسيره: تيسير العمل به، فتجد من وُفِق من العباد قد سهلُ عليه العمل بكتاب الله دون أي حرج، فاللهم يسره لنا يا رفيق.

ومن معاني الرفيق: التأني في الأمور كلها؛ فمن رفقه بعباده إمهاله راكب الخطيئة وعدم معاجلته بالعقوبة ليتوب من ذنبه، ويعود إلى رشده، والله لا يفوته أحد لكمال قدرته، فهو: (سبحانه رفيق لا يعجل لأنه إنما يعجل من يخاف الفوت، فأما من كانت الأشياء قبضته وملكه فليس يعجل فيها) قاله الخطّابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)].

وينبغي للعبد أن يأخذ دينه برفق، فلن يشادّ أحدٌ الدِّينَ إلا غلبه كما صحّ بذلك الحديث عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فأوغل في الدين برفق، وكن متّبعًا هدي نبيك صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فهو خير الهدي، ولا تكن كالمنْبتّ لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى، وخذ بوقت نشاطك، واستعن بالغدوة والروحة، وتوكل على ربك في السداد والإصابة.

ولقد كان رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أرفق الناس في عبادته وتعامله مع كل من عاشره، ومن رام الهُدى فعليه بسلوك سبيله، ولزوم طريقه، فهديه خير الهدي.

---

(١) [مختصر النهج الأسنى:٤٩٨].

وأولى النـاس بالرفق والديك -خصوصـًا عند الكِبر- فهم بحاجّة لمعونتك ورعايتك ولا تكن أنكر الناس للجميل، وصاحبهما في الدنيا معروفًا.

وعامـل أقرب الناس إليك كزوجتك وأولادك بالرفق واللين (فما كان الرفق في شـيء إلا زانه، ولا نُزع من شـيء إلا شـانه)[1] فهذا هدي النبي ﷺ في تعليم البريةَ كيف يسيرون في حياتهم.

ومن رحمة الله وكمال رفقه: أمْره بالرفق حتى مع الحيوانات بالإحسان إليها وعدم تحميلها فوق طاقتها.

والرفـق يكون في الدعـوة إلى الله، وعنـد توجيه الخلـق ونصيحتهم، وكلما كان الداعية أرفق كان لدعوته الأثر والقبول ولك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في هذا الشأن.

أيّها الرفيق: وقد وافقت ربك في بعض صفاته (فمن ثمرات العلم بصفات الله: موافقته فيها) كما قرّر هذا الأمر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأبشـر بالعطايا والهبات، وسترى الثمـرات اليانعـة لرفقك هذا وتفوز بالخيرات، فالله حـرّم النّار على كلّ قريب هيّن سهّل رفيق بالعباد، فارفق في أمورك كلها فقد أمر به النبي ﷺ في الأمر كلِّه.

قـال ﷺ: «إنّ الله رفيـق يُحبُّ الرفق، ويُعطي على الرفق ما لا يُعطي على العنف»[2].

وقال ﷺ: «ومن أُعطي حظه من الرفق أُعطي حظه من الخير»[3].

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه الترمذي

فالمتأني بأموره -اتّباعًا لسنن الله في كونه وشرعه- تتيسر له الأمور، وتذلل له الصعاب، وينال من مطالبه ما لا يناله العجول من أمره.

اللهم امنن علينا بفضلك وإحسانك، ووفقنا لكل خلق تُحبه وترضاه.

***

(٨٢ ، ٨٣) الحَيِيّ - السِّتِّير

(الحَيِـيِّ): اسـمٌ من أسـماء الله، وصفةٌ من صفاتـه كمّا أخبـر بذلك أعرف الخلـق به رسـولُه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، يقـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّ الله حَيِيّ سـتِّير يُحبُّ الحياءَ والستر»[1].

فانظر لسعة كرمه، وكثرة جوده، وكمال رحمته، فمع كثرة ذنوب العباد إلا أنّ السـتر أحبّ إليه من فضحية عبده، وإشـهار معصيته، ومع قدرته على عقوبة عبده المذنب إلا أنّ العفو إليه أحبّ من مجازاته على خطيئته، فله الحمد والمنّة ظاهراً وباطنًا.

ومن دلائل هذه الصفة ما جاء في حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيْنَما هو جَالِسٌ في المَسْجِدِ والنَّاسُ معهُ إذْ أقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فأقْبَلَ اثْنَانِ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذَهَبَ واحِدٌ، قالَ: فَوَقَفَا علَى رَسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمَّـا أحَدُهُمَا: فَرَأَى فُرْجَةً في الحَلْقَـةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وأَمَّا الآخَـرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وأَمَّا الثَّالِثُ: فأدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسـولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «ألَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أمَّا أحَدُهُمْ فأوَى إلى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وأَمَّا الآخَرُ فَاسْـتَحْيَا فَاسْتَحْيَا الله منه، وأَمَّا الآخَرُ فأعْرَضَ فأعْرَضَ اللهُ عنْه»[2].

فالحيـاء صفةٌ ثابتةٌ لله على ما يليق بـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو ليس كحياء المخلوق الذي هو: تغيّر وانكسـار، قال ابن القيم -عن صفة الحياء لله-: (وَأَمَّا حَيَاءُ الرَّبِّ

(١) رواه أبوداود.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

تَعَالَى مِنْ عَبْدِهِ: فَذَاكَ نَوْعٌ آخَرُ. لَا تُدْرِكُهُ الْأَفْهَامُ. وَلَا تُكَيِّفُهُ الْعُقُولُ. فَإِنَّهُ حَيَاءُ كَرَمٍ وَبِرٍّ وَجُودٍ وَجَلَالٍ. فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا. وَيَسْتَحْيِي أَنْ يُعَذِّبَ ذَا شَيْبَةٍ شَابَتْ فِي الْإِسْلَامِ)[1].

ويقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن صفة الحياء لله: (هو حياءُ الكمال كما يليق بالله عَزَّوَجَلَّ ... ليس مثل حياء المخلوقين، فالقول في هذه الصفة كالقول في سائر الصفات، فنثبتها من غير تمثيل ولا تكييف ولا تحريف ولا تعطيل ... فكما أنّ لله علماً ليس كعلم خلقه، وبصراً ليس كبصر خلقه، وسمعاً ليس كسمعهم، فكذلك له حياء وستر ليس كحيائهم وسترهم تعالى وتقدّس سبحانه، وعليه فلا يصح تأويل الحياء بالرحمة والمغفرة وغير ذلك)[2].

وحياؤه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (حياءٌ يليق بجلاله) فهو يستحي من عبده أن يرفع يديه إليه فيردهما صفراً دون إجابة وعطاء وذلك لكرمه وبِرِه وسِعةِ إحسانه.

ويستحي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (حياءً يليق بجلاله) ممّن يُقبل على مجالس العلم، فيمنعه حياؤه من الظهور والبروز، فيُكرمه اللهُ ويُثيبه ويُثني عليه لطلبه للعلم وحيائه.

ويستحي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (حياءً يليق بجلاله) من أن يهتك ستر عبده العاصي الذي يجاهره بالمعصية، فلا يفضحه ولا يُحلّ به العقوبة التي يستحقها، بل يستره ويعفو عنه ويغفر له ويتحبَّب إليه بالنِّعَم، ويستحيي من أن يفضحه يوم القيامة بعد أن ستره في الدنيا، وذلك لسعة رحمته، وحبه للستر والعفو والمغفرة.

---

(١) [مدارج السالكين: ٢٥٠]

(٢) [صفات الله للسقاف نقلاً عن شرح رياض الصالحين]

- والله يُحب الحياء ويُحب أصحابَه، ويُثني عليهم، ويُثمر لهم هذا الحياء كل خير، وينالون من بركته ما يودّ أحدُهم أن لو زاد فيه.

وأعظم أنواع الحياء: حياءُ العبد من ربه؛ فمن أيقن أنّ ربَه يراه، ومطّلِع على تفاصيل حياته، ولا يغيب عنه شيءٌ من أمره استحى منه حق الحياء، فحفظ أوامره، ولم يتجاوز حدوده، ومنعه حياؤُه مِن أن يراه ربُه على معصيته.

ومن الحياء: حفظُ القلب من أن يكون فيه غير الله أو أن تسكن فيه غير محبته، أو يراه وقد عظّم غيره، أو تغلبه شبهة تجعله يشك في الله أو أمره، أو يغلب عليه هوى وشهوة حياءً من الله.

ومن استحيَ من الله: عَبَده على المراقبة، فهو يستحي من الله أن يراه ملتفتًا بقلبه لغيره، أو متوجّهًا بوجهه لسواه، ولذا تجده يعبد الله بحضور قلب، واستحضار اطّلاعه، وهذا الحياء يجعله دائمًا يشعر بأنّ عبوديته لربِهِ قاصرة لا تفي بحقه ليقينه أنّ حق ربه أعظم وأجلّ.

ومن الحياء المحمود: الحياء من الملائكة في أن يروه على معصية وهم لا يفارقونه، وقد حضروا أموره كلها، وكتبوا جميع عمله، فيستحيي منهم وهم خَلْقٌ كرام حقهم التأدّب معهم.

ومن الحياء المحمود: الحياء من الناس من أن تشين سيرته، أو أن يُنقل عنه ما يسوء به مسلكه، أو أن يُذكر بسوء في حياته وبعد مماته ولذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ. قالَ: أَوْ قالَ: الحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ»(١).

(١) رواه مسلم.

ومـن الحيـاء المحمود: الحياء من النفس مـن أن يرتكب ما يخالف أمر الله، فيستحيي منها لأنّها أكرم شيء عليه، والإحسان إليها من أعظم أنواع الإحسان فيستحيي أن يُقصّر في حقها.

ومـن تحلى بالحياء أفاض الله عليه من الخيرات ونال من البركات ورضي عنه، فهو يُحبّ من يوافقه في صفاته، فتحلَّ بهذه الصفة لتفوز فوزاً عظيماً.

ومن أسماء الله: (الستير).

وتُضبط بروايتين: إحداهما: كسر السين وتشديد التاء المكسورة (سِتِّير)

والثانية: فتح السين وكسر التاء المخفّفة (سَتِير)

قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: (ستير) يعني أنّه ساتر، يستر على عباده كثيراً، ولا يفضحهم في المشاهد، وكذلك يُحب من عباده أن يستروا على أنفسهم)[1].

قال المناوي: (ساتر للعيوب والقبائح، فعيل بمعنى فاعل، وجَعْلُه بمعنى مفعول، أي: مستور عن العيون في الدنيا)[2].

فالله سِتِّير يسترُ على عباده كثيراً، فلا يفضحهم أو يخزيهم، فالعبدُ مع فقره الشديد لربه إلا أنّه لجراءته يجاهره بالمعاصي ومع ذا يُسبلُ (السَتِير) عليه ستره، ويعافيه من الفضيحة لأنّه يُحبُّ السْتر والصون، ويكره القبائح والمجاهرة بها.

وانظر لسعة ستره على عصاة بني آدم الذين لا يعلم عددهم إلا الله، فذاك على معصية يخاف من فضحيتها، وآخرون على شهوات محرّمة لا حصر لها، ومع هذا يسترهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا يفضحهم.

(١) [الأسماء والصفات:١١٤]

(٢) [فيض القدير:٢/٢٢٨]

- تتستر الصدور بخواطر السوء، فلا ينفذ إليها سمعٌ، ولا يعلم أحدٌ ما بداخلها، فيطلّع الله عليها ثم يسترها.

ويبيت عبدُه على سخطه مستوراً عن الأنظار إلا نظر الله، فيُصبح وقد عافاه السِّتِّير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويُمْهله لعله يتوب، ويُقلع عن معصيته، فما أعظم ستره، وما أوسع فضله سبحانه.

- وهو يحب من عبده أن يستر نفسه، ويجتنب ما يشينه ويفضحه.

ولقد حثّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الستر على عباد الله، ورغّب في ذلك لموافقته رضى الله، وصِفة خالقه سبحانه، ومن ستر عباده ستره الله، فالجزاء من جنس العمل.

- ومن عرف الله بستره أحبّه لا محالة، فالعبدُ مع إقامته على معصية ربه كل يوم وليله إلا أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يستره ويمنّ عليه بنعمه، ولا يقطع عنه خيره وهذا أكمل ما يكون من الفضل والإحسان.

ويلزم الناصح لنفسه، الراغب في هذا الخُلُق أن يلهج بالدعاء بطلب الستر من الله في صبحه ومساءه، فهو أعظم ما يحتاجه في حياته حتى يلقى ربه، وقد كان هذا هو هدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الدوام، ففي حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: لم يكنْ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَعُ هؤلاء الدعواتِ حينَ يُمسي، وحينَ يُصبِحُ: «اللَّهمَّ إنِّي أسألُك العافيةَ في الدُّنيا والآخرةِ، اللَّهمَّ أسألُك العفوَ والعافيةَ في ديني ودنيايَ وأهلي ومالي، اللَّهمَّ استر عوراتى وآمِن رَوعاتي، اللَّهمَّ احفظني من بين يديَّ ومن خَلفي وعن يَميني وعَن شِمالي ومن فَوقي وأعوذُ بعظَمتِك أن اغتالَ من تحتي»[١].

(١) رواه أبو داود

فليعرف العبدُ فضل الله بكثرة سـتره عليه في حياته كلها، فسِـتْره عليه دائم لا ينقطع.

والله مستور عن العيون في الدنيا فيستحيل رؤيته فيها، وذلك لعظمته وضعف بنية الإنسان، ولذلك لمّا طلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رُؤية الله تعالى، وتجلى ربُه للجبل ساخ الجبلُ وهو صلب جامد وخرّ موسى صعقًا، فهو أعظمُ من أن يُرى في الدنيا أمّا الآخرة فإنّ الله يُعطي الأبصار ما تقوى به على رؤيته مع عدم الإحاطة به، وذلك لعظمته، فاللهم استرنا في الدارين، ومتعّنا برؤيتك في جنّات النعيم.

❊❊❊

(٨٤ ، ٨٥) الكبير – المُتكبر

من أسماء تعالى: (الكبير، المُتكبِّر).

سـمّى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفسـه بـ(الكبير) فقد ورد هذا الاسـم في ستةٍ مواضع مـن القرآن الكريم؛ منها: قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾ [الرعد: ٩]

وورد اسـم (المُتكبّر) في آيةٍ واحدة من القرآن الكريم في قوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]

والله هـو الكبيـر العظيمُ الذي كل شـيء دونه؛ ويصغر كل شـيء أمام عظمته وكبريائه، فهو أكبرُ من كل شيء، وأعظمُ من كل شيء، وأجلُّ وأعلى من كل شيء.

(وهو: الموصوف بالجَلال وكبر الشـأن، فصغُـر دون جلاله كل كبير، وكبُر عن شبه بالمخلوقين) قاله الخطابي[(١)].

وهو أكبر من أن يُقاس به شـيء، فله الكبرياء في السماوات والأرض، وأكبر من أن يُعرف كُنه ذاته، وأكبر مِن أن يُحاط به عِلمـًا، فالله كبير وكل ما دونه صغير، قال بعضهم: (ولو أنّ الجنّ والإنس والشـياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفّـًا واحدًا ما أحاطوا بالله أبداً) بل ولا قاربوا.

والله هـو الكبير في أوصافه، فـكلّ صفات الكمال والعظمة والجلال له، وهي صفات لا مثيل لها ولا نظير.

(١) [شأن الدعاء:٦٦].

وآياته الكبيرة تدلّ على عظمته، فانظر لعظمة السماوات والأرض، والجبال والبحار والأنهار وغيرها ممّا لا نراه من عوالم أكبر من هذا العالم المرئي، كلها تدلّ أنّه كبير عظيم.

وتأمّل في عظمة هيئة وخِلقة بعض الملائكة -وهم مِنْ جملة مَنْ خلق الله- يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أُذِن لي أن أُحدِّث عن ملكٍ من ملائكةِ الله، من حملةِ العرشِ ما بينَ شحمةِ أُذنهِ إلى عاتقِه، مسيرةُ سبعمائةِ عامٍ»(١).

فإذا كان هذا حَجْمُ جُزءٍ مِن المَلَك، فكيف يكونُ طولُ وعِظَمُ سائر جسده؟!

وكيف هي أحجام سائر الملائكة والذين لا يُحصي أعدادهم إلا الله.

ورأى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «جبريل على صورته التي خلقه اللهُ عليها وقد سدّ أفق السماء»(٢).

وفي رواية البخاري: «رآه وله ستمائة جناح»(٣) فسبحان الله العظيم الكبير.

وخَلَق اللهُ الجنةَ وجعل مُلْكها عظيماً كبيراً، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عنها: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ٢٠﴾ [الإنسان: ٢٠]

وخَلَق فيها شجرة يسير الراكب في ظلها آلاف السنوات لا يقطعها- هذه وهي شجرة واحدة لفرد واحد - فكيف بأعداد أشجارها مجموعة لأهل الجنة؟!

وكيف بغيرها ممّا خلق من القصور والمساكن والخيام والأنهار والثمار؟!

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إنَّ للمؤمنِ في الجنـةِ لخيمةٌ من لؤلؤةٍ واحدةٍ، مجوَّفةٍ طولُها سـتون ميـلًا، للمؤمن فيها أهلُون، يطوف عليهـم المؤمنُ فلا يرى بعضُهم بعضًا»[1].

فسبحان الملِك العظيم الذي خلق هذه الدار، وجعل فيها هذا الملك الكبير.

وخلـق النار الكبيرة الهائلـة، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يؤتى بجهنـمَ يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زِمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ يَجرُّونَها»[2].

فهل تخيّلت هذا الحجم الضخم للنار، والتي لا يستطيع جرها إلا أربعة آلاف مليون وتسعة مئة مليون ملَك، ولا يعلم مقدار قوتهم إلا الذي خلقهم سبحانه.

وقد جعـل خِلقة أهلها فيهـا عظيمة وكبيرة، يقـول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «ضِرسُ الكافـرِ يومَ القيامةِ مِثلُ أُحُدٍ، وعَرضُ جلدِه سـبعون ذراعًا، وعَضُدُه مثلُ البيضاءِ، وفَخِذُه مثلُ وَرْقان، ومقعدُه في النّارِ ما بيني وبين الرَّبَذَةِ»[3].

فإذا كان هذا كِبر حجم سِـنّه –وهو أصغر عظْم في الإنسـان– فكيف هو خَلْق الآدمي فيها؟!

وكيف هو كبر خلقها؟! –أجارنا اللهُ منها–.

وتأمّل قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

فاستحضر السماوات بسعتها وحجمها العظيم الذي لا يعلم قدْره إلا الله، ومع عظمتها إلّا أنّها في قبضته كحبة خردل في يد أحدِنا، فسبحانه مِن إله كبير، وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يا مُحَمَّدُ إنَّا نَجِدُ: أنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ على إصْبَعٍ، والأَرَضِينَ على إصْبَعٍ، والشَّجَرَ علَى إصْبَعٍ، والمَاءَ والثَّرَى علَى إصْبَعٍ، وسَائِرَ الخَلَائِقِ علَى إصْبَعٍ، فيَقولُ أنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ» ثُمَّ قَرَأَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾(١).

وهو الكبير في نفوس العارفين به، فقد صغر في نفوسهم كلَّ كبير من البشر، ولا يفقه حقيقة هذه العظمة إلا من عرفوه حق المعرفة، فإنّك تجد في نفوسهم من تعظيمه وإجلاله ما يجعل قلوبهم ممتلئة بحبه والأنس به، وهو أثر من آثار معرفتهم بصفاته.

ومن أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المُتكبّر.

وهو: (الذي تكبّر بربوبيته فلا شيء مثله)(٢).

وهو: (المُتكبّر عن ظُلم عباده، المتعال عن كل شر ونقص وسوء)(٣).

ومن معاني المتكبّر: (أنّه المتعالي عن صفات الخلق)(٤).

(١) رواه البخاري.
(٢) [تفسير القرطبي:١٨/ ٤٧]
(٣) [زاد المسير:٨/ ٢٢٧]
(٤) [شأن الدعاء:٦٦]

(وقيل المتكبّر: المتعظّم عمّا لا يليق به من صفات الحدث والذم، وأصل الكبر والكبرياء: الامتناع وقلة الانقياد)

فله الكمال المطلق، فلا نقص في صفاته، ولا خلل في أفعاله، وكل نقص في صفات المخلوقين قد تكبّر وتنزّه عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فتكبّر عن التعب والنوم والنسيان والضعف ونحوها من صفات النقص.

ومن معاني المُتكبّر: (أنّه الذي يتكبّر على عتاة خلقه إذا نازعوه العظمة، فيقصمهم ويُهلكهم)[1].

فالتّكبر لا يليق إلا بالله وحده، فصفة السيد: التكبّر والترفع، وأمّا العبدُ، فصفته: التذلل والخشوع والخضوع.

وقد توعّد الله المُتّكبرين بالعذاب والخزي، فقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠]

فمن تكبّر عن قبول الحق والانصياع له نال الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وأعظم المتكبّرين: المشرك الذي عبَد غير الله، وتكبّر عن الإذعان لتوحيد الخالق.

ومن المتكبّرين: المعرضون عن سُنّة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن تبيّن لهم، المجادلون لها، والمنصرفون لآراء الرجال دونها.

ومن المتكبّرين: المعرضون عن شرع ربهم، وذلك برفضهم الانقياد لأوامره.

(١) [شأن الدعاء: ٦٦]

فعلى العبد أن يحذر هذه المسالك فعواقبه وخيمة، ومن أشنع عواقبه: الطبع على القلوب، فلا يدخلها هدى، ولا تنتفع بموعظة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر: ٣٥]

ومن معاني المتكبّر: (أنّه مُتكبّرٌ عن صفات الحَدَث)[١].

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أزلي الوجود، أزلي الصفات، متعالي عن كل صفة حادثة، وعمّا لا يليق به، فإنّه لم يزل متصفًّا بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت العظمة والجلال والكبرياء.

وكل مافي الكون حادث بعد أن كان معدومًا أمّا اللهُ فهو الأوّل بلا ابتداء، فلا شيء قبله، ولا شيء مثله، وهو الآخر بعد كل شيء، الباقي الذي لا يزول ولا يغيب.

و(اللهُ أكبرُ) أعظمُ الكلمات، وهي مشروعةٌ في كلِّ أمر كبير -حالاً ومكانًا وزمانًا- ولذا شُرِعت في انتقالات الصلاة ليكون تكبير الله حاضراً في قلب المصلي في صلاته كلها.

وتُقال كلما عظُم في نفس المرء شيء (وهي كلمة تنفض الخطايا، وتزيل الذنوب) (ومن أحبِّ الكلمات إلى الله) (ومن غِراس الجنة) (ومن أثقل ما يُوضع في الميزان) (ومن الباقيات الصالحات) وبكل ذلك وردت الأحاديث الصحيحة، وفضائلها عظيمة لا تُحصى.

وينبغي للعبد إذا قالها: أن يقولها بحضور قلب، مستحضراً ما دلت عليه من المعاني، من عظمة الله وكبريائه، وأنّه أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، فاللهم ارزقنا تعظيمك وإجلالك كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

---

(١) [تفسير القرطبي: ١٨/ ٤٧]

(٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨) الغالِبُ، الناصِرُ، والنَصِيرُ

ورد اسم (النَّاصر) مرة واحدة بصيغة الجمع، في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ [آل عمران: ١٥٠]

أما اسمه (النَّصير) فقد ورد أربع مرات، منها قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ [الأنفال: ٤٠]

وورد اسم (الغالب) في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: ٢١]

وورد بصيغة الفعل في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: ٢١]

فالله غالبٌ وناصرٌ ونصير، والغالِبُ، هو: الذي إذا أراد شيئًا لا يمنعه منه مانع، ولا يردّه رادّ، فأمره ينفذ، ولا يبطله مبطل.

وهو الغالِبُ: (البالغ مراده من خلقه، أحبوا أو كرهوا، وفي هذا إشارة إلى كمال قدرته وقهره)[1]. ونفاذ أمره.

والناصِرُ هو: المُؤيِّد لعباده، والمُعين لهم على أعدائهم، لا يخذل أولياءه ولا يُسلمهم بل يجعل لهم الغلبة على من عاداهم، ولو بعد حين.

وتأخيره للنصر وإن كان يطلبه المؤمنون، ويتشوّفون له،فهو لحِكم لا يعلمها كثير من العباد، ولعل من أظهرها أن يُراجعوا أمر دينهم، ويبحثوا عن سبب تأخير النصر عنهم.

---

(١) [الأسماء والصفات للبيهقي:١/ ١١١]

ونصْره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نصْراً مطْلقًا لا كنصر المخلوق لغيره، فقد ينصرُ العبادُ بعضُهم بعضًا، ولكنّه في حال دون حال، وفي زمان دون آخر، وفي موقف دون موقف، أمّا نصْرُ الله للمؤمنين وعبادِه المتقين فهو نصر مطلق كامل، ولا أدلّ على هذا من نصر الله لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه من المؤمنين، فنصْره لهم ممتدٌ منذ البعثة حتى يومنا، وانتشر دينُ الله وتزايد عدد الداخلين فيها، ولم يبق بيت وبرٍ ولا مدرٍ إلا ودخله هذا الدين العظيم، وسيبقى شامخًا إلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها.

ونصْر الله لعباده عام في نواحي لا حصر لها، فهو لا يُقتصر على مفهوم نصر الحروب فقط، بل هو نصرٌ في صور كثيرة.

ونصْره لهم يكون ظاهراً وباطنًا.

فالظاهر: يكون بالانتصار على الأعداء الخارجين.

والباطن: يكون بالانتصار على النفس والهوى ونزغات الشيطان.

والعبد في كل أحواله محتاجٌ لنصرة الله (ومن نصر دين الله نصره الله في نفسه وعلى عدوه)

ومن أظهر صور نصْره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: النصر على الأعداء الظاهرين، فالصراع بين الحق والباطل بدأ بخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما عاداه إبليس، ونشأت العداوة بين الجانبين وتوارثتها الذرية، ولا تنتهي إلا بانتهاء الحياة في الكون -سُنّة قضاها الله في عباده- فلا تتغيّر ولا تتبدّل.

والحرب سجال بين عسكر الكفر من جهة، وعسكر الإيمان من جهة أخرى، وغلبة الكفّار وظهورهم حينًا من الزمان إنّما هي ابتلاءٌ وامتحانٌ للمسلمين،

ولينظر الله إلى قلوبهم، وتعلقهم بالأسباب الظاهرة، وفتنة لصبرهم وثباتهم، وأنّه إنّما تخلى عنهم بسبب ذنوبهم، قال تعالى -عن صحابة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ-: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران:١٦٥]

فهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم مع شريف عملهم وجهادهم مع نبيهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلا أنّهم لمّا خالفوا أمره في غزوة أحد نزل بهم الهمّ والغمّ، وأُصيبوا في نبيهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وفي أنفسهم بسبب مخالفة واحدة فقط لا تُقارن بجهادهم وتضحياتهم ولكنّ الله أرادها درسًا للأمّة أن لا يستهينوا بالمعصية -وإن صغرت- فهي تخذل وتسلّط العدو.

و(النصير): هو: (الموثوق منه بأن لا يُسْلِم وليَّهُ ولا يخذله).

و(الناصر): هو: (المُيسّر للغلبة)[1].

فالله هو الموثوق من نصره، والميسر للغلبة على العدو، فمن كتب اللهُ له النُصرة انتصر ولو اجتمع عليه أهلُ الأرض كلهم، وانظر في سير الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وكيف نصرهم الله مع كثرة أعدائهم، فهذا نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ينادي ربَه: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ [القمر:١٠] فسخر له الكون كله لنصرته: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢﴾ [القمر١١-١٢]

وهودٌ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ اجتمع عليه قومُه ولم يكن له نصير إلا الله -فكان نعم المولى ونعم النصير- قال الله عنه -وقد قابلهم بمفرده-: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾

(١) [المنهاج:١/ ٢٠٥نقلًا عن موسوعة الأسماء الحسنى٢/ ٤١٢]

[هود:٥٥-٥٦] فأهلك اللهُ قومَه وجعل العاقبة له ولمن معه من المؤمنين.

ونَصَر اللهُ صالحـًا وإبراهيمَ ولوطـًا وغيرَهم من أنبيائه ورسله -عليهم الصلاة والسلام- في آيات باقيات، ودلائل واضحات على نصرة الله لعباده المؤمنين.

ولا بد لمن رام النصر من الله أن تكون عنده الثقة بنصره، فمتى شكّت النفوس بهذا تأخر نصر الله عنها، فالله هو الملك الناصر القوي العزيز، ونواصي العباد كلها بيده، ينصر من يشاء ويخذل من يشاء، فلا يتسرّب اليأس والقنوط من نصرته، فإنّ هـذا من أخطر الأمور، وإدالة الأيام بين الخلق محض إرادته فقط، وكلما تعزّزت الثقة بالله قرب نصره، وربط على قلوب الواثقين بنصره، وحقق لهم المراد.

والنصر من عند الله وحده؛ وهذه قضية كبرى ينبغي للقلوب أن توقن بها، وقد جاء التأكيد عليها في مواطن كثيرة في القرآن الكريم حتى لا تتعلق القلوبُ بغير الله، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأنفال:١٠]

وأشنع أنواع التعلّق: تعلّقها بالكافرين -وهذا من أعظم ما أضرّ بالأمّة اليوم- فتجد القلوب قد تعلّقت بالكافرين لظهورهم ماديـًا وعسكريـًا.

ومن سبر التأريخ وجدهم أنّهم في فترة من الفترات كانوا أشدّ قوةً من هذا الوقت، وأوضح مثالاً لذلك غلبة المغول والتتار ولكنّها كانت غلبة مؤقتة زالت، ولم يبق لهم أثر، وأفل نجمهم، وانتهى تاريخهم، وبقي الإسلام عزيزاً منيعـًا، وبقيت العزّة لأتباعه.

ونصْرُ الله لعباده إنّما هو لمن أقاموا شرعه، وصبروا في سبيل دينه، وعلى أذى خلقه، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ

﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر:٥١] وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم:٤٧] فمتى ما حققوا الإيمان، وكانت الاستجابة لأمر الله، والاتِّباع لأمره ظاهراً في الأمّة جاءها النصرُ من الله، وهذا النصر يتبعه التمكين في الأرض.

والله ينصُر عبده المؤمن في صورٍ لا حصر لها، فمن ذلك: أن ينصر جهده ودعوته -ولو بعد حين- والقارئ في كتب السير يجد قصصًا كثيرة لعلماء ومصلحين آذاهم وعاداهم بعضُ من رق دينهم، ولبّس عليهم الشيطان أمرهم، ولكنّ الله جعل نصرته لهم، فلقد نصر اللهُ أئمة الهدى كالإمام مالك والإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية وقد أُوذوا في الله، وفي سبيل نشر الحق فكتب لهم النصر، وبقية آثارهم وعلومهم إلى يومنا هذا ليعلم الخلق أنّ العاقبة للمتقين، والنصر لعباد الله المؤمنين.

والله عَزَّوَجَلَّ قد جعل هناك أسبابًا لنصر عباده متى ما أتوا بها نصرهم نصراً عزيزاً، فمن ذلك: اعتراف العبد بحاجته لنصرة الله تعالى له في جميع أحواله، ويقينه أنّه لا يستغني عن نُصرة ربه له طرفة عين، فكم من عدوّ متربّص به يريد هلاكه وأذيته، فالحاجة ماسّة لحفظ الله ورعايته وكفاية شر الخلق كلهم عنه.

ومن أسباب نصر الله لعبده: أن ينصر العبدُ ربّه في نفسه وفي غيره، وذلك بإقامة شرع الله ظاهراً وباطنًا في نفسه، والسعي بنصرة دين الله بدلالة الخلق إليه، وتعريفهم بربهم، وحثّهم على طاعته، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج:٤٠]

ومن أسباب النصر: الصبر، وبذل الأسباب في تحقيقه؛ فقد تعبّد اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عباده ببذل السبب، واستفراغ الوسع، واستصحاب الصبر ليتحقق

لهم النصر الذي تطمع به نفوسُهم، وقضى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنّ مفتاح النصر الصبر كما في الحديث: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»(١).

وهذا الصبر قد يمتدُّ إلى سنوات طويلة، فأعظم الخلق استحقاقاً للنصر هو رسولنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومع ذا لم يُتمّ الله له نصرته إلا بعد ثلاث وعشرين مليئة بالجهاد والتضحيات والآلام، والصبر على أذية الأعداء، والأقدار المؤلمة، وهجر الملاذ حتى أكمل الله له ولدعوته النصر المبين، فأنزل الله عليه في آخر حياته قولَه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①﴾ [النصر:١]

ومن أعظم أسباب النصر: استمداده من الله، ولزوم الدعاء، وقد كان هذا هو هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد كان يدعو كثيراً بنصر الله له، فمن دعائه: «ربِّ أعنِّي ولا تُعِنْ عليَّ، وانصُرني ولا تنصُرْ عليَّ، وامكُر لي ولا تَمكُر عليَّ، واهدِني ويسِّر الهدى لي، وانصُرني على من بغَى عليَّ»(٢).

وقد تُخذل الأمة أفراداً وجماعات، ويغيب عنهم نصر الله بأسباب منها:

التنازع والتناحر والاختلاف، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦]

ومن أسباب تأخر النصر: الركون للأعداء: فتُخذل الأمّة، ويتأخر النصر عنها لركونها للأعداء ومخالفة أمر الله بهذا الشأن، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود:١١٣] فبيّن عاقبة هذا الركون لتحذره الأمّة.

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه ابن ماجه.

ومن أسباب غياب النصر: الغرور بالنفس، والاعجاب بها، والاعتماد عليها، والرياء بالعمل، وعدم ابتغاء وجه الله تعالى.

ومن أسباب غياب النصر: ظهور الظلم وتفشيه وانتشاره وذلك عندما يكون الظلم ظاهر، والتخاذل عن نصرة المظلوم سمة بارزة للأمّة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾ [الشورى:٨]

ومن أسباب غياب النصر: خذلان المسلم والتخلي عنه إذا ظُلم، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا عِنْدَ مَوْطِنٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ. وَمَا مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ»(١).

-أيّها المظلوم- اطمئن بنصر الله لك - خصوصاً إذا سدّت الأبواب في وجهك، وأيقنت أنّه لا ناصر لك إلا الله، وفوّضت له أمرك، وعلّقت قلبك به- فيأتيك النصر من حيث لا تحتسب، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تُحمل على الغمام؛ يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين»(٢).

فهي واقعة لا محالة وإن تأخرت فالأمر كله لله.

اللهم ارزقنا نصراً في خاصّة أنفسنا وأهلينا، ونصراً لأمّتنا تسعد به نفوسنا.

❊❊❊

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه الطبراني، وهو في صحيح الجامع.

(٨٩) المُحسن

جاء في الحديث أنّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فإنّ الله محسنٌ..»(١).

أي: الإحسان وصفٌ لازم له، ولا يخلو موجودٌ من إحسانه طَرْفة عين.

والإحسان يأتي على معنيين:

- الإتقان والإحكام.

- الإنعام والجود والعطاء.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحسن كل شيء خَلَقه، وصَنَعه بهيئة تامّة، وإتقان مُحكم لا ترى في خلْقه خللاً أو عيبًا.

وأكمل كل شيء وقدّره أحسن تقدير، وهدى كلَّ مخلوق لمصالحه، فسبحان من: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧] وسبحان من: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى:٢] قال ابن كثير: (فسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات).

انظر إلى السماء كيف خلقها مُحكمة لا ترى في خلقها تفاوت أو خلل أو فطور، ومهما حاول الباحث فيها عن خلل رجع إليه بصره خائبًا كليلاً وهو حسير.

وانظر إلى الأرض كيف بسطها، وجعلها صالحة للسكنى، ونوّع تضاريسها لتكون مهيأة للمعاش، وخالف بين فصولها لينتفع بها الآدميُّ والحيوان، ولتنتفع الزروع والنبات، ولتكون حياتهم كأكمل ما يكون من الإتقان.

---

(١) رواه الطبراني، وهو في صحيح الجامع.

وأحَسَن خلْق الإنسان، فخَلَقه في أحسن تقويم، وأجمل صورة، وأكمل تركيب، وجعل كل عضو في مكانه المناسب لتكتمل صورته وهيئته، ولذا فُتنت النفوس بالصور لكمال خِلقة الله لها، قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر:٦٤]

وإحسانه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على الخلق لا حصر له، فقد غمرهم جميعًا بنعمه، وزادهم من فضله، فليس ثَمَّ نعمة هم فيها إلا وهي من الله، ولا غنى لهم عن إحسانه طرفة عين، ولا قيام لهم ولا بقاء إلا به وبجوده وفضله.

ولا يخلو موجود من إحسانه -حتى وإن جهل النّاس حكمة خلْقه- أو ظنّوا أنّه لا فائدة من وجوده، فإنّما أُتوا من جهلهم.

والتباين في خلق الله من مقتضيات حكمته ليكتمل هذا الكون، وليعلم الخلقُ قدرة ربهم في خلق المختلفات والمُتَفاوتات، في حِكم كثيرة جداً لا يمكنهم الإحاطة بها.

وهو المحسنُ في حُكمه، الكامل في شريعته، فقد أحسن إلينا بأكمل الشرائع، وأحسن الأديان.

ومن تأمّل في أحكام الشريعة وجد إحسانًا وإتقانًا لا مثيل له البتة، بل لا مقارنة بين حُكمه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وأحكام البشر كلِهم مجتمعين، فمن تجرّد في طلب الحق أيقن أنّ أكمل الشرائع: شريعة الإسلام، وأحسن الأحكام: حُكم الله تعالى، وأكمل الهدي: هدي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

ومن درس أحكام الشريعة سواءً بتعمّق أو حتى قراءة ظاهرة لها وجد أحكاماً عادلة شاملة جاءت لصلاح الفرد والمجتمعات ولو أخذ النّاس بها لرأيتَ أفراداً

صالحين ومجتمعات تعيش حياة طيبة، ومن تأمّل في التاريخ والأزمنة التي طُبقت فيها أحكام الشريعة وجد مصداق ذلك، فها هو الجيل الأوّل من صحابة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثّل مجتمعهم أفضل بيئة اجتماعية مرّت على تاريخ البشرية وما ذاك إلا لتطبيقهم أحكام الشريعة.

وأعظم صور إحسانِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العبد: تعريفه بـه، ودلالته عليه، فلذا كانت أعظم المنن، وأكمل أنواع الإحسان: الهداية إلى الإسلام، والهداية فيه، فيهديه ابتداءً للإسلام، ويخلقه مسلمًا لا يعرف كفراً ولا ضلالة ولا يتلطخ بشرك أو وثنية، ويهديه فيه فيعرف تفاصيل مراضيه، وسُبل محابّه، ويُحبّب له الطاعات، ويهديه لشرائعه فيستقيم عليها، ويلتزم بها ويكون عبداً صالحًا، وهذا -لعمر الحق- أعظم أنواع الإحسان وأكمله.

ومن الخلق من يشرح اللهُ له صدره بعد الكفر للإسلام فينال السعادة الأبدية، ويُدرك ما أدركه أهل الإسلام من الإحسان والتوفيق الرباني.

وهو (المحسنُ) إلينا بأن جعلنا من خير أمّة أُخرجت للنّاس، فهذه الأمّة خير الأمم وأكرمها على الله، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إنَّكم تُتمُّون سَبعين أمَّةً، أنتُم خَيرُها وأكْرمُها علَى اللهِ»[1].

وهو (المحسنُ) إلينا بإرسال محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاختار لنا خير أنبيائه ورسله، وجعلنا من أتباعه، واصطفانا لهذا الفضل ونحن في عالم الذرّ حتى خرجنا للوجود، فلله الحمد وله الثناء الحسن.

---

(١) أخرجه الترمذي، وهو حديث حسن.

وهو (المحسنُ) إلينا بإنزال أحسن الكتب على نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣] فالقرآن الكريم أحسن الكتب نظمًا، وأكملها أحكامًا، وأحسنها بيانًا، وأوسعها معنى، وأتمها علمًا، وأعلاها وأشرفها مكانة.

ومن وُفق للعناية بكتاب ربه، وانشغل به، فقد سبقت له من الله الحسنى، وفاز بخير العطايا، فكثرة الاتصال بكتاب الله، وصرف الأوقات له، والتفقه في معانيه، هو سبيل الإحسان، وطريق الإكرام، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [لقمان:١-٣] فكم من الهداية والرحمة التي تصيب صاحبها كلما زادت صلته بكتاب ربه، وعظم تواصله معه، وكلما زاد قرب العبد من كتاب ربه طابت حياته.

وهو (المُحسنُ) إلى عبده بالعلم النافع، فالعلمُ أشرف مطلوب، وأعزُّ مبذول، وهو منشور الولاية، وطريق السعادة، فمن كان عامراً وقته به نال أرفع الدرجات، وأعلى الرُتب.

وهو (المُحسنُ) لعبده بالتوفيق للعمل الصالح، فيشرح صدره للطاعة، ويُؤنسه بها، ويجعله محافظًا عليها، مكثراً منه -توفيقًا وإحسانًا وعطاءً وفضلاً-.

وهو (المُحسنُ) لعبده المؤمن ووليّه الصالح بعصمته من الذنوب والخطايا، وحمايته من الفتن.

ويُحسن إلى عبده بتيسير المعيشة، وسعة الرزق، والكفاية من المال، فلا يجعله يحتاج إلى أحد، وهو إحسان كبير، ولئن فات المؤمن بعضٌ منه فليصبر

وليحتسب وليكن راضياً بقضاء الله عليه، فالخير كل الخير فيما قضى.

وهو (المحسنُ) الذي يُحسن إلى عباده الصالحين بأن يجازيهم على أعمالهم الصالحة أحسن الجزاء بمضاعفة حسناتهم فضلاً منه ومِنّة، ويزيدهم من فضله بمجازاتهم على نياتهم، فيهبهم الأجر كاملاً موفوراً وكأنهم عملوا ما عجزت عنه أبدانهم.

وتاجُ الكرام، وكمال الإحسان من المُحسن الوهّاب: إحسانه إلى عباده بدخولهم الجنان ورؤية ربهم فيها، فينالون من إحسانه ورحمته وفضله وكرامته ما تقرّ به أعينهم، وتفرح به نفوسُهم، وتسعد به أفئدتهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٦]

ومن إحسانه أن جعل البشرى للمحسنين، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج:٣٧] وكلما زاد العبدُ إحساناً في عبادة الله، وأتقنها وأكملها، وأحسن إلى عباد الله نال البشرى في الدنيا والآخرة، فأحسِنْ لتفوز بفضلها.

ومن شأنه - وهو المُحسن - محبة المحسنين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة:١٩٥] وكلما أحسن العبدُ في عبادة الله ولعباده أحسن اللهُ إليه، فالجزاء عنده من جنس العمل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠] وإحسانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا نظير له ولا مثيل، وهو واسع لا حدّ له.

والمحسنُ من العباد قد سلِم من الشرور، وفاز بالراحة والطمأنينة، ووجد ما ينشده العالمُ كله من السعادة والأنس، فكم تمتلئ المصحّات النفسية ممّن يعيشون

الضنك، ويتجرّعون الغصص بسبب بعدهم عن ربهم، ومخالفتهم لشرعه، أمّا أهل الإحسان فقد نالوا سعادة الدنيا وطيب الحياة، ذلك أنّهم لزموا طاعة ربهم واستجابوا لأوامره، فجازاهم الله بعاجل البشرى في الدنيا بالثناء الحسن، والحياة الطيبة مع ما ينتظرهم من عظيم الجزاء في الآخرة، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠﴾ [النحل:٣٠]

أمّا غيرُهم من أهل الكفر والمصرّين على المعاصي فيعيشون الهمّ والغمّ والضيق والحزن وإن كانت زينة الدنيا بين أيديهم ويملكون زهرتها.

وأولى الخلق بالإحسان: الوالدين والقرابة وأهل الفضل.

وجزاءُ الإحسان يناله المُحسنُون في الدارين، فينالون الهداية والتوفيق والصواب والرشاد ويُؤتون أعظم العطايا من العلم والفهم والحكمة ذلك أنّهم استجابوا لربهم فأثابهم الله هذا العطاء.

والمحسن عمله مقبول، وسعيه مشكور، وتجارته لن تبور ذلك بأنّه لا يُصيبه نصب في طاعة، ولا تعب في قربة إلا نال أعظم الأجور وأرفع الدرجات.

وأهل الإحسان ينشر اللهُ لهم الثناء في الدنيا، ويُبقي لهم الذكر الحسن وهو من دلائل وحدانية الله تعالى، فانظر كيف أبقى الذكر الحسن لأنبيائه، فعندما ذكر اللهُ نوحاً وإبراهيم وموسى وهارون عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ وغيرهم من أنبيائه في سورة الصافات قال: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٢٩﴾ [الصافات:١٢٩] أي ذكراً حسناً في الدنيا.

وترك ذكراً حسناً للصحابة الكرام الذين لا يُذكرون إلا ويُترضى عنهم، وهكذا أئمة الهدى والصلاح ممّن أبقى لهم ذكراً حسناً وثناءً في الآخرين، فسبحانه ما أوسع فضله وإحسانه لمن أطاعه.

فاللهــم أتمم علينا إحســانك وقد اصطفيتنا لأعظم المِلـل، وجعلتنا من خير الأمــم، وآثرتنا بخِيــرة خلقك، وجعلته حظنا مــن النبيين، فكم أفضــت علينا من جودك، وأحســنت لنا ما لو بقينا عمرنا كله ما وفيّنا عشــر مِعشــار نعمك، فاللهم أتمم علينا إحسانك بدخول جنّات النعيم، وارض عنّا يارحيم.

❊❊❊

(٩٠) الطيِّب

جاء في الحديث الصحيح: «إنّ الله طيِّبٌ ..»[١].

فـالله هو الطيِّـب: المُنزَّه عن النقائـص والعيوبِ كلها، والمقدّس عن الشـرّ والظلم.

فهو طيّبٌ بذاته، وفي أسـمائه وصفاته، وأفعاله وأقواله، وهو أعظم وأحق من يُثنى عليه.

ومـا طاب شـيء قط إلا بِتطييـب الله له، فطِيبُ كلِّ ما سـواه مـن آثار طيبته، فالطيّبات كلها له ومُضَافةٌ إليه، وصادِرةٌ عنه، ومنتهيةٌ إليه.

قـال ابـن القيـم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فهو طيِّـبٌ، وأفعاله طيبـة، وصفاته أطيب شـيء، وأسـماؤه أطيب الأسـماء، ولا يصدر عنه إلا طيّب، ولا يصعد إليه إلا طيّب، ولا يقرب منه إلا طيّب)[٢].

وقـال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الطيّـبُ، فالأسـماء الطيّبـات، والصفـات الطيّبـات، والكلمـات الطيّبات، والأفعال الطيّبات كلها له سـبحانه لا يسـتحقها أحد سواه، بل ما طاب شيء قط إلا بطيبته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فطِيبُ كل ما سواه من آثار طيبته)[٣].

فاللهُ طيّبٌ، والعقائد التي أمر بها طيّبة، فهي التي تطيبُ بها النفوس، وتطمئن

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) [كتاب الصلاة:٢١٤-٢١٥]

(٣) [كتاب الصلاة:٢١٥]

لها الأفئدة، ويفرح المؤمن بمعرفتها، فهو قد عرف ربه بصفاته الكاملة، وأسمائه الحسنى، وأفعاله المحكمة، فطابت نفسُه واطمأن قلبُه لرب عظيم القدر، جليل الشأن، كامل الصفات.

وسلِم من تشتت المشرك في عقيدته، وفساد قلبه وشؤم حاله حين توجّه للمخلوقين الضعفاء مثله، ولذا كان أطيب النّاس حياة ومآلاً هم أهل التوحيد الخالص الذين طابت عقيدتهم.

وشرائع الإسلام أكمل الشرائع وأطيبها في العبادات والمعاملات والأحكام والآداب، تطمئن لها القلوب، وتطيب بها النفوس، ويعيش صاحبها الحياة الطيبة في الدنيا، وينال السعادة فيها، فقد قضى اللهُ تعالى أنّ من اتّبع شرعه عاش حياة طيبة.

وكلما طيّب العبدُ قلبه زاد عمله الطيب، وصار الطِيبُ وصفًا لازمًا له، فتطيب أخلاقُه، ويطيب مجلسه، ويطيب منطقه، وتطيب أعماله.

وكلامُه الشرعي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أطيب الكلام وأتمّه وأكمله، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:
﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم:٢٤]

وكلماته الكونية وأقضيته في عباده أكمل الأقضية وأعدلها فهي دائرة بين العدل والفضل.

وما طاب فعل عبد ولا طاب مكان ولا زمان إلا بتطييب اللهِ له، فطيّب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأشخاص وأعمالهم، وطيّب الأقوال والأحوال والقلوب.

واللهُ لا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيّبًا، فاحرص على طيب عملك بتحقيق الإخلاص والمتابعة، والابتعاد عمّا يُبطله من المنّ والعُجب.

وإليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يصعد الكلِم الطيّب، والعمل الصالح يرفعه.

ولقد وعد الطَّيِّبُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عِبادَه المؤمنين الحياة الطَّيِّبة إذا ما استجابوا له، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]

ومن عاش طيّب العقيدة، سليم القلب، طيّب العمل مات على أحسن حال وأطيبه، فهم كما وصف الله تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢] فجعل ميتتهم طيّبة عند الوفاة، وأحسن لهم الخاتمة، ففي ساعة خروج الروح يُنادى بها: «اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ»[1].

ووعد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الطيبين من عباده المساكن الطيّبة في الآخرة، فالجنّةُ دارٌ طيّبة ولا يدخلها إلا الطيبون الذين طابت عقائدهم وقلوبهم وأعمالهم وأقوالهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢]

فلا يجاوره فيها إلا عباده الطيبون، فإنّهم يُقال لهم فيها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣]

فالجنّةُ أطيب دار يسكنها مخلوق، وطيّبها لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحسن جواره، وجوار أنبيائه ورسله، والصالحين من عباده، وطيّب طعام أهلها وشرابهم فيها فلا يلحقهم منه أذى ولا ألم، وطيّب زوجاتهم فجعلهنّ طاهرات من كل دنس، وطيّب أبدانهم فلا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لُغوب، وطيّب نفوسهم فلا يصيبها

(١) حَدِيثِ الصَّحِيحِ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

همّ أو غمّ أو كدر، فطابت حياتهم فيها كأوفر ما يكون، وأكمل ما يُدّخر.

والنفوس الشريفة تطمع بسماع القول الطيّب الذي لا يُؤذيها، فتحرص على الصحبة الطيبة والمجالس الطيبة، وأكمل ما يكون هذا في جنات النعيم، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن سكّان أهل الجنّة: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]

وأطيب القول: القرآن العظيم، فقد كَمُل في نظمه وتراكيبه وبلاغته ،وعظم تأثيره على النفوس، ومنّ الله به على هذه الأمّة ويسّره لهم، فطابت حياة المتصلين به، العارفين بأحكامه، العاملين به، وصارت نفوسهم طيّبة، وأخلاقُهم طيّبة، وأعمالهم طيّبة، وأحاديثهم طيّبة، ونواياهم طيّبة، وآثارُهم طيّبة، فنالوا من بركات كتاب ربهم ما طابت به حياتهم وسيرتهم.

وجعل سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أطيب الكلمات: الأذكار الشرعية الطيبة، وأعلاها قدراً، وأشرفها منزلة كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله) فهي الكلمة الطيّبة التي تزن السموات والأرضين وتملأ ما بينهما.

و(سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا الله) أطيب ما تفوهّت به الألسنة ولزمته الأفواه، يقول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَرْبَعٌ مِنْ أَطْيَبِ الْكَلَامِ، وَهُنَّ مِنَ الْقُرْآنِ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ»(١).

و(سبحان الله وبحمده، وسبحان الله العظيم) أثقل ما يُوضع بالميزان، وهي من جملة الكلمات الطيبة التي حثّ عليها نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ بسندٍ صَحِيح

و(سبحان الله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومِداد كلماته) كلمات طيّبات جمعت أجوراً لا حصر لها، ومعانٍ لا يُحيط بها أحد، فطيّب لسانك بها على الدوام.

والكلمة الطيّبة تقي صاحبها النار وتحميه منها، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»(١).

فاللهم وفقنا للحال الطيّب، والعمل الطيّب، والأقوال الطيّبة، وأحيينا الحياة الطيبة، وأمتنا الميتة الطيبة، وأدخلنا دار الطيبين، وأحسن جوارنا فيها يا أرحم الراحمين.

❊❊❊

(١) رواه الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

(٩١) الشافي

اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هو الشافي، وجاء ذكر هذا الاسم في السُنّة فقط، ففي الحديث: «وأنت الشافي»[١].

ومعنى الشافي: الذي منه الشفاء.

فهو يشفي الصدور من الشبه والشكوك، ويشفي القلوب من أمراضها كالحسد والحقد ونحوه، ويشفي النفوس من الأخلاق المذمومة، ويشفي الأبدان من الأمراض والآفات التي لا يقدر عليها غيرُه.

وشفاؤُه لعباده من أمراض الشكوك والشبه والشهوات يكون بما بيّنته آياتُه، وبما جاء عن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحقائق المزيلة لها؛ وكم يحتاج أفرادٌ من المسلمين اليوم لهذه الأدوية لتطمئن قلوبهم في ظل هذا الانتشار الكبير للشبهات التي وجدت -وللأسف- قلوبًا خاوية، وقلة علم ظاهرة، فحريٌ بالناصح لنفسه أن يتحصّن بالعلم الشرعي الذي يُزيل عنه هذه الشُبْه، والذي مصدره الكتاب والسُنّة بفهم السلف الصالح، فهم أبصر النّاس بالحق لتزول عنه هذه الشبهات، ويزداد يقينًا بكمال شرع ربه، ولتثبت قدمه على الإسلام في ظل زلل البعض عنه.

ومن رام الشفاء من غير الكتاب والسنة وكلام العلماء الربانيين العارفين بأمر الله فقد رام المحال والمستحيل، وتجد اليوم دعوات للتحرر من هذا المسلك مدّعي أصحابُها أنّه يجب تحكيم العقل في كل أمر، ولو تبصّر هؤلاء لأيقنوا أنّهم لم يتحرروا هم من سلطان التقليد، واتِّباع أقوال وأفكار غيرهم ولكنّها أفكارٌ

(١) رواه أحمد.

تدلّ على بلادة عقولهم، وإلا فأيُّ غرور من اتِّباع أصحاب عقول أهلها سادرون في ضلال مبين من عبادة أصنام أو حيوانات أو دُمى، وإن ترّفعوا فهم في الحقيقة يعبدون أهوائهم وشهواتهم بإنكار الحقائق الثابتة التي دلّ عليها الكتاب والسُنّة كقضية وجود الخالق، وكماله وتباين صفاته لصفات المخلوقين، ومقتضيات ذلك من التكليف، وحتمية البعث والجزاء والحساب، فلا شفاء البتة إلا باتّباع الحق، ولا تتحرر إلا بالاستقامة على سبيل الشرع المطهّر، فهو المُحرّرُ للعقول حقًا، والمُرشدُ إلى ما يقبله العقل السليم صدقًا.

ومن ضلوا عن السبيل تجدهم يُعارضون شرع الله بأقيسةٍ فاسدة، وأفكار تافهه، ومقترحات ضالة، مغرورين بعقولهم المحدودة، وأفكارهم التي تتغيّر كل وقت وحين.

وأعظم خيرٍ يسوقه الله (الشافي) لعبده أن يسخّر له عالمًا بالله يعرّفه أمره، ويدلّه على مراضيه، ويُقرّب له السبيل الموصل لرحمته، ويُبصّره بعقيدة السلف الصالح التي كان عليها أهل السنة والجماعة من لدن الصحابة رضوان الله عليهم، فإنّ من أعظم المصائب، وأشد أنواع الخذلان أن يكون عِلْمُ المرء عن طريق علماء السوء من أهل البدع والضلال.

وكلما زاد اتصال القلب بالله قوي على دفع أمراض القلب عنه، فإنّ طاعة الله، والفرح بقربه، والتنعّم بذكره لها تأثير على تقوية القلب، ودفعِ كلِ واردٍ سيءٍ يردُ عليه.

كثيرون يقذف في روعهم شياطين الإنس والجنّ الشبهات الشكوك في دين الله فلو اتبعوهم هلكوا ولكنّ يُدركهم الله برحمته فيعرفون الحقائق على وجهها،

ويتبصـرون السـبيل علـى حقيقته، فتُشـفى قلوبهم من هذه الشـبهات، وتسـتنير أفئدتهم بنور الوحيين.

وهو: (الشافي) للقلوب الصادقة في طلب الشفاء من أمراض القلب كالحسد والغل والحقد والتي في السلامة منها راحة النفوس.

ولا يخلو قلب من هذه الأمراض، فتجد كثير من القلوب فيها الحسد وحبّ الـذات، وتمنّـي الانفراد بالنعـم، وكراهية الخيـر للغير، ونحوها مـن الأمراض، ولكنّ الصادق يسعى في تخليص نفسه منها مستعيناً بربه (الشافي) بالدعاء الدائم، والعلم أنّ العطايا والخيرات كلها من الله تعالى، فلا يحسـد أحداً على خير أعطاه اللهُ إيّاه، ويجاهد في تطهير نفسه من كلِّ خلق مذموم.

والله (يشـفي) صدور المؤمنيـن بنصرهم على أعدائهم؛ فأعداءُ الملة يسـعون جاهدين لإطفاء نور الله بخيلِهم ورجْلِهم ولكنّ الله يُخزيهم بأن يجعل جمعهم بوراً، فيصير مكرهم سـراباً لا يجدون له أثراً، ولا يجنون من سـعيهم الباطل إلا الخزي، وتكون أموالهم التي أنفقوها عليهم حسرة، ومكرهم عائداً عليهم ويُغلبون.

ومن توجّه لكتاب الله تعالى فتأمّله بحضور قلب وطلبٍ للشـفاء وجد بغيته، ووُفِق لأصول الخير، ووضع يده على الشـفاء الذي لا شفاء بعده، فكلام الله نور، وشـفاء، وهدى، وتبصـرة، ورحمة، وهو هدايـة لكل حائر، ودليـل لكل طالب، فدونـك النور المبين فانهل منه ما ينشـرح بـه صدرُك، ويطمئن به فـؤادُك لعقيدة سليمة في ربٍّ عظيمٍ جامعٍ لصفات الكمال والجلال، ومعرفة تامّة لنبي كريم عليه أزكى صلاة وسـلام جمـع الكمال البشـري، والهدي السـليم، والخُلُق الجميل، وشفاء لا شفاء بعده لأحكام كاملة صالحة للبشرية جمعاء.

والله هو (الشافي) للأمراض الحسية.

ويجب على كل مكلّف أن يعتقد ألا شافي على الإطلاق إلا الله وحده، ففي الحديث يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لا شافي إلا أنت»[1].

والتوسل بتفرّده بالشفاء من أحسن أسباب الشفاء، فالأمر أمره، والخلقُ خلقه، وكل شيء بتصرّفه وتدبيره، وفي حديث غلام أصحاب الأخدود -وقد عُرف بمعالجة المرضى- ولكنّه فتىً قد امتلأ قلبُه بعقيدة أهل الإيمان، وعرف صفات ربه، فعندما جاءه جليسُ الملك بهدايا -وكان قد عَمِي- وقال له: «ما هَاهُنا لك أَجْمَعُ، إنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقالَ: إنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إنَّما يَشْفِي اللهُ»[2].

وأهل الإيمان قد ورثوا هذه العقيدة من إمام الحنفاء الذي ذكر الله إيمانه العميق بهذا بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء:٨٠] فهو وحده الذي يشفي، فكم من مريض اجتمع حوله أمهر أطباء العالم، وجُلبت له أنجح أسباب الشفاء ولكنّه لم ينتفع بها لأنّ الذي يملك الشفاء هو الله وحده، وبيده أنواع الشفاء، ووقت الشفاء، وكيفية الشفاء، وهو الذي يشفي بسبب وبلا سبب، وبضد السبب، وكم من مريض عوفي بعد يأس الأطباء من شفائه، فعلّق قلبك (بالله الشافي فقط)

ولا يُمنع من استعمال الأدوية والأشفية فإنّها مشروعة كما علّمنا ذلك نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في أحاديثه وتوجيهاته، ولكن لا يتعلّق القلب بها وإنّما يتعلق القلب بمن جعلها شفاءً سبحانه.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) أخرجه مسلم.

والأمـراضُ والمصائبُ رحمةٌ للعباد وتذكيرٌ لهم، فكما أنّ العلاجَ مُرٌّ ومؤلمٌ في أحيانٍ كثيرةٍ لكنّ ثمراته نافعة للمريض فكذلك أقضية اللهِ -ولله المثل الأعلى- قـد تكون مؤلمةً للعبد في ظاهرها، ولكن في باطنها الخير له، من إيقاظه من غفلته، ومراجعته لحاله وسلوكه وأعماله، وسبب لرجوعه لرشده.

واعلم أنّ رحمة الله بالعباد واسـعة، فهو لا يقضي عليهم الأمراض إلا لحكمٍ كثيرة منها ما نعلمها ومنها ما نجهلها بل من سعة رحمته أنه جعل لكل داء -مهما عظم وَكَبُر- دواء، ولكنّه يصرف بعض العباد عن معرفته لحكم لا يُحيطون بها.

وكم من مرض وبلاء كان سـببًا لعافية مبتلى، وعودة لشارد، وهداية لضال، وبصيرة لأعمى، ورشـداً لتائه، فالله هو الشافي وقضاؤه خير للعباد، وبلاؤه عواقبه عافية لهم.

والشـفاء للأمراض العضوية كما أنّ له أسـبابًا حسية فله أسبابٌ شرعية، من أعظمهـا: القـرآن العظيم فهو الشـفاء لجميع الأمراض فلا ينبغـي للعبد أن يغفل عنـه، بل عليه أن يرقي به نفسـه دومـًا -خصوصـًا إذا ألمّ به مـرض- ومن أعظم سوره: سـورة الفاتحة فهي الشافية، وكذلك سورتي الفلق والناس، ومن الآيات: آية الكرسي، وأواخر سورة البقرة.

ومن الأدوية الشـرعية الشافية بإذن الله: العسل، والحبة السوداء، وماء زمزم، والتلبينة.

ويُشـرع -كذلـك- التـداوي بالأدوية الحسـية التـي أثبت الطـب الحديث نفعها، فهي من جملة الأسباب المشروعة التي أمر رسوله بها لقوله ﷺ:

«تداوَوا عبادَ اللهِ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ لم يضع داءً إلَّا وضعَ معَهُ شفاءً»[1].

توسّل -يا عبدالله- باسم ربك (الشافي) إذا ألمّ بك مرض حسي أو مرض شبهة أو شهوة فرأيتَ من نفسك مَيّلاً للذنوب وتعلقًا بالشهوات، أوغرّتك الدنيا بأن يحفظك ربك، ويُسلمك من شرورها، ويُزهّدك في ملذاتها، ويُعلّق قلبك بدار النعيم المقيم.

اللهم اشف قلوبنا، ونوّر بصائرنا، واهد أفئدتنا، وسلّمنا من الشرور كلها يا رحمن يا رحيم .

***

(١) رواه ابن ماجه.

(٩٢) الجميل

وقـد جاء ذكر هذا الاسـم في السُـنّة، يقول رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»(١).

فالله -عزّ في عُلاه- جميلٌ بذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

وجمالُه لا يصفه واصف، ولا يُدركه أحدٌ على حقيقته، وأنّى لبشـر أن يُدرك مَـنْ ذاتُه الجمال، وكلّ جمال هو منه، ومِنْ أثر صُنعه، فهو الذي خلق كل جمال، وصوّر كل حُسـن، وجمّل مـا فُتنت به العيون، وكلُ جمـال في الكون فهو من أثر جماله، وجميل أفعاله.

يقـول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمن أعـزّ أَنْوَاع الْمعرفَة: معرفَة الرب -سُـبْحَانَهُ- بالجمـال وَهِـي معرفَة خَـواصّ الْخلق، وَكلهـمْ عرفه بصفة مـن صِفَاته، وأتمهم معرفَـة من عرفه بِكَمَاله وجلاله وجماله -سُـبْحَانَهُ- لَيْسَ كمثله شَـيْء فِي سَـائِر صِفَاتـه، وَلَو فرضت الْخلق كلهم على أجملهم صُورَة، وَكلهمْ على تِلْكَ الصُّورَة ونسـبت جمَالهـمْ الظَّاهِـر وَالْبَاطِن إِلَى جمال الرب سُـبْحَانَهُ لَكَانَ أقل من نِسْـبَة سراج ضَعِيف إِلَى قرص الشَّمْس)(٢).

فـالله كاملُ الجمال من جميـع الوجوه، يكفي في عظمة جماله أنّه لو كشـف الحجـاب عـن وجهه الكريم لمـا قام لنوره شـيء مـن الخلق، يقول ابـن القيم: (وأمـا جمال الـذات وما هو عليـه فأمرٌ لا يدركه سـواه، ولا يعلمـه غيره، وليس

(١) رواه مسلم.

(٢) [الفوائد:١٨١]

عنـد المخلوقين منه إلا تعريفـات تعرّف بها إلى من أكرمه مـن عباده.. ومن هذا المعنى يفهم بعض معاني جمال ذاته؛ فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفـات، ومـن معرفة الصفـات إلى معرفة الذات، فإذا شـاهد شـيئًا من جمال الأفعال اسـتدل به على جمال الصفات، ثم اسـتدل بجمـال الصفات على جمال الذات، ومن هنا يتبين أنه سبحانه له الحمد كله، وأن أحداً من خلقه لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسـه، وأنه يستحق أن يعبد لذاته ويحبُّ لذاته ويشكر لذاته...)[1].

والجمـال المطلق من جميع الوجـوه لله وحده فقط؛ فمهما أُوتي أحدٌ جمالاً فلن تجده جميلاً في كل شيء بل ستجد فيه من النقص والعيوب الشيء الكثير.

والبشـرُ -كل البشر- فيهم ما تستقذره النفوس، وتشـمئز منه، وقلما اجتمع جمـال الظاهر وجمـال الباطن في امـرئٍ، فربما تجده جميل المنظر ولكنّه سـيءُ التعامل مع الغير، غليظ الخُلُق مع العباد.

ومن تأمّل في الجمال الظاهر لبعض البشـر في مقتبل العمر ثم رآهم بعد حين وقـد كبر سـنهم، وكيـف أثّرت بهم حـوادث الزمـان، وهموم الحيـاة أيقن بهذه الحقيقـة، بل من تفكّـر بحال الميّت الجميل بعد وفاته بليال أيقن بما ذُكر، فالله له كمال الجمال والجلال، بل لا نسبة البتة بين جماله وجمال غيره.

وينبغـي لمـن أوتي جمـال صورة ألا يكفـر بجماله، ولا يكون جمالُه سـببًا في هلاكـه، فيُـورِد نفسـه العطب، ويجعـل هذا الجمال سـببًا لمعاقـرة المعصية وغشيانها.

---

(١) [انظر كتاب الفوائد:٣٢٢]

وهو - سبحانه- واهبُ الجمال لكل جميل من البشر والملائكة والنبات والحيوان، فلا يغترّ أحدٌ بجماله، فإنّه لم يختر أحدٌ شكله أو تفاصيل أعضائه أو طوله أو بُنية جسده، وإنّما هي بتقدير الله واختياره فلِم الغرور!!

ولعظمة جمال الله يذهلُ أهلُ الجنّة عن كلِّ نعيم وجمال هم فيه -مع جلالته- إذا رأوا ربهم لعظمة ما رأوا من كماله، فتنبهر أبصارهم لجماله، وتحار أعينهم فيه لشدة ما يرون من جمال، وتتذكر نفوسهم -وهم ينظرون لربهم- الجليل الجميل أنّ هذا ربهم الذي عبدوه وسجدوا له وتقرّبوا له بأنواع القرب.

ويتذكرون -وهم ينظرون إليه- فضله عليهم يوم خلقهم مسلمين، ويوم أن وفقهم للعمل الصالح -الذي هو محض فضل منه- فتمتلئُ قلوبُهم شكراً لربهم، وتمتلئُ نفوسُهم فرحًا برؤية ربهم الجميل.

ورؤية الله في الجنّة هي أعظم مطلوب للمؤمنين بربهم، بل ما طابت الجنّة إلا برؤيته ولذة النظر إليه، ولذا كانت أعظم نعمة لأهل الجنّة: رؤيتهم لربهم فيها، ففيها من السعادة والفرح ما لو وُزِّع على الخلق كلهم لكفاهم، وكيف لا يكفيهم وهم يرون ربهم الجميل الجليل؟!

وأهلُ الجنة يتفاوتون في رؤيته وأعلاهم فمنهم من يراه بكرة عشيًا، ولذا ترى المحبّ الصادق لربه يسعى جهده أن يكون من هؤلاء، فاللهم إنّا نسألك من فضلك يا رحمن.

إنّ زيادة الإيمان بهذا الاسم، والتأمل في هذا الحال، واستحضار هذا العطاء يزيد المؤمن اشتياقًا لرؤية الله، وهذا ما كان عليه نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنّه كان يدعو بالشوق إلى لقاء ربه، ويسأله لذة النظر لوجهه الكريم، فمن دعائه

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وأسألُكَ الرِّضا بالقضاءِ، وبردَ العيشِ بعدَ الموتِ، ولذَّةَ النَّظرِ إلى وجْهِكَ والشَّوقَ إلى لقائِكَ»[1].

وهذه الرؤيا لها أسباب، من أعظمها: الإحسانُ في عبادة الله وإلى عباده، فيُحسن العبد في توحيده وإيمانه وأعماله ويقوي هذا الجانب، وإذا زاد إحسانه رضي الله عنه، وأرضاه وأعلى منزلته ورفع مكانته، فصار أسعد النّاس برؤية ربه الجميل في الجنّة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٦] وقد بيّن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ معنى الزيادة وأنّها: «النظر لوجه الله الكريم في الجنّة»[2].

ومن أعظم أسباب تمتّع البصر بالنظر إلى الله: المحافظة على صلاة الفجر والعصر في وقتها، كما صحّ بذلك الحديث عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جميل في أفعاله، فإنّ أفعاله دائرة بين أفعال البِرِّ والإحسان، وبين أفعال العدل وكمال الحكمة، فليس في أفعاله عبث ولا عيب ولا ظلم، ولذلك يحمده الخلائق بعدما تظهر حقائقها لهم، ولكنّ المؤمنين بربهم حمدوا الله عليها في الدنيا لعلمهم بجمالها وكمالها وعدلها، ويكتمل حمدهم في الآخرة.

والله يُحب لذاته، فإذا أُضيف إلى ذلك إحسانه وإنعامه وحلمه ورحمته أحبّه العبدُ الصادق لا محالة.

ومن عرف ربّه الجميل سعى أن يُجمّل كل عمل وخلق منه، فيُجمّل باطنه بصلاح العقيدة مبتعداً عن الشرك بجميع أشكاله وصوره، ويُجمّل سيْره إلى ربه

---

(١) رواه النسائي.

(٢) رواه مسلم.

باتّباع السُنّة مبتعداً عن البدع والافتراء في دين الله، ويُجمّل باطنه بسلامة القلب من الأخلاق المرذولة كالحسدِ والغلِّ وسوءِ الظنّ، ويُجمّله بحبّ المسلمين وحب الخير لهم، ويُجمّل تعامله مع الخلق بأحسن الأخلاق ليكون شامة بين النّاس، ويُجمّل لفظه ومنطقه، فيُطيّب كلامه، ويُطيّب مجلسه وأفعاله، فلا يُسمع منه ما يشين، ولا يتلفظ إلا بكل قول جميل ولا يُسمع منه إلا كل طيب، ولا يُرى منه إلا ما تُسَرُّ به النفوس، ويطيّب سيرته لتبقى له ذكرى حسنة بعد مماته، ويتمثّل كل خلق جاء الأمر به:

كالصبر الجميل الذي لا ضجر فيه ولا سخط.

والهجر الجميل الذي لا عتاب فيه ولا تبِعة.

والصفح الجميل الذي لا حقد فيه ولا أذى بالقول أو الفعل.

مبتغياً بكل ذلك وجه الله دون سواه، فوجهُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أشرف الوجوه وأعظمها.

وينبغي لمن وُفق لهذه الأعمال الجميلة، والأخلاق الحسنة أن يُسند الفضل فيها لله وحده، فكل جميل في أفعاله وأقواله وأحواله فهو محض فضل ربه، وكلُّ خُلُق حسن رُزقه فهو من الجميل المنّان سبحانه.

فاللهم جمّلنا بأحسن الأخلاق والأعمال، واجعلنا لك شاكرين.

❊❊❊

(٩٣) الرقيب

الرقيـب: هو الحافـظُ الذي لا يغيب عمّـا حفظ، ولا يغفل عمّـا خلق، وهو المطّلع على ما أكنته الصدور، وطوت عليه النفوس، وكسبته الجوارح.

واسم الله الرقيب جاء ذكره في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثلاث مرات.

ورقابته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عظيمة فقد أتت على الأعمال والأقوال كلها، والخواطر والنيّات، فلا يخرج عن رقابته شيء، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ٥٢﴾ [الأحزاب:٥٢] فهو رقيبٌ على السموات وما فيها من خلْق وشأن، ورقيبٌ على الأرض وما يحدث فيها من خير وشر، ورقيبٌ على عباده فلا يغيب عنه شيئًا من شؤونهم.

وهـو الرقيبُ الـذي يُحصي على العباد أعمالهم كلهـا، وفي هذا دلالة ظاهرة على عظيم قدرته، وسعة علمه.

غاب عيسـى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن قومه، وهو النّبيُ المؤمن بمراقبة الله لعباده، فأعلن عـن هذا الحفظ، وتلك المراقبة، قـال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة:١١٧]

فيا من يدّعون حبّ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واتّباعه أيقنوا بمراقبة الله عليكم، وإحاطتِه بشـؤونكم، فحقِقوا التوحيـد، وابتعِدوا عن عقيدة التثليـث الضالة، فالله لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً بل هو واحد أحد.

ومن عرف عظمة الله، وسعة صفاته، وتمام قدرته، وكمال إحاطته حمله هذا الإيمـان على مراقبـة الله والخوف منه، وتعبّد الله بأسـمائه وصفاته، قال ابن القيم

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمراقبة : هي التعبّد لله باسمه (الرقيب) (الحفيظ) (العليم) (السميع) (البصير) فمَن عَقَل هذه الأسماء تعبّد بمقتضاها)[1].

فراقِبِ الله -أيّها الزوج- في أهل بيتك، وأحسن إليهم بجميع أنواع الإحسان، فالله رقيب عليك.

وراقِبي الله -أيّتها الزوجة- في نفسك وزوجك وولدك واحفظيهم في غيبتهم وحضرتهم، فالله رقيب عليكِ.

وراقِبِ الله -أيّها التاجر- فاللهُ رقيبٌ عليك في تجارتك، وصدقك في معاملتك.

وراقِبِ الله -أيّها الموظف- واصدق في أداء أمانة عملك.

وراقِبِ الله -أيّها الشاهد- في شهادتك، فلا تضيّع الحقوق بشهادتك، فاللهُ رقيبٌ وسامع لشهادتك.

وراقِبِ الله -أيّها الشاب- في سنّ شبابك، وأيقن بأهميته وخطورته، وفرصة اغتنامه.

وراقِبي الله -أيّتها الفتاة- واحفظي الله في نفسك، واحفظي سمعة أهلك فإنّ حفظ نفسك من أولى الأولويّات.

والإيمانُ بهذا الاسم الجليل يُورث لصاحبه ثمراتٍ يجد خيرها في الدنيا والآخرة، فمن هذه الثمرات:

ملاحظة النية عند بدء العمل، وهل هو لله فيمضي فيه أو لغيره فيُصحّح نيته

(١) [مدراج السالكين:٢/ ٦٥-٦٦]

ليستقيم له أمرُه، فالمُرَاقِبُ لربه دائم المحاسبة لنيته ليقينه بنظر الله إليه، وبسعة علمه بحاله، ممّا يُثمر له الإخلاص في العمل.

وإخلاص العمل لله أعظم باعث على إخفائه عن أعين النّاس، ومن تأمّل حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يجد أنّ المراقبة هي القاسم المشترك بينهم، فالحاكمُ راقب الله في ولايته فلم يظلمْ أو يَحِفْ في حكمه، والشابُ الذي نشأ في طاعة الله راقب ربه في هذا السنّ، وأيقَن أنّ اللهَ سائلُه عنه، فحفظه واعتنى بشأنه، والرجلُ العفيفُ الذي دعته المرأة للفاحشة ما حمله على العِفّة إلا مراقبة الله، ويقينه أنّ الله يراه، فخاف من بطشه وغضبه، والرجلان اللذان تحابا في الله راقب كل منهما نيته فجعلا المحبة لله، ومن تعلّق قلبُه في المساجد علم أنّ الله يُحبّ هذا فأحبّ ما أحبّ ربه، وراقب الله في هذه العبادة، والباكي بين يدي ربه خاشعًا علِم أنّ الله يراه فامتلأ قلبُه من خشيته ومراقبته، ومن تصدّق بصدقة فأخفاها كان على يقين بمراقبة الله لعمله فصدق في نيته.

ومن ثمرات مراقبة الله: الخوف منه، وعدم الجراءة على معصيته ممّا يُثمر الحذر من غضبه وسخطه وانتقامه، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أجمع العارفون أنّ مراقبة الله في الخواطر سببٌ لحفظه في الظواهر)[1].

يغيب عن الغافل والعاصي مراقبة ربه فيتجرأ على معصيته، ويتعدى حدوده، متساهلاً في رقابة الله عليه، وما علم أنّ اللهُ لا تخفى عليه خافية، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ:

﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ ﴾ [النساء:١٠٨]

(١) [مدراج السالكين:٦٦]

فلكل من ضعفت نفسه، وتجرأ على المعصية: اعلم أنّ اللهَ رقيبٌ عليك، فلا تخفى عليه معصيتك، ولو شاء لقبض روحك عليها فتُفضح في الدنيا لكنّه ستيّر لطيف، فاستحِ منه ولا تأمن غضبه وسخطه.

ويا من يكيد لعباد الله ويسعى في أذيتهم بظلم ظاهر، أو تأويل فاسد: أيقن باطّلاع الله عليك، ومراقبته لعملك، فلا يخفى عليه عملك وقصدك، وستقف بين يديه مع خصمك، فما أنت مجيبه على كيدك وإضرارك به؟!

ويا من يمشي بالوشاية والنميمة بين الخلق: سواء أكانوا أقربين أم أبعدين، أيقن بعلم الله بعملك، وكراهيته لفعلك فلا تأمن هتك سترك.

ومن ثمرات مراقبة الله: إتقان العامل لعمله ليقينه باطّلاع الله عليه، فيبذل جهده بتحسينه وتجميله حتى يُؤدي العبادة على أكمل صورة؛ فالعبادة الحقيقية النافعة: بحقيقتها لا بصورتها الظاهرة.

ومن ثمرات الصادقين في المراقبة: حصول اللذة عند أداء العبادة، فالله شاكرٌ عليم يذيق العبد برد مناجاته، ويجعل الطاعة قرة عينه .

ومن ثمرات المراقبة: مغفرة الذنوب، ونيل الأجر الكبير من الله تعالى، قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك:١٢]

ومن أعظم ثمرات المراقبة: دخول الجنّة ورؤية الله فيها، قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣﴾ [ق:٣١-٣٣]

فاللهم ارزقنا مراقبتك على الدوام، وصدق التعامل معك.

(٩٤) الفتّاح

من أسماء الله تعالى: (الفتّاح)

وورد اسم (الفتّاح) مفرداً مرةً واحدة، في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٦﴾ [سبأ: ٢٦] ورد بصيغة الجمع مرة واحدة أيضًا، في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: ٨٩]

وله ثلاث معان:

المعنى الأوّل: أنّه الذي يفتح لعباده أبواب الخيرات والبركات والعطايا والهبات والأرزاق، فيفتح على عبده أبواب رزق ما ظنّ يومًا من الأيام أنّها تُفتح عليه، ويهبه خيرات ما تصوّر يومًا أنّها توهبُ له، ذلك أنّ ربه (فتّاحٌ كريم) فلا مانع لعطائه، ولا ممسك لفضله.

كم تُغلق على العبد أبواب العافية والرزق حتى يظنّ كل الظنّ أن لا تُفتح له أبداً، فإذا بالخيرات تكثر، والأرزاق تتوالى، والعافية تعود، والآلام ترحل.

وهو (الفتّاح) الذي يفتح ما انغلق من الأمور، فكم يُغلق على قلب العبد، وتضيق عليه نفسُه حتى كأنّ جبال الدنيا جاثمة على صدره، فيتوجّه للطاعة ويُكثر من الصلاة والدعاء والاستغفار، ويُتبع ذلك بصدقات وعفوٍّ عن مسيء، فينشرح صدرُه، وكأنّه ما مرّ به ضيق قط، فربُه (فتّاحٌ رحيم) عَلِم بضعفه ففرّج عنه.

وممّا يفتح الله به على عباده: (الفتح الديني).

فيفتح على أهل الإسلام بحبِّ دينِهم، واليقين التامّ به، وردّ كل شبهة ترد على القلب.

أو يفتحُ على قلب من كان كافراً بالإسلام، ويشرح صدرَه له، فكم من حائرٍ في الديانات الباطلة فتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على قلبه، وهداه للإسلام، فأبصر الحقيقةَ، وسلك طريق الهدى، ففاز فوزاً لا أعظم منه، فاللهم ثباتًا على دينك حتى نلقاك.

وممّا يفتح الله على عبده: لزوم السُنّة، وحبّ اتّباعها، وإفناء العمر في تعلمها، ونشرها بين الأمّة، والاجتهاد في تطبيقها، وجعلها في حياته حتى يلقى ذلك السُنّيُ ربَه على سُنّة وطريق هدى ورشاد.

وهو الفتّاح الذي يفتحُ قلوب المؤمنين ويشرحُ صدورهم للطاعة، ويُحبّب إليهم مراضيه، فيفتح على عبده في العبادات، فيجد في الصلاة راحة، وفي الذكر أُنس، وفي التلاوة حلاوة، وفي العطاء فرح، وفي العفو عزّ، وفي الصفح كرامة، وفي الصبر سِلوان، وفي التوكلِ طمأنينة، وفي الرجاء أمل، وفي الرحمة عِوض، فاللهم افتح علينا من بركاتك يا فتّاح يا عليم.

ومن دلائل انفراد الله بهذا: تنوّع فتْحه على العابدين والسائرين إليه، فمنهم من يُفتح عليه بالصلاة، فتكون قرة عينه، وروح فؤاده، فلا يجد السعادة إلا ساعة الوقوف بين يدي ربه، وهذا -لعمر الله- فتحًا كريمًا.

ومنهم من يُفتح له في باب تلاوة القرآن، فتجد القرآنَ جليسه وأنيسه قد أدرك لذته وحلاوته بتلاوته وترديده.

ومنهم من يُفتح له في باب الذكر، فتجد لسانه رطْبًا بذكر الله على الدوام، فاستعاض بذكر ربه عن مجالسة الخلق.

ومنهم من يُفتح له في الصيام حتى أنّ من حوله يعجبُون من كثرة صيامه، وما علموا أنّه قد وجد فيه من اللذة ما استغنى به عن الطعام والشراب.

ومنهم من يُفتح له في برِّ الوالدين، فيُحسن إليهم، ويمضي بقية عمره في رعايتهم، ويجد الأنس والراحة والسعادة في خدمتهم والجلوس معهم، وهذا من الفتح المبارك لصاحبه.

ومنهم من يُفتح له في صلة الرحم، فلا يزال يصلهم، ويُحسن إليهم بجميع أنواع الإحسان.

ومنهم من يُفتح له في حبّ مساعدة المساكين والسعي لهم، حتى أنّه ربما استغرق عمره كله (ومن الإخوة الفضلاء والأحبة النبلاء ما أرى فيه ذلك من قرابة خمس وثلاثين عامًا، يواصل الليل والنهار في خدمة الفقراء والمساكين، وتفريج هموم المهمومين، ومعونة المحتاجين، وقد أفنى عمره في هذا الشأن، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء)

وفتوحات (الفتّاح سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ) على عباده لا منتهى لها.

ومما يفتحه على عبده الصالح باب الحكمة والعلم والفقه في الدين، وهو من الفتوحات العظيمة، وهو عطاءٌ كريم من الله الرحيم لمن شاء واختار من عباده، وليس له حدٌّ أو عدّ بل كلما زاد العبدُ تقوى فتح اللهُ تعالى عليه، وكلما زاد طالبُ العلم فقراً واضطراراً لمولاه صُبّ عليه الفهم، وتأمّل في فتح الله لعلماء الأمة في

فهم النصوص، وإرشادهم لمقاصدها حتى صاروا منارات هدى للنّاس، فانتفعوا بعلمهم وفقههم.

وهو الذي يفتح على عبده ما انغلق من أمور دنياه، ويُبصّره مصالحه فيها، فكم من أمر أُغلق عليك فيه، وكم من شأن ترددت فيه من شؤون حياتك، وكم تحتار في اختياراتك، فتجدّ الفتّاح العليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد فتح عليك، وألهمك الهدى، وبصّرك رشدك، ودلّك على الصواب، وألهمك مصالحك.

وللفتح الرباني أسبابٌ، منها:

تحقيق التقوى، والعمل بما يُرضي الله، والابتعاد عن سخطه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦]

ومنها: **المحبة الحقيقة لله ولرسوله، وطاعتهما،** فمن كان كذلك فتح الله عليه الفتح الديني، والعطاء الرباني، ففي حديث سهل بن سعد الساعدي أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ يومَ خيبَرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ هذِه الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللهُ علَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ ورَسولَه، ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسولُهُ**»(١).

ومن أعظم أسباب الفتح: **الدعاء؛** فالخير كل الخير، والفتح كل الفتح في جميع أبواب الخير بيد الله تعالى، فكلما صدق العبدُ مع ربه، وكان كثير الطلب والدعاء فتح الله له من أبواب البِرّ ما لا يخطر له على بال.

---

(١) رواه البخاري.

وكلما زاد إيمانُه ويقينُه بفتح الله تعالى -وأنّه هو الذي يُبصّر القلوب، ويُنوّر الأفئدة، ويهدي السُبل- تعلّق به، وتجرّد عن الالتفات للمخلوق، وصار إلهه (الفتّاح) قِبلة قلبه، ومقصد فؤاده وحده دون سواه، فعلى العبد أن يُعلِّق قلبَه بربه الفتّاح العليم، وأن يكون كثير السؤال له بأن يفتح عليه من صلاح دينه ودنياه ما يستغني به عن الخلق.

ومن معاني اسم (الفتّاح): الحاكم الذي يقضي بين العباد بالحق والعدل .

فالحياة لا تخلو من خُصومات، والدنيا فيها ظالم ومظلوم، فمن تمام عدل الله أن يحكم ويفتح بينهم، ويأخذ لصاحب الحق حقه.

تخاصم الرسل وأقوامهم حتى فتح الله بينهم، وحكم بينهم بالحق، وتبيّن لمن كان في عصرهم ولمن جاء بعدهم أنّ العاقبة للمتقين.

طال مقام نوح في قومه، وهم مصرّون على كفرهم، فتوجّه إلى ربه منادياً: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود:١١٨]

فجاء الفتح والنصر من الله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٩]

وأصرّ قوم شعيب على كفرهم، وجحدوا نبوته، فلمّا رأى نبيُهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تمسّكهم بضلالهم رفع الشكاية إلى ربه قائلاً : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٩]

واستعجل أعداء الرسل العذابَ -لعتوهم وجبروتهم- فنزل بهم ما كان يحذرون، وحكم الله بينهم، فها هم قوم عاد يستعجلون نزول العذاب: ﴿قَالُوٓا

أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ
أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ
وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأعراف:٧٠-٧٢]

واستعجل قومُ صالح العذاب: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧٧] فنزل بهم ما كانوا به يستعجلون ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف:٧٨]

وكم يستعجل معجباً برأيه، محارباً لدين الله، فيُخزيه الله في الدنيا، ويجعله لمن خلفه آية، ولكنّ كثيراً من الناس عن آيات ربهم غافلون.

أمّا الفتح الأكبر فيكون يوم القيامة، يوم يفتح الله بين الرسل وأممهم، والخلق بعضهم بعضًا، ويحكم بينهم، وذلك فتحاً لا ظلم فيها ولا جوْر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [السجدة:٢٩]

فحذار أن تأتِ يوم القيامة بمظلمة تود لو أنّ بينك وبينها أمداً بعيداً، وعزّز التقوى ومراقبة ربك والخوف منه حتى ترد يوم القيامة وقد سَلِمت من تبعات كل تعدي، ونجوت من كل تبِعة.

ومن معان اسم (الفتّاح): الناصر لعباده المؤمنين، والمنتصر للمظلومين، وهو يعود للمعنى السابق للفتح، فيفتحُ الله تعالى على أوليائه، وينصرهم نصراً مؤزراً على أعدائهم.

كم حُروب الإسـلام منـذ بُعث نوحٌ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتى يومنا هذا، فاستفتح عسـكر الكفر والإيمـان، ففتح بينهم (الفتّاحُ العليم) ونصـر أهلَ التوحيد الخالص وأخزى أهلَ الكفر والضلال، وبقي الإسـلامُ شامخًا خالداً وخاب كل جبّار عنيد، ورجع أهلُ الضلال بالخيبة والخزي في الدنيا، وانقلبوا إلى الآخرة بالخسران والإثم المبين، قال الله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ ﴾ [إبراهيم:١٥]

قال ابن جرير: (واسـتفتحت الرُّسـل علـى قومها: أي اسـتنصرت الله عليها ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾ [إبراهيم: آية ١٥] يقول: هلك كل متكبر جائر حائدٍ عن الإقرار بتوحيد الله وإخلاص العبادة له)[1]. فأيقنْ أنّ العاقبة دومـًا للمتقين.

أيّها المؤمن/

كن مِفتاحًا للخير مغلاقًا للشـر، فمن الخلائق مَن هو كذلك، تجده مباركًا أينمـا حلّ، دليلاً لكل فضيلة، مُرشـداً لكل إحسـان، فينفع عباد الله بما يسـتطيع، ويكون قدوة لهم في أبواب الخير، فينال من الأجور ما يفرح به يوم تُوزن الأعمال، ويكون سببًا في أعمال غيره وربما لم يشعر بهذا في دنياه.

وحـذار حذار أن تكون مفتاحـًا للشـر مغلاقـًا للخير، صاداً عن سـبيل الله، داعيـًا للمعصية بحالك أو مقالك، فتأتي يوم القيامة وقد حُمّلت أوزار من تبِعك، فتندم ولات ساعة مندم.

وقد يفتح (الفتّـاح سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ) على بعض المعرضين الدنيا وزخرفها، وهم مقيمـون على سـخطه، فيُفتنـون بها، وتزداد الفتنـة بهم، وعلـى المغرورين بهم،

(١) [تفسير الطبري]

فيفتح الله عليهم بكثرة المال، ودوام الصحة، وتتابع العطايا عليهم، فيظنّون -لفرط جهلهم- أنّ هذا دليل رضا، وما علموا أنّه استدراج وإملاء حتى تأتي ساعة الأخذ القاصمة لهم على غِرّة وفجأة -وهو أشدُّ ما يكون في الأخذ- فإذا الحسرات والندامات، واليأس من النجاة، ووقوع العذاب في الموقع اللائق به، قال تعالى -عن هذه الطائفة-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥]

فليحذر من الغفلة والغرور من هو مقيم على المعصية وسخط الله.

اللهم احفظنا من كل شرٍّ وسوء، وعافنا من كل بلاء وخطيئة، وافتح على قلوبنا، وأنرِ دربنا يا أرحم الراحمين.

❋❋❋

(٩٥) الهادي

ورد هذا الاسم في آيتين من كتاب الله العزيز، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾ [الحج:٥٤]

واللهُ هو الهادي: الذي هدى عباده لمصالحهم، وبصّرهم ما ينفعهم في معاشهم بهدايته العامة لهم، ودلالتهم لرشدهم، ومفردات هذه الهداية وأنواعها لا حصر لها، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنها: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠]

فتأمل قوله (كُلَّ) والتي هي من صيغ العموم، فتعمّ كلّ هداية يحتاجه الخلق لترى فيها كمال علمه، وسعة رحمته في هدايتهم.

وانظر لكثرة الخلائق من جنّ وإنس وحيوان -والذين لا يعلم عددهم إلا الله- لترى كمال قدرته في هدايتهم لمصالحهم، ولِما ينفعهم في شؤونهم، فقد تنوّعت حاجتهم للهدايات في كل شأن من شؤون حياتهم، ومع ذا فقد علمها ويسرها لهم بمقتضى حكمته،

هداهم لسبل أرزاقهم، ولمواضع عافيتهم، وهداهم لمصالحهم في خاصّة أنفسهم، وفي ذرياتهم ومن تحت أيديهم، ولو منع عنهم هدايته لما اهتدى منهم أحد، فكم من ذكي لم يهتدِ لمصالحه، وكم مِن عاقل تعجّب العالم من سوء تصرفه، وكم مِن بليد نجح في حياته، فمع كل هذا التباين لهذه الأحوال تعلم أنّ الهادي هو اللهُ وحده، وأنّ الهداية المطلقة لا يملكها إلا هو، فعلّق قلبك به.

يسلك العبد طريقًا يظنّ أنّ به الهداية، وأنّه هو الأنفع له، وأنّه سبيل النجاة، فإذا هو الغواية والضلالة والعمى والهلاك، ذلك أنّ الله قد قضى أنّ الهُدى من عنده، وأنّه هو الهادي حقًا دون سواه، وأنّ سبيل الهدى واحد لا يتعدد، فتبصّر بأمرك، واسلك سبيل الرشاد، والجأْ إلى مولاك في كل حين.

وهو الهادي: (هداية البيان) فمن تمام عدل الله بيانه السبيل، وتوضيح الطريق للخلق حتى لا يكون للعباد حجة عليه، فأرسل الرسل إليهم لتدلهم على ربهم، وتُعرّفهم به، وبما يجب له، وتُبيّن لهم مواضع رضاه، وأسباب سخطه، وأقام الدلائل على صدقهم، وأنزل الكتب تهدي الناس لمصالحهم في الدنيا والآخرة،وهدى النفوس لمعرفة الحق، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:٣] وجعل لكل عبد مشيئة وإرادة يتخذ بها قراره، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التكوير:٢٨] فكل إنسان يعلم من نفسه هذا، وأنّ له القدرة على الاختيار، فلا حُجّة لعبد على ربه، ومن يحتج بالقدر السابق على ضلاله تجده لا يحتجب القدر السابق على رزقه، بل يسعى ويبذل وسعه في تحصيل الرزق مع أنّ الرزق والهداية والآجال كلها مكتوبة محسومة، ولكنّك تجده حريصًا على أمر دنياه بخلاف أمر دينه وآخرته، وهذا دليل على تناقض مسلكه (وتناقض القول دليل على بطلانه) كما قرر ذلك ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو معلوم لدى كل عاقل.

(والقول بالجبر، وهو: أنّ الإنسان مجبور على الضلالة؛ فساد للعالم كله لأنّه لا يمكن إقامة الحدود على السارق والزاني والقاتل ونحوهم من أهل المعاصي، فكلهم سيدعي أنّه مجبور، وهذا أمر -كما ترى- لا يمكن قبوله)

ومن أنواع الهداية العظيمة: (هداية التوفيق) وهي الهداية الخاصّة والتي لا يملكها إلا الله وحده - وهي أعظم هداية في الوجود، وأجلّ عطية من الرحمن، وأشرف هبة من الوهّاب- ويمنّ بها على من يشاء من عباده، وهي هداية عن علم، فاللهُ أعلم حيث يجعل رسالته، وهو أعلم بمن يستحقها، ومن هو أهل لها.

وهبها نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومنعها ولده.

ووهبها إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومنعها أباه.

ووهبها امرأةَ فرعون ومنعها زوجها.

ووهبها لوطًا ومنعها زوجته.

ووهبها محمداً عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومنعها عمَّه.

فلم يجعلها لأكرم الخلق عند الله لأقرب الخلق عند العبد ليعلم النّاس أنّها بيد الله فقط، فيسألونه إيّاها، وتتعلّق قلوبُهم به فقط، ويكونون على وجل من فقدانها، ففي الحديث القدسي يقول اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: «يا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكم ...»[1].

ومن دعاء الصالحين من عباد الله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران:٨]

ولأهميتها يسألها المؤمنون في كل صلاة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة:٥]

فهي أعزّ أنواع الهداية، وأعلاها قدْراً، وأشرفها منزلة ومكانة، فبينما النّاسُ

---

(١) رواه مسلم.

في دياجير الظلام تائهون حائرون قد ظلت أفهامهم إذ بالهداية تنزل على قلوب المؤمنين، فتبصرهم السبيل فقد هداهم الله، وهو الهادي إلى سواء السبيل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج:٥٤]

وهذه الهداية من أعظم ما يحرص عليها العارفُ بفضلها وأهميتها، ولذا تجده يسعى في طلبها، ويبذل وسعها ليكون من أهلها لعلمه أنّها هداية تحتاج إلى الإتيان بأسبابها، وصدق اللجوء لمن يملكها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهي واسعة لا منتهى لها، فمهما اهتدى إليها فهو بحاجة للزيادة منها والثبات عليها، ومن تأمّل في حال غيره من أهل الاستقامة ممّن أفنوا أعمارهم في طاعة ربهم، وبذلوا حياتهم في خدمة دين الله وعلّموا وأنفقوا وجاهدوا وتقرّبوا لربهم بعبادات فاقوا بها غيرهم أيقن أنّه بحاجة للهداية، بل من يرى من نفسه زيادةً في الطاعات في مواسم دون أخرى، وفي أوقات دون أوقات أيقن أنّه بحاجة ماسة للتوفيق للهداية، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]

ويسألها المؤمنُ ربَه ليقينه أنّه إن اهتدى في الدنيا اهتدى في الآخرة، وبحسب كمال هدايته هنا يكون كمال هدايته هناك، وبقدر سرعته لها في الدنيا تكون سرعته لدخول دار النعيم.

ومع إعراض كثير من النّاس، وإيثارهم للدنيا إلا أنّ الله يهدي كثيراً من الضالين، ويشرح صدور كثيراً من المعرضين -حتى وإن لم يسألوها- ذلك أنّ رحمته سبقت غضبه، وعفوه أوسع من عقوبته.

أحبّ الله من عباده الاستقامة ولا يرضى لهم الكفر، بل ربما يسلك أحدهم طريق الاستقامة ثم ينحرف فيرده ربه عَزَّوَجَلَّ إليه ردّاً جميلاً لأنّه هادٍ للعباد، وربما

كان المرء ممّن يحارب اللهَ ورسولَه زمنًا ثم يُنيب وينشرح صدره للهداية، فيموت على حسن خاتمة.

توسل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لربه: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات:٩٩] فهداه للتوحيد الخالص، والاستسلام التام، والمقامات العالية في الدين، فصار إمام الحنفاء، وخير خلق الله بعد محمد -عليهما الصلاة والسلام- ففوّض أمرك لربك، وافتقر لمولاك في طلب الهداية، تنال عِزّ الدنيا وشرف الآخرة.

ولنيل هذه الهداية أسبابًا، منها:

- الإنابة الحقّة لله، والتقوى اللازمة له في كل حين، والاستجابة الصادقة لأوامره، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى:١٣]

ومن سبلها: النظر والتأمّل في الكون؛ فمن نظر إليه بتأمّل هداه هذا الصنع المتقن والإبداع المحكم لخالقٍ بارئٍ كاملٍ عليمٍ قدير .

ودلّه هذا التفكّر والتأمّل إلى معرفة عظمة الله واستحقاقه للعبادة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١]

ومن سبل الهداية: قراءة القرآن بتدبر؛ فمن قرأه بطلب الهداية هُدي، ومن نظر إليه بتأمّل تبصّر، ومن توجّه إليه رغبة في الاستقامة استقام، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٥-١٦] وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ

﴿عَلَىٰ نَفْسِيٓۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ٥٠﴾ [سبأ: ٥٠]

فالقرآنُ يُبيّن للعباد حقائق كل شيء، فيُعرّف القارئ بأخبار السابقين، وحقيقة الدنيا والآخرة، والحكمة من الوجود، وتفصيل الأحكام، وجزاء المؤمنين والكافرين، فمن رام الهدى، فعليه بالتوجّه الكلي للقرآن -مدارسةً وتفهّمًا وشفاءً وطلبًا للهدى-.

ومن سبل الهداية: الصدق في طلبها؛ فإذا سألها العبد بصدق هداه الله، ووفقه ويسرها له، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحديث القدسي: «يا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ»(١).

نصيبك من الهداية بحسب نصيبك من المجاهدة، فقد قضى اللهُ أنه يهدي من جاهد وصبر وصابر، ولا تستثقل المجاهدة فإنّ عاقبتها حسنة، وما وراءها من الصبر فرح وسرور، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]

ومن تأمّل سُنّة الله في عباده، وانتصار الحق دومًا منذ بعثة أوّل الرسل إلى يومنا، هداه هذا التأمّل إلى أنّ اللهَ حقٌّ، ووعده حق، ولقاءه حق، ويهدي إلى الحق. أمّا من لم يرفع بهذا رأسًا، ولم يُعمل عقله وبصره فيها، ولم يكن صادقًا في طلب الحق، لم ينتفع بها، بل صارت حججًا عليه.

فاللهم اهدِ قلوبنا ونوّر بصائرنا واغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين.

❋❋❋

(١) رواه مسلم.

(٩٦ ، ٩٧) الحسيب، الديّان

اللهُ هو الحسيبُ، الديّان.

وقد ورد اسم الحسيب في كتاب الله ثلاث مرات، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: و﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء:٦]

والحسيبُ هو: المحاسِبُ لعباده، المتولي جزاءهم، وهو الحفيظ لأعمالهم، الرقيب عليهم.

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيحفظ على العباد أعمالهم حسَنها وسيِّئَها، صغيرها وكبيرها، ثم يُجازيهم عليها بما اقتضاه فضله، وعدله، وحكمه المحمود)[١].

تأمّل في الاعداد الهائلة للخلائق، وكثرة أعمالهم وتنوّعها؛ كيف أحصاها الله عليهم، ويحاسبهم على مثاقيل الذر منها.

وهو عليمٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأعمالهم ولا يخفى عليه شيءٌ منها أبداً، وبصير بما يعملون، وإليه يُرجعون، قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦] ووالله إنّك لتحار وأنت تتأمل بهذه القدرة العظيمة له، فلئن سعت الدول في إحصائية الأعداد لساكنيها، فهي تعجز عن ما يتبعها، فهل يستطيع أحدٌ أن يحصي أهل عصره في دقة متناهيه، فضلًا عن حصر أعمالهم في كل لحظة، وحصر نواياهم وأسرارهم، فسبحانك يا ربنا ما عبدناك حق عبادتك، وماقدرناك حق قدرك، أحصى على الجميع أعمالهم كلها.

(١) [تفسير السعدي: سورة النساء آية ٦٨]

فما تلفّظ به العبد سَمِعَه.

وما نظر إليه ببصره أبْصَرَه.

وما كنّ به صدرُه ونواه بقلبه علمه.

يحاسب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من شاء من خلقه على الفتيل والقطمير والذر الذي لا وزن له، ويعفو عمّن يشاء ولو كانت ذنوبه أمثال الجبال، فهو الملك الحسيب لا مُعقِّب لحكمه.

والعباد أعمالهم متفاوتة ومتباينة، فهؤلاء عندهم طاعات أمثال الجبال وربما كانوا سببًا في قربات يعجز البشر عن حصرها.

ولو تأملتَ في حسنات الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فقط لحار عقلك من كثرتها، وأثرها البيّن على الأمّة، فأممٌ دخلوا الإسلام بسببهم، فنالوا أجورهم من ذلك الزمان إلى يوم القيامة.

وكذلك حال من بعدهم من التابعين والأئمة الأعلام والمجاهدين والمحسنين والمتصدقين ونحوهم من أهل الأعمال الكبرى الذين كانت لهم آثار في نشر تعاليم الإسلام، وتعبّدِ الناسُ لربهم.

وأعمال هؤلاء وغيرهم متنوّعة ما بين أعمال قلبية وبدنية ومالية تقرّبوا بها لربهم في أزمنة شتى، وأماكن متنوّعة، وكثيرٌ منهم لا يستحضرونها، وأعداد هؤلاء المطيعين لربهم لا يعلمهم أحدٌ إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ومع ذلك كله، فاللهُ محيط بها عليم بدقائقها وسيجازيهم عليها أحسن الجزاء.

وبالمقابل هناك خلْقٌ قد عصوا ربَهم، فلم يتركوا شاردة ولا واردة من الذنوب

إلا ارتكبوها، وعصوا ربَّهم سراً وجهاراً، ولم يراقبوا مولاهم في شبابهم، وأصرّوا على المعصية في شيبتهم.

وأعـدادُ هؤلاء -أيضًا- لا يعلمهم إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فكم ظلموا أنفسهم، وكم غرتهم الأمانيُّ فطالت آمالهم، وأخَّروا توبتهم حتى بغتهم الموت، وكم غرّهم الشيطان ولبّس عليهم حتى أوردهم المهالك.

وربما كان العبد رأسًا في المعاصي، وقائداً في الشرّ، فلم يخش تبِعات جُرمه، ولم يستحضر شدة الأوزار التي سيحملها فوق ظهره ليعرّض نفسه لأفظع العقوبات، ومثل هذا حسابه بين يدي الله أشدّ وأنكى، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝١٣﴾ [العنكبوت:١٣]

وحسابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عام يشمل الأفراد والجماعات، فلا يعجزه حساب هؤلاء مع كثرتهم وكثرة أعمالهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ۝٨﴾ [الطلاق:٨]

وحسابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متنوّع، فمِن العباد مَنْ يُحاسب ويُناقش ثمّ يُعذّب -عدلاً منه وقِسْطًا- ومنهم من يحاسبهم الله حسابًا يسيراً -فضلاً منه ورحمة- فلا يُناقش في الحساب، ولا يُدقق عليه وإنّما تُعرض عليه ذنوبه ويُقرّر بها فيتجاوز الله عنه، وهذا هو الحساب اليسير الذي جاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨﴾ [الانشقاق:٨]

قالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سمعتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ في بعضِ صلاتِهِ: «اللهمَّ حاسِبني حسابًا يسيرًا» فلمَّا انصرف قلتُ: يا نبيَّ اللهِ ما الحسابُ اليسيرُ؟

قال: «أنْ ينظرَ في كتابهِ فيتجاوزَ عنه، إنَّه من نوقِشَ الحسابَ يومئذٍ يا عائشةُ هلكَ»(١).

وحساب الله قائمًا على قواعد العدل التي لا يشوبها ظلم بوجه من الوجوه، فيُجازي كل عامل بعمله، فمن قواعد الحساب عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

مضاعفةُ الحسنات لصاحبها -فضلاً منه ورحمة- وأمّا السيئات فلا يُزاد فيها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام:١٦٠]

ومن قواعد الحساب: أنّه لا يؤاخذ أحدٌ بجريرة غيره، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [فاطر:١٨] فلا يحمل أحدٌ ذنب أحد إلا إذا كان داعيًا إلى شر، فيحمل أوزاره وأوزار من تبعه، جزاءً وفاقًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ [النحل:٢٥]

ومن قواعد الحساب: اطْلاعُ العبد على أعماله، وتقريره بها، وعدم استطاعته إنكار شيء منها، فيوقف اللهُ عبده بين يديه، ويُؤتى بأعماله حاضرة، فلا يستطيع إنكار شيءٍ، فيوقن بالهلاك إلا أن يناله عفو الله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف:٤٩]

(١) رواه أحمد والحاكم.

ومن قواعد الحساب: كثرةُ الشهود على العباد، فتشهد عليه الجوارح والأعضاء والملائكة والأرض وفوق ذلك يشهد الله عليهم.

ومن قواعد الحساب: كتابةُ الأعمال، فقد أحصى الكرامُ الكاتبون كل أعمال العباد، وكتبوها عليهم، وعند الله كتاب لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الإنفطار:١٢-١٣]

وحساب الله دقيق وسريع في قدرة لا مثيل لها، وعظمة لا شبيه لها، وعدل لا مُقارب له، وبراهين حق لا شك فيها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر:١٧] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧]

وسرعة حسابه دليل على عظمته، فهو مع كثرة الخلق وكثرة أعمالهم، وتباينها واختلافها إلا أنه قدير على الإحاطة بها، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١]

فكما ذكر عن سهولة الخلق والبعث بقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان:٢٨] فكذلك يُحسابهم كنفس واحدة .

- إذا أخذت حقَ أحدٍ فلا تعتبرها قوة منك وحذاقة، بل أيقن بما وراءها من تبِعات، وإذا تعديت على حقوق الآخرين، فتذكّر أنّ هناك مرجعًا ومآبًا للعباد، ووقوفًا بين يدي الحسيب الديّان ليُعطي كل ذي حق حقه لأنّه قد قضى أنّه لا يُظلم عنده أحدٌ ولو كان فاجراً، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام:٦٢]

وأخذ الحقوق ظُلماً -هنا- لا يُبيحها لأحد، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِه من بَعْض، فمَن قَضَيْتُ له بحَقِّ أَخِيهِ شيئًا بقَوْلِهِ: فإنَّما أقْطَعُ له قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فلا يَأْخُذْهَا»(١).

واعلم -أيّها المؤمن- بلقاء الله وحسابه أنّ الله قد جعل هناك أسباباً تُخفّف عن العبد الحساب، فمنها:

الخوف من ارتكاب الذنوب، فمن خاف الحساب لم يتجرأ على المعصية، وعمِل على النجاة ساعة الوقوف بين يدي ربه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]

فإذا استحضر الناصح لنفسه هذا الموقف استعدّ له.

ومن أسباب النجاة: لزوم الدعاء بأن يُخفّف الله عنك الحساب، ولا يُستقصي عليك به، ولذا كان من دعائه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللهمَّ حاسِبني حِسابًا يَسِيرًا»(٢).

ومن معاني اسم (الحسيب): الكافي؛ فهو يكفي عبدَه ما أهمّه من هموم وغموم وكروب، فيفرّج ضيقته، وينفّس كربه بحسب ما حقق من عبودية ربه تعالى، ومتابعة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ظاهراً وباطنًا، فكلما حقق العبدُ التوكل على الله تعالى بالمعنى الحقيقي كلما نال كفاية الله له في أموره كلها.

(حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) قالها إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين أُلقي في النار، فجَعَلَها اللهُ برداً وسلاماً عليه، وقالها محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحبُه الكرام يوم الأحزاب حين: ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أحمد.

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران:١٧٣] فكانت النتيجة: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤﴾ [آل عمران:١٧٤]

فأبدأ بها يومك لتُحفظ من كل شرٍّ وسوء، فـ(مَنْ قَالَ فِي كُلِّ يَوْمٍ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَفَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هَمَّهُ)(١).

فاجعلها سميرك في الملمات، وملجأك في المحن والكربات تجد ربًا لطيفًا مغيثًا قادراً على أن يُنقذك من كل كرب، ويُعافيك من كل نازلة، واملأ القلب ثقةً بقدرته، وتجرّد من النظر للمخلوقين، ولا تلتفت للأسباب تجد كفاية وتدبيراً لكل شؤونك.

وكفاية الله لعباده على نوعين:

كفاية عامة؛ بكفاية جميع خلقه ما يحتاجونه، وبما تقوم بهم حياتهم في الدنيا، وهي كفاية عظيمة لا يقوم لها وصف قد استوعبت الخليقة جميعًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾ [النساء:٨٦] أي: كافيًا.

النوع الثاني -وهي أشرفها-: الكفاية الخاصة.

وهي كفايته لأوليائه وأهل طاعته، كفايةً تصلح بها أمور دينهم ودنياهم.

---

(١) رواه أبو داود موقوفًا عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند جيد، قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: وهو في حكم المرفوع، لأن مثله لا يقال من جهة الرأي، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريج زاد المعاد: إسناده صحيح.

وكفايته متنوّعة، فيكفي طائفةً منهم معيشتهم الدنيوية ليتفرغوا لعبادته، ويكفيهم الهموم والغموم لتتفرغ عقولهم لنفع الأمّة بالعلم، ويكفيهم أعداءهم ويحفظهم من شرورهم في كفايات لا منتهى لها.

وفي استيعاب معرفة اسم: (الحسيب) بهذا المعنى سر السعادة في الدنيا، فتعرّف على عظيم كفايته، واستيقن بتحققها، وعلّق قلبك بربك، وتوكل عليه، واطْمئِنْ لكل أقداره وأقضيته، ولا تخف ظالمًا، ولا تخش فاجراً، وزدْ يقينك بكفايته، فنواصي العباد بيده، وأمورهم لا تخرج عن تدبيره.

ومن أسماء الله (الدَّيَّان) وهو: المحاسِب، المجازي لعباده كُلاً بعمله؛ جاء في الحديث: «أنّ الله يقول يوم القيامة: «أنا الملكُ، أنا الدَّيَّان..»»[(١)].

يخرج العبادُ من قبورهم، ويسيرون لأرض المحشر والحساب، فتتطاير الصحفُ فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله، ويُنادى على العبد أن هلم للعرض على الله، قد وكلت الملائكة بأخذه، لا يمنعها اشتباه الأسماء حتى توقفه ماثلاً بين يدي الله، وصحيفته في يده مُخبرةً بعمله، لا تُغادر بليَّة كتمها، ولا مُخبأة أسرها، ويقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الأسراء:١٤] فكم من بليّة نسيها صاحبها قد ذكّره إيّاها، وكم من سيئة قد أخفاها فيُظهرها الله له: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ [النور:٢٥] فمن أيقن بهذا الأمر استعدّ له أعظم استعداد بإحسان عمله، وتأدية الواجبات، وخاف من التعدي على الآخرين، وردّ المظالم لأهلها قبل أن لا يكون ثَمَّ إلا الحسنات والسيئات.

---

(١) رواه أحمد، قال الألباني: حديث صحيح.

فاللهم حاسبنا حساباً يسيراً، وعاملنا بفضلك وإحسانك وسترك، فأنت صاحب الفضل والجود.

اللهم عاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله، فإنّك أنت أهل التقوى وأهل المغفرة .

***

(٩٨) الحفي

من أسماء الله (الحفّي) أي: البَرّ اللطيف.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ يقول: لطيفًا.

قال في الوسيط في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ أي: بارًّا بي، كثير الإحسان إليّ.

يقال: فلان حفي بفلان حفاوة، إذا بالغ في إكرامه، واهتم بشأنه.

قال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - متذكراً إحسان ربه عليه على الدوام -: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم:٤٧] أي: رأيتُ من إنعام الله وفضله عليّ ما جعلني أطمع بفضله الذي لا حدّ له.

قال ابن قتيبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾: أي: (بارًّا عوَّدني منه الإجابة إذا دعوته)[١].

فاللهُ برٌ لطيف رحيم بعباده لا يمنع عنهم فضله بعَامّه، وإحسانه للصالحين من عباده لا مثيل له.

وحفاوة الله بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دليلٌ على كرامته عليه للمقامات العالية التي كان عليها، والعبوديات العظيمة التي قام بها، فقد حقق التوحيد في أعلى صوره، واستجاب لأمره في الهجرة إليه، والتضحية بفلذة كبده، وبناء بيته المُعظّم، ووفّى بما أمره به من الأوامر، وقام بطاعة ربه بأظهر صور الطاعات؛ وإخبار الله عن هذه

(١) [تفسير سورة إبراهيم للبغوي]

الحفاوة لخليله ليطمع بها كل مؤمن تقي.

وفيها دليل على تفاوت إكرام الله لعباده، وأنهم ليسوا بدرجة واحدة، فمنهم من يُكرَم إكراماً عظيماً حتى يبلغ درجة الخُلة، وهذا ما فاز به محمدٌ وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، ثم تأتي درجات الإكرام لعباده بحسب إيمانهم وتقواهم، وقيامهم بأمر ربهم -خصوصاً في قضية التوحيد، والعبودية التامّة، والتضحية الكاملة، والاستجابة العامة لأمره- .

وهذا الاحتفاء والإكرام من الله يجعل العبد يجتهد اجتهاداً كبيراً في طاعة ربه، ويسعى جهده في سبيل مرضاته، فقد قضى أنّه كلما زادت طاعة العبد زاد إكرام وحفاوة ربه له، -ويا سعادة روحك يوم يحتفي بك الله ويُكرمك-.

- تُصيب أحدُنا مصيبة وبلية فيظنّ أنّها مهلكته، وأنّ نهاية حياته ومستقبله بسببها، وتظلم الدنيا بوجهه، ويظنّ أنّ الأبواب قد سُدّت، ونوافذ الفرج قد أُغلقت، وكأنّما اجتمعت عليه مصائب أهل الأرض كلهم، وأحاطت به، فلا بارقة أمل تلوح في الأفق، ولا بادرة فرج تُنبئ بالقرب، فيأتيه اللهُ البَرُّ اللطيف الحفيّ، فيُفرّج همّه، وينفّس كربه، وتُفتح له أبواب الأمل، وتُشرع له بوادر الفرج.
- تأمّل في حياتِك كلِّها، فكم من أمرٍ صعب مرّ عليك فتسهّل.

  وكم من شِدةٍ زالت وذهبت وكأنّها لم تكن.

  وكم من همٍّ صرت تتذكره وتتعجب كيف انقضى.

  فاللهُ ربُّ العباد ومليكهم عوّدهم الإجابة، وغطّاهم بفضله وإحسانه، فلا أكرم منه عطاءً، ولا أسمَعَ منه دعاءً.

فهو يسمع نجوى المكروب، وأنين الموجوع، واستغاثة الملهوف، ويعلم حاجة عبده فيغيثه، ويُحقق له مطلوبه.

رأى منه عبادَه الخيرات بعددِ أنفاسهم، وعاشوا بفضله طيلة حياتهم.

ولكنّنا ننسى النعم الحاضرة، والفضل والإحسان الدائم الذي نحيا به، ولا نتذكر إلا النِعم الغائبة، والأماني التي لم تتحقق، ولو سبرنا حياتنا، وتتبعنا أحوالنا لوجدنا أنّ ما أُعطينا أكثر بكثير ممّا حُرمنا، وما رُزقنا أضعاف أضعاف ما غاب عنّا، فسبحانه من ربٍّ كريم جواد واسع.

فأحسن الظنّ به، وكن كثير الدعاء له، وأمّل به خيراً، فما تعوّد منه العباد إلا كل خير، فاللهم أعطنا من الخير فوق ما نُؤمل، واصرف عنّا من الشر فوق ما نحذر، وعاملنا بفضلك وإحسانك، وأنت صاحب الفضل والإحسان.

❊❊❊

(٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١) القادر - القدير - المقتدر

من أسماء الله: (القادر، والقدير،والمقتدر)

وقد ورد اسم (القادر) في كتاب الله ثنتي عشرة مرة، وورد اسم (القدير) خمسًا وأربعين مرة، وورد اسم (المقتدر) أربع مرات.

* فهـو: ((القـادر) على كلِّ شـيء، فإذا أراد فعل شـيء لم يمنعـه مانع، أو يُعارضه مُعارض)

* وهو: («القدير»: الذي لا يعترضه عجزٌ ولا فتور، ولا يفوته مطلوب)

* وهو: («المقتدر»: التامُّ القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء، ولا يلابس قدرته عجز بوجه)

ومن تأمّل في الكون وما فيه من مخلوقات أيقن بعظيم قدرة الله؛ فبعظيم قدرته خلقهم بهذه الأعداد الهائلة، وأوجدهم من العدم.

وبقدرتـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوّع خلقهـم، فاختلفت أشـكالهم وصورهم وألوانهم ولغاتهـم وطباعهـم، ويزيد في خلق بعضهم ما يشـاء من القوة، وحُسـن الصورة، وزيادة الأعضاء، وبقدرته خَلَق الإنسـان من ماء مهين، ثم نشر منه الذرية، وجعل له بنين وحفدة.

وبقدرته يخلق ما يشاء، كيف شاء، وقت ما يشاء، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ [الروم:٥٤]

وبقدرته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يرزقهم مع كثرتهم، وتباين حاجتهم للأرزاق المتنوّعة، فمنهم من يحتاج لرزق الطعام والشراب، ومنهم من يحتاج لرزق الصحة العافية، ومنهم يحتاج لرزق الزوجة، ومنهم من يحتاج لرزق الولد ..... في حوائج لا تنتهي، ولكنّ الله يرزقهم جميعًا بغير حساب.

وبقدرته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى نوّع في رزق عبده من الأولاد، فيهبُ بعضَ عباده إناثًا، ويهب بعضَهم الذكور، ويرزق بعضَهم النوعين، ويجعل من يشاء عقيمًا، فقدرته فيهم ماضية، ومشيئته نافذة، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠] فسلْ ربك كل مطلوب فإنّما تسأل إلهًا قديراً، ولا تحزن إن فاتك رزقٌ كنتَ تتمناه، فإنّما منعه عنك حكمة وتدبيراً لا بخلاً وعجزاً، وأقم على طاعته، فلعلك أوتيتَ من قِبل نفسك، وتقصيرك في جنبه.

وبقدرته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى خلق السموات والأرض على غير مثال سابق، بإتقان وإحكام من غير تعب ولا نصب، وخلق فيها من المخلوقات ما لا يعلمه إلا هو -كَثْرةً ونوعًا-.

وبقدرته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أنزل المطر من السماء، فأنبت به الزروع والثمار، وجعله مادة الحياة للمخلوقات كلها.

وبقدرته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يطوي السموات والأرض يوم القيامة، وتكون في يده كحبة خردل في يد أحدنا، ويُغيّر أحوال العالم العلوي والسفلي بقدرة لا مثيل لها.

وبقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحيي الموتى، ويجمع بين الأرواح والأجساد في صعيد واحد، ويجمع بين العامل وعمله، ويحاسب الخلائق جميعًا على اختلاف وتباين أعمالهم بعدل تام لا ظلم فيه أبداً، وهي قدرة عظيمة لا يستطيع أحدٌ أن يستحضرها على الحقيقة.

وبقدرته يُقيمُ الساعة في لمح البصر، ويُخرج هذه الأعداد الهائلة من قبورهم، فلا يستطيع أحدٌ منهم أن يتخلّف عن هذا الأمر، ويسيّرهم لأرض المحشر بهيئة عجيبة غير معهودة عند البشر، فمنهم من يمشي على وجهه، ومنهم من يحشره أعمى وأصم في قدرة عظيمة تدلّ على نفاذ أمره، أخرج الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ ثلاثةَ أصنافٍ: صنفًا مشاةً، وصنفًا رُكبانًا، وصنفًا على وجوهِهم، قيلَ: يا رسولَ اللهِ، وَكيفَ يمشونَ على وجوهِهم؟ قالَ: إنَّ الَّذي أمشاهم على أقدامِهم قادرٌ على أن يمشيَهم على وجوهِهم، أما إنَّهم يتَّقونَ بوجوهِهم كلَّ حدَبٍ وشوْكَةٍ»[1].

ومنهم من يحشرهم كأمثال الذرّ -صَغَاراً وذِلةً- لتكبرهم وظلمهم، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذُل من كل مكان»[2].

وهو القدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على إكرام المؤمنين بالعطاء المقيم المتنوّع في جنّات النعيم، وهم بأعداد لا حصر لها، وبنعيم لا ينقطع، فسبحان القدير المقتدر على سعة هذا الفضل، فنسأله من فضله الواسع.

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه الترمذي.

وهـو القديـر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الـذي قهر أعـداءه بما أنـزل عليهم مـن العقوبات المتنوّعة، فمنهم من أرسـل عليه الصيحة فأبادتهم عن بكرتهم، ومنهم من خسف بهم الأرض فذهبوا في قعرها، وحلّ بهم العذاب الأبدي، ومنهم مَنْ أرسل عليهم حجـارة من السـماء فأهلكتهم ولم تُبق منهـم أحدًا، ومنهم مـن أغرقهم وذهبت أرواحهـم إلى الجحيم الخالد ... في أنواع من العقوبات لم يسـتطيعوا ردها، وفي قوة ظاهرة بيّنت كمال قدرته وعجزهم.

وهو القدير: المُقدّر للأشياء كلها بعلم وحكمة وتدبير وكمال مطلق، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان:٢]

فالله «قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»(١). كما صحّ بذلك الحديث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عند الإمام مسلم.

فنم قرير العين فمـا أخطأك لم يكن ليُصيبك، وما أصابك لم يكن ليُخطئك، فلِما التضجر من الأقدار، فقد قُضي كلُّ شيء؟!

قـدّر خلق بني آدم في مراحـل متعددة، نطفة ثمّ عقلة ثـمّ مضغة ثمّ عظامًا ثمّ لحمـًا ثـم يُخرجه طفلاً ضعيفًا لا يملك لنفسـه حولاً ولا قوة، ولا يسـتطيع دفع الضر عن نفسه ولا يجلب لها رزقًا ثم يشبّ ويقوى ثم يهرم إن طال به العمر حتى يرجع إلى ربه وقد استوفى رزقه وأجله.

وهـو الـذي قدّر الآجـال، فأطال عمـر هذا، وقصّـر عمـر ذاك، في انفراد تام لهذا الأمر الذي هو أعظم ما يحرص عليه الإنسـان، ولكنّ الله جعله لنفسـه فقط،

---

(١) رواه مسلم

فجميع بنو آدم يعجزون عن إطالة عمر أعزّ عزيز عليهم، أو ردّ الموت عنهم أو عن أحبابهم ولكنّ (القدير) إذا أراد شيئًا لم يقف أمام إرادته شيء.

وهو (القدير) الذي قدّر الهداية والضلالة، فيهدي من يشاء بفضله، ويُضلّ من يشاء بعدله، وقضية الهداية والضلالة أشغلت عقول الكثير، ومن نظر لها بإنصاف وجد عدل الله فيها ظاهراً، فهو لا يُعذّب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة، فلذا أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وهدى الإنسان لمعرفة الحق والباطل، وجعل له القدرة على اتخاذ القرار لا يُنكر هذا إلا مُكابر، فلا وجه للمحتجين بالقدر على الضلالة، فمن قال أنّه خُلق ضالاً يُقال له من أين لك العلم بهذا ؟ وسيَحار جوابًا.

بل عليه -لو عقل- أن يُقدّر أنّه مهتد ويسير في طريق الهداية لأنّ المغامرة في هذا الأمر مغامرة خطيرة، فالمصير إمّا جنة وإمّا نار، وقد أخبر الله في كتابه باعتراف أهل النار بذنوبهم وضلالهم واستحقاقهم دخولها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠-١١]

فحذار حذار من اتّباع شياطين الإنس والجنّ في هذا، فإنّك لا تملك أغلى من نفسك، والمآل لمن كفر أو عصى نار الجحيم.

ولئن أعطاك اللهُ القدرة على من تحت يدك من زوجة وولد وعامل وخادم، ومكّنك منهم -ابتلاء وامتحانًا- فراقب الله فيهم، ولا تجعل قدرتك وبالاً عليك، فاحذر من ظلمهم، فالله حرّم الظلم على العالمين.

وهو: (القدير) على تقليب القلوب من الضلالة إلى الهداية، ومن الهدى إلى الضلالة، فبينما ترى الرجل في غاية الضلالة والانحراف، وإذ به قد اهتدى، بل

وصــار إمامًا في الهدى، وبينما ترى الرجل لا يفارق المســجد وليس هناك ســهم مــن أعمال الخير إلا وقد ضرب فيه، بل صار إمامًا بين الخلق في الجدِّ والاجتهاد في أعمال البر والنفع المتعدي، وإذ به ينحرف وكأنّه ما ركع يومًا لربه ولا ســجد، ذلك أنّ القلوب بيد الله وهو على كل شيء قدير.

والتحوّل له أســبابه المذكورة في مظانها، ولكن ذكرتها هنا لنعلم عظيم قدرة الله على كلِّ شيء.

وهــو (القدير، القادر) على خلق الجنّــة وجعل فيها من النعيم الدائم الذي لا ينقطع لا يزول ولا يحول في قدرة عظيمة.

وهو (القدير) على أن يُعذّب من شاء من عباده، وهم خلقٌ لا يعلمهم إلا الله، ويجعل هذا العذاب مقيمًا عليهم لا ينقطع، فنسأله العافية وقد آمنا بقدرته هذه.

فاللهم اهد قلوبنا، ونوّرنا بصرنا، وارزقنا الخير كله، واصرف عنّا الشــر كله وأنت على كل شيء قدير.

اللهم اهدنا وثبّتنا على الحق حتى نلقاك يا أرحم الراحمين.

❋❋❋

(١٠٢ ، ١٠٣) الحافظ، الحفيظ

وورد اسم (الحفيظ) في كتاب الله ثلاث مرات، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾ [هود:٥٧]

أمّا اسم (الحافظ) فورد مرة واحدة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾ [يوسف:٦٤]

وشواهد حفظ الله ظاهرة، وبراهين عظمته بيّنة، ودلائل كماله المطلق يعجز أن يدركه أحد، وعلمه محيط بكل شيء، وقدرته شاملة لا حدّ لها.

فمن تمام حفظه: حفظه للكون ومن فيه، وقدرته على ذلك دون أدنى عجز، فمع سعة هذا الكون الذي لا يعلم مداه إلا الله، ولم يظهر لنا من علمه إلا بما أذن به إلا أنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحفظه من الاضطراب بقدرةٍ تامّة كاملة.

تأمّل في حفظه للسماء مع سعتها وارتفاعها وكبر حجمها، وكيف ثبّتها بلا عمد، وحفظها من أن تسقط على الأرض، وحفظها من كل اضطراب أو خلل، وحفظها من استراق السمع لأوامره، فاللهُ يقضي بالأمر فتسمعه الملائكةُ، وتحاول الشياطينُ سماعه ليلقونه على أوليائهم من الإنس والجنّ من السحرة والكهنة ولكنّ الله قد جعلها سقفا محفوظًا بعد بعثة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تنالها الشياطين ولا يسترق سمعها مارد.

وتأمّل في حفظه للأرض، وكيف جعلها ساكنة ثابتة لا تميد بسكانها ولا تتزلزل، فاستقرت بحفظ الله لها.

وتأمّل كيف حفظ البحار والأنهار والكواكب التي نراها ولا نراها والتي حجمها أضعاف أضعاف حجم الأرض، وكل ذلك الحفظ من غير أن يُثقله أو يعجزه.

قال الخطابي: ((«الحفيظ»: الذي يحفظ على الخلق أعمالهم، ويحصي عليهم أقوالهم، ويعلم نياتهم، وما تكن صدورهم، والذي يحفظ أولياءه من الذنوب والشياطين))(١).

فهو حفيظ لأعمال العباد؛ وهنا يُذعن العبد لعظمته، وقدرته التي لا مثيل لها، والدالة على كماله وكمال صفاته في هذا الحفظ، فهو حِفْظٌ دون إدراك حقيقته مفاوز، ومحاولة معرفة كنهه أمر مُحال، ذلك أنّه يدل على قدرة عظيمة، قال سبحانه -في بيان هذا الحفظ الشامل-: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ:٢١] وتأمّل العموم الدالّ عليه كلمة (كُلّ) فهي تعم كل شيء.

وحِفظَها كلها في كتاب لا يمكن لأحد أن يُغيّره أو يُبدله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾ [ق:٤]

فحِفْظه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ محيطٌ بجميع الأعمال، وقد كتب كل ذلك في اللوح المحفوظ، ووكّل بالعباد ملائكة كرامًا كاتبين حتى لا يكون للعباد حجة، وهذا الحِفظ يقتضي علم الله بأحوال العباد كلها ظاهرها وباطنها، وكمالها ونقصها، ومقادير جزائها في الثواب والعقاب ثم مجازاتهم عليها بفضله وعدله.

وهو الحافظُ لعباده المؤمنين من جميع ما يكرهون، فيحفظهم في أنفسهم، ويدفع عنهم الشرور، ويحميهم من الأعداء بطرق خفية لا تُدرك.

---

(١) [شأن الدعاء:٦٧]

انظر كيف سعى كفّار قريش في التخلّص من نبي الأمّة عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠] ولكنّ الله سلّمه من شرهم وحفِظه بقدرة عجيبة.

بل استمرت محاولات الكفّار في السعي بقتله وإلحاق الأذى به، ولكنّ حماية الله كانت ترعاه، وحفظه له كان أقوى من تدبيرهم ومكرهم؛ ذلك أنّ اللهَ حفيظٌ رحيم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]

وهكذا ورثة إبليس وأعوانه يسعون دومـًا في كل زمان في الكيد لأتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ويمكرون بهم، ويسعون في أذيتهم ولكنّ الله حافظٌ لأوليائه، ورعايته تكلؤهم، وعينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تحرسهم فلا يصلون إليهم، ولئن قدروا عليهم في فترة من الفترات، فإنّها إدالة غير دائمة بل هو ابتلاء وتمحيص، فإنّ مكرهم سيبور، وسعيهم سيخيب لأنّ رعاية الله تحفظهم.

ومن حفظه لأوليائه: تسخير الكون لهم، وحفظهم بطرق عجيبة فوق تقادير البشر، فحفظ اللهُ نبيّه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث سخّر له البحر والتابوت في طفولته، وحفظ نبيه يونس عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وهو في بطن الحوت.

وأمّا حفظه لنبيه يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فعجب عجاب، فقد ذكر حفظه له من كيد إخوته، وحفظه من الهلاك في البئر، وحفظه من فتنة امرأة العزيز، وحفظه وهو في السجن، وحفظه من فتنة الملك، فلم يزل يحفظه حتى أتمّ عليه نعمته، فأخبر عن هذا الحفظ ليطمئن المؤمنُ بحفظ الله له، وكلما زاد العبدُ إيمانـًا وتقوى كانت رعاية الله له أتمّ وأعظم.

ومن أنواع الحفظ العظيم: حفظ الله لعبده في دينه، فيحفظه عمّا يُضلّه من فتن الشبهات والشهوات، فيعافيه منها ويسلمه من شرها، ويحفظه عمّا يضر إيمانه أو يزلزل يقينه، ويحفظه من الوقوع في السيئات وفعلها، وعصمته منها، ويحرسه من مكائد الشيطان فيسلم من فتنته وشرِّه.

ومن حفظه لعبده: أن يحفظه بملائكته فيُحيطون به من جميع جوانبه إلى أن يأتي أمر الله وقضائه، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [سورة الرعد:١١]

ومن حفظه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: حفظه لكتابه، فالله تعهّد بحفظه، ولم يُوكله لأحد من العباد، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر:٩]

ومرّت أكثر من ألف وأربعمائة وأربعين سنة ولم يستطع أحد تبديله أو تحريفه، ولن يستطيع لأنّه محفوظ بحفظ الله تعالى له.

ومن حفظه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: حفظه لسُنّة نبيه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعلماء جهابذة، ميّزوا صحيحها من سقيمها، ونقوها من كل دَخَل وخطأ، حتى صار علم الجرح والتعديل وعلل الحديث مفخرة من مفاخر الأمّة، وشامّة في جبين علمائها لم يسبقهم إليه أحد، ولا يُدركهم به من بعدهم، وصارت أحاديث نبي الأمّة عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ غضة طرية وكأنّه تحدّث بها الساعة بأبي هو وأمّي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كلُ ذلك بحفظ الله لها، وما سخره من هؤلاء العلماء الجهابذة جزاهم الله عن سُنّة نبيه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خير الجزاء.

ومن حفظه سبحانه: حفظه لدينه؛ فانظر إلى أعداء الإسلام كم حاولوا إبطال هذا الدين، وحربه ليُطفئوا نوره، ويصدوا الناس عن اتّباعه، فإذا به ينتشر انتشاراً

عظيمـًا، ويدخـل الناس فيه أفواجًا، ويخيب سـعي أعدائه، فيبقى دينُ الإسـلام شامخًا ويخيب كيد كل عدو.

ومن حفظه سـبحانه: حفظه لبيته الحرام من الجبابرة والأعداء الذين حاولوا هدمه وإزالته، ومحوه عن ظهر الأرض، فإذا البيت يبقى شـامخًا محفوظًا بحفظ الله تعالى له، فهو البيت العتيق منهم ومن جرمهم ومن تعديهم.

ومن أراد حفظ الله له فعليه بحفظ ربه في أوامره بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، وحـدوده بعدم تعدِّيهـا، ففي وصية رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهي له وللأمة من بعده: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ...»[1].

وكلما زاد العبدُ صلاحـًا زاد حفظ الله له.

ومن قرأ آية الكرسي كل ليلة لم يزل عليه من الله حافظًا.

وذكر الله على الدوام حفظ من كل الشرور.

ولزوم الدعاء على الدوام سبب عظيم لحفظ الله لعبده.

فاللهم احفظنا بحفظك، واكلأنا برعايتك يا أرحم الراحمين.

❋❋❋

(١) رواه الترمذي

(١٠٤) المنّان

وورد هذا الاسم في السُّنّة، ففي سنن أبي داود، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه كان مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل يصلي، ثم دعا، فقال الرجل: «اللَّهمَّ إني أَسأَلُكَ بأنَّ لَكَ الحمدَ، لا إلهَ إلا أنْتَ، المَنَّانُ، بَديعُ السَّمواتِ والأرضِ، ذو الجَلالِ والإِكْرَام، يا حَيُّ يا قَيُّومُ، فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحَابِهِ: أتَدرونَ بِمَ دَعَا ؟ قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلم، قال: والذي نفسي بيده، لَقَدْ دَعا اللهَ باسمه الأعظم، الذي إِذَا دُعِيَ به أَجَابَ، وإِذَا سُئِلَ بِهِ أعْطَى»[(١)].

فاللهُ منّان كريم، كثيرُ العطاء والجود.

والمنّانُ هو: كثيرُ المواهب والعطاء، فلا نهاية لتوسعته وفضله وإحسانه؛ يوالي نِعَمه على عباده بعدد أنفاسِهم، وفي جميع أحوالهم.

يبدأ بالنعم قبل استحقاقها، ويتابع بالعطاء دون انقطاع، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (والمنّان: الذي يجود بالنوال قبل السؤال)[(٢)].

منّ على عباده بإحسانه وإنعامه ورزقه، فأعطاهم الحياة والعقل والنطق، وصوّر فأحسن الصور، وأنعم فأجزل، وأسنى النّعم، وأكثر المنح، وهو الذي ينعم غير فاخر بالإنعام، فله المنّة على عباده، ولا منّة لأحد منهم عليه.

ومنّة الله على عباده متنوّعة ومتعددة، فمنها: مِنّة الخلق والإيجاد، ومِنّة توالي النعم، ومِنّة الهداية للإسلام وشرائعه، ومِنّة الستر والعفو، ومِنّة المغفرة للذنوب،

(١) رواه أبو داود

(٢) [كتاب النبوات:١/ ٧٨]

وغيرها من المنن التي لا حصر لها.

ومِنّة الخلق والإيجاد قلّما يتفطنّ لها المسلم، فهو إذا تذكّر أنّ مصيره الجنّة -بإذن الله- إذا استقام وأناب ورحمه ربُه، فرِح بهذه المنّة، وسأل ربَه إتمامها بالتوفيق للعمل الصالح، ونيل رضاه والفوز بجنته، فما ينتظره أهل رضاه من العطايا هو أعظم أنواع النعيم، فاللهم أتمم علينا فضلك.

(وهو المنّانُ الذي شهدت الخليقةُ كلها بَرُّها وفاجرُها بإحسانه وعظيم نواله، وكريم أياديه، وجميل صنائعه، وسعة رحمته، وبِرّه ولطفه، وإجابته لدعوات المضطرين، وكشف كربات المكروبين، وإغاثة الملهوفين، ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها، وصرفِها بعد وقوعها، ولُطْفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، كل ذلك تفضلاً منه وتكرمًا)

وهذه المنن أوجبها الله على نفسه -تكرمًا منه وفضلاً- وجعلها حقًا عليه -رحمة منه وجوداً- ولم يوجبها أحدٌ عليه.

والمِنّةُ المطلقة لله وحده، ولذا قال الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بعدما ذكّرهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنة الله عليهم، قالوا: (اللهُ ورسولُه أمنّ)[١].

وأعظم المنن: الهداية للإسلام، فمنّ الله على طائفة من خلقه، فهداهم للإسلام من غير طلب منهم، بل خرجوا للدنيا ووجدوا أنفسهم مسلمين من بين مليارات البشر وهذه -لعمر الله- خير العطايا، وأعظم المنن، وهي محض فضل الله الكريم.

---

(١) رواه البخاري.

فصاروا من أهل التوحيد، وانشرحت صدورُهم له، ونزلت السكينةُ في قلوبهم وهم يتذكرون فضل الله عليهم بهذه المنة، وبغّض إليهم الشرك وأهله وأعمالهم، فكانت هذه أعظم المنن عليهم.

ومنّ على هذه الأمة: **ببعثة رسوله ﷺ لهم،** فاصطفى لهم خيرة رسله، وأشرف خلقه، فجعله رسولهم ونبيهم، وشرّفهم بالنسبة إليه فصار كل واحد منهم يُنسب إلى أمّة محمد ﷺ، وهذا شرف منيف لهم، وسينالون من بركات هديه في الدنيا والآخرة ما تقرّ به أعينهم، ففي الدنيا ينالون ببركة اتِّباعه إصابة الهدى بالعبادة، واتّباع الطريق الصحيح، والفوز بالأجر العظيم، أمّا في الآخرة فينالون الرفعة في الجنّة، فقد ورد أنّه يشفع لطائفة من أمّته لبلوغ الدرجات العلى فيها.

ومنّ على المؤمنين منهم -خاصّة- **فحبّب إليهم الإيمان، وزيّنه في قلوبهم،** فأصبحوا يحبون الطاعات ومواطنها وأزمانها، فمنّ عليهم بحبِّ الصلاة والتلاوة والذكر والصدقة والصيام ونحوها من القربات.

ومنّ عليهم بحبِّ مواطن الطاعات الفاضلة فصار بيت الله لهم مثابةً لأفئدتهم، وموطن شوقهم فينفقون الأموال، ويفرّغون الأوقات ليصلوا إليه، وكذا قصْد مسجد نبيه ﷺ، وتتوق نفوسهم دومًا لبيوت الله، ومواطن العلم والخير.

ومنّ عليهم بحبِّ الأزمنة الفاضلة كرمضان وعشر ذي الحجة ونحوها، فيسألون ربهم بلوغها، ويجتهدون فيها لعلمهم بفضلها ومضاعفة الحسنات فيها.

ومنّ على بعضهم بحبِّ نفع الناس وبذل الخير لهم، فيصرفون أوقاتهم وأموالهم وجاههم وشفاعتهم لهم ودلالتهم على الخير.

ويمنّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على المستضعفين بالنصرة والتأييد مع قلة حيلتهم، وقوة عدوّهم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ [الصافات: ١١٤ - ١١٨]

ومنّ على الصحابة رضوان الله عليهم بصحبة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففازوا بشرف الصحبة، والتمتّع برؤيته، والجلوس بين يديه، والجهاد معه، ونصرته فكانت لهم الأجور العظيمة، والمنزلة الرفيعة، وهي مِنّة لن يدركها أحدٌ بعدهم.

ويمنّ على بعض عباده من هذه الأمّة فيكونوا قادة في الخير في مجالات شتى، فمنهم من يمنّ الله عليهم بحبّ العلم وبثّه، ومنهم من يمنّ عليهم بالجهاد ونشر الإسلام، ومنهم من يمنّ عليهم بخدمة المسلمين والسعي لسدّ حوائجهم، ومنهم من يمنّ الله عليهم بالعبادات القاصرة وغير ذلك من المنن التي يمنّ الله بها على من شاء من عباده، فاللهم لا تحرمنا خير ما عندك بسوء ما عندنا.

وأعظم منن الله على عباده المؤمنين أن يُدخلهم جنّته فيفوزون الفوز العظيم وهي أعلى المنن، فالفوز بالجنة يعني النعيم الأبدي السرمدي الذي لا يحول ولا يزول، وهو يقتضي النجاة من النار والعذاب الشديد، ولو أفنى المرء عمره لأجل شكر هذه المنة لكان قليلاً بجانبه، ولذا أثنى المؤمنون على ربهم بهذا المنّة العظيمة، وشكروه على هذا الفضل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٧ - ٢٨]

ودخـول الجنـة في حقيقته محض فضل مـن الله وحده؛ فالله هـو الذي خلق العبد، وأوجده من العدم لينال هذا النعيم، وهو الذي هداه، وهو الذي خلق الجنة، وجعـل فيها من أنواع النعيم ما تطيب معه الإقامة، وهـو الذي منّ عليه بدخولها، ومـنّ عليهـم بالخلود، ومنّ بالقـوة والقدرة على التلذذ فيها، فصـارت المنّة أولاً وآخـراً، وظاهراً وباطنًا لله وحده لا شـريك، فله المنّـة الكاملة، والفضل المطلق السابغ.

فمن كان هذا وصف مِننه، وهذه كثرة عطاياه اسـتحق العبادة دون سواه، ولو أمضى المرء عمره ذاكراً له شاكراً لأنعمه لَما وفّاه عُشر معشار منّته.

ومـن عـرف ربه بصفة المـنّ علـى الحقيقة علّق قلبَـه بـه، وتـوكل عليه حق التـوكل، فالنِعم كلها منـه، وأزمّة الفضائل بيده دون سـواه، فلماذا تتعلّق القلوب بغيره، ولِما يُسند الفضل لسواه؟!

ومن استحضر هذه المنن على الدوام أحبّ ربه الحب المطلق الكامل، وتلذذ بهذه المحبة التي لا مثيل لها في الدنيا.

فاللهم امنن علينا بفضلك يا رحيم.

❊❊❊

(١٠٥) المحيط

من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (المحيطُ) وجاء ذكره في كتاب الله ثمان مرات.

وهو: الذي أحاط بكل شيء علمًا فلا يخرج عن علمه شيء، وأحاطت قدرته بجميع خلقه فلا يمكن لشيء أن يخرج عن إرادته، وأحصى كل شيء عدداً.

أحاط سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالكون كله إحاطةً كاملة شاملة بتولي أموره، وتدبير شؤونه، وأشار إلى ذلك بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ۝١٢٦﴾ [النساء:١٢٦]

وأحاط بكل أعمال الإنس والجنّ والملائكة، وبكل موجود وغائب، ومهما حاول العبد أن يستخفي من الله فلن يستطيع إلى ذلك سبيلاً، غلبت قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على حيلهم، وأحاط علمه بمكرهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٨﴾ [النساء:١٠٨]

وإحاطة الله عامّة بجميع أنواعها: (عِلْمًا، ومُلْكًا، وقُدْرةً، وقَهْرًا، ورَحْمَةً، ولُطْفًا)

فأحاط بخلقه (علمًا) فلا يغيب عنه شيء من أمرهم؛ إحاطةً يعلم بها ظواهر الأمور وبواطنها، جليها وخفيها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ [الطلاق:١٢]

فأحاط سمعه بجميع المسموعات، فيسمع النجوى والعلانية، والسر وما أخفى.

وأحاط بصـره بجميع الموجـودات دقيقها وجليلها صغيرهـا وكبيرها، قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والإحاطة بالشـيء علمًا هو: أن يعلم وجوده، وجنسه، وقَدْره، وكيفيتـه، وغرضه المقصود به وبإيجاده، وما يكون به ومنه، وذلك ليس يكون إلا لله)[1] فأحاط سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بكل أمور البرايا، وبالأعمال والنوايا، والأقوال والخفايا.

وإحاطتـه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ (إحاطـة ملـك) فقـد أحاط بالسـموات ومـا فيها من أجرام ومخلوقات هائلة وشمس وقمر، وكواكب سيّارة وثابتة، فكلها تحت أمره وسلطانه لا يخرج شيء منها عن إرادته وتدبيره، فسبحان الملك المحيط.

وأحاط بالعباد (قدْرة) فهو على كلِّ شيء قدير، ولا يعجزه شيء من أمرهم، تجبّر أقوامٌ وعتوا وطغوا فأهلكهم، ولم يستطع أحدٌ منهم الفرار من عذابه ونكاله.

وأحـاط سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالكافرين، قـال ابن جرير عند قولـه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [البقرة: ١٩] أي: (جامعهم فمُحلٌّ بهم عقوبته)[2].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [آل عمران: ١٢٠] (إنّ الله بمـا يعمـل هؤلاء الكفـار في عباده وبلاده من الفسـاد والصد عن سـبيله، والعـداوة لأهـل دينه وغير ذلك مـن معاصي، فـالله محيط بجميعـه حافظ له، لا يعزب عنه شـيء حتـى يوفيهم جزاءهم على ذلـك كله، ويذيقهـم عقوبته عليه) انتهى كلامه.

فلا تغتر بجمعهم، ولا تظنّ ظن السوء بربك، فتدبير الأمور له وحده.

(١) (المفردات للراغب:٢٦٥/ ١)
(٢) [تفسير ابن جرير الطبري]

وبكمال قدرته أحاط بالعباد، فلا يستطيع أحدٌ منهم الهروب منه؛ وهي صفة قد تفرّد بها فلا يُشاركه فيها مُشارك، قال الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنها «المحيط» ومعناه: الذي لا يقدر على الفرار منه، وهذه الصفة ليست حقًا إلا لله جل ثناؤه، وهي راجعة إلى كمال العلم والقدرة، وانتفاء الغفلة والعجز عنه)(١).

وهذا الإحاطة أظهر ما تكون يوم يجمع الخلق ليوم القيامة، ويحشر هذه الأعداد الهائلة فلا يفوت منهم أحد، ويكونون طوْع أمره وقوته وقدرته في قدرة عجيبة يقف أمامها كل واصف عن أن يُقارب حقيقتها، فسبحان من جمع تلك الأجساد في موقف واحد وكان حسابهم عليه يسير وسريع، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾ [البروج:٢٠]

وأحاط بالعباد (قهراً) فهم تحت قهره وسلطانه وفي قبضته، فلا يفوته أحد، ولا يخرج عن إرادته وأمره مخلوق.

فمِن قوته وقهره أنّه إذا اجتمع قومٌ على معصية، ونزل عذابه بهم أحاط بهم، فلم يستطع أن يفلت منهم أحد؛ وانظر لعذابه لمّا نزل بقوم نوح فلم يبق منهم ديّاراً، وأبادهم كلهم وجعلهم لمن خلفهم آية.

ولمّا خرج فرعون متغطرساً بجنوده، ونادى في أتباعه وحشرهم فلم يُبق منهم أحداً، فلمّا نزل بهم العذاب أُغرقوا جميعهم، وأحاط بهم الهلاك، ولم تنج منهم نفْس، وذهبت الأرواح للجحيم، وخسروا خسراناً لا ربح معه البتة، وهكذا في كل عذاب ينزل على القرى الظالمة فإنّه يحيط بهم، ولا ينجو منهم إلا من كتب الله له النجاة.

(١) [المنهاج في شعب الإيمان:١/ ١٩٧-١٩٨]

ولقد سلّى اللهُ نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بأنّه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قد أحاط بالنّاس، قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء:٦٠] فتدبيرهم ومكرهم وعزائمهم كلها تحت أمر الله ليُعلّق قلبُه بالله المحيط بهم، ولا يكترث بقوتهم التي غرتهم، فهي تحت سلطان الله وقوته.

وسلّى أتباعه بأنّه محيط بأعدائهم، فهو معهم، ولن يسلطهم عليهم بشرط لزوم الصبر والتقوى، قال سبحانه: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [آل عمران:١٢٠]

فطب نفسًا أيها المؤمن، واطمئن فؤاداً أيّها التقي، فقد أحاط الله بأعدائك ونواصيهم بيده.

ولمّا ذكر اللهُ النّارَ وما فيها من عذاب ونكال، بيّن أنّ هذا العذاب قد أحاط بأهلها -أجارنا اللهُ منها- فلا يجدون معه راحة، ولا ينجو منه جزءٌ من أجزاء جسدهم، وفي هذا تحذير من إقحام النفس فيها، قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ [الكهف:٢٩]

وعلى المؤمن أن يوقن بإحاطة ربه به، وبعمله وبحاله ونيّته، فمتى ما استحضر المؤمن ذلك زادت مراقبته لربه، وزاد خوفه منه، فلا يقتحم المعصية، ولا يجروء على الذنب، ولا يسكن في قلبه إلا كل نية طيبة، وتراه حريصًا على تطهيره من كل خلق دنيء لأنّه يستحي أن يطلّع عليه ربُه المحيط به وبحاله.

وهـذا هو الإيمان النافـع لصاحبه، الحامل له على مراقبـة ربه، فيحجمه عن الجراءة على معصيته، فليس شـيء أنفع للقلب منه، وليس شـيء أسوق للعبد في سيره إلى الله كسوط الخوف منه.

فاللهم ارزقنا تعظيمك حق التعظيم، والإيمان بك حق الإيمان.

❊❊❊

(١٠٦) الحليم

ومن أسماء الله (الحليم) وجاء ذكره في كتابه أحد عشرة مرة، وهو: ذو الصفح والإمهال الذي لا يعجل بالعقوبة لمن استحقها بل يمهل ويصبر.

تأمّل في حلمه وصبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على من آذاه وقال -ظلمًا- أنّ له ولداً، أو جاء بقولٍ إدّاً، فقال عنه أنّه فقير، أو وصفه أنّه قد تَعِب -تعالى الله عن أقوالهم- ومع ذا أمهلهم جميعًا، بل وتاب على طائفة منهم.

وتأمّل في حلمه وصبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على معصية العاصين، والمتعدّين على حدوده، والمتجرئين على حرماته، والمتكبّرين على طاعته، والمستنكفين عن أوامره -مع كثرتهم وكثرة ذنوبهم- ومع ذا يرزقهم كما يرزق المؤمنين، ويعافيهم كما يُعافي أولياءه، ويسترهم ويمدهم بالصحة والعافية والمال وسائر الأرزاق، ولا يحبس أنعامه وأفضاله عنهم لأجل ذنوبهم، بل ويُبقي ذلك العاصي وهو منهمك في معاصيه كما يُبقي البر التقي، ويقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره -فضلاً عن أن يدعوه- كما يقيها الناسك الذي يسأله وربما شغلته العبادة عن المسألة، قال الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهو الحليم: الذي لا يحبس أنعامه وأفضاله على عباده لأجل ذنوبهم، ولكن يرزق العاصي كما يرزق المطيع وهو منهمك في معاصيه)[١].

وتأمّل في صبره وحلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على من آذى أولياءه والمستضعفين من عباده، فحِلْمُه وسع هؤلاء وغيرهم وهو حِلْمٌ لا حصر له، فقد منع عنهم عقوبته

(١) [الأسماء والصفات للبيهقي: ٧٢-٧٣]

أن تحل بهم، فيمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة لعلهم يتوبون إليه، ويُنيبون ويعودون لربهم.

وحِلْمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن قوة كاملة، وعفوه عن إرادة لا مُكرِه له معها، فهو ليس عن عجز وضعف كما هو عليه الكثير من البشر، فمع عظمته الظاهرة، ونفوذ أمره إلا أنّه حليمٌ على عباده، أمّا البشر -وإن حلموا- فربما كان بسبب ضعفهم، وعدم قدرتهم على إنزال العقوبة بمن آذاهم .

ومع عظمة الله إلا أنّه يحلُم على الخلق فعظمته يزيّنها حلمه أمّا عظماء البشر فيغلب عليهم ضعف الحلم عندهم، فلذا يُنزلون غضبهم في الخلق بمجرد غضبهم، واستفزازهم لهم فيغترون بعظمتهم، ولا يحلمون على من آذاهم، ولذا إذا وُصف آحاد الناس بالحلم -خصوصاً العظماء منهم- عُدّ ذلك من مناقبه ومزاياه .

والله **(غنيٌ حليمٌ)** فحلْمه صادر عن غنى وسعة، وليس عن ضعف وقلة حيلة كما هو حال غيره ممّن يتحلى بالحلم من البشر.

وينبغي للمؤمن بالله حقاً الذي قد عرف كمال صفاته أن يستسلم لحلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصبره على الكافرين والظالمين، فكم من عظائم القول يتفوّه بها الجهلة، ويعترضون بها على أقدار الله وحِلْمه عندما يرون تسلّط الكافرين والظلمة المجرمين على المسلمين والمستضعفين، وكأنّهم -عياذاً بالله- شركاء لله في حُكْمه وربوبيته، وينازعونه في قضائه، وما علموا أنّ حِلْمه إنّما هو لحِكم لا يدركونها.

فمن الحِكم من حِلْمه وصبره: ليزداد الظَلَمةُ إثماً، فتزداد عليهم العقوبة، فتُشفى صدور المؤمنين شفاءً كاملاً.

وقد يكون تسلّط هؤلاء عليهم بسبب ذنوبهم، فيعودن لربهم ويتوبون.

ومن الحِكم: أن لا ييأس أحدٌ من رحمة الله، ولا من هداية أحد، فقد يتوب اللهُ على هؤلاء الظلمة، ويكونون قادة في الخير، وشواهد التاريخ لهذا كثيرة، فكان حلمه رحمة لهم، وقد يقولُ قائل فما بال حقوق المظلومين؟

فالجواب: أنّ حقوقهم محفوظة، وسيُعوّضهم الله ثواباً على مظلمتهم وصبرهم.

ومن حِكم حلْمه: ظهور مؤيدين للحق من أهل الباطل، فيكون فيه نُصْرة ظاهرة للحق، وانتشار له.

ومن الحِكم: ابتلاء العباد بالصبر والرضا، والاستسلام لأمر الله وقضائه، فهو الربُّ الملِك الذي له مطلق التصرف في كونه، والعبد عبده، والخلق خلقه، فينبغي للعبد تحقيق هذه العبودية وهذا الاستسلام الذي فيه رفعته.

والحِكم في حِلْم الله على الكفرة والعصاة كثيرة جداً لا يمكن لأحدٍ إدراكها.

ومن تأمّل حال أغلب الخلق وجد الظلم فيهم ظاهر، والتقصير منهم هو الغالب، فلذا كان حلْمُه واسعاً وعفوه عظيماً، فلو عاجلهم العقوبة ما أبقى منهم أحداً، ولقد أبان اللهُ عن هذه الحكمة بقوله: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل: ٦١].

فرحمتُه سبقت غضبه، وعفوه أوسع من عقوبته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف: ٥٨]

والحلمُ صفةٌ يريدها الله من عباده أن يتخلقوا بها، وهي خصلة يحبها اللهُ ورسولُه، قَالَ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَمِنَ الوَاجِب عَلَى مَنْ عَرَفَ أَنْ رَبَّهُ حَلِيمٌ عَلَى مَنْ عَصَاهُ، أَنْ يَحْلُمَ هُوَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، فَذَاكَ بِهِ أَوْلَى حَتَّى يَكُونَ حَلِيمًا؛ فَيَنَالُ مِنْ هَذَا الوَصْفِ بِمِقْدَارِ مَا يَكْسِرُ سَوْرَةَ غَضَبِهِ، وَيَرْفَعُ الانْتِقَامَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ، بَلْ يَتَعَوَّدُ الصَّفْحَ حَتَّى يَعُودَ الحِلْمُ لَهُ سَجِيَّةً)(١).

ولجلالة اسم (الحليم) وعظمة أثره في إزالة الكُربات كان رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو به، فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ عند الكربِ: «لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله ربُّ العرشِ العظيمُ، لا إله إلا اللهُ ربُّ السماواتِ وربُّ الأرضِ وربُّ العرشِ الكريمُ»(٢).

وعلى العبد ألا يغترّ بحلم الله عليه، فاللهُ الحليم قويٌّ عزيز، وهو حسيب وشهيد لا يخفى عليه شيء ولا يفوته عبد، فهو مع حلمه منتقم جبّار، عزيزٌ ذو انتقام، شديد العذاب، يُملي للظالم حتى إذا حقّ عليه العذاب أخذه ولم يفلته.

حَلَم على قوم نوح ألف سنة ثمّ أخذهم أخذت رابية، فأغرقهم وذهبت أرواحهم إلى أمّهم الهاوية.

---

(١) [مختصر النهج الأسمى: ١٦٢]

(٢) رواه مسلم.

وحَلَم على قوم عاد وثمود مع تجبّرهم وغطرستهم وعتوهم على رسلهم ثمّ أخذهم، فلم يفلتهم وأُدخلت أرواحهم وأبدانهم العذاب السرمدي الأليم.

وحَلَم على فرعون وقد طغى وبغى وآذى العذاب ثمّ أغرقه ومن معه، فنالهم من العذاب ما لا يُطاق فـ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر:٤٦]

فلا يغترّ مُمْهَلٌ بالعذاب، فيتمادى بذنبه، فالله يُمهل ويُعطي الفرصة ليتوب العبد ويُنيب حتى إذا ما تجاوز المذنبُ الحدّ، واستحق العذاب أخذه الله، وساعتها يندم في ساعة لا ينفع فيها الندم، فليحذر المقيم على المعصية من سخط الحليم وغضبه.

والله يُسمّى الحليم، ويجوز إطلاق اسم الحليم على آحاد الناس، ولكن بينهما فرق ظاهر، فالله حليم كامل الحلم، أمّا الآدمي -وإن وُصِف بالحليم- فإنّه يحلم تارة، ويعاقِب تارات، بل ربما منع حلمه عن بعض الخلق ممّن زاد أذاه له، أمّا حلم الله فلا يصفه واصف ولا يدرك حقيقته أحد لكماله وسعته.

فاللهم رحمةً من عندك تأتي على جميع أمورنا، ومغفرة تأتي على جميع ذنوبنا.

❊❊❊

(١٠٧) السيد

ومن أسماء الله: (السيّد) وجاء ذكره في السُّنّة، فعن مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير قال: قال أبي: «انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلم فقلنا: أنت سيِّدنا، فقال: «السَّيِّدُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[1].

فالله هو السيد الذي له السيادة المطلقة، والخلقُ كلُهم عبيدُه.

وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال في معنى قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، (أي: إلهًا سيدًا) وقال في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: آية ٢] أنّه: (السيدُ الذي قد كمل في سؤدده، والشريفُ الذي قد كمل في شرفه، والعظيمُ الذي قد كمل في عظمته، والحليمُ الذي قد كمل في حلمه، والعليمُ الذي قد كمل في علمه، والحكيمُ الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار)

واللهُ هو (السيّدُ المالك لكونه) وملْكه للكون ملْكًا مطلقًا، فالكونُ كله تحت سلطانه وإرادته، فهو ثابت بأمره، وحياة الخلق بيده، وإفناؤهم بيده، ومعيشتهم وسائر شؤونهم بيده، ومن مقتضيات ملكه: أنّه الآمرُ الناهي لهم، فله الأمر المطلق لا مُعقّب لأمره، والناهي حقيقةً لا اعتراض لنهيه، فسبحان من ملك الكون ومن فيه، وسبحان من ساد الخلق بملكه.

---

(١) رواه أبو داود

واللهُ هو (السـّيدُ الذي حقت له السـيادة على الخلق) فالسـيادةُ على حقيقتها لله وحده دون سـواه، فهو: الذي له السؤدد المطلق الذي تفرّد به عن سائر الخلق، ومن عرف ربه بالسيادة على الحقيقة آمن بقدرته، وأذعن لعظمته، وتذلل لجبروته، وصـار عبداً ذليلاً له، إن أمره سـيدُه ائتمر، وإن نهاه انتهـى، وإن وقف بين يديه في مقامات العبوديات وقف مقام الذل والاستكانة والافتقار وإظهار الحاجة.

وهـو (السـيدُ المُحتاج إليه بالإطـلاق) فالخلائق كلهم بحاجـة إليه، فلو لم يُوجدهـم لم يُوجَدوا، ولو لم يُبقهم لم يكن لهـم بقاء، ولو لم يُعنهم فيما يَعرض لهـم لم يكـن لهم معين غيرُه، فحقٌ على العباد أن يعترفـوا بفضله وحاجتهم إليه، فمَنْ خلقهم ورزقهم وتولى جميع أمرهم اسـتحق السيادة المطلقة، فلا سيّد حقًا إلا الله، وعليهم أن يُفردوه بالعبادة والمسألة والدعاء.

وهو (السيّدُ المتولي أمر العباد) الذي يملِكُ نواصِيهم، ويَسُوسُهم إلى ما فيه صلاحُهـم، فبأمره يعملـون، وعن قوله يصدرون، وهو الـذي إليه يُرجعون، ومن اعترف لربه بالسـيادة المطلقة سـلِم من تعلّـق القلب بالمخلوقيـن، وصار تعلّقه بسيده المطلق سيادة كاملة، وهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

فاللهم ارزقنا تعليق القلب بك كما تُحب، ووفقنا لِما فيه رضاك عنّا يا منّان.

❋❋❋

(١٠٨) المبين

ومن أسماء الله: (المبين) وورد هذا الاسم في كتاب الله مرة واحدة، قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ [النور:٢٥]

وقال الحليميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المبين وهو الذي لا يَخْفَى ... ؛ لأَنَّهُ له من الأفعالِ الدَّالَّةِ عليه ما يستحيلُ معها أن يخفَى)(١).

فهو البيّن أمره في الوحدانية، والظاهر أمره بالتفرّد والكمال، المستحق للتعظيم المطلق وافراده بالعبادة، قال الإمام الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهو: البَيِّنُ أمرُهُ في الوحدانية، وأنه لا شريك له)(٢).

وأعظم القضايا في الوجود: قضية التوحيد، وبيان المصير والمآل في الآخرة، فبيّن سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ دلائل توحيده بما لا شك فيه، فكل من تجرّد في طلب الحق أيقن بوحدانية الله تعالى، فلا يكون الإله إلا واحداً، ولا يكون الإله إلا مباينًا لخلقه في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

وطرق بيانه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ للتوحيد متعددة، فمنها: تعريف العباد به، فجاءت بهذا الآيات البيّنات، ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر:٢٢-٢٤] فمن

(١) المنهاج (١٨٩/١)

(٢) [شأن الدعاء:١٢٠]

تأمل في أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى وعرف معانيها على ما يليق بها، وآمن بما دلّت عليه، ودرسها دراسة المتأمّل عرف ربّاً كريماً مستحقاً للعبادة، وإفراده بالتوحيد، والتوجّه له دون سواه.

ومن ذلك ما فطر عليه قلوب العباد من معرفته والاضطرار إليه، فالعبد مهما كابَر في ظاهره، فلابد وأن يضطر لربه وخالقه مهما علت منزلته، ولقد أبان الله حال الكافرين عند النوازل، وكيف يكون سؤالهم له إذا أحدق بهم الخطر، وأشرفوا على الهلاك.

وشهد العقل السليم المنصف بوحدانيته، فما خلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذا الكون من آيات دليل ساطع ناصع يدلّ على عظمته وعظمة خلقه، لا يُنكر هذا إلا جاحد قد استقر في نفسه الحق ولكنّه تكبّر، وعرف الحق فأعمى بصره بإرادته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤﴾ [النمل: ١٤] ومن خلق لابد أن يأمر وينهى، ويُرّتب على هذا الجزاء.

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: الذي بيّن الحق لعباده بطرقٍ لا لبْس فيه ولا خفاء، فبيّن لعباده سبيل الرشاد، ووضحّ لهم الأعمال الموجبة لثوابه، والأعمال المُوجبة لعقابه، وبيّن لهم ما يأتونه ويذرونه.

فأبان الحقَ لعباده بآياته المشَاهدة في كونيه، فهذا الكون الفسيح بآياته، وانتظامه دليل على وجود خالقٍ قادرٍ حكيمٍ عالمٍ، كامل التدبير والرعاية لخلقه، ومن كان هذا وصْفه صار مستحقاً للعبادة وحده دون سواه، فمن صرف شيئاً من العبادة لغيره فقد أتى ذنباً عظيماً استحق عليه العذاب الأبدي، فالتوحيدُ حقٌ خالص لله لا يكون له فيه مشَارِك، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف:٥٤]

ومن طرق إثبات الحق: ما جعله في آياته الأفقية والنفسية من دلائل بيّنة واضحة على وحدانيته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [فصلت:٥٣]

ومن طرق إبانته للحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم:٤] فأرسل رسلاً هم صفوة الخلق في زمانهم، وأصدقهم مقالاً، وأنصحهم للخلق، وكانت أخلاقهم وسيرهم من أبين دلائل نبوتهم، وكذلك ما جاؤوا به من أوامر وحجّج دالة على صدقهم، وما كانوا عليه من الشفقة على أممهم، وكمال نصحهم.

وبيّن مهمتهم، ومكانتهم، ومنزلتهم، وبيّن صدقهم بما أقام من الدلائل على ذلك، وبيان حقيقة دعوتهم، وتأييدهم بنصره، وبيّن عاقبة من اتّبعهم، وعاقبة من خالف أمرهم، في بيان شاف كاف لا يستنكف عنه إلا ضال مضل، وإلا فإنّ من عرفهم على الحقيقة آمن بهم وصدقهم وأحبهم وأطاعهم.

وختمهم بنبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعثه في قوم يعرفونه، ودعاهم للتفكّر في شأنه الذي لا يخفى عليهم فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٨٤﴾ [الأعراف: ١٨٤] فلا يلتبس شأنه على من تفكّر في أمره أدنى تفكير، فحياته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيّنة واضحة لا غموض فيها البتة، ولذا لم يستطع

الكفّار القدح فيها، وكل اعتراضاتهم عليه كانت باطلة لا دليل عليها، ولذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام:٣٣]

فدعا رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى التوحيد، وأيّده ربُه بالحق والظهور، وطمأنه وطمأن أتباعه بأنّهم على الحق الواضح البيّن الذي سيسوقهم لكل خير في الدنيا والآخرة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩]

ومن الطرق التي بيّن فيها الحق: إنزال الكتب الواضحة البيّنة التي لا خلل فيها ولا غموض، ومن أعظمها: القرآن العظيم؛ الذي أبان اللهُ فيه كل شيء، ووضّح فيه كل ما يحتاجه البشر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران:١٣٨] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ [الحجر: ١] فالقرآن بيّن اللهُ فيه كل ما يحتاجه النّاس من الغاية من الخلق، وبيّن فيه الشرائع والعبادات والأحكام والأخلاق والآداب، وبيّن فيه أحوال الآخرة، ومآل أهل الكفر وأهل الإيمان، وبيّن فيه أسباب السخط والنعيم، وبيّن فيه حقيقة الدنيا والآخرة، وبيّن فيه مكانة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وبيّن فيه ضلال المشركين، وسفاهة عقولهم، وضعف آلهتهم التي يدعونها من دون الله، وأنّها لا تملك لنفسها -فضلاً عن غيرها- ضراً ولا نفعًا، فصار الحق واضحًا بيّنًا لا يزيغ عنه إلا هالك ظالم لنفسه.

وبيّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى طرق الهداية، ويسّر سبلها، وأوضح طرق الغواية وحذّر منها، فلا حجة للعباد بعد ذلك، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة:١١٥]

وبيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأعمال الصالحة الموجبة لرِضوانه ليأتيها العباد، وينالون من ورائها سعادة الدارين، وبيّن الأعمال التي بها سخطه ليبتعد عنها من طلب النجاة.

كل ذلك في بيان شامل واف واضح لكل من أراد معرفة الحق فيأتيه، ويعرف الشر فيجتنبه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء:٢٦] فمن نصح نفسه وقام بما أمره الله به فاز فوزاً عظيماً، ومن تعدى حدوده فلا يلومنّ إلا نفسه.

فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلاً ويسرّ لنا اجتنابه.

***

(١٠٩) المقيت

ومن أسماء الله: (المُقيت) وقد ورد ذكره في القرآن الكريم مرة واحدة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء:٨٥]

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المقيتُ: هو القائم على كل شيء بالتدبير، وقال آخرون: هو القدير، وقال آخرون: وكان الله على كل شيء حفيظًا وشهيدًا)[(١)].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (-بعد أن ذكر المعنى اللغوي-: فالمعنى: أنّ الله تعالى يُعطي كل إنسان وحيوان قوته على مر الأوقات، شيئًا بعد شيء، فهو يمدها في كل وقت بما جعله قوامًا لها إلى أن يريد إبطال شيء منها، فيحبس عنه ما جعله مادة لبقائه فيهلك)[(٢)].

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في معنى (المقيت): (وهو الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها، وصرّفها كيف شاء بحكمته وحمده)[(٣)].

والقوت يشمل: قوت الأبدان بالغذاء الذي به تقوم وتستمر به حياتها، فكفى اللهُ كل مخلوق قُوْتَه في قدرة عجيبة، ورحمة واسعة، ولطف يحار معه المرء، فانظر كيف أوصل قوت كل مخلوق وإن صغر ودقت خِلقته، وضعفت قوته، وقلة حيلته، فيوصل للنملة الصغيرة قوتها وهي تعيش في وسط هذا العالم الهائل

(١) [تفسير سورة النساء لابن جرير الطبري]
(٢) [مختصر النهج الأسمى:٢٠٨]
(٣) [تفسير ابن سعدي:٥/ ٣٠٢]

مـن المخلوقات ولكنّ الله ضمن لها رزقها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود:٦]

وهـو الذي يُقَـدِّرُ ما يُناسـب أقوات تلك الأجسـاد، وما يتـلاءم معها زمانـًا ومكانـًا وعدداً، وانظر إلى بعض البلاد التي سكانها يتجاوزون المليار، ويحتاجون إلـى مئات الملايين من الأطنان من كافّة أنـواع الأرزاق يوميـًا، ومع ذا فلا يُعجزه رزقهم، وتأمين قوتهم.

ولقـد طمأن الله عباده بضمان هـذه الأرزاق والأقوات فلا يمنعها عنهم أحد، وذكر هذا الضمان في صيغة الماضي لتحقق وقوعه فيزدادون طمأنينة لوعد ربهم، فقـال تعالـى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠﴾ [الروم: ٤٠]

فـالله إذا خلق ضمـن، وإذا رزق أكفى، فلماذا يحمل أحدُنـا همّ قوته وقوت ولده، ويعيش مضطربـًا مهمومـًا مغمومـًا والله هو (المُقيت)

وإذا تأملـتَ هـذه الأقوات وجدتهـا متنوّعة تنوّعـًا عجيبـًا، وتأتي في أوقات وفصول مختلفة تناسب المنتفعين بها، فسبحان الرحيم الخبير بحال عباده.

ومن أنواع القوت: قوت العقل وحسـن التدبير الذي يسـيّر بها المرء -بإذن الله- مصالحه في الدنيا، فحاجة العبد لمعونة الله في هذا الشأن عظيمة، واضطرارها لتدبيره كبير، فمن رحمة الله به هدايته ودلالته في شؤونه.

وأشرف أنواع القوت: قوت القلوب بالإيمان والهدى والعلم النافع، وهذا هو القوتُ الذي يحرص عليه المؤمن، ويبذل الجهد للتزوّد منه، فهو سـعادة النفس،

وزاد الـروح الحقيقـي، والذي يجد معه العبـد الطمأنينة، وذوْق حـلاوة الإيمان، وهـذا هـو القُوت الأنفع للمـرء، فمهما فات العبـد من أقوات البـدن أو تعكّرت أمـوره الدنيوية، فإنّ ما أدركه من قوت الإيمان يُعوّض كل ما فات، فما الدنيا وما حطامها الفاني عند قوت الإيمان؟! ولكن النفوس عجولة وتُؤْثر العاجلة.

وكل هـذه الأقوات مـن الله وحده، وتُطلب ببذل الأسـباب، وصدق اللجوء إلى الله.

فاللهم ارزقنا من واسـع فضلك ما نحيا بـه في الدنيا حياة طيبة، وما ننال به في الآخرة من الباقيات الصالحات.

❊❊❊

(١١٠) الوِتْر

وقد جاء ذكر هذا الاسم في السُّنّة، يقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وإنّ اللهَ وِتْرٌ..»(١).

فاللهُ واحدٌ أحدٌ صمدٌ لا شريك له ولا نظير، ولانِدّ له ولا مثيل، موصوفٌ بصفات الكمال، منعوتٌ بنعوت الجلال.

قد باين خلْقه بصفاته التي لا مثيل لها ولا شبيه، قال الخطابي: (فهو وِتْرٌ، وجميع خلقه شفع، خُلِقوا أزواجًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات:٤٩])(٢).

فلا يمكن للخليقة أن تعتدل وتستقرّ أمورها إلا بالزوجية، فهي لا تهنأ بالأحدية والفردية، أمّا ربنا عَزَّوَجَلَّ فذاته فردية صمدية لا يحتاج لأحد.

وصفاته فردية قد استغنى عن كل أحد، قال الله -عن نفسه الشريفة-: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:١-٤]

و(الوِتْر) هو: (الذي لا ينبغي لشيء من الموجودات أن يُضم إليه فيُعدّ معه) قاله الحليمي(٣).

فمن عرف ربه بهذه الصفة نزّهه عن الشبيه والنظير والنِّد والمثيل، فسبحانه

(١) متفق عليه.

(٢) [شان الدعاء:٢٩]

(٣) [مختصر النهج الأسمى:٥٢٣]

وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]

وهو جَلَّجَلَالُهُ لا يشبهه شيءٌ من المخلوقات، ولا يصحّ للعباد أن يجعلوا له شبيهًا لا في أسمائه ولا في صفاته ولا أفعاله.

- وله المثل الأعلى، أي: الوصف الكامل، فكل وصف كمال، فالله متصّف به، وله من ذلك الكمال أكمله، فلا يُوصف ربنا بصفات المخلوقين، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] فذاته لا تشبه الذوات، وصفاته لا تشبه الصفات، وأفعاله وأقداره لا تّشابه أفعال المخلوقين، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥] وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠] أي: تنزيهًا وتقديسًا له عن كل وصفٍ يخطر ببال بشرٍ.

ولو كان له مثيل لأحاطت به علوم البشر؛ ولكنه سبحانه تنزّه وتقدَّس عن كل وصف يجول في رأس إنسان، قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠]

وكما أنّه وتر في ذاته، فهو الوتر في صفاته، واسوأ الناس عقلاً، وأبْلَدُهم ذهنًا -المشرك بالله تعالى- فإنّ مَنْ عرف كمال الله، وعظمة ذاته، وجلالة صفاته، وجميل إحسانه على عبده أيقن أنّ المشرك أعظم الخلق ظلمًا، وأشدهم تعدّيًا وجرمًا، فقد صرف عبادة الإله الكامل من كلّ وجه إلى الآلهة الناقصة من كلِّ وجه.

أكثر طوائف أهل الأرض اليوم -هم النصارى- وانظر في عقيدتهم الفاسدة، فطائفةٌ منهم يعتقدون بأنّ عيسى ابن الله، فهل يُعقل لإله عظيم أن يكون له ولد وهو الغني الحميد؟!

وكيف يكون إله من احتاج إلى الزوجة والولد؟!

فمن احتاجهما لا ينفع أن يكون إلاهًا لو عقِلوا!

فصفة الإله الحق أنّه: إله غني حميد لا يحتاج إلى أحد لكمال صفاته، وغناه المطلق عن العالَمين.

وبعض النصارى يعتقد بألوهية عيسى ومريم وروح القدس، وهو -كما ترى- تخبط عجيب في أعظم قضية للمرء في حياته (وهي: قضية التوحيد)

هذا حال الأمة الكتابية والذين هم أهل كتاب، وأمّا الطوائف الأخرى فعقيدتهم يترفّع عنها الصغار كحال من يعبد حجراً أو صنمًا يصنعه بيده أو يعبد حيوانًا ويتخذه إلهًا، فيا لله العجب!

والتوحيد حق الله الخالص، فمن تعدّى عليه، أو خدشه بأدنى أنواع الشرك فقد عرّض نفسه لأشدّ العقوبات، قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨]

وهو (الوِتْر) في أسمائه، فأسماؤها لا مثيل لها ولا عديل، ولئن تشابهت مع غيرها من الأسماء في اللفظ فإنّ لها دلالات ومعاني لا تُماثله أسماء المخلوقين.

والله (وِتْر) في أفعاله، فأفعاله ليست كأفعال البشر بل هي كاملة في كل وجه من الإتقان، والعدل، والرحمة، والإحاطة، وحسن التدبير، فسبحان من له الكمال، وتنزّه عن الشرّ والنقص، وهو العلي الكبير، وقد تقدّم ذكر تفاصيل هذا فيما سبق.

فاللهم ارزقنا تعظيمك حق التعظيم، وإجلالك حق الإجلال، وعبادتك حق العبادة.

(١١١ ، ١١٢ ، ١١٣) ذو المعارج وذو الطّوْل وذو الفضل

ومن أسماء الله (ذي المعارج وذي الطول وذي الفضل) ذكره غير واحد من أهل العلم، ويرى بعضهم أنّه مضاف إلى الله وليس من الأسماء.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾ [المعارج:٣] قال ابنُ جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يعني: ذا العُلوِّ والفواضل والنعم)[١].

فالله له الدرجات العلى، وله الفضل الأتمّ، والمنّة الكبرى على العباد، وهو الذي يُصعَدُ إليه بأعمال العباد وأرواح المؤمنين.

وصعود الأعمال والأرواح إليه فيه من دلائل العظمة والعلم والإحاطة لله ما يُذعن لها كل مؤمن بعظمة ربه، فكم يصعد في اللحظة الواحدة من عمل صالح وسيئ، وكم يصعد في اللحظة الواحدة من أرواح، وكم ينزل في اللحظة الواحدة من أوامر وأقدار في عظمة لا يملك أمامها المؤمن الحق إلا التسبيح لله الملك العظيم.

فسبحان من هو كل يوم في شأن، وسبحان من قدّر وخلق وعلِم كلَّ شيءٍ في كمال لا نظير له ولا مثيل.

وينبغي للعبد المؤمن أن يستحضر عروج عمله في السماء، فيسعى لأن يكون صالحًا يُشرّفه في (الملأ الأعلى) ويعلو به ذِكْره وقدْره ومنزلته، فالعمل الصالح له مكانته، فهو يُذكّر بصاحبه في الملكوت الأعلى كأشرف ما يكون له، فهنيئًا لعبد لم يزل يُرفع له من العمل ما يُذكِّر به، وتأمّل في حال أشراف الأمّة من العلماء الذين لم تزل حسناتهم تتضاعف، وذكرهم باق لبقاء آثارهم، لتعرف فضل العلم

(١) [تفسير ابن جيرير:٢٩/ ٤٤].

والتعليم، فلتكن لك همّة عالية بأن يبقى لك أثرًا يُذكّر بك.

واستحضر عُلّو الله وعظمته على الدوام، واستحضر فضله عليك بالدلالة عليه.

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (ذو الطول): وورد هذا الاسم مرة واحدة وذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ [غافر:٣]

أي ذي الفضل، والنعم المبسوطة على من شاء من خلقه، فالطَّوْل هو: الفضل.

قال الحليمي: (ذو الخير الكثير الذي لا يعوزه من أصناف الخيرات شيء إن أراد أن يُكرم به عبدَه، وقد تفضّل على عباده بنعم لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، فضلاً عنها مجموعة)(١).

ونعم الله لا يمكن لمخلوق أن يُحصيها أو يُؤدي شكرها، ولكنّ الله يرضى باليسير من الشكر، ويعفو عن كثير من التقصير، وأوجب الواجبات في شكر نعم الله استخدامها في طاعته، وعدم كفرانها، فالنعم تقرّ عند العبد ما دام لها شاكرًا، أمّا إذا كفرها ترحّلت عنه، فكن من الشاكرين، وأسندها كلها لربِّ العالمين.

وهو (ذو الفضل): (أي: أنّه صاحب الفضل على العباد في أمور دينهم ودنياهم، فكل نعمة وصلتهم فهي من عنده ابتداءً وتفضّلاً من غير استحقاق منهم عليه) قاله القرطبي.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالله سُبحانه ذو الفضل العظيم، والإحسان العميم، أعطى خَلقه مالا يلزمه، وتفضَّل عليهم بما لا يجب عليه، فسبحانه مِنْ كريم رؤوفٍ

(١) [مختصر النهج الأسمى:٤٨٥]

رحيم، تفضَّل على جميع خَلْقه بنعمته، وعلى المؤمنين بدار كرامته)[1].

وفضل الله لا يردّه حسد حاسد، ولا سعي ماكر، ولا تدبير مجرم، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا أراد إكرام عبد أعطاه ما شاء، وإن اجتهد المبغضون بمنعها، وكم في دنيا النّاس ما يدل على هذا، فعلّق قلبك بالله، وأمّل بربك كل خير، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧] وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢]

ومن فضله على عبده المؤمن حمايته من عدوّه، وحفظه من الماكرين، ولئن كان يجري عليه بعض المصاعب والمحن فإنّما هي رفعة وابتلاء له، وفتنة للنّاس.

ومن فضله على عبده المؤمن تثبيته يوم تزلّ الأقدام، وتموج أمواج الفتن فيربط على قلبه ويثبته، ويُبعد عنه نزغات الشيطان، ويحميه من الزيغ والانحراف.

ومن فضله على عبده المؤمن التقي تنوير بصيرته، وتكفير سيئاته؛ ومغفرة ذنوبه؛ وتزكية نفسه، والواحدة من هذه الفضائل خيرٌ من الدنيا وما عليها.

وأعظم النعم، وأسبغ أنواع الفضل: ما منّ به على خاصّة عباده من نعمة الدينية، فهي ممتدة لا انقطاع لها ولا انتهاء، فمآل المُنعَم عليهم جنّةً لا نهاية لها، ولا انقطاع لنعيمها المقيم، وسينالون من فضل الله ما لا يخطر على بال، فلذا ينبغي لأهل الإسلام أن يلحظوا فضل الله عليهم بهذه النعمة، ولو استحضرناها على الدوام لأمضينا بقية عمرنا شاكرين حامدين ربنا، ولكنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علِم بضعفنا فتجاوز عنّا وغفر لنا وقبِل اليسير من العمل.

---

(١) [تفسير القرطبي]

ومـن عرف ربه بهـذه الصفات تعلّق قلبُه به وحده، وأسـند كل نعمة هو فيها إليه، فاللهم ارزقنا شكر نعمتك وحسن عبادتك وجميل الثناء عليك.

اللهـم ابتـدأتُ هـذا الكتـاب باسـم (الله) لأنّه أعظم الأسـماء وإليـه تعود، وتبركًا بهذا الاسـم العظيم، واختتمتُه باسـم (ذي الفضـل) تيمنًا وطمعًا بفضلك وإحسـانك، فاللهم أعطنا من الخير فوق ما نُؤمل، وعاملنا بفضل وإحسانك يا ذا الفضل والإحسان.

اللهم اجعلنـا لك ذاكرين منيبيـن مخبتين خاضعين، وأكرمنـا بقبول العمل الصالح الذي يشوبه ما يشوبه من الخلل ولكنّك أنت أهل الفضل والإحسان.

اللهـم اجعلنا -يا أرحم الراحمين- دليلين عليك، واغفر لنا ذنوبنا كلها دقها وجلّها، ظاهرها وباطننا.

عاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله، فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة.

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين.

كتبه

العبد الفقير لفضل ربه

عادل بن عبدالعزيز بن أحمد الجهني

❋❋❋

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أحكام القرآن للقرطبي
- أحكام أهل الذمة لابن القيّم.
- الأدب المفرد للإمام البخاري.
- الأسماء والصفات للبيهقي.
- الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي
- اشتقاق الأسماء للزجاجي
- أضواء البيان للشيخ الأمين الشنقيطي
- الاعتقاد للبيهقي.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم.
- بدائع الفوائد لابن القيم.
- التبيان في أقسام القرآن لابن القيم.
- التحرير والتنوير للامام ابن عاشور.
- التعليق على القواعد المثلي للشيخ عبدالرحمن البراك.
- تفسير ابن كثير.

- تفسير أسماء الله الحسنى لابن سعدي.
- تفسير البغوي.
- تفسير الشيخ ابن عثيمين.
- تفسير الطبري
- تفسير القرطبي
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي.
- الثمر المجتبى مختصر شرح أسماء الله الحسنى للشيخ سعيد بن وهف القحطاني.
- جلاء الافهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام لابن القيم.
- الجواب الكافي لابن القيم
- الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم الأصبهاني.
- الحق الواضح المبين لابن سعدي.
- درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية.
- الرسالة التبوكية لابن القيم.
- الروح لابن القيّم.
- زاد المسير لابن الجوزي.
- زاد المعاد لابن القيم.

- سنن ابن ماجه.
- سنن أبي داود
- سنن الترمذي.
- سنن النسائي
- شأن الدعاء للخطابي.
- شرح الطحاوية للشيخ عبدالعزيز الراجحي
- شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية
- شرح العقيدة الطحاوية للشيخ عبدالرحمن البراك
- شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للشيخ عبدالله الغنيمان
- شرح مسلم للنووي.
- شفاء العليل لابن القيم
- صحيح ابن حبان.
- صحيح البخاري
- صحيح الترغيب والترهيب للإمام الألباني.
- صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.
- صحيح مسلم
- صفات الله للسقاف

- الصواعق المرسلة لابن القيم.
- طريق الهجرتين لابن القيم.
- العقيدة الطحاوية للإمام الطحاوي
- العلو للذهبي.
- فتح الباري لابن حجر .
- فتح الملك الرحيم العلّام لابن سعدي.
- الفروق اللغوية للعسكري
- فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب
- الفوائد لابن القيم.
- فيض القدير للمناوي
- الكافية الشافية لابن القيم
- كتاب الصلاة لابن القيّم.
- لسان العرب لابن منظور.
- مجموع الفتاوى لابن تيمية.
- مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين
- مختصر الصواعق المرسلة.
- مختصر النهج الأسنى لمحمد حمود النجدي

- مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة.
- مدارج السالكين لابن القيم.
- مسند الإمام أحمد.
- مفتاح دار السعادة لابن القيم.
- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني.
- المقصد الأسنى للغزالي.
- المنهاج في شعب الإيمان للحليمي.
- موسوعة الأسماء الحسنى نوال العيد.
- موسوعة فقه القلوب للتويجري
- النبوات لابن تيمية.
- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير
- النهاية لابن الأثير.
- النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى لمحمد حمود النجدي
- الوابل الصيّب لابن القيّم.

***

الفهرس

- مقدمة ٥
- ثمرات العلم بالله بأسماء الله الحسنى ٧
- (١) الله ١٣
- (٢) الربُّ ٢٠
- (٣) الرحمن ٢٧
- (٤) الرحيم ٣٣
- (٥) الغنيُ ٣٩
- (٦) الحميد ٤٥
- (٧، ٨، ٩) العالمُ، العليمُ، علَّامُ الغيوب ٥٢
- (١٠ ، ١١) الرازق، الرزّاق ٥٩
- (١٢) الخبير ٦٧
- (١٣) العظيم ٧٢
- (١٤) اللطيف ٧٨
- (١٥) التوّاب ٨٤
- (١٦) الودود ٩٠
- (١٧ ، ١٨) القوي، المتين ٩٨
- (١٩) العَفوٌ ١٠٥
- (٢٠) العزيز ١٠٩

(٢١ ، ٢٢) الحكَم، الحَكِيم ١١٦

(٢٣) الصمد ١٢٣

(٢٤ ، ٢٥) الكريم، الأكرم ١٢٩

(٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨) الغفور، الغفّار، الغافر ١٣٦

(٢٩ ، ٣٠) الواحد، الأحد ١٤٢

(٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) الملِك، والمالك، والمليك ١٤٧

(٣٤) السميع ١٥٣

(٣٥) البصير ١٦٠

(٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨) الأعَلى، العليّ، المُتعَالي ١٦٧

(٣٩) الحيّ ١٧٤

(٤٠) القيّوم ١٨٠

(٤١) الأوّلُ ١٨٥

(٤٢) الآخر ١٩٠

(٤٣) الظاهر ١٩٤

(٤٤) الباطنُ ١٩٧

(٤٥ ، ٤٦) الْقُدُّوسُ، السُبُّوحُ ٢٠١

(٤٧) السلام ٢٠٩

(٤٨) المؤمنُ ٢١٤

(٤٩) المهيمن ٢٢٠

۞ (٥٠ ، ٥١) الخالق، الخلّاق ٢٢٥

۞ (٥٢ ، ٥٣) البارئُ، المصوّرُ ٢٣٢

۞ (٥٤) الوارث ٢٣٧

۞ (٥٥) المجيد ٢٤٣

۞ (٥٦) النُّور ٢٤٨

۞ (٥٧ ، ٥٨) الشاكر، الشكور ٢٥٥

۞ (٥٩) الحق ٢٦١

۞ (٦٠) الوّهاب ٢٦٧

۞ (٦١) الشهيد ٢٧٢

۞ (٦٢ ، ٦٣) القاهر، القهّار ٢٧٩

۞ (٦٤) الرؤوف ٢٨٥

۞ (٦٥) البَرُّ ٢٨٩

۞ (٦٦) الواسع ٢٩٥

۞ (٦٧ ، ٦٨) القريب - المجيب ٣٠١

۞ (٦٩ ، ٧٠) المُقدّم - المؤخّر ٣٠٨

۞ (٧١ ، ٧٢ ، ٧٣) الوكيل - الكفيل - الكافي ٣١٥

۞ (٧٤) الجبّار ٣٢٠

۞ (٧٥ ، ٧٦) المُعطي - الجواد ٣٢٥

۞ (٧٧ ، ٧٨) القابض، الباسط ٣٣٢

۞ (٧٩ ، ٨٠) الولي – المولى ٣٤٠
۞ (٨١) الرفيق ٣٤٦
۞ (٨٢ ، ٨٣) الحَيِيّ – السِّتِّير ٣٥١
۞ (٨٤ ، ٨٥) الكبير – المُتكبر ٣٥٧
۞ (٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨) الغالِبُ، الناصِرُ، والنَصِيرُ ٣٦٣
۞ (٨٩) المُحسن ٣٧٠
۞ (٩٠) الطيِّب ٣٧٧
۞ (٩١) الشافي ٣٨٢
۞ (٩٢) الجميل ٣٨٨
۞ (٩٣) الرقيب ٣٩٣
۞ (٩٤) الفتّاح ٣٩٧
۞ (٩٥) الهادي ٤٠٥
۞ (٩٦ ، ٩٧) الحسيب، الديّان ٤١١
۞ (٩٨) الحفي ٤٢٠
۞ (٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١) القادر – القدير – المقتدر ٤٢٣
۞ (١٠٢ ، ١٠٣) الحافظ، الحفيظ ٤٢٩
۞ (١٠٤) المنّان ٤٣٤
۞ (١٠٥) المحيط ٤٣٩
۞ (١٠٦) الحليم ٤٤٤

(١٠٧) السيد ٤٤٩

(١٠٨) المبين ٤٥١

(١٠٩) المقيت ٤٥٦

(١١٠) الوِتْر ٤٥٩

(١١١ ، ١١٢ ، ١١٣) ذو المعارج وذو الطّوْل وذو الفضل ٤٦٢

المصادر والمراجع ٤٦٦

الفهرس ٤٧١

***

التصميم الداخلي للكتاب

ثروت سلطان

Tharwat Sultan

للتواصل:

00201019530152

TharwatSultan@yahoo.com

الله أعظمُ الأسـماء وأجملها، وأعلاها قدراً، وأشرفها مكانة، وأكثرها معنى، وأوسعها دلالة، وأجلّها صفة.

أحاط بخلقه عِلمًا وقدرة ورحمة ورزقًا وسمعًا وبصراً، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.

عظيمٌ في ذاته، جليلٌ في صفاته، فكيف تتعلق القلوبُ بسواه؟!

له الكمال المطلق فلقد عجز البشر أن يُحيطوا بعشر معشار صفة من صفاته، فكيف يحيطون بها مجتمعة؟! هذا ممتنع عقلاً وشرعًا.

ولـو اجتمعت أقـلام البلغـاء، وفصاحـة الخطباء، وشـعر الشـعراء، وبيان الأدباء، وجُعلت لهم الأشـجار أقلامًـا، والبحر حِبرًا ومِدادًا، واسـتفرغ العلماء وسعهم في الحديث عنه منذ أن خُلقت الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها للثناء عليه، ومَدْحه بما هو أهله، لتكسـرت أقلامُهم، ونفذ حبرُهم، وفني بيانُهم، وانتهـت مفـردُات كلامهم، ولم يسـتطيعوا أن يوفّوا حق صفـة واحدة من صفاته جَلَّ وَعَلَا فكيف وأسـماؤه لا عدد لها، وصفاته لا منتهى لعظمتها، فسبحان ربنا الإله العظيم، ولا إله غيره وهو الربُّ الكريم.